مختصر "إغاثة اللهفان"

من مكايد الشيطان

اختصره

عالم نجد ومفتيها

الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين

١١٩٤ / ١٢٨٢ هـ

طبع على نفقة

عبد المحسن بن عثمان أبا بطين

بإشراف

دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر

حقوق الطبـــع محفوظة
للناشر

الطبعـــة الأولى
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.

مختصر إغاثة اللهفان

من مكائد الشيطان

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة الشيخ عبد الله أبا بطين

نسبه : هو عالم نجد الكبير ومفتيها الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن سلطان بن خميس الملقب بلقب أسرته بـ(أبي بطين) – بضم الباء الموحدة وفتح الطاء المهملة وسكون الياء وآخره نون – العائذي من آل الصقير من عَبِيدة قحطان الحنبلي مذهباً، النجدي موطناً .

مولده ونشأته : ولد في بلدة الروضة من بلدان سدير بتاريخ عشرين من شهر ذي القعدة سنة أربع وتسعين ومائة وألف من هجرة خاتم المرسلين ، ونشأ في بلدة الروضة نشأة حسنة فتعلم مبادىء القراءة والكتابة في الكتاب مع أبناء البلدة، وبعد أن حفظ القرآن وأتقنه قرأ على عالم البلدة الشيخ محمد بن الحاج عبد الله بن طراد الدوسري الحنبلي ، فمهر في الفقه وفاق أقرانه ، وكان مثالاً للعفة والديانة منذ ريعان شبابه ، بل منذ طفولته حسن الأخلاق والسلوك ، ثم ارتحل إلى بلدة شقراء كبرى بلدان الوشم واستوطنها وقرأ على عالمها وقاضيها الورع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحُصَيِّن (تصغير حصان) الناصري التميمي في التفسير والحديث والفقه وأصوله وأصول الدين حتى برع وتفوق في ذلك كله على أقرانه . وقرأ على العالم الفاضل الشيخ أحمد بن حسن

ابن رشيد العفالقي الاحسائي ثم المدني الحنبلي . وأخذ عن العالم المتقن حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر التميمي فجدّ واجتهد حتى اشتهر بين زملائه وغيرهم وتطلعت اليه الأنظار .

وظائفه : لما تولى زمام الحكم الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود عيّنه قاضياً على ناحية الحجاز في عام ألف ومائتين وما بعد العشرين ، فباشر عمل القضاء بعفة وتثبت وتأنٍّ في الأحكام، وجلس للتدريس في الطائف فقرأ عليه جماعة في الحديث والتفسير وعقائد السلف ، وانتفع به خلق كثير ،وقرأ هو على السيد حسين الجفري في النحو حتى مهر فيه، ثم رجع إلى بلدة شقراء وعين قاضياً في عمان في زمن الإمام عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وذلك في عام ألف ومائتين وثلاثة وثلاثين من هجرة سيد المرسلين .

وفي عام ألف ومائتين وأربعين عيّنه الإمام تركي ابن الإمام عبد الله آل سعود قاضياً على إقليم الوشم وضم اليه قضاء إقليم سدير، فقام بهذا العبء خير قيام ، وكان محبوباً في هذين الإقليمين محبة لا مثيل لها حيث ان هذه المحبة جاءت من العامة والخاصة .

ثم نقل إلى قضاء عنيزة وذلك في عام ألف ومائتين وثمان وأربعين من الهجرة . وأضيف اليه قضاء القصيم ، وبعد أن استمر مدة في منطقة القصيم وأحبه أهلها وكان من المخلصين في عمله والمتفانين في سبيل العدل في الحكم والأمانة والتضحية في سبيل التوعية الدينية ، عاد إلى الوشم واستقر في بلدة شقراء وذلك في عام ألف ومائتين وسبعين وبقي فيها حتى توفي ـرحمه اللهـ .

تلاميذه : قرأ عليه خلق كثير منهم الشيخ الفاضل محمد بن عبد الله بن سليم والشيخ محمد بن عمر بن سليم والشيخ علي بن محمد بن علي بن حمد الراشد والشيخ ابراهيم بن حمد بن عيسى وابنه أحمد والشيخ علي بن عبد الله بن عيسى والشيخ سليمان بن عبد الرحمن والشيخ عبدالله بن عبد الكريم بن معيقل والشيخ

محمد بن عبد الله بن مانع وابنه عبد الرحمن والشيخ صالح بن حمد بن نصر الله وغيرهم .

مؤلفاته : نقل بخطه الجيد كتباً كثيرة ، ومن مؤلفاته « مختصر بدائع الفوائد» و«مختصر إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان» لشمس الدين ابن القيم ، وعلق على «الروض المربع شرح زاد المستنقع» وله حاشية على شرح المنتهى جاءت في مجلد ضخم ، وألّف مؤلفات مفيدة منها رسالة في تجويد القرآن وكتاب في الرد على داود بن سليمان بن جرجيس العراقي سماه « تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس » أجاد فيه ، وله رد آخر على ابن جرجيس سماه « الانتصار » ، وله رسائل وفتاوى لو جمعت لجاءت في مجلد .

وفاته : في عام ألف ومائتين واثنتين وثمانين توفي ـ رحمه الله رحمة واسعة وجميع المقتفين لسنة رسول الله على هدى وبصيرة إلى يوم الدين ، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

عبد المحسن بن عثمان أبا بطين

الرياض : ١٣٨٨/١٢/١٢ هـ

أنموذج من كتابة المؤلف – رحمه الله –

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي ظهر لأوليائه بنعوت جلاله ، وأنار قلوبهم بمشاهدة صفات كماله ، وتعرّف اليهم بما أسداه اليهم من إنعامه وافضاله ، إلى أن قال :

أما بعد فإن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدى مهملا، بـــل جعلهم مورداً للتكليف ، ومحلاً للأمر والنهي ، وألزمهم فهم ما أرشدهم اليه مجملاً ومفصلاً ، وقسمهم إلى شقيّ وسعيد ، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلاً ، وأعطاهم مواد العلم والعمل من القلب والسمع والبصر والجوارح ، نعمة منه وتفضلاً ، فمن استعمل ذلك في طاعته وسلـك بـه طريق معرفته على ما أرشد اليه ولم يبغ عُدُولاً، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك وسلك به إلى مرضاة الله سبيلاً، ومن استعمله في إرادته وشهواته ولم يرع حق خالقه فيه خسر إذا سئل عن ذلك وحزن حزناً طويلاً، فإنه لا بد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله : (إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً) ، ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي كلها في أمره ويستعملهـــا فيما شاء ، وكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله ، قال النبي ﷺ : « الا وإن في الجسد مضغة إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » فهو يملكها وهي المنفذة لما يأمرها به القابلة لما يأتيها من هديته ، ولا يستقيم لها شيء من

أعمالها حتى يصدر عن قصده ونيتـــه ، وهو المسؤول عنها لأن كل راع مسؤول عن رعيته ، كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون ، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون ، ولما علم عدو الله إبليس ان المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس وأقبل بوجوه الشهوات اليه وزين له من الأحوال والأعمال ما يصد به عن الطريق ، وأمده من أسباب الغيّ ما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصائد والحبائل، فإن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق ، فلا نجاة من مصائده وموائده إلا بدوام الاستغاثة بالله، والتعرض لأسباب مرضاته ، والتجاء القلب اليه وإقباله عليه في حركاته وسكناتـه ، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، واشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين وشمله (إلا عبادك منهم المخلصين) ولمـــا من الله الكريم بلطفه بالإطلاع على ما اطلع عليه من أمراض القلوب وأدوائها وما يعرض لها من وساوس الشياطين أعدائها وما تثمر هاتيك الوساوس من الأعمال ، ومـــا يكتسب القلب بها من الأحوال ، فإن العمل السيء مصدره عن فساد قصد القلب ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة فـــيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت ويبقى لا حياة فيه ولا نور له وكل ذلك من انفعاله لوسوسة الشيطان ، وركونه إلى عبادة الذي لا يفلح إلا من جاهره بالعصيان، أردت أن أقيد ذلك في هذا الكتاب لأستذكره معترفاً فيه لله بالفضل والنعمة ، وينتفع به من نظر فيه داعياً لمؤلفه بالمغفرة والرحمة ، وسميته « إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان» ورتبته على ثلاثة عشر باباً :

الباب الأول : في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم .

الباب الثاني : في ذكر حقيقة مرض القلب .

الباب الثالث : في انقسام أدوية أمراض القلوب إلى طبيعية وشرعية.

الباب الرابع: في ان حياة القلب وإشراقه مـادة كل خير فيه وان موته وظلمته مادة كل شر فيه .

الباب الخامس : في ان حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركاً للحق ، مريداً له ، مؤثراً له على غيره .

الباب السادس : في انه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعـيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب اليه من كل ما سواه .

الباب السابع : في ان القرآن الكريم متضمن لأدوية القلب وعلاجـه من جميع أمراضه ، إلى أن قال : الباب الثالث عشر : في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم ، وهو الباب الذي لأجله وضع الكتاب ، وفيه فصول جمة الفوائد حسنة المقاصد ، والله تعالى يجعله خالصاً لوجهه ، مؤمنـاً من الكرة الخاسرة ، وينفع به مصنفه وكاتبه والناظر فيه في الدنيا والآخرة، انه سميع عليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الباب الأول

في انقسام القلوب الى صحيح وسقيم وميت

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها ، انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة ، فالقلب الصحيح هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به ، كما قال تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم) والسليم هو السالم . وجاء على هذا المثال لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف ، فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة فيه كالعليم والقدير وأيضاً فإنه ضد المريض والسقيم والعليل ، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم ، والأمر الجامع لذلك انه الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره فسلم من عبودية ما سواه وسلم من من تحكيم غير رسوله فسلم من محبة غير الله معه ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة اليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق ، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده ، فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما ، بل قد خلصت عبوديته لله إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتاً وخشية ورجاء وخلص عمله لله فإن أحب أحب لله ، وإن أبغض أبغض في الله ، وإن أعطى أعطى

لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله ﷺ فيعقده إليه معه عقداً محكماً على الإتمام والاقتداء به وحده في الأقوال والأعمال ، أقوال القلب وهي العقائد ، وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب ، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها ، وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله ، وهو ما جاء به الرسول - ﷺ - فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) أي لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم وكيف ، أي لم فعلت وكيف فعلت ؟. فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه ، هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا من محبة المدح من الناس أو خوف لهم ، أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل ، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وابتغاء الوسيلة اليه ، ومحل هذا السؤال انه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك أم فعلته لحظك وهواك؟، والثاني سؤال عن متابعة الرسول في ذلك التعبد ، أي هل كان ذلك العمل مما شرعت لك على لسان رسولي أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟ فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلا بهما ، فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الاخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة ، وهو سلامة القلب من إرادة تعارض الاخلاص وهوى يعارض الاتباع ، فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة .

﴿ فصل ﴾

والقلب الثاني ضد هذا وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ،

ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهواته وحظه رضي ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله حباً وخوفاً ورجـــاءً وسخطاً وتعظيماً وذلاً ، إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهو آثر عنده ، وأحب اليه من رضى مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائسه والغفلة مركبه ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية معمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجـلة مغمور ، ينادى إلى الله والدار الآخرة من مكان بعيد ، ولا يستجيب للناصح ويتبـع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه ، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه ، فهو في الدنيا كما قيل في ليلى :

عدوٌ لمن عادت وسلم لأهلها ومن قرّبت ليلى أحب وقرّبـــا

فمخاطبة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سم ، ومجالسته هلاك .

﴿ فصل ﴾

والقلب الثالث قلب له حياة وبه علة ، فله مادتان ، تمده هذه مرة وهذه مرة أخرى ،وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة الله والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ، ما هو مادة حياته ، وفيه من محبة الشهوات وإيثـــارها والحرص على تحصيلها ،والحسد والكبر والعجب وحب العلو في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه ، وهو ممتحن بين داعيين : داع يـــدعوه الى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنمـا يجيب أقربهما منه باباً وأدناهما اليه جواراً . فالقلب الأول حي نخبت لـين واع . والقلب الثاني يابس ميت . والثالث مريض . فإما إلى السلامة أدنى ،وإما الى العطب أدنى ، وقد جمع سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله تعالى : (ومـــا أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) .. إلى قوله : (فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)

فجعل سبحانه القلوب في هذه الآيات ثلاثة : قلبين مفتونين وقلباً ناجياً ، فالمفتونان القلب الذي فيه مرض ، والقلب القاسي . والناجي القلب المؤمن المخبت الى ربه وهو المطمئن اليه ، الخاضع له المستسلم المنقاد ، وذلك ان القلب وغيره من الأعضاء ، يراد منه أن يكون صحيحاً سليماً لا آفة به ، يتأتى منه ما هيء له وخلق لأجله ، وخروجه عن الاستقامة إما بيبسه وقساوته وعدم التأتي لما يراد منه ، كاليد الشلاء ، واللسان الأخرس ، والأنف الأخشم ، وذكر العينين ، والعين التي لا تبصر شيئاً ، إما بمرض أو آفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد ، فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة ، فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه ، فهو صحيح الإدراك للحق ، تام الانقياد والقبول له ، والقلب الميت القاسي لا يقبله ولا ينقاد له ، والقلب المريض إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي ، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم ، فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ ، وفي القلوب من الشبه والشكوك فتنة لهذين القلبين ، وقوة للقلب الحي السليم ، لأنه يردّ ذلك ويكرهه ويبغضه ، ويعلم ان الحق في خلافه فيخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد ، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان ، فيزداد إيماناً بالحق ومحبة له ، وكفراً بالباطل وكراهة له ، ولا يزال القلب المفتون في مرية من إلقاء الشيطان ، وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبداً . قال حذيفة بن اليمان — رضي الله عنه — قال رسول الله (ص) صلى الله عليه وسلم « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عودا [1]، فأيّ قلب أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين : قلب أسود مربادّ كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض » ، فشبّه عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض

---

(١) عوداً عودا أي مرة بعد مرة ، يقال عاد يعود عودة وعوداً .

عيدان الحصير وهي طاقاتها شيئاً فشيئاً ، وقسم القلوب عند الله عرضها عليها إلى قسمين: قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء فنكتت فيه نكتة سوداء،فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسوَدّ وينتكس وهو معنى قوله : كالكوز مجخياً ، أي مكبوباً منكوساً ، فـإذا اسودّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران مترامیان إلى الهلاك ، أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، وربما استحكم فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلاً والباطل حقاً . الثـاني : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول(ص) وانقياده للهوى واتباعه له. وقلب أبيض قد أشرقت فيه نور الأنوار وأزهر فيه مصباحه ، فـإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردّها ، فازداد نوره وإشراقه وقوته ، فالفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها ، وهي : فتن الشهوات ، وفـتن الشبهات ، وفتن الغي والضلال ، وفتن المعاصي والبدع وفتن الظلم والجهل ، فـالأولى توجب فساد القصد والإرادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد . وقـد قسم الصحابة — رضي الله عنهم — القلوب إلى أربعة ، كما صح عن حـذيفة بن اليمان — رضي الله عنه — أن القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلـك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس ، فـذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر وأبصر ثم عمي ، وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما ، فقـوله قلب أجرد ، أي متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق ، وفيه سراج يزهر فيه ، وهو مصباح الايمان فأشار بتجرده الى سلامته من شبهات الباطل ، وشهوات الغي ، وبحصول السراج فيه إلى اشراقه واستنارته بنور العلم والايمان ، كما قال تعالى حاكياً عن اليهود : (وقالوا قلوبنا غلف) ، وهو جمع أغلف ، وهو الداخل في غلاف، كقلف وأقلف . وهذه الغشاوة والأكنّة التي ضربها الله على قلوبهم عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله ، فهي أكنة على

القلب ووقر في الاسمـــاع ، وعمى في الأبصار ، وهي الحجاب المستور عن العيون ، في قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينـــك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ، وجعلنا على قـلوبهم اكنة أن يفقهـوه وفي آذانهم وقرا) . وإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد ، وتجريد المتابعة ، ولـى أصحابها على أدبارهم نفوراً . وأشار بالقلب المنكوس ، وهو المكبوب الى قلب المنافق ، كما قال تعالى : (فما لـكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا) ، أي نكسهم وردّهم في الباطل ، الذي كانوا فيه بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة ، وهذا أشر القلوب وأخبثها ، فإنه يعتقد الباطـل حقاً ، ويوالي أصحابه ، والحق باطلاً ، ويعادي أهله ، فـــالله المستعان . وأشار بالقلب الذي له مادتان ، إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ،ولم يزهر فيه سراجه ، حيث لم يتجرد للحق المحض ، الذي بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ، ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للايمان ،وتارة يكون للايمان أقرب منه للكفر ، والحـكم للغالب وإليه يرجع .

الباب الثاني

في ذكر حقيقة مرض القلب

قال الله تعالى عن المنافقـين : (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) . وقال تعالى : (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) .وقال تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم) . وقال : (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض) ، مرض الشهوة ، ومع ذلك فلا يخشنّ في القول بحيث يلحق بالفحش ، بل يقلن قولاً معروفـــاً . وقال تعالى : (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) ، إلى قـوله : (ماذا أراد

الله بهذا مثلاً) ، أخـــبر سبحانه عن الحكمة التي لأجلها جعل عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر ، فذكر سبحانه خمس حكم : فتنة للكافرين فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم ، وقوة يقين أهل الكتـــاب فيقـــوى يقينهم ، بموافقة الخبر بذلك لما عندهم من أنبيائهم من غير تلق من رسول الله – ﷺ – عنهم فتقوم الحجة على معاندهم ، وينقاد للايمان من يريد الله أن يهديه ،وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك ، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك عن المؤمنين لكمال تصديقهم به ، فهذه أربع حكم : فتنـــة للكافرين ، ويقين أهل الكتاب ، وزيادة إيمان المؤمنين ، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب . الخامسة : حيرة الكافر ومن في قلبه مرض ، وعمي قلبه عن المراد بذلك ، فيقول : (ماذا أراد الله بهذا مثلاً)؟وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها : قلب يفتتن بـــه كفراً وجحوداً ، وقلب يزداد به إيماناً وتصديقاً ، وقلب يتيقنه فتقوم عليـــه بـــه الحجة ، وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدري ما يراد به . واليقين وعدم الريب في هـــذا الموضع إن رجعا الى شيئين : بأن يكون اليقين راجعاً الى الخبر المذكـــور عن عدة الملائكة ،ويكون عدم الريب عائداً الى عموم ما أخبر الرسول به لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه ، فلا يرتاب من قـــد عرف صحة هذا الخبر بعد في صدق الرسول ، ظهرت فائدة ذكره ،والمقصود ذكر مرض القلب وحقيقته .

قال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لمـــا في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) ؛ فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى ، والغي مرض شفاؤه الرشد . وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الدائين فقال تعالى : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) . ووصف رسول الله – ﷺ – خلفاءه بضدهما فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعـــدي » فجعل سبحانه كلامه موعظة للناس عامة ، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة ،وشفاء

تاماً لما في الصدور فمن استشفى به ، صح وبرىء من مرضه ، ومن لم يستشف به ، فهو كما قيل :

إذا بلَّ من دائـه ظن انه نجا وبـــه الداء الذي هـو قاتله

وقال تعالى : (وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) .

الأظهر ان (من) هـــا هنا لبيان الجنس فالقرآن جميعه شفاء ورحمـــة للمؤمنين .

﴿ فصل ﴾

ولمـــا كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي لفساد يعرض له يفسد به ادراكه وحركته الطبيعية ، فاما أن يذهب ادراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل ، واما أن ينقص إدراكه لضعف في آلاته الادراكية مع استقامة ادراكه ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه ، كما يدرك الحلو مراً ، والخبيث طيباً ، والطيب خبيثاً ، واما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهـــاضمة أو الماسكة أو الدافعة والجاذبة ، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة الادراك والحركة : وسبب هذا الخروج عن الاعتدال اما فساد في الكمية او في الكيفية ، فالاول اما نقص في المادة ، فيحتاج إلى زيادتهـــا ، واما زيادة فيها فيحتاج الى نقص بها .

والثاني إما بزيادة الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القـــدر الطبيعي ، فيداوى بمقتضى ذلك ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذي ، واستفراغ المواد الفاسدة ، ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة ، وقد تضمنها الكتاب العزيز وأرشد اليها من أنزله شفاء ورحمة فاما حفظ القوة فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان ويقضي المسافر اذا قدم والمريض اذا برىء حفظاً لقوتها عليها ، فإن الصوم

يزيد المريض ضعفاً والمسافر محتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر والصوم يضعفها، واما الحمية من المؤذي فإنه سبحانه حمي المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل إذا كان يضره ، وأمره بالعدول الى التيمم حميـــة له عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذي له في باطنـــه واستفراغ المادة الفاسدة ! فإنه سبحانه أباح للمحرم الذي به اذى من رأسه أن يحلقـه فيستفرغ الحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه ، وذاكرنا مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا ، فقال : والله لو سافرت الى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفراً قليلاً ، أو كما قال. واذا عرف هذا فالقلب محتاج الى ما يحفظ عليه قوته وهو الايمان ، واوراد الطاعات والأحمة عن المؤذي الضار ، وذلك باجتناب الآ ثام والمعاصي وأنواع المخالفات ، وإلى استفراغ من مادة فاسدة تعرض له وذلك بالتوبة النصوح ، واستغفار غفار الخطيئات ، ومرضه هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره للحق وارادته ، فلا يرى الحق حقاً أو يراه على خلاف ما هو عليه ، أو ينقص ادراكه له ويفسد به ارادته له ، فيبغض الحق النافع ، ويحب الباطل الضار ، أو يجتمعان له ، وهو الغالب ، ولهـــذا يفسر المرض الذي يعرض له تارة بالشك والريب ، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى (في قلوبهم مرض) اي تنكروا تارة بشهوة الزنا كما فسر قوله تعالى (فيطمع الذي في قلبه مرض) فالأول مرض الشبه الشعبة والثاني مرض الشهوة ، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده ، ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة ونحو ذلك ، كذلك القلب اذا كان فيه مرض أذاه ادنى شيء من الشبهة والشهوة ، حيث لا يقدر على دفعها اذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوي يطرقه اضعاف ذلك ، وهو يدفعه بقوته وصحته . وبالجملة فاذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف ما لم يتدارك ذلك بان يحصل له ما يقوي قوته ويزيل مرضه .

الباب الثالث

في انقسام أدوية أمراض القلب الى قسمين طبيعية وشرعية

مرض القلب نوعان نوع لا يتألم به صاحبه في الحال ، وهو النوع المتقدم كمرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات ، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألما ، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين ادراك الألم ، والا فألمه حاضر فيه حاصل له ، وهو متوار عنه باشتغاله بضده وهو أخطر المرضين واصعبهما وعلاجه الى الرسل واتباعهم فهم أطباء هذا المرض .

والنوع الثاني : مرض مؤلم له في الحال كالهم والغم والحزن والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالةأسبابهوالمداواة بما يضاد تلك الأسباب، ويدفع موجبها مع قيامها.وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشفى بما قد يشفىبه البدن ، وكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب ويشفيه ما يشفيه ، فأمراض القلب التي تزول بالادوية الطبيعية من جنس أمراض البدن ، وقد لا توجب وحدها شفاءه وعذابه بعد الموت ، واما امراضه التي لا تزول الا بالأدوية الإيمانية النبوية ، فهي توجب له الشقـــاء في العذاب الدائم ان لم يتداركها بأدويتها المضادة ، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء .

ولهذا يقال شفىغيظه،فاذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك فاذا انتصف منه اشتفى قلبه ، قال تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء) . فأمرهم بقتال عدوهم واعلمهم ان فيه ست فوائد فالغيظ يؤلم القلب ودواؤه في شفاءغيظه فان شفاه بحق اشتفى وان شفاهبظلم وباطلزاده مرضامن حيثظن انه يشفيه ، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق ، فان ذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضاً أخرى أصعب من مرض العشق كما سيأتي ان شاءالله

تعالى -- وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب وشفاؤها بأضدادهـــا من الفرح والسرور ، فان كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرىء من مرضه ، وان كان بباطل توارى واستتر ، ولم يزل ، واعقبه أمراضا هي أصعب وأخطر ، وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم ، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضاً الى مرضه لكن اشتغل القلب بها عن ادراك الألم الكامن فيه بسبب جهله بالعلوم النافعة ، التي هي شرط في صحته وبرئه قال النبي ﷺ في الذين أفتوا بالجهـــل فهلك المستفتى بفتواهم : «قتلوه قتلهم الله ، الا سألوا اذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال» ؟! فجعل الجهل مرضاً وشفاؤه سؤال اهل العلم وكذلك الشكُّ في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين : ثلج صدره وحصل له برد اليقين .

وكذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشده وينشرح بالهدى والعلم ، قال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) . وسيأتي مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه — إن شاء الله تعالى — والمقصود ان أمراض القلوب منها ما يزول بالأدوية الطبيعية ومنها ما يداوى بالأدوية الشرعية الايمانية والقلب له حياة وموت ومرض وشفاء وذلك أعظم مما للبدن .

الباب الرابع

في ان حياة القلب واشراقه مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه

اصل كل خير وسعادة للعبد بل لكل حي ناطق كمال حياته ونوره فالحياة والنور مادة الخير كله . قال تعالى : (أو من كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) فجمع بـــين

الأصلين الحياة والنور ، فالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة ومحبته للحسن وبغضه للقبيح وكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات ، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات ، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه ، فالقلب الصحيح الحي اذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ، ولم يلتفت اليها بخلاف القلب الميت ، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح كما قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر . وكذلك القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، وكذلك إذا قوي نوره واشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه فاستبان حسن الحسن بنوره وأثره بحياته ، وكذلك قبح القبيح ، وقد ذكر سبحانه هذين الاصلين في مواضع من كتابه ، قال تعالى : (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) فجمع بين الروح الذي تحصل به الحياة والنور الذي تحصل به الاضاءة والاشراق واخبر ان كتابه الذي انزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين فهو روح تحيى به القلوب ونور تستضيء وتشرق به ، كما قال تعالى : (او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به الناس) أي او من كان كافرا ميت القلب مغموراً من ظلمة الجهل فهديناه لرشده ووفقناه للايمان ، وجعلنا قلبه حيا بعد موته مشرقا مستنيرا بعد ظلمته فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه وتركه الأخذ بنصيبه في رضاه والعمل بما يؤديه الى نجاته وسعادته بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة ولا يدفع عنها من مكروه فهديناه للاسلام ونعشناه به فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه ، فابصر الحق بعد عماه عنه ، وعرفه بعد جهله به ، واتبعه بعد إعراضه عنه ، وحصل له نور وضياء يستضيء به ، فيمشي بنوره بين الناس ، وهي في سدف الظلام كما قيل :

ليلي بوجهـــك مشرقٌ وظلامه في الناس ساري
الناس في سَدَفِ الظلام ونحن في ضوء النهـــارِ

ولهذا يضرب الله سبحانه المثلين المائي والناري لوحيه ولعباده . أمـــا الأول فكما قال في سورة الرعد : (أنزل من السماء ماء،فسالت أودية بقدرها، فاحتمل السيل زبدا رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس ، فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة ، وبالنار لما يحصل بهـــا من الإضاءة والاشراق وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرهـــا فواد يسع ماءً كثيراً ووادٍ صغير يسع ماء قليلا ، كذلك القلوب تشبه بالأودية ، فقلب كبير يسع علماً كثيراً ، وقلب صغير إنما يسع بقدره ، وشبّه مـــا تحتمله القلوب من الشبهات والشهوات بسبب مخالطة الوحي بها ، واثارته لما فيها من ذلك ، بما يحتمله السيل من الزبد وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها بذهاب ذلك الزبد والقاء الوادي له ، وإنما يستقر به الماء الذي بـــه النفع وكذلك في المثل الذي بعده يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر ويستقر صفوه .

واما ضرب هذين المثلين للعباد ، فكما قال في سورة البقرة (مثلهم كمثل الذي استوقـــد ناراً فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم) الى قوله : (فهم لا يرجعون) فهذا المثل الناري ، ثم قال (او كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) الى آخره ، فهذا المثل المائي ، وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين ، وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب «المعالم» وغيره . والمقصود ان صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين . قال تعالى :(ان هو إلاذكر وقرآنمبين لينذر من كانحيا)فأخبر أنالانتفاعبالقرآن والانذار به انما يحصل لمن هو حي القلب . كما قال في موضع آخر (إن في

ذلك لذكرى ، لمن كان له قلب) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ، إذا دعاكم لما يحييكم) فاخبر سبحانه أن حياتنا انما هي بما يدعونا إليه الرسول من العلم والايمان ، فعلم ان موت القلب وهلاكه بفقد ذلك وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله باصحاب القبور ، وهذا من أحسن التشبيه فإن أبدانهم قبور قلوبهم ، فقد ماتت قلوبهم ، وقبرت في أبدانهم ، فقال تعالى : (إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من في القبور) . ولهذا حسن قول القائل :

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم في وحشةٍ من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه الى الأنبياء روحاً ، كما قال تعالى (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) في موضعين من كتابه: (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا) ، لأن حياة الأرواح والقلوب به . وهذه الحياة الطيبة التي خص بها سبحانه من قَبِلَ وحيه وعَمِلَ به ، فقال : (من عمل صالحاً من ذكر أوأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ، فخصهم سبحانه بالحياة الطيبة في الدارين، ومثله قوله تعالى : (وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله) ؛ ومثله قوله تعالى : (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين)، فبيّن سبحانه انه يسعد المحسن باحسانه في الدنيا والآخرة ، كما أخبر انه يشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى) ، وقال تعالى ، وجمع بين النوعين : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله)، إلى قوله : (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) ، فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه ، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر

والحرج ، قال تعالى : (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه)؟ فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدور ، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدور . وسيأتي في باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا — إن شاء الله — والمقصود ان حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .

الباب الخامس

في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركاً للحق مريداً لهمؤثراً له على غيره

لما كان في القلب قوتان : قوة العلم والتمييز ، وقوة الإرادة والحب ، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود بصلاحه وسعادته ،فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته ، والتمييز بينه وبين الباطل ، واستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل ،فمن لم يعرف الحق فهو ضال ، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه ، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه ، وقد أمرنا سبحانه أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، ولهذا كان النصارى أخص بهذا الضلال لأنهم أمة جهل واليهود أخص بالغضب لأنهم أمة عناد ، وهذه الأمة هم المنعم عليهم ، ولهذا قال سفيان بن عيينة : من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه . وفي المسند والترمذي من حديث عدي بن حاتم — رضي الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » . وقد جمع

الله سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه فمنها قوله تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) ، فجمع بين الاستجابة له والإيمان به ، ومنها قوله عن رسوله : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، اولئك هم المفلحون) ، وقال تعالى : (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) الى قوله : (هم المفلحون) ، وقال تعالى في وسط السورة : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الأخر والملائكة والكتاب والنبيين) الى آخر الآية . وقال تعالى : (والعصر ان الانسان لفي خسر) إلى آخر السورة ، فأقسم سبحانه بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة على أن كل أحد في خسر ، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته ، فهذا كماله في نفسه ثم كمل غيره بوحيه له في ذلك وأمره إياه به ، وملاك ذلك هو الصبر ، فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه إياه ووصيته له بالصبر عليه ، ولهذا قال الشافعي : « لو فكر الناس في سورة العصر لكفتهم » . وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة يخبر سبحانه ان أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، وأهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه وخالفوه واتبعوا غيره . وينبغي أن يعرف ان هاتين القوتين لا يتعطلان في القلب بل ان استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه ، وإلا استعملت بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل ، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به ، والا استعملها في ضده ، والانسان حارث همام بالطبع ، كما قال النبي ﷺ : « أصدق الأسماء حارث وهمام » فالحارث الكاسب العامل ، والهمام المريد ، فإن النفس متحركة بالإرادة حركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها ، والإرادة تستلزم مراداً متصوراً لها متميزاً عندها ، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته وأرادته ، ولا بد . وهذا يبين في الباب الذي بعده فنقول :

الباب السادس

في انه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بان يكون الهـــه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب اليه من كل مـــا سواه ، ومعلوم أن كل حي سوى الله سبحانه من ملك أو انس أو جن أو حيوان، فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ولا يتم إلا بتصوره للنافع والضار والمنفعة من جنس النعيم واللذة . والمضرة من جنس الألم والعذاب ، فلا بد له من أمرين أحدهما هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به ويلتذ بادراكه، والثاني المعين الموصل المحصل لذلك المقصود وبازاء ذلك أمران آخران مكروه بغيض ضار ، والثاني دافع له عنه. فهذه اربعة اشياء احداها أمر هو محبوب مطلوب الوجود . والثاني : أمر مكروه مطلوب العدم. الثالث : الوسيلة الى حصول المحبوب. الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه ، فهذه الأمور الاربعـــة ضرورية للعبد ، بل ولكل حيوان لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها ، فإذا تقرر ذلك، فالله تعالى هو الذي يجب ان يكون هو المقصود المطلوب الذي يراد وجهه ويبتغى قربه ، ويطلب رضاه ، وهو المعين على دفعه فهو سبحانه الجامـــع لهذه الأمور الاربعة دون سواه ، فهو المعبود المحبوب المراد وهو المعين لعبده على وصوله اليه ، وعبادته له، والمكروه والبغيض هو بمشيئته وقدرته ، وهو المعين لعبده على دفعه عنه ، كما قال أعرف الخلق: « أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك» وقال :«اللهم اسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك ، وفوضت أمري اليك ، وألجأت ظهري اليك رغبـة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك ، فمنه المنجأ واليه الملجأ ،

وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته ، فالإعاذة فعلية والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته فالأمر كله له ، والحمد كله له والملك كله له ، والخير كله في يديه لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، بـــل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه كل احد من خلقه ، ولهذا كان صلاح العبـــد وسعادته في تحقيق معنى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) فإن العبودية تتضمن العصور المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب ، فالأول من معنى ألوهيته ، والثاني من معنى ربوبيته ، فان الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وانابـــة واجلالا وإكراما وتعظيما وذلا وخضوعا وخوفا ورجاء وتوكلا ، والرب هو الذي يرب عبده فيعطيه خلقه ، ثم يهديه الى مصالحه فلا إله إلا هو ولا رب إلا هو ، فكما في ربوبية ما سواه أبطل الباطل ، فكذلك الهية ما سواه ، وقد جمع سبحانه بين هذين الاصلين في مواضع من كتابه : (كقوله فاعبده وتوكل عليه) وقوله عن نبيه شعيب : (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب) وقوله (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده) وقوله (وتبتل اليه تبتيلا رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وقوله (قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت ، واليه متاب) وقوله عن الحنفا اتباع ابراهيم (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا) ، فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنى التوحيد اللذين لا سعادة للعبـــد بدونهما البته .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم ويتم نعيمهم ، فلا يعطيهم في الآخرة شيئاً هو أحب إليهم ولا أحب لقلوبهم ولا أقر لعيونهم من الايمان به ومحبته والشوق الى لقائه ، والإنس بقربه ، والتنعم بذكره ، وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأمرين في

الدعاء الذي رواه الامام احمد والنسائي وابن حبان في صحيحه وغيرهم ، من حديث عمار بن ياسر ، ان رسول الله ﷺ كان يدعو به «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عَيْنٍ لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، واسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر الى وجهك ، وأسألك الشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زَيِّنَّا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين » فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا ، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه ، وأطيب شيء في الآخرة وهو النظر إلى وجهه سبحانه ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم ما يضر في الدنيا ويفتن في الدين قال : «من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة» ولما كان كمال العبد في أن يكون عالماً بالحق متبعاً له، معلما لغيره ، مرشداً له ، قال: «اجعلنا هداة مهتدين » ولما كان الرضاء النافع المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله ، فإن ذلك عزم على الرضا فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم، سأل الرضا بعده فإن المقدور يكشف[1] أمران الاستخارة قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه ، فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما كما في المسند ، وغيره عنه ﷺ « ان من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله ، وان من شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله وسخطه بما قضى الله » ، ولما كانت خشية الله رأس كل خير في المشهد والمغيب سأله خشيته في الغيب والشهادة ، ولما كان اكثر الناس انما يتكلم بالحق في رضاه ، فاذا غضب أخرجه غضبه الى الباطل ، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل سأل الله أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف

---

(١) لعله يكتنفه .

لا تكن ممن اذا رضي أدخله رضاه في الباطل واذا غضب أخرجه غضبه عن الحق ، ولما كان الفقر والغنى محنتين وبليتين يبتـــلي الله بهما عبده ففي الغنى يبسط يده وفي الفقر يقبضها ، سأل الله القصد في الحالين وهو التوسط الذي ليس معه إسراف ولا تقتير ، ولما كان النعيم نوعين نوعاً للبدن ونوعاً للقلب ، وهو قرة العين،وكماله بدوامهواستمراره جمع بينهما في قوله : « وأسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع » ولما كانت الزينة زينتين ، زينة القلب والبدن وزينة القلب ، أعظمهما قدراً ، واكملهما خطراً ، واذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العقبى،سأل ربه الزينة الباطنيةفقال «زَيِّنَّا بزينة الايمان » ولما كان العيش في هـــذه الدار لا يبرد لأحد كائنا من كان بل هو مشوب بالغصص والنكد ومحفوف بالآلام البـــاطنة والظاهرة ، سأل برد العيش بعد الموت ، والمقصود أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا وأطيب ما في الآخرة ، فإن حاجة العباد إلى ربهم في جميع عبادتهم وتألههم له كحاجتهم إليه في خلقه لهم ورزقه اياهم ومعافاة ابدانهم ، وستر عوراتهم، وأمن روعاتهم ، بل حاجتهم إلى تألهه ومحبته وعبوديته، أعظم فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، والاصلاح لهم ، ولا نعيم ولا فلاح ، ولا لذة ولاسعادة بدون ذلك بحال ، ولهذا كانت لا إله الا الله أحسن الحسنات، وكان توحيد الألهية رأس الأمر ، أما توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر ، وقرره أهل الكلام في كتبهم، فلا يكفي وحده بل هو الحجة عليهم،كما بينسبحانه ذلك في كتابه في عدة مواضع ، ولهذا كان حق الله على عباده أنيعبدوه،ولا يشركوا به شيئاً كماني الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل – رضى الله عنه – عن النبي ﷺ قال : أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال « حقه على عباده أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري مـــا حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك » ؟ قلت : الله ورسوله أعـــلم ، قال : « حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار » وكذلك يحب سبحانـــه عباده المؤمنين الموحدين ، ويفرح بتوبتهم ، كما إن في ذلك أعظم لذة العبد وسعادته

ونعيمه ، فليس في الكائنات شيء غير الله سبحانه يسكن القلب اليه ويطمئن به ، ويأنس به ، وينعم بالتوجه اليه ، ومن عبد غيره سبحانه ، وحصل له به نوع منفعة ولذة فمضرته بذلك أضعاف منفعته ، وهو بمنزلة آكل الطعام المسموم اللذيذ ، وكما ان السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه فسدتا ، كما قال الله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله فسد فساداً لا يرجى صلاحه ، إلا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه ، ويكون الله وحده إلهه ومعبوده ، الذي يحبه ويرجوه ويخافه ويتوكل عليه وينيب اليه .

الوجه الثالث : أن فقر العبد الى أن يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد الى الغذاء والشراب والنفس ، وبينهما فروق كثيرة ، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق ، الذي لا إله إلا هو ، فلا يطمئن إلا بذكره ، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادح اليه كدحاً فملاقيه ولا بد له من لقائه ، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل ، فلا يدوم له ذلك ، بل ينتقل من نوع الى نوع ومن شخص الى شخص ، ويتنعم بهذا في حال ، وبهذا في حال ، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ، هو أعظم أسباب ألمه ومضرته ، وأما إلهه الحق ، فلا بد له منه في كل وقت وكل حال ، وأينما كان ، فنفس الايمان ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان ودل عليه السنة والقرآن ، وشهدت به الفطرة والجنان ، لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان ، وبخس حظه من الاحسان ، ان عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان ، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان ، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان ، كما هي مقالات لمن بخس حظه من معرفة الرحمن ، وقل نصيبه من ذوق حقائق الإيمان ، وفرح بما

عنده من زبد الأفكار وزبالة الأذهان ، بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الانسان ، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلاً لهذا الشأن ، والله المستعان ، وعليه التكـــلان . وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها لأسباب اقتضته لا بد منها ، هي من لوازم هذه النشأة ، فأوامره سبحانه وحقه الذي أوجبه على عباده ، وشرائعـه التي شرعهـا لهم هي قرة العيون ولذة القلوب ونعيم الأرواح وسرورها ، وبه سعادتها وفلاحها ،وكمالها في معاشها ومعادها ، بل لا سرور لها ولا لذة ولا فرح ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك كما قال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهـــدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) . قال أبو سعيد الخدري : فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله . وقال هلال بن يساف . بالإسلام الذي هداكم اليه ، وبالقرآن الذي علمكم إياه ، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة ، وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة : فضل الإسلام ورحمة القرآن . وقالت طائفة من السلف : فضل القرآن ورحمة الإسلام ، والتحقيق ان كلا منهما فيه الوصفان : الفضل والرحمة ، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله – ﷺ – فقال : (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ، ولا الإيمان) ، والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان ، ووضع من وضع بضدهما ، فإن قيل فقد وقع تسمية ذلك تكليف في القرآن كقوله : (لا تكلف نفس إلا وسعهـا) ؛ وقـوله : (ولا تكلف نفسا إلا وسعها) قيل : نعم ، إنما جاء ذلك في جـــانب النفي ، ولم يسمّ سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط ، بل سماها روحاً ونوراً وشفاء وهدى ورحمة وحياة وعهداً ووصية ، ونحو ذلك .

الوجه الرابع : إن أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الإطلاق ، هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله ، وسماع خطابه ، كما في صحيح مسلم عن

صهيب –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ: « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيّض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ، ويجيرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب من النظر اليه». وفي حديث آخر: « فلا يلتفتون الى شيء من النعيم ما داموا ينظرون». فبيّن النبي – ﷺ – انهم مع كمال تنعيمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة لم يعطهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه ، وإنما كان ذلك أحب اليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين ، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين ، ولا نسبة بين اللذتين والنعمتين البتة . ولهذا قال سبحانه في حق الكفار : (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم انهم لصالو الجحيم) ، فجمع عليهم نوعي العذاب : عذاب النار ، وعذاب الحجاب عنه سبحانه ، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم : نعيم التمتع بما في الجنة ، ونعيم التمتع برؤيته . وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة فقال في حق الأبرار : (إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون) ، وهضم معنى الآية من قال : ينظرون إلى أعدائهم يعذبون ، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم ، وينظر بعضهم الى بعض ، وكل هذا عدول عن المقصود الى غيره ، وانما المعنى ينظرون الى وجه ربهم ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم محجوبون وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في اعدائهم في الدنيا وسخروا منهم بضده في القيامة ، فإن الكفار كانوا اذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم ، واذا رأوهم قالوا : (إن هؤلاء الضالون) وقال تعالى : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) مقابلة لمغامزهم بهم وضحكهم منهم ، ثم قال (على الأرائك ينظرون) فاطلق النظر ولم يقيده بمنظور دون منظور ، واعلا ما نظروا اليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه ، والنظر اليه أجل أنواع النظر وافضلها ، وهو أعلى مراتب الهداية ، فقابل بذلك قولهم إن: هؤلاء لضالون ، فالنظر الى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين

ولا بد اما بخصوصه وأما بالعموم والاطلاق ، ومن تأمـــل السياق لم يجد الاثنين محتملين غير ارادة ذلك خصوصاً أو عموما .

﴿ فصل ﴾

وكما انه لا نسبة لنعيم ما في الجنة الى نعيم النظر الى وجهه الاعلى نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق اليه والانس به ، بل لذة النظر اليه سبحانه تابعة لمعرفتهم ومحبتهم له ، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة ، فكلما كان المحب اعرف بالمحبوب واشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه اعظم.

الوجه الخامس : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال ولا نصر ولا خذلان ولا حفظ ولا رفع ولا عز ولا ذل ، بل الله وحده هو الذي يملك ذلك كله . قال تعـــالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده) .

وقال تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده) وقال تعالى : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) وقال تعالى عن ياسين (أأتخذ من دونه آلهة ان يردني الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً، ولا ينقذون) . وقال (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض ؟لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) وقال تعالى: (أمّن هذا الذي هو جند لكم ، ينصركم من دون الرحمن ، إن الكافرون إلا في غرور ، أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور) فجمع سبحانه بين النصر والرزق ، فان العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره ويجلب له منافعه برزقه ، فلا بد له من ناصر ورازق ، والله وحده هو الذي ينصره ويرزقه فهو الرازق ذو القوة المتين . ومن كمال فطنـــة العبد ومعرفته ، ان يعلم انه إذا مسه بسوء لم يرفعه عنه غيره وإذا ناله بنعمـــة لم

يرزقه اياها سواه ، ويذكر ان الله سبحانه أوحى إلى بعض انبيائه : أدرك لي لطف الفطنة وخفى اللطف فاني أحب ذلك قال: يا رب وما لطيف الفطنة؟ قال : ان وقع عليك ذبابة فاعلم اني اوقعتها فسلني ارفعها ، قال : وما خفى اللطف ؟ قال : ان أتتك حبة فاعلم اني ذكرتك بهـــا . وقد قال تعالى عن السحرة :(وما هم بضارين به من احد إلا باذن الله) فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلؤه . قال الامام احمد : حدثنا عبد الرازق أخبرنا عمران ، قال : سمعت وهباً يقول : قال الله عز وجل في بعض كتبه : بعزتي أنه من اعتصم بي فان كادته السموات بمن فيهن ، والارضون بمن فيهن ، فإني أجعل له من ذلك مخرجاً ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الارض ، فاجعله في الهواء ، ثم أكله الى نفسه كفى بي لعبدي ما اذا كان عبدي في طاعتي اعطيه قبل ان يسألني ، واستجيب له قبل ان يدعوني فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه . قال احمد بن هاشم بن القاسم : أنبأنا أبو سعيد المؤدب انبأنا من سمع عطاء الخرساني قال : لقيت وهب ابن منبه وهو يطوف بالبيت ، فقلت له : حـــدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا واوجز قال : نعم أوصى الله تبارك وتعالى الى داود يا داود اما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له من بينهن مخرجاً اما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته ، الا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالي بأي واد هلك وهذا الوجه اظهر للعامة من الذي قبله ، ولهذا خوطبوا به في القرآن اكثر من الأول ، ومنه دعت الرسل الى الوجه الاول ، واذا تدبر اللبيب القرآن وجد الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه الى الوجه الأول ، وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والإستعانة به ودعاءه ومسألته دون ما سواه ويقتضي ايضاً محبته وعبادته لاحسانه إلى عبده ولإسباغ نعمه عليه ، فإذا عبدوه واحبوه وتوكلوا عليه من

هذا الوجه ، دخلوا منه الى الوجه الأول ونظير ذلك من ينزل به بلاء عظيم كفاقة شديدة او خوف مقلق ، فجعل يدعو الله سبحانه ، ويتضرع اليه ، حتى فتح له من لذيذ مناجاته ، وعظيم الايمان به ، والإنابة اليه مما هو أحب اليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً لكنه لم يعرف ذلك اولاً ، حتى يطلبه ويشتاق اليه ، وفي نحو ذلك قال القائل :

جزى الله يوم الرّوع خيراً فإنه أرانا على عـلاّته أمّ ثابتِ
أرانا مصوناتِ الحجال ولم نكن نراهُنّ إلاّ عند نعت النواعت

الوجه السادس : أن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مضرة عليه ، اذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته ، غير مستعين به على طاعة الله ، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك ، ولو أحب سوى الله ما أحب ، فلا بد أن يسلبه ويفارقه ، فإن أحب لغير الله فلا بد أن تضره محبته ويعذب بمحبوبه ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، والغالب أنه يعذب به في الدارين. قال تعالى: والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم – الى قوله – فذوقوا ما كنتم تكنزون) وقال تعالى :(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم ، وهم كافرون) ولم يصب من قال ، ان الآية على على التقديم والتأخير كالجرجاني حيث قال ينتظم قوله في الحياة الدنيا بعد فصل آخر ليس بموضعه على تأويل : فلا تعجبك أموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم في الآخرة وهذا القول يروى عن ابن عباس ،وهو منقطع ، اختاره قتادة وجماعة ، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والاولاد في الدنيا ، وأن لذتهم وسرورهم ونعيمهم بذلك فروا الى التقديم والتأخير ، وأما الذين رأوا ان الآية على وجهها ونظمها ، فاختلفوا في هذا التعذيب ، فقال الحسن البصري : يعذبهم بأخذ الزكاة منها والانفاق في الجهاد واختاره ابن جرير وأوضحه ، فقال : العذاب بها إلزامهم بما أوجب

الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه ، إذا كان يؤخذ منه ذلك وهو غير طيب النفس ولا راج من الله جزاء ولا من الآخذ حمدا ولا شكراً بل على صغر منه وذلة ، وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا وذهاب عن مقصود الآية ، وقالت طائفة : تعذيبهم بها أنهم يعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم وسبي أولادهم ، فإن هذا حكم الكافر ، وهم في الباطن كذلك وهذا أيضاً من جنس ما قبله فإن الله سبحانه أقر المنافقين ، وعصم أموالهم وأولادهم بالاسلام الظاهر ، وتولى سرائرهم ، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم ، وسبي اولادهم ، فإن الإرادة ها هنا كونية بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان ولا بد وما لم يشأ لم يكن ، والصواب والله اعلم أن يقال : ان تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها ومقاساة أنواع المشاق في ذلك ، فلا تجد اتعب الدنيا، ممن أكبر همه وهو حريص بجهده على تحصيلها.

والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب كقوله — ﷺ — « السفر قطعة من العذاب » وقوله « إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » أي يتألم ، ويتوجع لأنه يعاقب باعمالهم، وهكذا من الدنيا كل همه أو أكبر همه، كما قال النبي — ﷺ — في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس : «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له » ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيت الشمل وتفرق القلب ، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه ، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه وفي الترمذي أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يقول الله تبارك وتعالى ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غِنىً وأسُدُّ فقرك ، وان تفعل ملأت يديك شغلا ، ولم أسُدَّ فقرك » وهذا أيضاً من أنواع اشتغال القلب والبدن بتحمل انكاد الدنيا ومجاذبة اهلها إياها ومقاساة معاداتهم ، كما قال بعض السلف : من أحب الدنيا

فليوطن نفسه على تحمل المصائب ، ومحب الدنيا لا ينفعك من ثلاث : هَمٌّ لازِمٌ وتعب دائم وحسرة لا تنقضي ، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً الا طمحت نفسه إلى ما فوقه ، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغا لهما ثالثاً » وقيل : مثل عيسى بن مريم مُحِبُّ الدنيا بشارب البحر كلما ازدادشرباً ازداد عطشاً. وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب الى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار اقامة، إنما انزل اليها آدم عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها ، ولها في كل حين قتيل تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه ، وهو حتفه ، فكن فيهـــا كالمداوي جراحه يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا ، ويصبر على شدة الدواء مخاوفـــة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخداعة الحيّالة التي قد تزينت بخدعتهـا ، وفتنت بغرورها واضلت بآمالها ، وتشوقت لخطابها ، فاصبحت كالعروس المجلوة ، فالعيون اليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لازواجها كلهم قاتلة، فماشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل بها لبه حتى زالت عنها قدمه، فعظمت عليه ندامته، وكبرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه وحسرات الفوت ، وعاشق لم ينل منها بغيته ، فعاش بغصته ، ومات بكمده ، ولم يدرك منها ما طلب ، ولم تسترح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد، فكن أسر ما تكون فيها ، احذر ما تكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منهـا الى سرور اشخصته الى مكروه ، وصل الرجاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها الى فناء ، سرورها مشوب بالحزن أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد ، فلو كان ربها لم يخبر عنها خبرا، ولم يضرب لها مثلا لكانت قد ايقظت النايم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ وعنها زاجر، فما لها عند الله قدر ولا وزن وما نظر اليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبينا صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه عند الله جناح بعوضة ، فابى ان يقبلهـــا كره

أن يحب ما ابغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختيارا ، وبسطها لأعدائه اغتراراً فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ونسي ما صنع الله برسوله حين شد الحجر على بطنه ، وقال الحسن ايضاً: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ، فاهينوها ، فاهناً مـا تكون اذا اهنتموها ، وهذا باب واسع ، وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها ، ولما كانت هي أكبر همّ من لا يؤمن بالآخرة، ولا يرجو لقاء ربه ، كان عذابه بها بحسب حرصه عليها ، وشدة اجتهـاده في في طلبها ، واذا أردت أن تعرف عذاب أهلها فتأمل حال عاشق ، فإن في حب معشوقه، وكما رام قرباً من معشوقه نأى عنه، فلا يفي له ويهجره، ويصل عدوه ، فهو مع معشوقه في نكد عيش ، يختار الموت دونه فمعشوقه قليـل الوفاء ، كثير الجفاء ، كثير الشركاء ، سريع الاستحالة ، عظيم الخيانة، كثير التلون ، لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا ماله مع انه لا صبر له عنه ، ولا يجد سبيلاً إلى سلوة تريحه ، ولا وصال يدوم له ، فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفى به ، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها ، وصار معذباً بنفس ما كان ملتذاً به على قدر لذته به التي شغلته عن سعيه في طلب زاده ومصالح معاده ، وسنعود إلى تمام الكلام في هـذا الباب في باب ذكر عـلاج مرض القلب بحب الدنيا — ان شاء الله تعالى — إذ المقصود بيان أن من أحب شيئاً سوى الله ولم تكن محبته له لله ، ولا لكونه معيناً له على طاعة الله عذب به في الدنيا قبل اللقاء كما قيل :

أنت القتيل بكل من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فاذا كان يوم المعاد ولي الحكم العدل سبحانه كل محب ما كان يحبه في الدنيا، فكان معه إما منعما ، وإما معذبا ، ولهذا يمثل المحب المال ماله شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمته، يقول : انا مالك، أنا كنزك ويصفح له صفايح من نار، يكوى بها جبينه وجنبه وظهره ، وكذلك عاشق الصور اذا اجتمع هو ومعشوقه

على غير طاعة الله جمع بينهما في النار، وعذب كل منهما بصاحبه . قال تعالى : (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وأخبر سبحانه أن الذين توادوا في الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ومأواهم النار وما لهم من ناصرين ، فالمحب مع محبوبه دنيا واخرى ، ولهذا يقول تعالى يوم القيامة للخلق : أليس عدلاً من أن أولّي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا ، وقال ﷺ : « المرء من أحب» وقال تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا وَيلَتا ليتني لم اتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا) وقال تعالى: (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله). إلى قوله : (مالكم لا تناصرون) ؟ قال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : أزواجهم أشباههم ونظراؤهم . وقال تعالى : (وإذا النفوس زوجت) فقرن كل شكل إلى شكله ، وجعل معه قريناً وزوجاً البر مع البر والفاجر مع الفاجر ، والمقصود أن من أحب شيئاً سوى الله فالضرر حاصل له بمحبوبه ان وجد ، وإن فقد فإنه إن فقده عذب بفواته وتألم على قدر تعلق قلبه به وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله ، ومن النكد في حال حصوله ، ومن الحسرة عليه بعد فواته اضعاف اضعاف مما في حصوله له من اللذة :

فما في الارض أشقى من محب ... وان وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حال ... مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقا اليهم ... ويبكي ان دنوا حذر الفراق
فتسخن عينه عند التلاقي ... وتسخن عينه عند الفراق

وهذا الأمر معلوم بالاستقراء والاعتبار والتجارب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه » فذكره جميع انواع طاعته فكل من كان في طاعته ، فهو في ذكره ، وان لم يتحرك لسانه بالذكر ، وكل من والاه الله فقد احبه وقربه ، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه وهي نائلة كل ما عداه .

الوجه السابع : ان اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته وهو لا بد عكس ما أمله منه، فلا بد أن يخذل من الجهة التي قدر أن ينصر منها ويذم من حيث قدر أن يحمد ، وهذا أيضاً كما انه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب . قال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقال تعالى :(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ،لا يستطيعون نصرهم ، وهم لهم جند محضرون) أي يغضبون لهم ويحاربون كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه ، وهم لا يستطيعون نصرهم بل هم كلٌ عليهم. وقال تعالى: (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ، لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب) أي غير تخسير ، وقال تعالى : (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين). وقال تعالى :(ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) فان المشرك يرجو بشركه للنصر تارة ، والحمد والثناء تارة ، فأخبر سبحانه أنه مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم ، والمقصود أن هذين الوجهين في المخلوق ضدهما في الخالق ، فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به .

الوجه الثامن : أن الله سبحانه غني كريم ، عزيز ، رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غنائه عنه ، يريد به الخير ويكشف الضر لا لجلب منفعة اليه من العبد ، ولا لدفع مضرة بل رحمة واحسانا فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة ، ولا ليعتز بهم من ذلة ولا ليرزقوه ولا لينفعوه ولا ليدفعوا عنه كما قال تعالى :(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما اريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . وقال تعالى : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌ من الذل) وهو سبحانه لا يوالي من يوالي من الذل كما يوالي المخلوق وانما يوالي أولياءه إحسانا ورحمة ومحبة لهم وأما العباد فإنهم كما قال الله تعالى : (والله الغنيُ وانتم الفقراء) فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن

بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك وانتفاعه به عاجلا أو آجلا ، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن اليه فهو في الحقيقة إنما اراد الإحسان إلى نفسه وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقاً إلى وصول نفع ذلك الاحسان اليه ، فإنه إما أن يحسن اليه لتوقع جزائه في العاجل فهو محتاج إلى ذلك الجزاء أو معاوض فهو محسن إلى نفسه باحسانه إلى الغير وإما يريد الجزاء من الله في الآخرة فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك وانما أخر جزاءه الى يوم فقره وفاقته ، وهو غير ملوم في هذا القصد فإنه فقير محتاج ، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته ، فكما له ان يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه قال تعالى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) وقال: (وما تفعلوا من خير يُوفَّ اليكم) وقال رسول الله ﷺ — فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى — « يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضرّي فتضروني يا عبادي إنما هي أعمالكم احصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول إنما يقصد انتفاعه بك والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك ، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة بخلاف إرادة المخلوق نفعك فإنه قد يكون فيه مضرة عليك ولو بتحمّل منّته فتدبر هذا فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله ، أو تطلب منه نفعاً أو دفعاً أو تعلق قلبك به فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك ، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض ، وهو حال الوالد مع ولده، والزوج مع زوجته ، والمملوك مع سيده ، والشريك مع شريكه ، فالسعيد من عاملهم لله لا لهم ، وأحسن اليهم وخاف الله فيهم ولم يخفهم مع الله ، ورجا الله بالإحسان اليهم ولم يرجهم مع الله ، وأحبهم بحب الله ولم يحبّهم مع الله كما قال أولياء الله : (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) .

الوجه التاسع : أن العبد لا يعلم مصلحتك حتى تعرفه إياها ، ولا يقدر على تحصيلها لك حتى يقدره الله عليها بغيره ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه

إرادة ومشيئة ، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه ، فهو الذي بيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفاً وتوكـــلاً وعبودية ضرر محض ، لا منفعة فيه ، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحـــده الذي قدرها ويسرها وأوصلها اليه .

الوجه العاشر : ان غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم بك وإن أضرّ ذلك بدينك ودنياك ، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرّتك ، والرب تعالى إنما يريدك لك ويريد الإحسان اليك لك لا لمنفعته ، ويريـد دفع الضرر عنك ، فكيف تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره ، وجماع هذا أن تعلم أن الخلق كلهم لو أجمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعـــوك إلا بشيء قد كتبـه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قـد كتبه الله عليك . قال الله تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

خاتمة لهذا الباب : لما كان الانسان بل وكل حي متحرك بالإرادة لا ينفك عن علم وإرادة وعمل بتلك الإرادة إلا وله مراد مطـــلوب وطريق وسبب موصل اليه معين عليه ، وتارة يكون السبب منه ، وتارة من خارج منفصل عنه ، وتارة منه ومن الخارج ، فصار الحي مجبولاً على أن يقصد شيئاً ويريده ، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في حصول مراده ، والمراد قسمان : أحـدهما ما هو مراد لنفسه ، والثاني ما هو مراد لغيره . والمستعان قسمان : أحدهما ما هو مستعان بنفسه ، والثاني ما هو تبعٌ وآلة . فهذه أربعة أمـــور : مراد لنفسه ، ومراد لغيره ، ومستعان بنفسه ، ومستعان بكونه آلة وتَبعـاً للمستعان بنفسه ، فلا بد للقلب من مطلوب يطمئن اليه ، وتنتهي إليه محبته ، ولا بد له من شيء يتوصل به ويستعين به في حصول مطلوبه ، والمستعان مدعوٌ ومسؤول ، والعبادة والاستعانة كثيراً ما يتلازمان ، فمن اعتمد القلب عليه في رزقه ونصره ونفعه خضع له وذل له وانقاد وأحبه من هذه الجهة ، وإن لم

يحبه لذاته لكن قد يغلب عليه حكم الحال حتى يحبه لذاته وينسى مقصوده . وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعين به ويستعين بغيره عليه كمن أحبّ مالا أو منصباً أو امرأة فإن عـــلم أن محبوبه قادر على تحصيل غرضه استعان به ، فاجتمع له محبته والاستعانة به ، فالاقسام اربعة الأول : محبوب لنفسه وذاته مستعان بنفسه فهذا اعلى الأقسام وليس ذلك إلا الله وحده وكلما سواه فإنما ينبغي أن يحب تبعاً لمحبته ويستعان به لكونه آلة وسبباً . الثاني : محبوب لغيره ومستعان به ايضاً كالمحبوب الذي هو قادر على تحصيل غرض محبه . الثالث : محبوب مستعان عليه بغيره . الرابع مستعان بـــه غير محبوب في نفسه فإذا عرف ذلك تبين من أحق هذه الاقسام الأربعـــة بالعبودية والاستعانة وان محبة غيره واستعانته ان لم تـــكن وسيلة إلى محبته والاستعانة وإلا كانت مضرة على العبد ومفسدتها اعظم من مصلحتها . والله المستعان وعليه التكلان .

الباب السابع

في ان القرآن متضمن لادوية القلب وعلاجه من جميع امراضه

قال الله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور) وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) . وقد تقدم إن جماع أمراض القلب هي امراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل ، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والادراك بحيث يرى الأشياء على ما هي علية ، وليس تحت اديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد واثبات الصفات واثبات المعاد والنبوات ، ورد النحـــل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن ، فإنه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه واحسنها وأقربها إلى العقول وافصحها بياناً فهو الشفاء على الحقيقة من

أدواء الشبه والشكوك ، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفته المراد منه . فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه ، كما يرى الليل والنهار ، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم بين علوم لا ثقة بهـــا ، وإنما هي آراء وتقليد ، وبين ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئاً ، وبين امور صحيحة لا منفعة للقلب فيها ، وبين علوم صحيحة قـــد وعروا الطريق الى تحصيلها ، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها فهي لحم جمل غثّ على رأس جبل وعر لا سهلَ فيرتقى ولا سمين فينتقل وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد كما قيل :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر لا المغني ولا العمد
يحللون بزعم منهم عقـــداً وبالذي وضعوه زادت العقـــد

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك ، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك ، ومن المحال ان لا يحصل الشفاء والعلم والهدى واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحميرين المتشككين الشاكين الذين أخبر الواقف على نهايات اقدامهم بما انتهى اليه من مرامهم حيث يقول :

نهايات إقـــدام العقول عقال واكثر سعي العـــالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيـــانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه (قيل) وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، إقرأ في الاثبات : (الرحمن على العرش استوى — اليه يصعد الكلم الطيب) ، واقرأ في النفي : (ليس كمثله شيء — ولا يحيطون به علماً) ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ، فهذه انشاده وألفاظه في آخر كتبه ، وهو أفضل أهل زمانه على

الاطلاق ، في علوم الكلام والفلسفة ، وكلام أمثاله في مثـل ذلك كثير جداً وقد ذكرناه في كتابنا « الصواعق » وغيره ، وذكرنا قـول بعض العارفين بكلام هؤلاء : آخر المتكلمين الشك ، وآخر أمر المتصوفين الشطح ، والقرآن يوصلك الى نفس اليقين في هذه المطالب ، التي هي أعلا مطالب العباد، وبذلك أنزله من تكلم به وجعله شفاء لما في الصدور وهـدى ورحمة للمؤمنين ، وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك لما فيه من الحكمة والموعظـة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار ، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ، ويرغب عما يضره فيصير القلب محباً للرشد ، مبغضاً للغيّ ، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفـاسدة ، فيصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية كما يعود البدن لصحته وصلاحه الى الحـال الطبيعي ، فيصير بحيث لا يقبـل إلا الحق كما ان الطفل لا يقبل إلا اللبن ، وعاد الفق كالطفل ليس بقابـل سوى الحق شيئاً ، واستراحت عواذله ، فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بمـا يزكيه ويقويه ، ويؤيده ويفرحه ويسرّه وينشطه ، ويثبت ملكه ، كما يتغذى البدن بما ينميّه ويقويه ، وكل من القلب والبدن محتاج الى أن يـترقى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ، فكما ان البدن محتاج إلى أن يربّى بالأغذية المصلحة له ، والحمية عما يضره ، فلا ينمو إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره ، وكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك ، ولا سبيل له الى الوصول الى ذلك إلا من القرآن ، وإن وصل الى شيء منه من غـيره فهو نزر يسير لا يحصل به تمام المقصود ، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين فحينئذ يقال: زكا الزرع : كمل . ولما كانت حياة القلب ونعيمه لا يتم إلا بزكاته وطهارته لم يكن بد من ذكر هذا وهذا فنقول :

الباب الثامن

في زكاة القلب

الزكاة في اللغة هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء، يقال : زكا الشيء إذا نما ، وقال الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ، فجمع بين الأمرين : الطهارة والزكاة لتلازمهما ، فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديّة في البدن ، وبمنزلة الدغل في الزرع ، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد ، فكما ان البدن اذا استفرغ من الاخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملهـــا بلا معوّق ولا مانع فنما البدن فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وارادته للخـــير فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الردية فزكا ونما وقوي واشتد وجلس على سرير ملكه ونفذ حكمه في رعيته فسمعت له وأطاعت فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته كما قال تعالى : (قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم) فجعل الزكاء بعد غضّ البصر وحفظ الفرج ، ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر جليلة القدر: احداها حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى واطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله ، فإن من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه ، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة ، والعين رائد القلب ، فيبعث رائده لينظر ما هناك فإذا أخبره بحسن المنظور اليه وجماله تحرك اشتياقاً إليه . وكثيراً ما يتعب ببعث رسوله ورائده كما قيل :

وكنت متى أرسلتَ طرفكَ رائدا لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كلـــه أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعـــة استراح القلب من كلفة الطلب والارادة ، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته ، فإن النظر يولد المحبة فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور اليه ثم تقوى فتصير صبابة ينصب اليه القلب بكليته ثم يقوى فيصير غراماً يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه ، ثم يقوى فيصير عشقاً وهو الحب المفرط ، ثم يقوى فيصير شغفاً وهو الحب قد وصل إلى شغاف القلب وداخله ، ثم يقوى فيصير تَتَيُّماً والتتيم التَّعبُّد ومنه تيَّمَهُ الحبُّ إذا عبده ، وتيم الله عبد اللهفيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له وهذا كله جناية النظر فحينئذ يقعالقلب في الأسر فيصير أسيراً بعد ان كان ملكا ومسجوناً بعدأن كان مطلقاً يتألممن الطرف ويشكوه والطرف يقول : أنا رائدك ورسولك ، وأنت بعثتني ، وهـذا إنما تُبلي به القلوب الفارغة من حب الله ، والإخلاص له ، فإن القلب لا بُدَّ له من التعلق بمحبوبه ، فإن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه بغيره . قال تعالى عن يوسف الصديق (كذلك لِنَصْرِفَ عنه السوءوالفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه ، مع كونها ذات زوج ، ويوسف لما كان مخلصاً لله نجا من ذلك ، مع كونه شاباً عزبا غريباً مملوكا .

الفائدة الثانية : في غض البصر نور القلب وصحة الفراسة قال أبو شجاع الكرماني : من عمر ظاهرهُ باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وكف نفسه عن الشهوات ، وغض بصره عن المحارم ، واعتاد أكل الحلال لم تُخطِ لهفراسة وقد ذكر سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ثم قال تعالى بعد ذلك : (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرموالفاحشة وقال تعالى عقب امره للمؤمنين بغض ابصارهم وحفظ فروجهم : (الله نور السموات والأرض) وسر هذا أن الجزاء من جنس العمل فمن غض بصره عما حرمه الله عليه عوضه الله من جنسه ما هو منه ، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات ، أطلق الله له نور بصيرته وقلبه فرآى ما لم يره من أطلق بصره

ولم يغضه عن محارم الله ، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه ، فإن القلب كالمرآة والهوى كالصدإ فيها فإذا خلصت من الصدأ انطبقت فيها صور الحقائق كما هي عليه واذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون .

الفائدة الثالثة : قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيعطيه الله بقوته سلطان النصرة كما اعطاه بنوره سلطان الحجة فيجمع له بين السلطانين ويهرب الشيطان منه كما في الأثر : ان الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله . ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذلّ النفس وضعتها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه . قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وقال تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون إن كنتم مؤمنين) وقال : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) أي فمن كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله بالكلم الطيب والعمل الصالح ، وقال بعض السلف : الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله . وقال الحسن : وان هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال إن ذل المعصية لفي قلوبهم أبى الله إلا ان يذل من عصاه . وذلك أن من أطاع الله فقد والاه ولا يذل من والاه الله كما في دعاء القنوت : « إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ». والمقصود أن زكاة القلب موقوفة على طهارته كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة قال تعالى :(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) وذكر ذلك سبحانه عقب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك وكذلك قوله في الاستئذان على اهل البيوت : (وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم) فإنهم إذا أمروا بالرجوع لئلا يطلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل ان يطلع عليها كان ذلك ازكى لهم ، ثم إن ردّ البصر وغضه ازكى لصاحبه وقال تعالى : (قد افلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى) وقال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون : (هل لك إلى ان تزكى) وقال تعالى : (فويل

للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) قال اكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم هي التوحيد شهادة ان لا إله إلا الله ، والإيمان الذي به يزكو القلب فانه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب ، وذلك طهارة واثبات إلهيته سبحانه هو أصل كل زكاة ونماء فإن التزكي وان كان أصله النماء والزيادة والبركة فانما يحصل بإزالة الشر فلهذا صار التزكي يتنظم الامرين جميعاً فأصل ما تزكوا به القلوب والارواح هو التوحيد ، والتزكية جعل الشيء زكيّاً اما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه كما يقال عدلته وفسقته إذا جعلته كذلك في الخارج أو في الاعتقاد والخبر وعلى هذا فقوله تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم) هو على غير معنى (قد افلح من زكاها) أي لا تخبروا بزكاتها وتقولوا نحن زاكون صالحون متقون ، ولهذا قال عقيب ذلك (هو اعلم بمن تقى) وكانت اسم زينب بَرّة فقال تزكي نفسها فسماها رسول الله ﷺ زينب وقال : « الله اعلم بأهل البر منكم » وكذلك قوله : (ألمْ تَرَ الى الذين يزكون انفسهم) اي يعتقدون زكاءها ويخبرون به كما يزكي المزكيّ الشاهدَ فيقول عن نفسه ما يقول المزكي فيه كما قال تعالى :(بل الله يزكي من يشاء) اي هو الذي يجعله زاكيا ويخبر بزكاته وهذا بخلاف قوله : (قد أفلح من زكاها) فإنه من باب قوله : (هل لك إلى ان تزكى) اي تعمل بطاعة الله فتصير زاكيا ومثل قوله : (قد أفلح من تزكى) وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله : (زكاها) فقيل هو الله أي افلحت نفس زكاها الله ، وخابت نفس دسّاها وقيل : إن الضمير يعود على فاعل (أفلح) وهو (مَنْ) سواء كانت موصولة أو موصوفة فإن الضمير لو عاد على الله سبحانه لقال: قد افلح من زكاه ، وقد خاب من دساه ، والأولون يقولون مَنّ وإنْ كان لفظها مذكرا فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث مراعاة للمعنى وبلفظ المذكر مراعاة للفظ وكلاهما من الكلام الفصيح ، وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها فالأول كقوله:(ومنهم مَنْ يستمع اليك) فأفرد الضمير والثاني كقوله : (ومنهم من يستمعون اليك) قال المرجحون للقول

الأول : يدل على صحة قولنا ما رواه أهل السنن من حديث ابن ابي مليكة عن عائشة قالت : أتيت ليلة فوجدت النبي ﷺ يقول : « ربّ أعْطِ نفسي تقواها وزكها انت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية ، وان الله هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية والله هو المزكي والعبد هو المتزكّي والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمضارع والمطاوع قالوا والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني دون الأول ، كقوله : (قد افلح من تزكى) وقوله : (هل لك إلى ان تزكي) أي تقبل تزكية الله لك فتزكي قالوا :وهذا هو الحق فإنه لا يفلح إلا من زكاه الله . قال : وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس فانه قال في رواية علي بن ابي طلحة وعطاء والكلبي : قد افلح من زكى الله نفسه . وقال ابن زيد : قد افلح من زكى الله نفسه واختاره بن جرير قالوا : ويشبه لهذا القول قوله ايضاً في اول السورة : (فألهمها فجورها وتقواها) قالوا:وايضاً فإنه سبحانه أخبر انه خالق النفس وصفاتها ، وذلك في معنى التسوية قال اصحاب القول الآخر : ظاهر الكلام ونظمه يقتضي ان يعود الضمير على(من) أي قد افلح من زكى نفسه ، هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم ، بل لا يكاد يفهم غيره كما اذا قلت : هذه جارية ربح من اشتراها وصلاة قد سعد من صلاها ، وضالّة قد خاب من آواها ونظائر ذلك. قالوا : والنفس مؤنثة فلو عاد الضمير على الله لكان وجه الكلام: قد افلحت نفس زكاها لوقوع (مَنْ) على النفس . قالوا : وان جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ (مَنْ) كما تقول : افلح من قامت منكنّ فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس ، فإذاوقع الاشتباه لم يكن بُدٌ من ذكر ما يزيله ، قالوا : و (من) موصولة بمعنى (الذي) ولو قيل : قد افلح الذي زكاها الله لم يكن جائزاً لعود الضمير المؤنث على الذي وهو مذكر قالوا: وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه ، ولهذا فرغ الفعل من التاء واتى بـ (من) التي هي بمعنى الذي وهذا الذي عليه جمهور المفسرين ، حتى أصحاب ابن عباس .

وقال قتادة : (قد افلح من زكاها) من تحمل خيراً زكاها بطاعته . وقال ايضاً : قد افلح من زكى نفسه بعمل صالح ، وقال الحسن : قد افلح من زكى نفسه فاصلحها وحملها على طاعة الله ، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله ، وقال ابن قتيبة : يريد افلح من زكى نفسه أي أنماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة ، واصطناع المعروف ، (وقد خاب من دساها) أي نقصها وأخفاها بترك عمل البرّ وركوب المعاصي ، والفاجر أبداً خفي المكان زمن المروءة غامض الشخص ، ناكس الرأس، فمرتكب الفواحش قد دسّ نفسه وقمعها ، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها ، وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبىَ وبقاع الارض المشتهر أماكنها للمتعفين، وتوقد النار في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتخفي أماكنها على الطالبين واولئك أعلوا نفوسهم وزكوها ، وهؤلاء أخفوا نفوسهم ودسّوها وانشد :

رَبَوَاتُ بيتك في معـلم رحيب المبـاءة والمسرحِ
كفيت العفاة طلاب القِرىَ ونبح الكلاب لمستنبح

فهذان قولان مشهوران في الآية وفيها قول ثالث : ان المعنى خـاب من دسّ نفسه مع الصالحين وليس منهم ، حكاه الواحدي قال : ومعنى هذا أنه أخفى نفسه في الصالحين يُري الناس انه منهم ، وهو منطوٍ على غـير ما ينطوي عليه الصالحون ، وهذا وإن كان حقـاً في نفسه لكن في كونه هو المراد بالآية نظرٌ ، وانما يدخل في الآية بطريق العموم فإن الذي يدس نفسه بالفجور إذا خالطه أهل الخير دس نفسه فيهم والله اعلم .

الباب التاسع

في طهارة القلب من ادرانه ونجاساته

هذا الباب وإن كان داخلاً فيما قبله كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة فأفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته ، وشدة الحاجة اليها ، ودلالة القرآن

والسنة عليها . قال الله تعالى : (يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر) وقال تعالى : (اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم) الآية وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هـا هنا القلب والمراد بالطهارة هاهنا إصلاح الأخلاق والأعمـال قال الواحدي : اختلف المفسرون في معناه فروى عطاء عن ابن عباس قال : يعني من الإثم ، ومـا كانت الجاهلية تجيزه . وهذا قول قتادة ومجاهـد قال : نفسك طهر من الذنوب ، ونحوه قول الشعبي وابراهيم والضحاك والزهري ، وعلى هذا القول الثياب عبارة عن النفس،والعرب تكنى بالثياب عن النفس ومنه قول الشماخ:

رموها باثواب خفاف فلا ترى لهـا شبهاً إلا النعام المنفّرا

رموها يعني الركاب بأبدانهم وقال عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنـا بمحرم

وقال في رواية الكلبي يعني: لا تغدر فتكون غادراً دنس الثياب وقال سعيد ابن جبير : كان الرجل إذا كان غادراً قيل : دنس الثياب، وخبيث الثياب، وقال عكرمة : لا تلبس ثوبك على معصية ولا على فجر وروى ذلك عن ابن عباس واحتج بقول الشاعر :

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من خزيَةِ اتقنع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية : وعملك فاصلح ، وهـو قول أبي رزين ، وهو رواية منصور عن مجاهد وأبي روق وقال السُدّي : يقال للرجل إذا كان صالحاً إنه لطاهر الثياب ، وإذا كان فاجراً إنه لخبيث الثياب . قال الشاعر :

لا هُمّ إنّ عامرَ بن جهضم اوذم حجـا في ثياب دسم

يعني أنه متدنس بالخطايا . وكما وصفوا الغادر الفاجر بتـدنس الثياب ، وصفوا الصالح بطهارة الثوب . قال امرؤ القيس :

ثياب بني عوف طهارى نقيّة

يريد إنهم لا يغدرون بل يعفون . وقال الحسن : خلقك فحسّنه ، وهو قول القرطبي. وعلى هذا الثياب عبارة عن الخلق لأن خلق الانسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه ، وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية :لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائل . والمعنى طهّرها من أن تكون مغصوبة أو من وجه لا يحمل اتخاذها . وروي عن سعيد بن جبير : وقلبك فطهّر . وقال ابن عباس : الثياب اللباس ، ويقال : القلب . وعلى هذا ينشد :

فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية الى ظاهرها وقال : إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة ، وهو قول ابن سيرين وابن زيد. وذكر ابن إسحاق : وثيابك فقصّر ، قال : لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات ، فإنه إذا انجرّ على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه ، وهذا قول طاووس . وقال ابن عرفة : معناه نساءك طهرهن ، وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس ؛ قال الله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهنّ)، ويكنى عنهن بالإزار ، ومنه قول الشاعر :

ألا ابلغ أبا حفص رسولاً فِديً لك من أخي ثقة إزاري

أي أهلي . ومنه قول البراء بن معرور للنبي ﷺ ليلة العقبة : لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا أي نساءنا . قلت : الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم ، إن لم تتناول ذلك فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب ومكسبه تكميل لذلك فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك ، ولذلك حرم لبس جلود النمور والسباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح ، لا معارض لها ، لما يكتسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات ، فإن الملابسة الظاهرة تسري الى الباطن ، ولذلك حرّم لبس الحرير والذهب على الذكور ، لما

يكسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من غير النساء من الفخر والخيلاء . والمقصود ان طهارة الثوب وكونه من ملبس طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها ، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها ، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأموراً به ، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس فلا يتم إلا بذلك ، فبين دلالة القرآن على هذا وهذا قوله تعالى: (سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم عن مواضعه) مما يدل على ان العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه فإنه إذا قبل الباطل أحبّه ورضيه ، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرّفه كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها ، وهذه بكونها أخباراً ما ، ولا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته ، فهؤلاء واخوانهم من الذين (لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) فإنها لو طهرت لما تعوضت بالباطل عن كلام ورسوله ، كما ان المنحرفين من أهل الإرادة إذا لم يطهروا قلوبهم تعوّضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني . قال عثمان بن عفان – رضي الله عنه – : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله . والقلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخليصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن ، ولا يتغذى إلا بحقائقه ولا يتداوى إلا بأدويته ، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه بحسب ما فيه من النجاسة ، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض ، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح . ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله ، وانه سبحانه لمّا لم يُرِد أن يطهر قلوب القابلين للباطل ، المحرّفين للحق ، لم تحصل لها الطهارة . ولا يصح أن تفسر الإرادة هاهنا بالإرادة الدينية ، وهي الأمر والمحبة ، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمرا ومحبة ولم يرده منهم كوناً ، فأراد الطهارة لهم ، ولم يُرد وقوعها منهم لما له ذلك من الحكمة التي فوتها أكره اليه من فوات الطهاره منهم ، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر ،

ودلت الآية على ان من لم يطهر الله قلبه لا بـــد أن يناله الخزي في الدنيا ، والعذاب في الآخرة بحسب نجاسة قلبه ، وخبثـه ، ولهـذا حرّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث ، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وتطهيره ، فإنها دار الطيبين ، ولهذا يقال لهم : (طبتم فادخلوها خالدين) ، أي ادخلوها بسبب طيبكم . والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم ، كما قال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) ، فالجنة لا يدخلها خبيث ، ولا من فيه شيء من الخبث ، فمن تطهر في الدنيـا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها غير معوّق ، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحـــال ، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد أن يتطهر من تلك النجاسة ، ثم يخرج منها ، حتى أن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنـــة والنار ، فيهذبون وينقـّون من بقايا بقيت عليهم ، قصرت بهم عن دخول الجنة ، ولم توجب لهم دخول النار ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة ، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر ، ولذلك جعل الدخول الى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة ، فـلا يدخلها إلا طيّب طاهر . فهاتان طهارتان : طهارة البدن وطهـارة القلب ، ولهذا شرع للمتوضىء أن يقول عقب وضوئه : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابـين واجعلني من المتطهرين . فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء ؛ فلمـــا اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله والوقوف بين يديه ومناجاته . وسألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ : « اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد » ، وكيف تطهر الخطايا بذلك ؟ وما فـــائدة التخصيص بذلك ! ؟ وقـــوله في لفظ آخر : والماء البارد ، والحار ابلغ في الانقـــاء ؟ فقال : الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة ضعفاً فترخي القلب وتضرم فيـــه نار الشهوة فتنجسه فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمدّ النار ويوقدها ، ولهذا

كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه والماء يغسل الخبث ، ويطفيء النار ، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة ، وإن كان معه ثلج أو برد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدة التبريد وكان أذهب الأثر الخطايا هذا معنى كلامه وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح فاعلم أن ههنا اربعة أمور امران حِسّيّان وامران معنويان فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلهـــا حِسّيان وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلهـا معنويان ، وصلاح القلب ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا فذكر النبي ﷺ من كلّ شطر قسما نبّه به على القسم الآخر فتضمنت كلماته الأقسام الأربعة في غاية الاختصار وحسن البيان كما في حديث الدعاء بعد الوضوء : « اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » فقد تضمن ذكر الأقسام الأربعة ومن كمال بيانه ﷺ وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به يمثل الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس ، وهـــذا كثير في كلامه كقوله في حديث علي بن ابي طالب رضى الله عنه : « سل الله الهُدَى والسداد ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق وبالسداد سداد السهم » وهذا من أبلغ التعليم والنصح حيث أمره أن يذكر اذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته بكونه مسافراً قد ضل عن الطريق لا يدري أين يتوجه فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها فسأله ان يدله على الطريق فكذا شأن طريق الآخرة فمثل لها بالطريق المحسوس للمسافر ، وحاجة المسافر إلى الله سبحانه أن يهديه تلك الطريق اعظم من حاجته إلى بلد إلى من يدله على الطريق الموصل اليها وكذلك السداد وهو إصابة القصد قولاً وعملاً فمثل رامي سهم إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه فقد سدد سهمه ، واصاب ، ولم يقع باطلاً هكذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه وكثيراً ما يقرن في القرآن هذا وهذا فمنه قوله تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) فأمر الحاجّ بان يتزودوا لسفرهم ولا يسافروا بغير زاد ثم ينبههم على زاد سفر الآخرة وهو التقوى فكما انه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه اياه فكذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى

فجمع بين الزادين ومنه قوله تعالى : (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير) فجمع بين الزينتين زينة البدن باللباس وزينة القلب بالتقوى زينة الظاهر والباطن وقوله تعالى : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) فنفى عنه الضلال الذي هو عذاب القلب والروح والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف لما رأته النسوة اللائمات لها في حبه : (فذلكنّ الذي لُمتُنّني فيه) ، فأرتهنّ جماله الظاهر ، ثم قال : (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ، فأخبرت عن جماله الباطن بعفته ، فأخبرتهنّ بجمال باطنه ، وأرَتهنّ جمال ظاهره ، فنبّه النبي ﷺ بقوله : « اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد » على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويطريهما ، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا والله أعلم . وقريب من هذا انه — ﷺ — كان إذا خرج من الخلاء قال : « غفرانك ». وفي هذا من السر والله أعلم أن النجو يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه ، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه ، فهما مؤذيان مضرّان بالبدن والقلب ، فحمد الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذي لبدنه وراحته ، وسأله أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه . وأسرار كلماته وأدعيته فوق ما يخطر بالبال .

﴿ فصل ﴾

وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواط بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب ، وإن كانت مشتملة على ذلك ، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس) . وقوله في حق اللوطية : (ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) . وقالت اللوطية : (أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) ، فأقروا مع كفرهم وشركهم أنهم هم الأخباث الأنجاس ، وأن

لوطاً وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له . وقـــال تعالى في حق الزناة : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات) . فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة ، ونجاسة مخففة ؛ فالمغلظة : الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، والمخففـــة : الشرك الأصغر ، كيسير الرياء والتصنع للمخلوق والحلف به وخوفه ورجاؤه . ونجاسة الشرك عينية ،فلهذا جعل سبحانه المشرك نَجَساً – بفتح الجيم – ولم يقل : (إنما المشركون نجِس) – بالكسر – فإن النجَسَ عين النجاسة ، والنجِسُ – بالكسر – المتنجس ، فالثوب إذا أصابه بَوْلٌ أو خمر نجس ، والبـــول والخمر نجس ، فأنجس النجاسة الشرك بالله ، كما أنه أظلم الظلم ، فإن النجس في اللغة والشرع هو المستقذر الذي تطلب مباعدته والبعد منه ، بحيث لا يُلمَس ولا يُشَمّ ولا يُرى ، فضلاً عن أن يخالط ويُلابَس ، ومن كان أصح حياة كان إبعاده لذلك أعظم ، ونفرته منه أقوى ، فالأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن أو القلب ، أو تؤذيها معاً ، والنجس قد يؤذي برائحته وقد يؤذي بملابسته ، وإن لم تكن رائحته كريهة . والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسةً ظاهرة ، وتارة تكـــون معنوية باطنة ، فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة ، حتى أن صاحب القلب الحيّ ليشمُّ من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها ، كما يتأذى من يشم رائحة النـتن ، ويظهر ذلك كثيراً في عَرَقه حتى تجد لرائحة عرقه نتناً ، فـــإن نتن القلب والروح يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره والعرق يفيض من الباطن ولهذا كان الرجـــل الصالح طيب العرق وكان ﷺ أطيب الناس عرقا قالت أم سليم – وقد سألها عنه وهي تلتقطه–: من أطيب الطيب. فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدوا على الجسد والنفس الطيبة بضدها فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه أرض ولتلك كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه ارض والمقصود أن الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات كان ابغض الأشياء إلى الله وأكرهها له واشدها مقتا

لديه ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه وأخبر أنه لا يغفره وأن أهـــله نجس ومنعهم من قُرْبانِ حرمه ، وحَرَّم ذبائحهم ومناكحهم وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين ، وجعلهم أعداء له سبحانه ، وللائكته ورسله والمؤمنين ، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وان يتخذوهم عبيداً وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبيـــة وتنقص لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين كما قال تعالى : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السَّوء وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرا) فلم يجمع على أحـد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل « الشرك » فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى اشركوا به ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده ، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم : (ما قدروا الله حق قدره) في ثلاثة مواضع من كتابه ، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً يحبه ويخافه ويرجوه ، ويذل له ويخضع له ، ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وقال : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أي يجعلون له عـــدلاً في العبادة والمحبة والتعظيم وهـذه هي التسوية التي اثبت المشركون بين الله وبين آلهتهم وعرفوهم في النار انها كانت ضلالاً وباطـــلاً فيقولون لآلهتهم وهي في النار معهم : (إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسوّيكم برب العالمين) ومعلوم انهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا إن آلهتهم خلقت السموات والأرض وأنها تحيى وتميت وانما ساووها به في محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها كما ترى عليه أهـــل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام ، ومن العجب أنهم ينسبون أهـــل التوحيد إلى التنقص بالأنبياء والمشائخ والصالحين وما ذنبهم إلا أن قالوا : إنهم عبيدٌ لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضَراً ولا نفعاً ولا موتا ولا حيـــاة ولا نشوراً وانهم لا يشفعون لعابديهم أبداً بل قد حرم الله شفاعتهم لهم ولا يشفعون لأهـــل

التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة ، فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله لله والشفاعة كلها له سبحانه ، والولاية له فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله ولهذا قال إمام الحنفاء ابراهيم عليه السلام لخصمائه من المشركين . (أَئِفْكاً آلهةً دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين) وإن كان المعنى ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له نداً ؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد ماذا ظننتم بربكم من الشر حتى عبدتم معه غيره ؟ فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه محتاج إلى من يُدبِّر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو عون وهذا من أعظم التنقُّص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه فقير اليه بذاته ، وإما أن يظن انه سبحانه إنما تم قدرته بقدرة الشريك واما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم ، أو لا يكفي عبده أو لا يفعل ما يريد العبد حتى تشفع عنده الوساطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق ، فيحتاج ان يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثره به من القلة وتعززه به من الذلة ، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن يرفع تلك الحاجات اليه كما هو حال ملوك الدنيا ، وهذا أصل شرك الخلق ، أو يظن انه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم حتى ترفع الوسائط اليه ذلك ويظن أن للمخلوق عليه حقاً فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ، ويتوسل إلى الله بذلك المخلوق كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفه ، وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها ، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة اليه من قلب المشرك بسبب قسمه ذلك بينه سبحانه وبين من اشرك به فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده دونه ، فالشرك ملزوم بتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة ، شاء المشرك أم أبى ، ولهذا اقتضى سبحانه وكمال ربوبيته ألا يغفره وان يخلد صاحبه في العذاب الأليم ، ويجعله أشقى البرية ، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو

متنقص لله سبحانه وإن زعم أنه معظم له بذلك كما أنك لا تجد مبتدعاً إلا وهو متنقص لرسوله ﷺ وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة ، فإنه يزعم انها خير من السنة وأولى بالصواب، ويزعم أنها هي السنة إن كان جاهلاً مقلداً، وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاق لله ورسوله، فالمتنقصون منقوصون عند الله ورسوله واوليائه هم اهل الشرك والبدعة، لا سيما من بني دينه على أن كلام الله ورسوله ادلة لفظية لا تفيد اليقين ولا تغني من اليقين والعلم شيئاً ، فيا لله وللمسلمين !! ، أي شيء فات هذا من التنقص؟ وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب سبحانه خشية ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم، فقد جاء من التنقص بضد ما وصف الله سبحانه به نفسه من الكمال، والمقصود أن هاتين الطائفتين اهل التنقص في الحقيقة بل هم أعظم الناس تنقصاً لبَّس عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال ، ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله سبحانه قال تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) فالإثم والبغي قرينان ، والشرك والبدعة قرينان .

﴿ فصل ﴾

وأما نجاسة الذنوب والمعاصي فإنها بوجه آخر فإنها لا تستلزم تنقص الربوبية ولا سوء الظن بالله ، ولهذا لم يرتب الله عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك ، ولهذا استقرت الشريعة على انه يعفى عن النجاسات المخففة كالنجاسة في محل الاستجمار وأسفل الخف والحذاء وبول الصبي الرضيع ، وغير ذلك ما لا يعفى عن المغلظة وكذلك يعفى عن الصغائر ما لا يعفى عن الكبائر ، ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك ، فلو لقى الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة، ربّه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابَهُ بالشرك فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه الشرك لا يبقى معه

ذنب ، فإنه متضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض ، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي فلا تثبت معه ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات من اجل انها تفسد القلب وتضعف توحيده جداً ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة اكثرهم شركا . فكلما كان اعظم اخلاصاً كان منها أبعد كما قال تعالى عن يوسف : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبد لها بل هو من أعلى انواع التعبد ، ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه ، صار تتيماً والتتيم التعبد فيصير العاشق عابداً للمعشوقة وكثيراً ما يغلب حبه وذكره والشوق اليه والسعي في مرضاته بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ، فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله ، يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه ، ويتقرب اليه بما لا يتقرب إلى الله وينفق في مرضاته ما لا ينفق في مرضاة الله ، ويتجنب من سخطه ما لا يتجنب من سخط الله فيصير عنده آثر من ربه حباً وخضوعاً وذلاً وسمعاً وطاعة ، ولهذا كان الشرك والعشق متلازمين ، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط وعن امرأة العزيز وكانت إذ ذاك مشركة فكلما قوي شرك العبد بُلِيَ بعشق الصور وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه والزنا واللواط كمال لذاته إنما يكون مع العشق ولا يخلو صاحبهما منه وانما بتنقله من محل إلى محل لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد، بل ينقسم على سهام كثيرة لكل محبوب نصيبه من تألهه وتعبده، فليس في الذنوب افسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله فإنهما من أعظم الخبائث ، فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيّب لا يصعد اليه إلا الطيب وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً ، ولهذا قال المسيح فيما رواه احمد في كتاب « الزهد » : لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا تلج الزناة ملكوت السماء . ولما كانت هذه حال الزنا كان قريناً للشرك في كتاب الله تعالى . قال تعالى : (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا

ينكحها إلا زانٍ أو مشرك) الآية والصواب القول بأن هذه الآية محكمة يعمل لم ينسخها شيء وهي مشتملة على خبر وتحريم ولم يأت من ادّعىَ نسخها بحجة البتة ، والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله فإنهم أشكل عليهم قوله : (الزاني لا ينكح إلا زانية ، أو مشركة) هل هو خبر أو نهي أو إباحة فان كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكحون عفيفة وان كان نهياً فقد نهى الزاني ان يتزوج إلا بزانية او مشركة فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف واباحة له نكاح المشركات والزواني والله لم يُردْ ذلك قطعاً ، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجها يصح حملها عليه . فقال بعضهم : المراد من النكاح الوطيء والزنا فكأنه قال : لا يزني إلا بزانية أو الشركة وهذا فاسد فإنه لا فائدة فيه ويُصَان كلام الله عن حمله على مثل ذلك فإنه من المعلوم ان الزاني لا يزني إلا بزانية فأي فائدة في الاخبار بذلك ؟ ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل اعرضوا عنه . ثم قالت طائفة : هذا عام اللفظ خاص المعنى والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة وهي عناق البغي وصاحبها فإنه أسلم واستأذن رسول الله ﷺ في نكاحها فنزلت هذه الآية وهذا أيضاً فاسد فإن هذه الصورة المعنية وان كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه ولو كانت كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها وقالت طائفة : بل الآية منسوخة بقوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم) وهذا أفسد من الكل ، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين ولا تناقض إحدهما الأخرى بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامىَ وحرم نكاح الزانية كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة وذوات المحارم فأين الناسخ والمنسوخ في هذا ؟ فإن قيل : فما وجه الآية ؟ قيل وجهها والله اعلم أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة وإنما ابيح له نكاح المرأة بهذا الشرط كما ذكر ذلك في سورتي النساء والمائدة والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه والاباحة قد علقت على شرط الإحصان فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة . فالمتزوج إما أن

يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله أو لا يلتزمه فهو مشرك لا يرضي بنكاحه ، إلا من هو مشرك مثله ، وان التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه لم يصح النكاح فيكون زانيا، فظهر قوله : (لا ينكح إلا زانية أو مشركة) وتبين غاية البيان وكذلك حكم المرأة وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة ومقتضى العقل،فإنه سبحانه حرم على عبده أن يكون قرناناً ديوثا زوج بَغيّ فإن الله فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه ، ولهذا إذا بالغوا في سبّ الرجل قالوا : زوج قحبة فحرم الله على المسلم ان يكون كذلك ، فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية والله اعلم . ومما يوضح التحريم وانه هو الذي يليق بالشريعة الكاملة ان هذه الخيانة من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب الذي جعله الله بين الناس لتمام مصالحهم وعَدّهُ من جملة نعمه عليهم فالزنا يفضي إلى اختلاط المياه واشتباه الانساب ، فمن محاسن الشريعة تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وتُستَبْرأ كما تقدم بيانه والله سبحانه جعل النكاح سبباً للمودة والرحمة ،والمودة خالص الحب فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب زوجاً له ؟ والزوج سمي زوجاً من الإزدواج وهو الاشتباه فالزوجان الاثنان متشابهان والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقدراً فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد ولقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة، فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة وقدوطأها الزاني البارحة وقال : ماء الزاني لا حرمة له فهب أن الأمر كذلك فماء الزوج له حرمة . وكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد ؟ والمقصود أن الله سمي الزواني والزناة خبيثين وخبيثات ، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة وإن كان حلالاً ، وسمى فاعله جُنُباً لبعده عن قراءة القرآن وعن الصلاة وعن المساجد ، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء فكذلك إذا كان حراماً يبعد القلب عن الله والدار الآخرة ، بل يحول بينه وبين الإيمان حتى

يحدث طهوراً كاملاً بالتوبة وطهراً لبدنه بالماء ، وقول اللوطية : (أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود : (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وقوله : (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله) الآية وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده التوحيد وأنه لا يشوبه بالإشراك،وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنّي تجريده متابعة الرسول ﷺ وأنه لم يشبها بآراء الرجال ولا بشيء مما خالفها فصبر الموحد المتبع للرسول ﷺ على ما ينقمه عليه اهل الشرك والبدعة خير له وانفع واسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله من موافقة أهل الشرك والبدعة :

إذا لم يكن بدٌ من الصبر فاصطبر على الحق ذاك الصبر تحمد عقباه

الباب العاشر

في علامات مرض القلب وصحته

كل عضو من أعضاءالبدن خلق لفعل خاص به، كما لهفي حصول ذلك الفعل منه ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب فمرض اليدين أن يتعذر عليها البطش ومرض العين أن ان يتعذر عليها النظر والرؤية ، ومرض اللسان ان يتعذر عليه النطق،ومرض البدن أن يتعذر عليه حركته الطبيعية ، أو تضعف ، ومرض القلب أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابةإليه ، وإيثار ذلك على كل شهوة فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئاً ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين ، بل اذا كان القلب خالياً من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بُدّ فيصير معذباً بنفس ما كان منعما به من جهتين من جهة حسرة فوته وأنه حيل

بينه وبينه مع شدة تعلق روحه به ومن جهة فوت ما هو خير له وانفع وأدوم ، حيث لم يحصل له فالمحبوب الحاصل فات والمحبوب الأعظم لم يظفر به وكل من عرف الله أحبه وأخلص العبادة له ،ولا بُدَّ ، ولا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض كما أن المعدة اذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب ، وتعوضت بمحبة غيره ، وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرفه صاحبه ، لاشتغاله وانصرافه عن معرفته وصحته وأسبابها ، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته ، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة . فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحق بسبب حياته ، وما لجرح بميّت إيلامُ ، وقد يشعر بمرضه فيشق عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فيوثر بقاء ألمه على مشقة الدواء فإن دواءه في مخالفة الهوى . وذلك أصعبُ شيء على النفس وليس لها أنفع منه وقارة يوطن نفسه على الصبر ، ثم ينفسخ عزمه ، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره ، كمن دخل في طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف ، وأعقبه الأمن ، وهو يحتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه ، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ولاسيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول : أين ذهب الناس فلي بهم أسوة . وهذه حال أكثر الخلق وهي التي أهلكتهم فالمتصبر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولقد سئل إسحق بن راهويه عن مسألة فأجاب عنها فقيل له : إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها مثل قولك فقال: ما ظننت أن أحداً يوافقني عليها ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافق فان الحق إذا لاح وتبين لم يحتج إلى شاهد يشهد به ، والقلب يبصر

الحق كما تبصر العين الشمس فإذا رأى الرائي الشمس لم يحتج في علمه بها واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد له بذلك ، ويوافقه عليه وما أحسن ما قال أبو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب «الحوادث والبدع» حيث جاء الامر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وان كان المتمسك قليلاً والمخالف له كثيراً لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه ولا نظر الى كثرة أهل الباطل بعدهم قال عمرو ابن ميمون الأودي : صحبت معاذاً باليمن فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام ثم صحبت بعده أفقه الناس عبدالله بن مسعود فسمعته يقول : عليكم بالجماعة فإنّ يد الله على الجماعة ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول : سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة وصلوا معهم فإنها لكم نافلة قال : قلت يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون؟ قال : وماذا ؟ قلت : تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ثم تقول : صل الصلاة وحدك وهي الفريضة ، وصل مع الجماعة وهي نافلة قال : يا عمرو بن ميمون قد كنت أظن أنك من أفقه أهل هذه القرية تدري ما الجماعة ؟ قلت : لا . قال : إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة ، الجماعة ما وافق الحق وان كنت وحدك . وفي طريق أخرى فضرب على فخذي وقال : ويحك إن جمهور الناس فارقوا الجماعة ، وان الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل . قال نعيم بن حماد : يعني اذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن يفسدوا وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ ذكره البيهقي وغيره. ونقل أبو شامة عن الحسن البصري قال السنة — والذي لا إله إلا هو — بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي ، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ولا مع أهل البدع في بدعهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك ان شاء الله فكونوا وكان محمد بن اسلم الطوسي الامام المتفق على إمامته من أتبع الناس للسنة في زمانه حتى قال : ما بلغني سنة عن رسول

الله ﷺ إلا عملت بها ، ولقد حرصت أن أطوف بالبيت راكباً فما مكنت من ذلك فسئل بعض أهل العلم في زمانه عن السواد الأعظم الذي جاء فيهم الحديث إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الاعظم من السواد الأعظم ؟فقال: محمد بن اسلم الطوسي هو السواد الأعظم ، وصدق والله فإن العصر إذا كان فيه إمام عارف بالسنة داع اليها فهو الحجة وهو الاجماع وهو السواد الأعظم وهو سبيل المؤمنين ، والجماعة التي من فارقها واتبع سواها ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا، والمقصود أن من علامات أمراض القلوب عدو لها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة وعدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار فهنا أربعة أمور غذاء نافع ودواء شافٍ وغذاء ضار ، ودواء مهلك ، فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي والقلب المريض ضد ذلك ، وانفع الأغذية غذاء الإيمان وأنفع الأدوية دواء القرآن ، وكل منهما فيه الغذاء والدواء ، ومن علامات صحته أيضاً ان يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها فإنه جاء إلى هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته ويعود الى وطنه كما قال ﷺ لعبدالله بن عمر : « كُنْ في الدنيـــا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور » شعرا :

فحيّ على جنات عَدْنٍ فإنها منـــازلك الأولى وفيها المخيّمُ
ولكننا سَبْيُ العدوّ فهل ترى نعود إلى اوطانن ـــا ونسلمُ ؟

وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه : إن الدنيا قـد ترحلت مدبرة وان الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، فكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها ، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها ، ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر الى محبوبه الذي لا حياة

له ولا فلاح ، ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه ، والانس به ، فبه يطمئن واليه يسكن ، واليه يأوي وبه يفرح وعليه يتوكل ، وبه يثق وإياه يرجو ، وله يخاف ، فذكره قوته وغذاه ومحبته والشوق اليه حيـــاته ولذته ونعيمه وسروره ، والالتفاف الى غيره والتعلق بسواه داؤه والرجوع اليه دواؤه ، فإذا حصل له ربه سكن اليه واطمأن به ، وزال ذلك الاضطراب والقلق وانسدت تلك الفاقة فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبداً ، وفيه شعث لا يلمه غير الاقبال عليه ، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له ، وعبادته وحده فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهـــه ومعبوده ، فحينئذ تباشر روحه الحيـــاة ويذوق طعمها ، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين ، المعرضين عن هذا الأمر الذي لهخلق الخلق ولأجله خلقت الجنة والنار ، ولأجله ارسلت الرسل وانزلت الكتب ، ولو لم يكن له جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة كما قيل في هذا المعنى :

ومن صدَّ عنا حظه البعد والقلا ومن فُتُّه يكفيه أني أفوتهُ

قال بعض العارفين: مساكين اهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها قال محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته ، وقال آخر إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر : والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته ، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته ، وقال ابو الحسين الوراق: حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت والعيش الهني الحياة مع الله تعالى لاغير ، ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله اشد عليهم من الموت لأنَّ الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق ، فكم بين الانقطاعين . وقال آخر : من قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات ، وقال يحيى بن معاذ : من سُرَّ بخدمة الله قرت عيون كل أحـد

بالنظر اليه. ومن علامات صحة القلب ألا يفتر من ذكر الله ولا يسأم من خدمته ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه ويذكره لهذا الأمر. ومن علامات صحته انه إذا فاته ورده وجد لفوته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده ومن علامات صحته ان يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب ومن علامات صحته أن يكون همه واحد وان يكون الله ، ومن علامات صحته إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ، واشتد عليه خروجه منها ووجد فيها راحته ونعيمه وقرة عينه وسرور قلبه، ومن علامات صحته أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحا بماله ، ومنها أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل فيحرص على الاخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والاحسان ويشهد مع ذلك منة الله عليه فيه وتقصيره في حق الله فهذه ست مشاهد ، لا يشهدها إلا القلب الحي السليم، وبالجملة فالقلب الصحيح هو الذي همه كله في الله ومحبته كلها له وقصده له وبدنه له واعماله له ونومه له ويقظته له وحديثه والحديث عنه اشهى اليه من كل حديث وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابّه والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب اليه وارضى له فبذلك قرة عينه به وطمأنينته وسكونه اليه ، فهو كلما وجد في نفسه التفاتا الى غيره تلى عليها : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) فيردد عليها الخطاب بذلك لتسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده ، فالحق يصبغه بالعبودية صبغة وذوقا ، لا تكلفا ونطقا ، فيأتي بها تودداً وتحببا وتقربا كما يأتي المحب المتيم في محبّة محبوبه بخدمته وقضاء اشغاله فكلما عرض من ربه أمر أو نهي أحس من قلبه ناطقا ينطق: لبيك وسعديك أي سامع مطيع ممتثل، ولك على المنة في ذلك والحمد فيه عائد اليك وإذا أصابه قدر وجد من قلبه ناطقا يقول انا عبدك ومسكينك وفقيرك ، وأنا العبد الفقير العاجز الضعيف المسكين وأنت ربي العزيز الرحيم ، لا صبر لي إن لم تصبرني ولا قوة لي ان لم تحملني

وتقويني ، لا ملجأ لي منك إلا اليك ولا مستعان إلا بك ولا انصراف لي عن بابك ، ولا مذهب لي عنك ، فينطرح بين يديه بمجموعه ويعتمد بكليته عليه ، فان أصابه بما يكره قال : رحمة أهديتْ لي أو دواء نافع من طبيب مشفق ، وإن صرف عنه ما يحب قال شرٌّ صرف عني .

وكم رمْت أمراً خرت لي في انصرافه وما زلتَ بي مني أبر وأرحما

فكلما مسه به من السراء أو الضراء اهتدى به طريقاً اليه ، وانفتح له منه بابٌ يدخله منه عليه كما قيل :

ما مسني قدر بكره أو رضا إلا اهتديت به اليك طريقا
أمض القضاء على الرضا مني به إني وجدتك في البلاء رفيقا

فلله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر ، وماذا أودعت من الكنوز والذخاير ، ولله طيب أسرارها ولا سيما يوم تبلى السرائر ، تا الله لقد رفع لها علم عظيم فشمرت اليه واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه ، ودعاها ما دون مطلوبها الاعلى فلم تستجب له واختارته على ما سواه وآثرت ما لديه .

الباب الحادي عشر

في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه

هذا الباب كالأساس لما بعده من الأبواب ، فإن سائر الأمراض انما تنتهي من جانب النفس فالمواد الفاسدة كلها اليها تنصب ثم تنبعث منها إلى الأعضاء ، وأول ما ينال القلب وقد كان رسول الله ﷺ يقول في خطبة الحاجة « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » وفي المسند والترمذي من حديث حصين بن المنذر ان رسول الله ﷺ قال : « يا حصين كم تعبد إلهاً »؟ قال : سبعة : ستة في الأرض

وواحد في السماء قال: : « فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك »قال : الذي في السماء قال : « أسلم حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بها » فأسلم فقال له : قل اللهم الهمني رشدي وقني شر نفسي » وقد استعاذ النبي ﷺ من شرها عموماً ومن شر ما يتولد منها من الاعمال ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات وجمع بين الاستعاذة من شر النفس وسيئات الأعمال وفيه وجهان أحدهما انه من باب إضافة النوع إلى جنسه أي أعوذ بك من هذا النوع من الأعمال والثاني أن المراد به عقوبات الأعمال التي تسوء صاحبها فعلى الأول يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها وعلى الثاني يكون قد استعاذ من العقوبات وأسبابها ويدخل العمل السيء في شر النفس فهل المعنى ما يسوءني من جزاء عملي ؟ أو من عملي السيء ؟ وقد يترجح الاول بان الاستعاذة من العمل السيء بعد وقوعه انما هي استعاذة من جزائه وموجبه وإلا فالموجود لا يمكن رفعه بعينه وقد اتفق السالكون الى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب والوصول إلى الرب ، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد تركها وإماتتها بمخالفتها والظفر بها فإنّ الناس على قسمين قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعاً لها تحت أوامرها ، وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعاً لهم منقادة لأوامرهم كما قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفربانفسهم فمن ظفر بنفسه أفلح ونجح ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك ، قال الله تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) . فإن النفس تدعو إلى الطغيان ، وإيثار الحياة الدنيا ، والرب يدعو العبد إلى خوفه ونَهْي النفس عن الهوى ، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة وهذا موضع المحنة والابتلاء وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات المطمئنة والأمّارة بالسوء واللوّامة ، فاختلف الناس هل النفس

واحدة وهذه أوصاف لها أم للعبد ثلاثة أنفس نفس مطمئنة ، ونفس لوّامة ونفس أمّارة والأول قول الفقهاء والمتكلمين وجمهور اهـــل التفسير ، وقول محققي الصوفية ، والثاني قول كثير من اهل التصوف ، والتحقيق أنه لا نزاع بين الفريقين في أنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاثة باعتبار صفاتها ، فاذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة ، وان اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة ، وما أظنهم يقولون لكل احد ثلاثة أنفس ، كل نفس قائمة بذاتهـــا مساوية للأخرى في الحدّ والحقيقة ، وأنه اذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس ، كل واحدة مستقلة بنفسها ، وحيث ذكر سبحانه النفس وأضافها إلى صاحبها فإنما ذكرها بلفظ الإفراد وهكذا في سائر الأحاديث ، ولم يجيء في موضـــع واحد نفوسك ونفوسه ولا أنفسك وأنفسه ، وانما جاءت مجموعـة عند إرادة العموم كقوله (وإذا النفوس زوجت) وعند اضافتها الى الجمع كقوله: إنمـــا انفسنا بيد الله ولو كانت في الانسان ثلاثة انفس جاءت مجموعـة اذا اضيفت اليه ولو في موضع واحـــد ، فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت اليه واشتاقت الى لقائه وأنست بقربه فهي مطمئنة وهي التي يقال لها عند الموافاة : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربـــك راضية مرضية) يقول : المصدقـــة . وقال قتادة هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى مـــا وعد الله وقال الحسن : المطمئنة بما قـــال الله والمصدقة بمـــا قال . وقال مجـــاهد هي المنيبة المخبتة التي ايقنت أن الله ربهـــا وضربت جأشاً لأمره وطاعته ، وأيقنت بلقائه ، وحقيقة الطمأنينة السكون والاستقرار ، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وامره وذكره ، لم تسكن إلى سواه ، اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره واطمأنت إلى التصديق بحقائق اسمائه وصفاته، واطمأنت الى الرضا به ربّا وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، واطمأنت إلى قضائه وقدره واطمأنت إلى كفايته وحسبه وضمانه، واطمأنت بأنه وحده ربها ومعبودها وإلهها ومليكها ومالك أمرها ، وان مرجعها اليه ، وأنها لا

غنى لها عنه طرفة عين ، وإذا كانت بضدّ ذلـــك فهي أمّارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغيّ واتباع الباطل فهي مأوى كل سوء ان أطاعها قادته إلى كل قبيح ومكروه ، وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء ولم يقل آمرة بالسوء لكثرة ذلك منها ، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير ، فذلك من رحمة الله لا منها فإنها بذاتها أمارة لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة والعلم والعدل طارىء عليهـا بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها، فلم تكن إلا امارة بموجب الجهل والظلم، فلول فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة ، فاذا اراد الله سبحانه بها خيراً جعل منها ما تزكو به وتصلح من الارادات والتصورات وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالهـا التي خلقت عليها من الجهل والظلم،وسبب الظلم إما جهل واما حاجة وهي في الأصل جاهلة ، والحاجة لازمة لها فلذلك كان أمرها بالسوء أمراً لازماً لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله ، وبهذا يعلم ان ضرورة العبد الى ربـــه فوق كل ضرورة ، ولا يشبهها ضرورة تقاس بها ، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك .

﴿ فصل ﴾

وأما النفس اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة ، هل هو من التلوّم وهو التلوّن والتردّد أو من اللؤم ؟ وعبارات السلف تـــدور على هذين المعنيين . قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : ما اللوامـــة ؟ قال : هي النفس تلوم . وقال مجاهد : هي التي تندم على ما فـات وتلوم عليه . وقال قتادة : هي الفاجرة . وقال عكرمة : تلوم على الخير والشر . وقـال عطا عن ابن عباس : كل نفس تلوم صاحبها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد احساناً، ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته. وقال الحسن : ان المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته ، يستقصرها في

كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه ، وإن الفاجر يمضي قُدُماً لا يعاتب نفسه ؛ فهذه عبارات من ذهب إلى انها من اللوم ، وأما من جعلها من التلوُّم فلكثرة تردّدها وتلوّمها وانها لا تستقر على حال واحدة ، والأول أظهر ، فإن هذا المعنى لو أريد لقيل : المتلوّمة ، كما يقال : المتلوّنة والمترددة ، ولكن هو من لوازم القول الأول ، فإنها لتلوّمها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه ، فالتلوُّم من لوازم اللوم ، والنفس قد تكون تارة أمّارة ،وتارة لوّامة ،وتارة مطمئنة ، بل هي في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا ، والحكم للغالب من أحوالها ، فكونها مطمئنة وصف مدح لها ، وكونها أمّارة بالسوء وصف ذمّ لها ، وكونها لوّامة منقسم إلى المدح والذم بحسب ما تلوم عليه . والمقصود ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمّارة عليه ، وله علاجان : محاسبتها ومخالفتها . وهلاك القلب من إهمال محاسبتها ومن موافقتها واتباع هواها . وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني » . دانَ نفسه : أي حاسبها : وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال : حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا ، وَزِنوها قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية على الله . وذكر أيضاً عن الحسن: لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه : ماذا أردت بكلمتي ؟ ماذا أردت بأكلتي ؟ ماذا أردت بشربتي ؟ والفاجر يمضي قُدُماً لا يحاسب نفسه . وقال قتادة :في قوله تعالى : (وكان أمره فرطاً) : أضاع نفسه وغبن مع ذلك تراه حافظاً لماله ، مضيعاً لدينه . وقال الحسن : ان العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته . وقال ميمون بن مهران : لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشدّ محاسبة من الشريك ، ولهذا قيل : النفس

كالشريك الخوّان ، إن لم تحاسبه ذهب بمالك . وقال ميمون أيضا : إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان قاهر ومن شريك شحيح . وذكر الإمام أحمد عن وهب قال : مكتوب في حكمة داود :حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها مع اخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يُخلّي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل ، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات وإجماماً للقلوب.وقد روى هذا مرفوعاً من كلامه ﷺ رواه أبو حاتم ابن حبان وغيره . وكان الأحنف بن قيس يجيء الى المصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول : حسّ يا حُنيف !! ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟! وكتب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى بعض عماله : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدّة ، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغبطة ، ومن ألهته حياته وأشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة . وقال الحسن :المؤمن قوّام على نفسه لله ، وإنما يخفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إني لاشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة اليك ، هيهات حيل بيني وبينك ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالي ولهذا والله لا أعود إلى هذا أبداً ، إن المؤمنين قوم وقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله ليعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله ، وقال مالك بن دينار : رحم الله عبداً قال لنفسه ألست صاحبة كذا ؟ الست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله عز وجل وكان لها قائداً . وقد مثلت مع صاحبها بالشريك في المال وكما

أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولاً ثم بمطالعة ما يعمل والإشراف عليه ومراقبته ثانياً ثم بمحاسبته ثالثاً ثم بمنعه من الخيانة إن اطلع عليها رابعاً فكذلك النفس يشارطهـــا أولاً على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال والربح بعد ذلك، فمن ليس لهرأس مال فكيف يطمع في الربح وهذه الجوارح السبعة هي العين والأذن والفم واللسان والفرج واليد والرجل هي مركب العطب والنجاة فمنها عطب من عطب باهمالها وعدم حفظها ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها ، فحفظها أساس كل خير ، وأهمالها أساس كل شر قال تعالى : (قـــل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم) .

وقال : (ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض) وقـال : (ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كانعنه مسؤولا) وقال : (قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) . وقال : (يا إيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) وقال : (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) .

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح وانتقل منها إلىمطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها فلا يهملها فإنه إن أهملها لحظة وقعت في الخيانة ولا بُدّ فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة ، حتى يذهب رأس المال كله فمتى أحسّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة ، فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران ، فإذا احس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه من الرجوع عليه بما مضى والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره فإنه لا بُدّ له منهفليجتهد في مراقبته ومحاسبته وليحذر من إهماله ويعينه على هـــذه المراقبة والمحاسبة معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوماستراح منهاغداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدا ويعينه عليها ايضاً معرفته أن ربح

هذه التجارة سكنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه ، وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب ، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ،ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطواتها ، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا خطر لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فاضاعة هذه الأنفاس أو مشترى صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً وإنما يظهر لهم حقيقة هذا الخسران يوم التغابن (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سُوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) .

﴿ فصل ﴾

ومحاسبة النفس نوعان ، اما الأول فهو يقف عند أول همته وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه. قال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر . وشرح هذا بعضهم فقال : إذا تحولت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولاً ونظر هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور له ولا مستطاع فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه ، وان كان مقدوراً وقف وقفة أخرى ونظر هل فعله خير له من تركه أو تركه خير له من فعله فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه ، وان كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر هل الباعث عليه إرادة وجه الله وثوابه أم ارادة الجاه والثناء والمال من المخلوق ، فإن كان الثاني لم يقدم عليه وإن أفضى إلى مطلوبه لئلا تعتاد النفس الشرك ويخف عليها العمل لغير الله ، فبقدر ما يخفُّ عليها ذلك يثقل عليها العمل لله حتى يصير أثقل شيء عليها ، وان كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معانٌ عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجاً إلى ذلك أم لا . فإن لم يكن له اعوان أمسك عنه كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار ، وان وجده

مُعاناً عليه فليقدم عليه فإنه منصور ، ولا يفوت النجاح إلا من فوات خصلة من هذه الخصال وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح . فهـــذه اربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل ، فما كلما يريد العبد فعـــله يكون مقدوراً له ، ولا كلما يكون مقدراً له يكون فعله خيراً لهمن تركه، ولا كلما يكون فعله خيراً من تركه يفعله لله ولا كل ما يفعله لله يكون معاناً عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه وما يحجم عنه .

﴿ فصل ﴾

النوع الثاني محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع أحدها محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي ، وحق الله في الطاعات بمراعاة ستة أمور تقدمت ، وهي الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه ، ومتابعة الرسول ﷺ فيه ، وشهود مشهد الإحسان فيه ، وشهود منة الله عليه فيه ، وشهود تقصيره فيه ، بعد ذلك كله فيحاسب نفسه هل وفي هذه المقامات حقها وهل أتي بها في هذه الطاعة ؟.الثاني أن يحاسب نفسه على عمل كان تركه خيراً له من فعله ، الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لمَ فعله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحاً فيه أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به .

﴿ فصل ﴾

واضر ما عليه الإهمال وترك المحـــاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور ، وتمشيتها فإن هذا يؤول إلى الهلاك ، وهذه حال أهل الغرور ، يغمض عينه عن العواقب ، ويمشي على الحال ، ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه ، والنظر في العاقبة ، فإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطامها ولو حضره رشده لعـــلم أن الحمية أسهل من الفطـــام وترك المألوف والمعتاد .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني رجل من قريش ذكر أنه من ولد طلحة بن

عبيدالله قال : كان توبة بن الصمة بالرقة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوماً فاذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي احدى وعشرون الف يوم وخمسمائة يوم،فصرخ فقال: يا ويلتى ألقى ربي بأحدوعشرين الفذنب وخمسمائة كيف؟ وفي كل يوم آلاف من الذنوب ؟ ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت رحمه الله فسمعوا قائلاً يقول : يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى . وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض فان تذكر فيها نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسب نفسه على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاًتداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله ، ثم يحاسبها بما تكلم به لسانه أو مشت به رجلاه أو بطشته يداه أو سمعته أذناه ماذا أردت بهذا ولمن فعلته وعلى أي وجه فعلته ؟ ويعلم انه لا بد أن ينشر لكل حركةو كلمة منه ديوانان لم فعلته وكيف فعلته فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني سؤال عن المتابعة . قال الله تعالى : (فوربك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال : (فلنسألنّ الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين ، فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) وقال : (ليسأل الصادقين عن صدقهم) فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين ؟ قال مقاتل : يقول الله اخذنا ميثاقهم لكي نسأل الصادقين يعني به النبيين عن تبليغ الرسالة وقال مجاهد : نسأل المبلغين المؤدين عن الرسل ، يعني هل بلغوا عنهم كما نسأل الرسل هل بلغوا عن الله والتحقيق ان الآية تتناول هذا وهذا فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم فيسأل الرسل عن تبليغ رسالاته ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغتهم الرسل ، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسل ماذا أجابوا المرسلين كما قال تعالى : (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقال قتادة : كلمتان يُسأل عنها الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا اجبتم المرسلين فيسأل عن المعبود وعن العبادة.قال تعالى (ولتُسألن يومئذعن النعيم)

قال محمد بن جرير : يقول تعالى ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا ماذا عملتم فيه ومن اين وصلتم اليه وفيم أصبتموه وماذا عملتم به ، وقال قتادة : ان الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمته وحقه والنعيم المسؤول عنه نوعان : نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه فيسأل عن مستخرجه وعن مصرفه فإذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء حتى على سمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى : (إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً) فهو حقيق ان يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب ، وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) يقول تعالى : لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة هل هو من الأعمال الصالحة التي تنجيه أم السيئات التي توبقه . قال قتادة : ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغدٍ ، والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس وفساده بإهمالها والاسترسال معها .

﴿ فصل ﴾

وفي محاسبة النفس عدة مصالح منها الاطلاع على عيوبها ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته فإذا أطلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى وقد روى الامام أحمد عن أبي الدرداء قال : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً وقال مطرف بن عبدالله: لولا ما أعلم من نفسي لمقتُّ الناس وقال مطرف في دعائه بعرفة ، اللهم لا ترد الناس لأجلي . وقال بكر بن عبدالله المزني : لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم. وقال أيوب السختياني : إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل . ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب وحماد بن سلمة فقال له حماد يا أبا عبدالله أليس قد أمنت ممن كنت تخافه وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين ؟ فقال : يا أبا سلمة ايطمع

لمثلي أن ينجو من النـــار ؟ قال : إي والله إني لأرجو ذلك وذكر عن مسلم بن سعيد الواسطي قال اخبرني حماد بن جعفر بن زيد أن أباه أخبره قال: خرجنا في غزوة الى كابل وفي الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فصلوا ثم اضطجع فقلت لأرمقن عمله فالتمس غفلة الناس حتى إذا قلت هدأت العيون وثب فدخل غيضة قريباً منا ودخلت على أثره فتوضأ وقام يصلي فجاء أسد فدنا منه فصعدت في شجرة فتراه التفت أو عده جروا فلما سجد قلت : الآن يفترسه ، فجلس ثم سلم ثم قال : أيها السبع أطلب الرزق من مكان آخر فولى وإن له لزئيراً أقول تصدع الجبال منه قال فما زال كذلك حتى كان عند الصبح ثم جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها ثم قال : اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ومثلي يجتريء أن يسألك الجنة ؟ قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا ، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله اعلم به . وقال يونس بن عبيد : إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة وقال محمد بن واسع : لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إلي وذكر ابن ابي الدنيا عن الجلدي أيوب قال: كان راهب في بني اسرائيل في صومعته منذ ستين سنة فأتي في منامه فقيل له : إن فلانا الاسكاف خير منك ليلة بعد ليلة فأتى الاسكاف فسأله عن عمله فقال : إني رجل لا يكاد يمر بي أحد إلا ظننت انه في الجنة وأنا في النار ، ففضل علي الراهب بازرائه على نفسه . وذكر داود الطائي عند بعض الأمراء فأثنوا عليه فقال : لو يعـــلم الناس بعض ما نحن عليه ما ذل لنا لسان بذكر خير أبداً وقال أبو حفص من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال ولم يجرها مكروهها في سائر أوقاته كان مغروراً ، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، فالنفس داعية إلى المهالك معينة للأعداء طامحة إلى كل قبيح متبعة لكل سوء ، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة فالنعمة التي لا خطر لها الخروج منها والتخلص من رقها فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله ،

وأعرف الناس بها أشدهم إزراءً عليها ومقتاً لها قال بن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا علي بن الحسين المقدمي حدثنا عامر بن صالح عن أبيه عن ابن عمر ان عمر بن الخطاب قال : اللهم أغفر لي ظلمي وكفري فقال قائل : يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر ؟ قال : (إن الانسان لظلوم كفار) قال : وحدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود عن الصلت بن دينار حدثنا بقية بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة عن قول الله تعالى (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية. فقالت : يا بني هؤلاء في الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة والرزق واما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا . وقال الامام احمد : حدثنا حجاج حدثنا شريك عن عاصم عن أبي وائل عن مسروق قال : دخل عبدالرحمن على أم سلمة فقالت سمعت النبي ﷺ يقول : « إن من أصحابي لمن لا يراني بعد أن أموت أبداً » فخرج عبدالرحمن من عندها مذعوراً حتى دخل على عمر فقال له : اسمع ما تقول أمك. فقام عمر حتى أتاها فدخل عليها فسألها ثم قال : انشدك بالله أمنهم أنا ؟ قالت : لا ولن أبريء بعدك احداً فسمعت شيخنا يقول : إنما أرادت أن لا تفتح عليها هذا الباب ولم ترد أنك وحدك البريء من دون سائر الصحابة. ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين ويدنو العبد به من الله سبحانه في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو بالعمل ، وذكر ابن ابي الدنيا عن مالك بن دينار أن قوماً من بني إسرائيل كانوا في مسجدهم في يوم عيد ، فجاء شابٌ حتى قام على باب المسجد فقال : ليس مثلي يدخل معكم ، أنا صاحب كذا ، أنا صاحب كذا ، يزري على نفسه ، فأوحى الله إلى نبيهم : إن فلاناً صدّيق . وقال الإمام أحمد : حدّثنا محمد بن الحسن بن أنس ، حدثنا منذر عن وهب أن رجلاً سائحاً عَبَدَ الله عز وجل سبعين سنة ، ثم خرج يوماً فقلل عمله وشكى

إلى الله منه واعترف بذنبه ، فأتاه آتٍ من الله فقال : إن مجلسك هذا أحبّ إليّ من عملك فيما مضى من عمرك . وقال أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا أبو هلال حدثنا قتادة قال: قال عيسى بن مريم–عليه السلام – : سلوني فإني لين القلب صغير عند نفسي . وذكر أحمد أيضاً عن عبد الله بن رياح الأنصاري قال : كان داود ينظر أغمص حلقة في بني إسرائيل فيجلس بين ظهرانيهم ، ثم يقول : يا رب مسكين بين ظهراني مساكين . وذكر عن عمران بن موسى القصير قال : قال موسى عليه السلام : يا رب أين أبغيك ؟ قال : أبغني عند المنكسرة قلوبهم فإني أدنو منهم كل يوم باعاً ولولا ذلك انهدموا . وفي كتاب « الزهد » للإمام أحمد : ان رجلاً من بني اسرائيل تعبّد ستين سنة في طلب حاجة فلم يظفر بها ، فقال في نفسه : والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك فأتي في منامه فقيل له : أرأيت ازدراءك نفسك تلك الساعة فإنه خير من عبادتك الستين . ومن فوائد محاسبة النفس أنه يعرف بذلك حق الله عليه ، ومن لم يعرف حق الله عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه ، وهي قليلة المنفعة جداً . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال : بلغني أن نبي الله موسى مرّ برجل يدعو ويتضرع فقال : يا رب ارحمه فإني قد رحمته ، فأوحى الله اليه : لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه . فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله على العبد فإن ذلك يورثه مقت نفسه والازراء عليها وتخليصه من العجب ، ورؤيته العمل ، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه واليأس من نفسه ، وان النجاة لا تحصل إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته ، فإن من حقه سبحانه أن يطاع ولا يعصى ، وأن يذكر ولا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه علم علم يقين انه غير مؤدّ له كما ينبغي ، وانه لا يسعه إلا العفو والمغفرة ، وأنه إن أحيل على عمله هلك ، فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله وبنفوسهم ، وهذا الذي أيأسهم من

أنفسهم ، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته ، وإذا تأملت حال أكثر الناس وجـــدتهم بضد ذلك ينظرون في حقهم على الله ، ولا ينظرون في حق الله عليهم ، ومن هاهنا انقطعوا عن الله وحجبت قلوبهم عن معرفتـــه ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره ، وهذا غاية جهل الانسان بربه وبنفسه ، فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولاً ، ثم نظره هل قام به كما ينبغي ثانياً ، وأفضل الافكار الفكر في ذلك فـــإنه يسيّر القلب الى الله ويطرحه بين يديه ذليلاً خاشعاً منكسراً كسراً فيه جبره، ومفتقراً فقراً فيه غناه ، وذليلا ذلاً فيه عزه ، ولو عمل من الأعمال مـــا عساه أن يعمل ، فإذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى به . وقال الإمـــام أحمد : حدثنا ابن القاسم حدثنا صالح المرّي عن أبي عمران الجويني عن أبي الخلد ان الله تعالى أوحى إلى موسى : إذا ذكرتني فاذكرني حتى تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً ، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك ، وإذا قمت بين يدي فقم مقام العبد الحقير الذليل ، وذمّ نفسك فهي أولى بالذم وناجني حين تناجيني بقلب وجلٍ ولسان صادق . ومن فوائد نظر العبد في حق الله عليه أنه لا يتركه ذلك يدلي بعمل أصلاً كائناً ما كان ، ومن أدلى بعمله لم يصعد الى الله كما ذكر الامام احمد عن بعضهم أنه قال له رجل إني لأقوم في صلاتي فأبكي حتى يكاد ينبت البقل من دموعي فقال : إنك ان تضحك وأنت تعترف لله بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك ، فإن صلاة المدل لا تصعد فوقه فقال له : أوصني فقال : عليك بالزهـــد في الدنيا ولا تنازعها أهلها وان تكون كالنحلة ان اكلت أكلت طيباً وان وضعت وضعت طيباً وان وقعت على عود لم تكسره ولم تضره . أوصيك بالنصح لله عز وجل نصح الكلب لأهله فإنهم يجيعونه ويطردونه ، ويأبى إلا أن ينصح لهم ويحوطهم . ومنها هنا أخذ الشاطبي :

وقد قيل كن كالكلب يقصيه أهله ولا يأتلي في نصحهم متبتلا

وقال الامام احمد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا الجريري قال بلغني ان رجلاً من بني إسرائيل كانت له إلى الله حاجته فتعبد واجتهد ثم طلب من الله حاجته فلم ير نجاحاً فبات محزوناً قدأزرى على نفسه والزمها الملامة فقال: اما والله ما من قبل ربي أُتيتُ ولكن من قبل نفسي أتيت . فبات ليلته مزرياً على نفسه والزم الملامة نفسه فقضيت حاجته والله أعلم .

الباب الثاني عشر

في علاج مرض القلب بالشيطان

هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعاً ، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها فانهم توسعوا في ذلك وقصروا في هذا الباب ، ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس ، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله إن النفس لأمارة بالسوء واللوّامة في قوله (فلا أقسم بالنفس اللوامة) وذكرت النفس المذمومة في قوله (ونهى النفس عن الهوى) فاما الشيطان فذكر في عدة مواضع وافردت له سورة تامة فتحذير الرب تعالى لعباده منه أكثر من تحذيره من النفس وهذا هو الذي لا ينبغي غيره فـــإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته فهي مركبه وموضع شره ومحل طاعته ، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك ، وهـذا لشدة الحاجة الى التعوذ منه ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد ، وإنما جاء الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات اعمالنا » كما تقدم ذلك في الباب الذي قبله ، وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت قال « قل اللهم فاطر السموات والارض

عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه أشهد ان لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه وان اقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم ، قله إذا أصبحت واذا أمسيت ، واذا أخذت مضجعك » فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته فإن الشر كله اما أن يصدر من النفس أو من الشيطان وغايته إما أن تعود على العامل أو على أخيه المسلم فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما وغايتيه اللتين يصل إليهما .

﴿ فصل ﴾

قال الله تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) . ومعنى استعذ بالله : امتنع به واعتصم به والجأ اليه ، ومصدره : العوذ والعياذ والمعاذ ، وغالب استعماله في المستعاذ به ، ومنه قول النبي ﷺ : « لقد عذتِ بمعاذ » ، وأصل اللفظة من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه . ومن كلام العرب : اطيب اللحم عوذه ، أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به ، وناقة عائذ : يعوذ بها ولدها ، وجمعها عُوذٌ كحُمْر ، ومنه في حديث الحديبية : معهم العوذ المطافيل ، والمطافيل جمع مُطفل وهي الناقة التي معها فصيلها ، قالت طائفة منهم : صاحب « جامع الأصول » استعار ذلك للناس ، أي معهم النساء معهن أطفالهن . ولا حاجة إلى ذلك بل اللفظ على حقيقته ، أي قد خرجوا اليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها ، فأمر سبحانه بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن ، وفي ذلك وجوه منها : ان القرآن شفاء لما في الصدور ومذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة فهو دواء لما أثره فيها الشيطان ، فأمر أن يطرد مادة الداء ويجلو منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً يتمكن منه ويؤثر فيه ، كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مُزاحم ومضادّ له فينجع فيه . ومنها أن القرآن مادة الهدى والخير والعلم في القلب ، كما ان الماء مادة النبات ، والشيطان نار يحرق النبات أوّلاً فأوّلاً ، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه ، فأمر أن يستعيذ بالله منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن ، والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن ، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها، وكأنّ من قال الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى وهو لعمر الله مَلحظٌ جيّد ، إلا أن السنّة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة ، وهو قول جمهور من السلف والخلف ، وهي محصلة للأمرين ، ومنها أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتسمع لقراءته ، كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ رأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح ، فقال النبي ﷺ : « تلك الملائكة » . والشيطان ضد الملك وعدوّه ، فأمر القارىء أن يطلب من الله مباعدة عدوه عنه حتى تحضره خاصة ملائكته ، فهذه منزلة لا تجتمع فيها الملائكة والشياطين . ومنها أن الشيطان يجلب على القارىء بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن ، وهو تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن ، فلا يكمل انتفاع القارىء به ،فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه . ومنها أن القارىء مُناجٍ لله بكلامه والله تعالى أشد أذناً للقارىء الحسن الصوت من صاحب القينة الى القينة ،والشيطان إنما قرآنه الشعر والغناء ، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته لله واستماع قراءته . ومنها ان الله سبحانه وتعالى أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في تلاوته ، كما قال الشاعر في عثمان :

تَمَّتْ كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل فكيف بغيرهم ، ولهذا يغلط القاريء تارة ويخبط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه فهمه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا أو هذا، وربما جمعها له ، فكان من أهم الأمور استعاذته بالله منه عند القراءة ، ومنها أن الشيطان أحرص ما يكون على الانسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه ، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه وفي الصحيح عنه ﷺ « ان الشيطان تفلت علي البارحة فأراد ان يقطع علي صلاتي » الحديث ، وكلما كان الفعل انفع للعبد واحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له اكثر وفي مسند الإمام احمد من حديث سبرة بن ابي الفاكه انه سمع النبي ﷺ يقول : « ان الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الاسلام فقال : اتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فعصاه فأسلم فقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وانما مثل المهاجر كالفرس في الطول ؟ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال : تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ » فالشيطان بالرصيد للانسان على طريق كل خير . وقال منصور عن مجاهد : ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم ابليس مثل عدتهم، رواه ابن ابي حاتم في تفسيره. فهو بالرصد ولا سيما عند قراءة القرآن فأمر سبحانه العبد ان يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله منه أولاً ثم يأخذ في السير كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ثم اندفع في سيره . ومنها ان الاستعاذة قبل القراءة عنوان واعلام بان المأتي به بعدها القرآن ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع ان الذي يأتي بعدها هو التلاوة فاذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله ثم شرع ذلك للقارىء وان كان وحده لما ذكرنا من الحكم وغيرها فهذه بعض فوائد الاستعاذة وقد قال احمد في رواية حنبل : لا يقرأ في صلاة

ولا غير صلاة الا استعاذ لقوله عز وجل (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم). وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ وقال عبدالله بن احمد سمعت ابي اذا قرأ استعاذ يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم انه هو السميع العليم وفي المسند والترمذي من حديث ابي سعيد الخدري قال كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: «اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» وقال ابن المنذر جاء عن النبي ﷺ انه كان يقول قبل القراءة اعوذ بالله من الشيطان الرجيم واختار الشافعي وابو حنيفة والقاضي في الجامع أنه يقول اعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهو رواية عن احمد لظاهر الآية وحديث ابن المنذر. وعن احمد من رواية عبدالله اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وهو مذهب الحسن وابن سيرين ويدل عليه ما رواه ابو داود في قصة الافك ان النبي ﷺ جلس وكشف عن وجهه وقال اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ان الله هو السميع العليم وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار اختاره القاضي في المجرد وابن عقيل لأن قوله فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ظاهر انه يعقب قوله أعوذ بالله بقوله من الشيطان الرجيم . وقوله في الأخرى : (فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف ان لأنه سبحانه ذكره . وقال إسحاق : الذي اختاره ما ذكر عن النبي ﷺ : « اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » ، وقد جاء في الحديث تفسير ذلك ، قال : وهمزه : الموتة ، ونفخه : الكبر ، ونفثه: الشعر. وقال تعالى : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) . والهمزات جمع همزة كثمرات وثمرة ، وأصل الهمز : الدفع. قال أبو عبيد عن الكسائي : همزته ولمزته ولهزته ونهزته إذا دفعته ، والتحقيق انه دفع بنخز وغمز يشبه الطعن فهو دفع خاص ، فهمزات الشياطين : دفعهم الوسواس

والإغواء الى القلب . قال ابن عباس والحسن : همـزات الشياطين : نزغاتهم ووسواسهم ، وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم ، هذا قول مجاهد ، وفسرت بخنقهم ، وهي الموتة التي تشبه الجنون . وظاهر الحـديث ان الهمز نوع غير النفخ والنفث ، وقد يقال ، وهو الأظهر ، ان همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع اصاباتهم لابن آدم ، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعـاً خاصاً كنظائر ذلك ، ثم قال: (وأعوذ بك رب ان يحضرون) قال ابن زيد: في أموري ، وقال ابن الكلبي : عند تلاوة القرآن ، وقـال عكرمـة : عند النزع والسياق، فأمران : يستعيذ من نوعي شرهم إصابتهم له بالهمز، وقربهم ودنوّهم منه، فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسّوه ولا يقربوه. وذكر ذلك سبحانه عقب قوله: (إدفع بالتي هي أحسن نحن أعلم بما يصفون) ، فأمره أن يحترز من شر شياطين الانس بدفع إساءتهم اليه بالتي هي أحسن ، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم ، ونظير هذا قوله في الاعراف (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فأمر بدفع شر الجاهلين بالاعراض عنهم ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقـال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم) ونظير ذلك قـوله في سورة فصلت (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم) فهذا لدفع شر شيطان الانس ثم قال (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وقال في الاعراف (انه سميع عليم) وسر ذلك والله أعلم أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد اثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار انه سبحانه يسمع ويعلم فيسمع استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك فالسمع لكلام المستعيذ والعلم بفعل المستعاذ منه وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة وهذا المعنى شامل للوصفين وامتاز المذكور في (فصلت) بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على

الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمه به كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول ؟فقال أحدهم : يسمع إن جهرنا ولا يسمع ان اخفينا فقال الآخر : ان سمع بعضه سمعه كله فانزل الله عز وجل : (وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ـ إلى قوله ـ من الخاسرين) .

فجاء التأكيد في قوله (إنه هو السميع العليم) في سياق هذا الانكار اي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم لا كما يظن به اعداؤه الجاهلون أنه لا يسمع إن أخفوا وانه لا يعلم كثيراً ممـــا يعملون ، وحسن ذلك أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم اليه بإحسانه ذلك وذلك أشد وأشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم ، ولهذا عقبه بقوله (وما يلقاهـــا إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فحسن التأكيد لحاجة المستمع وأيضاً فإن السياق ها هنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتهـــا وآيات ربوبيته وشواهد توحيده ، ولهذا عقب ذلك بقوله (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ـ ومن آياته انك ترى الارض خاشعة) فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من اسمائه السميع العليم كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة ، والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين واخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بان له رباً يسمع ويعلم ، وآلهة المشركين الذين عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها فإنه سميع عليم ، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم فكيف يسوونها به في العبادة ؟ فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير كما لا يليق بذلك غير التعريف والله أعلم بأسرار كلامه .

ولما كان المستعاذ منه في سورة (حم المؤمن)هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر قال (ان الذين يجادلونك في آيات

الله بغير سلطان أتاهم . إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه، فاستعذ بالله انه هو السميع البصير) فانه لما كان المستعاذ منه كلامهم وافعالهم المشاهدة عياناً قال (انه هو السميع البصير) وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا فانه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه بل هو معلوم بالايمان وأخبار رسوله .

﴿ فصل ﴾

فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق بالاستعاذة والاعراض عن الجاهلين ودفع اساءتهم بالإحسان ، وأخبر عن عظم حظ من كفاه ذلك فإنه ينال بذلك كف شر عدوه وانقلابه صديقاً ومحبته الناس له وثناءهم عليه وقهر هواه وسلامة قلبه من الغل والحقد ، وطمأنينة الناس حتى عدوه إليه هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه وهذا غاية الحظ عاجلا وآجلا .

ولما كان ذلك لا ينال إلا بالصبر قال : (وما يلقاها الا الذين صبروا) فإن النزق الطائش لا يصبر عن المقابلة .

ولما كان الغضب مركب الشيطان فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الاساءة بالإحسان أمرأن يعاونها بالاستعاذة منه فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية ، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه ، وجاء مدد الايمان والتوكل فأبطل سلطان الشيطان فإنه (ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة ، والصواب ان يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة ، والقدرة داخلة في مسمى السلطان إنما سميت الحجة سلطاناً لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين فقال في سورة الحجر (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في

الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط علي مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقال في سورة النحل (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) فتضمن ذلك أمرين أحدهما نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والاخلاص والثاني اثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه ، ولما علم عدو الله أن من اعتصم بالله واخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه واضلاله وإنما يكون له السلطان على من تولاه واشرك مع الله فهؤلاء رعيته وهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم فان قيل : فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع فكيف ينفيه في قوله (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك)؟. قيل : إن كان الضمير في قوله (وما كان له عليهم من سلطان) عائداً على المؤمنين فالسؤال ساقط ويكون الاستثناء منقطعاً أي لكن امتحناهم بإبليس لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ، وان كان عائداً على مـــا عاد عليه في قوله (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه) وهو الظـــاهر ليصح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي ويكون المعنى وما سلطانه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة قال ابن قتيبة: إن إبليس لما سأل الله النظرة فأنظره قال (لأغوينهم ولأضلنهم ولآمرنهم) بكذا و (لأتخذنّ من عبادك نصيباً مفروضاً) وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقناً أن ما قدره فيهم يتم وإنما قاله ظاناً فلمـــا اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم فقال تعالى : وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين ، يعني نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء ، وعلى هذا فيكون السلطان هـــا هنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكّ فيها وهم الذين تولوه وأشركوا به فيكون السلطان ثابتاً لا منفياً فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات فإن قيل : فما يصنع بالذي في سورة ابراهيم حيث

يقول لأهل النار: (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) ، وهذا وإن كان قوله فالله سبحانه أخبر عنه مقرراً له لا منكراً فدل على انه كذلك : قيل : هذا سؤال جيّد ، وجوابه أن السلطان المنفي في هذاالموضع هو الحجة والبرهان ، أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم ، أي ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، وصدقتم مقالتي ، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة . وأما السلطان الذي أثبته في قوله : (إنما سلطانه على الذين يتولونه) ، فهو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال ، وتمكنه منهم بحيث يؤزهم الى الكفر والشرك ، ويزعجهم اليه ولا يدعهم يتركونه ، كما قال تعالى (ألم ترانا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّاً) ، قال ابن عباس : تغويهم إغواء ، وفي رواية : تسليهم إشلاء ، وفي لفظ : تحرضهم تحريضاً ، وفي آخر : تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً ، وفي آخر : توقدهم ،أي تحركهم كما يحرك النار الماء بالإيقاد تحتها ، وقال الأخفش:توهجهم.وحقيقةذلك أن الأز هو التحريك والتهييج ، ومنه يقال لغليان القدر : الأزيز ، لأن الماء يتحرك عند الغليان . ومنه الحديث : لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء . قال أبو عبيدة : الأزيز : الإلتهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب، يقال : أزّ قدرك ، أي الهب تحتها بالنار ، وائتزت القدر : إذا اشتد غليانها ؛ فقد حصل للأز معنيان : أحدهما التحريك ، والثاني : الإيقاد والإلهاب ، فإنه تحريك خاص بازعاج وإلهاب ، فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم لما وافقت أهواءهم وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته ، فلما أعطوا ما بأيديهم واستأسروا له سلط عليهم عقوبة لهم ، وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه :(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) ، فالآية على عمومها وظاهرها ، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان

ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة ، فهم الذين تسببوا الى جعـــل السبيل عليهم ، كما تسببوا إليـــه يوم أُحُدٍ بمعصية الرسول ومخالفته ، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطاناً حتى جعل له العبد سبيلاً اليه بطاعته والشرك به فحينئذ لهعليهم تسليطوقهر فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجـــد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه ، فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه توجب سلطانه والجميع بقضاء من الله ومردُّها إليه ، وله (الحجة البالغة فـــلو شاء لهداكم اجمعين). ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض ، رب العالمين ، ولهالكبرياء في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) .

الباب الثالث عشر

في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن ادم

قال تعالى إخباراً عن عدوه إبليس لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم واحتجاجه بأنه خير منه وإخراجه من الجنة أنه سأله ان ينظره فأنظره ثم قال عدو الله : (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين) . قال جمهور المفسرين والنحاة : حذف (على) فانتصب بالفعل والتقدير لأقعدن لهم على صراطك والظاهر أن الفعل مضمر فإن القاعد على الشيء مـــلازم له فكأنه قال : لألزمنه ولأرصدنه ولأخرجنه ونحو ذلك قال ابن عباس: دينك الواضح ، وقال ابن مسعود : هو كتاب الله . وقال جابر : هو الإسلام . وقال مجـــاهد : هو الحق ، والجميع عبارات عن معنى واحد وهو الطريق الموصل إلى الله ، وقد تقدم حديث سبرة بن الفاكه أن الشيطان قعد لابن آدم باطرقه كلها الحديث فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على

السالكين . وقوله : (ثم لآتينهم من بين أيديهم) . قال ابن عباس : — في رواية عطية عنه — من قبل الدنيا ، وفي رواية : عليّ: اشككهم في آخرتهم وكذلك قال الحسن: من قبل آخرتهم تكذيباً بالبعث والجنة والنار . وقال مجاهد : من بين أيديهم من حيث يبصرون ومن خلفهم قال ابن عباس: أرغبهم في دنياهم ، وقال الحسن : من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها اليهم . وعن ابن عباس رواية أخرى : من قبل الاخرة ، وقال ابو صالح : أشككهم في الآخرة وأباعدها عليهم ، وقال مجاهد أيضاً : من حيث لا يبصرون. وعن أيمانهم قال ابن عباس : أشبه عليهم أمر دينهم ، وقال ابو صالح : الحق اشككهم فيه ، وعن ابن عباس أيضاً : من قبل حسناتهم . قال الحسن : من قبل الحسنات أثبطهم عنها . وقال ابو صالح ايضاً : من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم الباطل أنفقه عليهم وارغبهم فيه ، وقال الحسن : وعن شمائلهم السيئات يأمرهم بها ويحثهم عليها ويزينها في أعينهم . وصح عن ابن عباس أنه قال : ولم يقل من فوقهم لأنه علم أن الله من فوقهم . وقال الشعبي : قال الله عز وجل : انزل الرحمة من فوقهم . وقال قتادة : اتاك الشيطان يا بن آدم من كل وجه غير انه لم يأتك من فوقك ولم يستطع ان يحول بينك وبين رحمة الله . قال الواحدي: وقول من قال الإيمان كناية عن الحسنات والشمائل كناية عن السيئات حسن لأن العرب تقول : اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك يريد اجعلني من المقدمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين وأنشد لابن الدمينة :

أبيني أفي يمنى يديكِ جعلتني فأفرحَ أم صيّرتني في شمالك ؟

وروى ابو عبيد عن الأصمعي : هو عندنا باليمن أي بمنزلة حسنة وبضده ذلك هو عندنا بمنزلة الشمال وانشد :

رأيت بني العلات لما تظافروا يحوزون سهمي عندهم في الشمائل

أي ينزلوني بالمنزلة السيئة ينزلونني. وحكي الأزهري عن بعضهم في هذه الآية

لأغوينهم حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة ومن خلفهم بأمر البعث وعن ايمانهم وعن شمائلهم أي لأضلنهم فيما يعملون لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئاً لأنهما الأصل في التصرف فجعلا مثلاً لجميع ما يعمل بغيرهما وقال اخرون منهم أبو اسحاق والزمخشري واللفظ لأبي اسحاق : ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد أي لآتينهم من جميع الجهات والحقيقة والله أعلم أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم وقال الزمخشري ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب ، وهذا مثل الوسوسة اليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه كقوله : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة : أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتيك من فوقك وهذا القول أعم فائدة ولا يناقض ما قاله السلف فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين . قال شقيق : ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي أما من امامي فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ :(واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من اخلفه فأقرأ : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) ومن قبل يميني يأتيني من قبل الثناء فأقرأ (والعاقبة للمتقين) ومن قبل شمالي فيأتين من قبل الشهوات فأقرأ : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) قلت : السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه وتارة على شماله وتارة أمامه وتارة يرجع خلفه فأيّ سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه أو يعوقه ويبطيه وان سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له وخادما ومعينا وممنّيا ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى : (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) قال الكلبي : ألزمناهم قرناء من الشياطين ، وقال

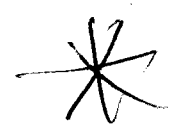

مقاتل : هيأنا لهم قرناء من الشياطين . وقال ابن عباس : ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الاخرة والمعنى زينوا لهم الدنيا حتى آثروها ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة والاعراض عنها وهذا اختيار الفراء وقال ابن زيد : زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم وما يستقبلون منها والمعنى على هذا زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه ، فقول عدو الله : (ثم لآتينهم من بين ايدنهم ومن خلفهم) يتناول الدنيا والآخرة وقوله : (وعن أيمانهم وعن شمائلهم) ، فإن كاتب الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبطه عنه ، وان كاتب السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه عليها ، وهذا تفصيل ما أجمله في قوله : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين). وقال تعالى : (إن يدعون من دونه الا إناثا – الى قوله – وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) قال الضحاك : مفرضاً أي معلوماً وقال الزجاج اي نصيباً افترضه على نفسي قال الفراء : يعني ما جعل له عليه السبيل من الناس فهو كالمفروض قلت : حقيقة الفرض هو التقدير ، والمعنى أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم ، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه ، فالناس قسمان : نصيب الشيطان ومفروضه ، وأولياء الله وحزبه وخاصته . وقوله : (لأضلنهم)، يعني عن الحق ، و (ولأمنينهم)، قال ابن عباس : يريد تسويف التوبة وتأخيرها . وقال الكلبي : أمنيهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ، وقال الزجّاج :أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة ، وقيل : لأمنينّهم ركوب الهواء الداعية إلى العصيان والبدع . وقيل : أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا فأطيل لهم الأمل فيها ليؤثروها على الآخرة وقوله : (ولآمرنهم فليبتكنّ آذان الانعام) البتك القطع وهو في هذا الموضع آذان البحيرة عن جميع المفسرين ، ومن هاهنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذن الطفل للحلق ورخص بعضهم في ذلك

للأنثى دون الذكر لحاجتها إلى الحلية واحتجوا بحديث أم زرع وفيه : ناس من حلي أذني . وقال النبي ﷺ « كنت لك كأبي زرع لأم زرع» ونص احمد على جواز ذلك في حق البنت وكراهته في حق الصبي وقوله : (ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله) . قال ابن عباس : يريد دين الله ، وهـــو قول ابراهيم ومجاهد والحسن والضحاك وقتادة والسدّي وسعيد بن المسيب ، وسعد بن جبير ومعنى ذلك هو ان الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة وهي ملة الإسلام كما قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم — إلى قوله — واتقوه) ولهـــذا قال ﷺ :«ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جماء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا انتم تجدعونها» ثم قرأ أبو هريرة : (فطرة الله التي فطر الناس عليها) الآية متفق عليـــه فجمع النبي ﷺ بين الأمرين تغيـــير الفطرة بالتهويد والتنصير وتغيير الخلقة بالجدع وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرها فغير فطرة الله بالكفر ، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها وغير الصورة بالجدع والبتك فغير الفطرة إلى الشرك والخلقة إلى البتك والقطع فهذا التغيير خلقة الروح ، وهذا تغيير خلقة الصورة ، ثم قال : (يعدهم ويمنيهم) فوعده ما يصل إلى قلب الانسان نحو سيطول عمرك وتنـــال من الدنيا أربك ، وستعلو على أقرانك وتظفر بأعدائك والدنيا دول ، ستكون لك كما كانت لغيرك ويطول أمـــله ويعده بالحسنى على شركه ومعاصيه ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها والفرق بين وعده وتمنيته أن الوعد في الخبر والتنمية في الطلب والإرادة ، فيعده الباطل الذي لا حقيقة له ، وهو الغرور ويمنيه المحال الذى لا حاصل له ، ومن تأمل أحوال أكثر الناس وجدهم متعلقين بوعده وتمنيته كما قال القائل :

منىّ إن تكن حقاتكنْ أحسن المنىَ وإلا فقد عشنا بهـــا زمنا رغدا

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة ، وتفرح بها

كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته فانه يمني اصحابها الظفر بالحق وادراكه ويعدهم الوصول اليه من غير طريقه فكل مبطل فله نصيب من قوله : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) ومن ذلك قوله تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر) الآية وقيل : (يعدكم الفقر) يخوفكم به فيقول: إن انفقتم اموالكم افتقرتم ، ثم يأمركم بالفحشاء قالوا هي البخل في هذا الموضع خاصة ويذكر عن مقاتل والكلبي كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع فانها البخل. والصواب أن الفحشاء على بابها وهي كل فاحشة فهي صفة لموصوف محذوف فحذف موصوفها ارادة للعموم أي بالفعلة الفحشاء والخلة الفحشاء ومن جملتها البخل فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره،يأمر بالشر ويخوف من فعل الخير وهذان الأمران جماع ما يطلبه الشيطان من الانسان فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه ، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها. وسمى سبحانه تخويفه وعداً لانتظار الذي خوفه إياه كما ينتظر الموعود ما وعد به ، ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وهي المغفرة والفضل ، فالمغفرة وقاية الشر والفضل اعطاء الخير ، وفي الحديث المشهور « إن للملك بقلب ابن آدم لمّةٌ وللشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد » ثم قرأ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الآية فالشيطان والملك يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار ، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره وآخر بضده ومنهم من زمنه نهار كله وآخر بضده .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده للأنسان أنه يورده الموارد التي يخيل إليه أن فيها منفعته ثم يصدره المصادر التي فيها عطبه ويتخلىّ عنه ويسلمه ويقف يشمت به ويضحك منه فيأمره بالسرقة والزنا والقتل ويدل عليه ويفضحه . قال الله تعالى :

(واذ زين لهم الشيطان اعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ـ إلى قوله ـ: والله شديد العقاب) فإنه ترآى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك وقال : أنا جار لكم من بني كنانة ، ان يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء فلما رآى عدو الله جنود الله من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرّ عنهم واسلمهم كما قال حسان :

دَلاّهُمُ بغرور ثم أسلمهم إنّ الخبيث لمن دَلاّه غرّارُ

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها أمره بالزنا بها ثم بقتلها ثم دل اهلها عليه وكشف أمره بالسجود له فلما فعل فرّ عنه وتركه ، وفيه أنزل الله سبحانه (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر) الآيتين وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه الصفات بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر لينصره ويقضي حاجته فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من اوليائه جملة في النار ويقول لهم : (اني كفرت بما اشركتمون من قبل) فأوردهم النار شر الموارد وتبرأ منهم كل البراءة وتكلم الناس في قول عدو الله: (اني أخاف الله) ، فقال قتادة وابن إسحاق : صدق عدو الله في قوله : (اني أرى ما لا ترون) وكذب في قوله : (اني أخاف الله) ، والله ما به مخافة الله ولكن علم انه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه . وقالت طائفة : إنما خاف بطشة الله به في الدنيا كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه ، لا انه خاف عقابه في الآخرة وهذا أصح ، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة . قال الكلبي : خاف أن يأخذه جبريل فيعرّفهم حاله فلا يطيعونه ، وهذا فاسد فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فرّ ونكص على عقبيه ، إلا أن يريد أنه إذا عرف المشركون ان الذي أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك ، وقد أبعد النجعة إن أراد ذلك وتكلف غير المراد . وقال عطاء : اني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك . وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه . وقال الزجاج وابن الأنباري :

ظن أن الوقت الذي أُنظِر قد حضر ، زاد ابن الأنباري : أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذي يزول معه انظاري قد حضر فيقع بي العذاب .

﴿ فصل ﴾

ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر ، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان ، وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا فقال : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) ، الآية . المعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم بأوليائه قال قتادة : يعظمهم في صدوركم ، ولهذا قال : (فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين)، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم . ومن مكائده انه يسحر العقل دائماً حتى يكيده ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله فيزين له الفعل الذي يضربه حتى يخيل اليه أنه من أنفع الأشياء له ، وينفره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له حتى يخيل اليه أنه يضره ، فلا إله إلا الله كم فتن بهذا السحر من إنسان ، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان ، وكم حلّى الباطل وأبرزه في صورة حسنة ، وشنّع الحق وأبرزه في صورة مستقبحة ، وكم بهرج من الزيوف على الناقدين ، وكم روّج من الزغل على العارفين ، فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة ، والآراء المتشعبة ، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك ، وزين لهم من عبادة الأصنام ، وقطيعة الأرحام ، ووأد البنات ، ونكاح الأمهات ،ووعدهم الفوز بالجنان ، مع الكفر والفسوق والعصيان ، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم والكفر بصفات الرب تعالى،وعلوه على عرشه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس وحسن الخلق معهم ، والعمل بقوله : (عليكم أنفسكم) ، والإعراض عما جاء به الرسول في قالب التقليد والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنفاق

والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس، فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة ، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا ، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم ، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة ، وصاحب الأمة اللوطية حين خسف بهم واتبعوا بالرجم بالحجارة ، وصاحب فرعون وقومه حين أخذوا الأخذة الرابية ، وصاحب عبّاد العجل حين جرى عليهم ما جرى،وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر ، وصاحب كل هالك ومفتون .

﴿ فصل ﴾

وأول كيده ومكره أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة ، فقال الله تعالى : (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما – الى قوله – أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما هما بغرور) ، فالوسوسة حديث النفس والصوت الخفي ، وبه سمي صوت الحلي وسواساً ،ورجل مُوَسْوِس–بكسر الواو – ولا تفتح فإنه لحن – وإنما قيل له موسوس لأن نفسه توسوس اليه ، قال تعالى : (ونعلم ما توسوس به نفسه) ، وعلم عدو الله انهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، فإنها معصية ، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد ، فلما عصيا انهتك ذلك الستر فبدت لهما سوءاتهما ، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة ، ولهذا رأى النبي ﷺ الزناة عراة بادية سوءآتهم ، وكذلك إذا رأى الرجل والمرأة في منامه مكشوف السوأة فإنه على فساد دينه . قال الشاعر :

إني كأني أرى من لا حياء له ولا أمانة وسط الناس عريانا

فإن الله سبحانه وتعالى أنزل لباسين : لباساً ظاهراً يُواري العورة ويسترها ، ولباساً باطناً من التقوى يجمل العبد ويستره ، فإذا زال عنه هذا

اللباس انكشفت عورته الباطنة كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها، ثم قال : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) ، أي إلا كراهة أن تكونا ملكين وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن هنا دخل عليهما لما عرف انهما يريدان الخلود فيهـــا ، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم ، فإنه يجري منـــه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطها ويسألها عما تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب . وكذلك علم اخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يـــدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه ، فإنه باب لا يخذل عن حاجتـه من دخل منـه ، ومن رام الدخـول من غيره فالباب مسدود ، وهو عن طريـق مقصده مصدود ، فسام عدو الله الأبوين فأحس منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم ، فعلم انه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب ، فقاسمهما بالله انه لهما لمن الناصحين وقال : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين او تكونا من الخالدين) ، وكان عبد الله بن عباس يقرؤها : مَلِكين – بكسر اللام – ويقول : لم يطمعا أن يكونا من الملائكة ولكن استشرفا أن يكونا مَلِكين ، فأتاهما من جهة الملك . ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى: (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْك لا يبلى) ، وأما على القراءة المشهورة فيقال : كيف أطمع عدو الله آدم أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب ؟ وكان آدم أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله ولا سيما ممـــا نهاه الله عنه ؟ فالجواب : أن آدم وحواء لم يطمعا في ذلك أصلاً ، وإنمـــا كذبهما عدو الله وغرّهما وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد ، فهـــذا أول المكر والكيد ، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر أم الأفراح ، وسموا أخاها بلقيمة الراحـــة ، وسموا

الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية ، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان ، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرب تنزيهاً ، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة ، فلما سماها شجرة الخلد قال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونا مثل الملائكة الذين لا يموتون ، ولم يكن آدم قد علم انه يموت بعد ، واشتهى الخلود في الجنة ، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما ، فاجتمعت الشبهة والشهوة ومساعدة القدر لما قد فرغه الله عز وجل من تقديره ، فأخذ بهما سنة الغفلة واستيقظ لها العدو ، كما قيل:

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم فنفذ القدر المحتوم في الأزل

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله : (أو تكونا من الخالدين) فيقال: الماكر الخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيده من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده ولا حاجة منا الى تصحيح كلام عدو الله والاعتذار عنه ، وانما نعتذر عن الأب في كون ذلك راج عليه وولج سمعه فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملكين ، وإنما ردد الأمر بين أمرين أحدهما ممتنع ، والآخر ممكن، وهذا من ابلغ انواع الكيد والمكر،ولهذا لما اطمعه في الامر الممكن جزم به ، ولم يتردد : (فقال يا ادم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فلم يدخل أداة الشك هاهنا كما ادخلها في قوله : (إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) فتأمله ثم قال تعالى : (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) فتضمن هذا الخبر انواعاً من التاكيد ، أحدها تأكيده بالقسم الثاني تأكيده بأن الثالث تقديم المعمول على العامل إيذانا بالاختصاص أي نصيحتي مختصة بكما وفائدتها عائدة اليكما لا اليّ . الرابع إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم دون الفعل الدال على التجدد أي النصح وصفتي وسجيتي ليس أمراً عارضاً لي ، الخامس إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم السادس أنه صور نفسه لهما ناصحاً من جملة الناصحين فكأنه قال :

الناصحون لكما في ذلك كثير ، وأنا واحد منهم كما تقول لمن تأمره بشيء : كلُّ احد معي على هذا وانا من جملة من يشير عليك به :

وكثر فارتابتْ ولو شاء قللا .

وورث عدو الله هذا المكر لأوليـــائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنـافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا جاؤوه نشهد انك لرسول الله فأكدوا خـــبرهم بالشهادة وبأن وبلام التأكيد ، وكذلك قوله سبحانه : (ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم) ثم قال تعالى : (فدلاهما بغرور). قال ابو عبيدة : خذلهما وخلاهما من تدلية الدلو ، وهو إرسالهـــا في البئر وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين أحدهما قال اصله الرجل العطشان يتدلىّ في البئر ليروى من الماء فلا يجد فيها ماء فيكون قد تدلى فيها بالغرورفوضعت التدلية موضع الاطماع فيما لا يجدى نفعا فيقال : دلاه إذا أطعمه ومنه قول ابي جندب الهذلي :

احصٌ فـــلا أجير ومن أجره فليس كمن تدلىّ بالغرور

أحصٌ أي اقطع الثاني. فدلاهما بغرور أي جرأهما على الأكل من الشجرة وأصله دلاهما من الدلال والدالة وهي الجرأة قال شمر : يقال ما دلك علي أي ما جرأك وأنشد لقيس بن زهير :

أظن الحـــلم دلّ عليّ قومي وقد يستجهل الرجل الحليمُ

قلت : أصل التدلية في اللغة الارسال والتعليق يقال: دَلىّ الشيء فيصهواة إذا أرسله بتعليق وتدلى الشيء بنفسه ومنه قوله تعالى : (فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) قال عامة اهل اللغة: يقال أدلى دلوه إذا ارسلها في البئر ودلاها يدلوها إذا نزعها وأخرجها ، ومنه الإدلاء وهو التوصل إلى الرجل برحم منه ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الدلالة وهي التوصل إلى الشيء بإبانته وكشفه ومنه الدلُّ وهو ما يدل على العبد من أفعاله وكان عبد الله بن مسعود يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودَله وسمته. فالهدي الطريقة التي عليها العبد من اخلاقه واقواله واعماله ، والدل ما يدل من ظاهره على باطنه والسمت هيأته ووقاره

ورزانته ، والمقصود ذكر كيد عدو الله ومكره بالأبوين . قال مطرف بن عبد الله : قال لهما إني خلقت قبلكما وانا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما وحلف لهما وإنما يخدع المؤمن بالله قال قتادة : وكان بعض اهل العلم يقول من خادعنا بالله خدعنا فالمؤمن غِرٌ كريم والفاجرخب لئيم ، وفي الصحيح أن عيسى بن مريم عليه السلام رأى رجلاً يسرق فقال : سرقت ؟ فقال : لا والذي لا إله إلا هو ، فقال المسيح : آمنت بالله وكذبت بصري ، وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوز ان يكون قد أخذ ماله فظنه المسيح سرقة ، وهـــذا تكلف وإنما كان الله في قلب المسيح أجل واعظم من ان يحلف به أحد كاذباً فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره فرد التهمة إلى بصره ، لما اجتهد له في اليمين بالله ، كما ظن آدم صدق إبليس لما حلف له بالله وقال: ما ظننت أحداً يحلف بالله كاذباً .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده العجيب أنه يشام النفس حتى يعلم أيّ القولين يغلب عليها قوة الإقدام والشجاعة أم قوة الانكفاف والاحجام والمهابة ، فإن رأى الغالب على النفس المهابة والإحجام اخذ في تثبيطه وإضعاف همته وارادته عن المأمور به وثقله عليه وهون عليه تركه حتى يتركه جملة أو يقصر فيه ويتهـاون به وإذا رأى الغالب عليه قوة الاقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور ويوهمه أنه لا يكفيه وانه يحتاج معه إلى مبالغـــة وزيادة فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني كما قال بعض السلف : ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشيطان فيـــه نزعتان إمّا إلى تفريط وتقصير ، واما الى مجاوزة وغلو ، ولا يبـــالي بأيهما ظفر ، وقد اقتطع اكثر الناس الا اقل القليل في هذين الواديين وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي ، والقليل منهم جداً الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ واصحابه ، فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس،وقوم قصر بهم عن اخراج الواجب

من المال ، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كلا على الناس ، مستشرفين الى ما في ايديهم ، وقوم قصر بهم حتى عن تناول مـــا يحتاجون اليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم ، وقوم تجاوز بهم حتى اخذوا فوق الحاجة فاضروا بقلوبهم وأبدانهم ، وكذلك قصر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم ، وتجاوز بآخرين حتى عدوهم وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعـــات والجهاد وتعلم العلم ، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام ، وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله ، وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على الدمـــاء المعصومة . وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم ، وتجاوز بآخرين حتي جعلوا العلم وحـده هو غايتهم دون العمل به ، وقصر بقوم حتى اطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم ، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص ، وقصر بقوم حتى زين لهم ترك سنة رسول الله ﷺ من النكاح فرغبوا عنه بالـكلية ، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام ، وقصر بقوم حتى جفو الشيوخ من أهل الدين والصلاح واعرضوا عنهم ولم يقوموا بحقهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله ، وكذلك قصر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات اليها بالـكلية ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحـلال ما حللوه والحرام ما حرموه ، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة ، وقصر بقوم حتى قالوا : ان الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم ، ولكنهم يعملونها بدون مشيئته وقدرته ، وتجاوز بآخرين حتى قالوا : إنهم لا يفعلون شيئاً البتة ، وإنما سبحانه هو فاعل تلك الافعال حقيقة فهي نفس فعله لا أفعالهم . والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعل البتة ، وقصر بقوم حتى قالوا : إن رب العالمين سبحانه ليس داخلا في خلقـه ولا بائنا عنهم ولا هو فوقهم ولا تحتهم ولا خلفهم ولا أمامهم ولا عن ايمانهم ولا عن شمائلهم ، وتجاوز بآخرين حتى قالوا :هو في كل مكان بذاته كالهواء الذي

هو داخل في كل مكان ، وقصر بقوم حتى قالوا : لم يتكلم الرب سبحانه بكلمة واحدة البتة ، وتجاوز بآخرين حتى قالوا : لم يزل أزلا وأبداً قائلا : (يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي) ويقول لموسى : (اذهب إلى فرعون) ، فلا يزال هذا الخطاب قائما به ، ومسموعاً منه كقيام صفة الحياة ، وقصر بقوم حتى قالو : ان الله سبحانه لا يشفع احداً في أحد البتة ولا يرحم احداً بشفاعة أحد ، وتجاوز بآخرين حتى زعموا ان المخلوق يشفع عنده بغير اذنه كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم ، وقصر بقوم حتى قالوا : إيمان أفسق الناس واظلمهم كايمان جبريل وميكائيل فضلا عن ابي بكر وعمر ، وتجاوز بآخرين حتى اخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة وقصر بقوم حتى نفو حقائق اسماء الرب تعالى وصفاته وعطلوه منها، وتجاوز بآخرين حتى شبهوه بخلقه ومثلوه بهم ، وقصر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله ﷺ وقاتلوهم واستحلوا من حرمتهم ، وتجاوز بقوم حتى ادعوا فيهم الإلهية ، وكذلك قصر باليهود في المسيح حتي كذبوه ورموه وأمّه بما برأ الله منه ، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله وجعلوه إلهاً يعبد مع الله ، وقصر بقوم حتى نفوا الاسباب والقوى والطبائع والغرائز ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوها امراً لازماً لا يمكن تغييره ولا تبديله ، وربما جعلها بعضهم مستقلة بالتأثير ، وقصر بقوم حتى تعبدوا بالنجاسات وهم النصارى وأشباههم ، وتجاوز بقوم حتى افضى بهم الوسواس الى الآصار والأغلال وهم أشباه اليهود ، وقصر بقوم حتى تزينوا للناس واظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه ، وتجاوز بقوم حتى اظهروا لهم من القبائح والأعمال السيئة ما يسقطون جاههم عندهم وسمو انفسهم (الملامتية) وقصر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا اليها ، وعدوها فضلا أو فضولاً ، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح وقالوا : العارف لا يسقط وارده ، وهذا باب واسع جداً لو تتبعناه لبلغ مبلغاً كثيراً وإنما أشرنا اليه أدنى إشارة .

﴿ فصل ﴾

ومن حيله ومكايده الكلام الباطل والآراء المتهافتة والخيالات المتناقضة التي هي زبالة الأذهان ونخاتة الافكار والزبد الذي تقذف به القلوب المظلمة المتحيرة التي تعدل الحق بالباطل ، والخطأ بالصواب ، وقد تقاذفت بها امواج الشبهات ، ورانت عليها غيوم الخيالات ، فمركبها القيـــل والقال ، والشك والتشكيك ، وكثرة الجدال ، ليس لها حاصل من اليقين تعول عليه ، ولا معتقد مطابق للحق ترجع اليه (يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً) . فقد اتخذوا لأجل ذلك القران مهجورا ، وقالوا من عند انفسهم فقالوا منكرا من القول وزورا ، فهم في شكهم يعمهون ، وحيرتهم يترددون ، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا ما تلته الشياطـــين على السنة اسلافهم من اهل الضلال فهم اليه يتحاكمون وبه يتخاصمون ، فارقوا الدليل واتبعوا (أهواء قوم قد ضلوا من قبـــل ، واضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل) .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده وتحيله على اخراجهم من العلم والدين أن القى على السنتهم ان كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين ، واوصى اليهم ان القواطـع العقلية والبراهين اليقينية في المناهج الفلسفية والطرق الكلامية ، فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مشكاة القرآن ، واحالهم على منطق يونان ، وعلى ما عندهم من الدعاوى الكاذبة العرية عن البرهان ، وقال لهم : تلك علوم قديمة صقلتها العقول والاذهان ، ومرت عليها القرون والازمان ، فانظر كيف تلطف بكيده ومكره حتى اخرجهم من الايمـــان والدين ، كاخراج الشعرة من العجين .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده ما ألقى إلى جهّال المتصوفة من الشطح والطامّات ، وأبرزه

لهم في قالب الكشف من الخيالات ، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات ، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات ، وأوحى اليهم أن وراء العلم طريقاً إن سلكوه أفضى بهم الى كشف العيان ، وأغنى بهم عن التقيد بالسنّةوالقرآن ، فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها ، وتصفية الأخلاق والتجافي عما عليه أهل الدنيا وأهل الرياسة والفقهاء وأرباب العلوم ، والعمل على تفريغ القلبوخلوه من كل شيء حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم ، فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب مـــا هو مستعد له من أنواع الباطل وأخيلة للنفس ، حتى جعله كالمشاهد كشفاً وعياناً ، فإذا أنكر عليهم ورثة الأنبياء قالوا : لكم العلم الظاهر ولنا الكشف البـــاطن ، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة ، ولكم القشور ولنا اللباب ، فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار ، كما ينسلخ الليل من النهـــار ، ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيـــالات ، وأوهمهم انها من الآيات البيّنات ، وانها من قبل الله سبحانه إلهامات وتعريفات ، فلا يعرض على السنةوالقرآن ، ولا يعامل إلا بالقبول والإذعان ، فلغير الله سبحانه لا له سبحانه ما يفتحه عليهم الشيطان ، من الخيـــالات والشطحات وأنواع الهذيان ، وكلما ازدادوا بعداً وإعراضاً عن القرآن ومـــا جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم .

﴿ فصل ﴾

ومن أنواع مكائده ومكرهأنه يدعو العبدالحسنخلقه وطلاقته وبشره إلى أنواع من الآثام والفجور ، فيلقاه من لا يخلصه من شرّه إلا تجهمه والتعبيسفي وجهه والإعراض عنه ، فيحسن له العدوان ، يلقاه ببشره وطلاقـــة وجهه وحسن كلامه فيعلق به ، فيروم التخلص منه فيعجز ، فلا يزال العدو يسعى بينهما حتى يصيب حـاجته ، فدخل على العبد من باب حسن الخلق وطلاقة الوجه ، ومن هاهنا وَصَّى أطباء القلوب بالإعراض عن أهل البدع ، وأن لا

يسلم عليهم ولا يريهم طلاقة وجهه ، ولا يلقـــاهم إلا بالعبوس والإعراض ، وكذلك أوصوا عند لقاء من يخاف الفتنة بلقائه من النساء والمردان ، وقالوا: متى كشفتَ للمرأة والصبي عن بياض أسنانك كشفا لك عما هنالك ، ومتى تلقيتها بوجه عابس وقيت شرهما . ومن مكائده أنه يأمرك أن تلقى المساكين وذوي الحاجات بوجه عبوس ، ولا تريهم بشراً ولا طلاقة ، فيطمعوا فيك ، ويتجرأوا عليك وتسقط هيبتك من قلوبهم ، فيحرموك صالح أدعيتهم وميل قلوبهم اليك ومحبتهم لك ، فيأمرك بسوء الخلق ومنـــع البشر والطلاقة مع هؤلاء ، وبحسن الخلق والبشر مع اولئك ، يفتح لك باب الشر ،ويغلق عنك باب الخير .

﴿ فصل ﴾

ومن مكائده أنه يأمرك بإعزاز نفسك وصونها حيث يكـون رضا الرب تعالى في إذلالها وابتذالها لجهاد الكفار والمنافقين ، وأمر الفجار والظلمـــة بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، فيخيـــل اليـــك أن ذلك تعريض بنفسك الى مواطن الذل وتسليط الأعداء ، وطعنهم فيك ، فيزول جاهك فـــلا يقبل منك بعد ذلك ولا يسمع منك فيأمرك بإذلالها وامتهانها حيث تكون مصلحتها في إعزازها وصيانتها ، كما يأمرك بالتبذل لذوي الرياسات وإهانة نفسك لهم، ويخيل اليك انك تعزّها به ، وترفع قدرهـــا بالذل لهم ، ويذكّرك قول الشاعر :

أهين لهم نفسي لأرفعهـا بهم ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وغلط هذا القائل فإن ذلك لا يصلح إلا لله وحده ، فانه كلما أهان العبد نفسه لله أكرمه وأعزه بخلاف المخلوق فإنـك كلما أهنت نفسك له ذللت عند الله وعند أوليائه وهنت عليه .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده وخداعه انه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد أو رباط أو زاوية

أو تربة ، ويحبسه هناك دنياه عن الخروج ويقول له : متى خرجت تبذلت للناس ، وسقطت من أعينهم ، وذهبت هيبتك من قلوبهم ، وربما ترى في طريقك منكراً . وللعدو في ذلك مقاصد خفية يريدها منه ، منها الكبر واحتقار الناس ، وحفظ الناموس ، وقيام الرياسة ، ومخالطة الناس تذهب ذلك ، وهو يريد أن يزار ولا يزور ، ويقصده الناس ولا يقصدهم ، ويفرح بمجيء الأمراء اليه ، واجتماع الناس عنده ، وتقبيل يده ، فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه الى الله ، ويتعوض عنه بما يقرب الناس اليه ، وقد كان رسول الله ﷺ يخرج الى السوق ، قال بعض الحفاظ: وكان يشتري حاجته ويحملها بنفسه ؛ ذكره أبو الفرج ابن الجوزي وغيره . وكان أبو بكر يخرج إلى السوق ويحمل الثياب فيبيع ويشتري . ومرّ عبد الله بن سلام وعلى رأسه حزمة حطب فقيل : ما يحملك على هذا وقد أغناك الله ؟ فقال : أردت أن أدفع به الكبر ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال حبة من كبر » . وكان أبو هريرة يحمل الحطب وغيره من حوائجه بنفسه ، وهو أمير المدينة ويقول : افسحوا افسحوا لأميركم !! وخرج عمر بن الخطاب يوماً وهو خليفة في حاجة له ماشياً فأعيى ، فرأى غلاماً على حمار له فقال : يا غلام احملني فقد أعييت . فنزل الغلام عن الدابة وقال : اركب يا أمير المؤمنين ، فقال : لا إركب أنت وأنا خلفك ، فركب خلف الغلام حتى دخل المدينة والناس يرونه .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده أنه يغري الناس بتقبيل يده ، والتمسح به والثناء عليه وسؤاله الدعاء ونحو ذلك ، حتى يرى نفسه ويعجبه شأنها ، فلو قيل له : إنك من أوتاد الأرض وبك يدفع البلاء عن الخلق ظن ذلك حقاً وربما قيل انه يتوسل به الى الله ويسأل الله به وبحرمته فيقضي حاجتهم فيقع ذلك في قلبه ويفرح به ويظنه حقاً ، وذلك كل الهلاك فإذا رأى من أحد من الناس تجافياً عنه أو

قلة خضوع له تذمر لذلك ، ووجد في باطنه وهذا شر من ارباب الكبائر المصرين عليها وهم أقرب إلى السلامة منه .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده انه يحسن إلى أرباب التخلي والزهد والرياضة العمل بهاجسهم وواقعهم دون امر الشارع ، ويقولون: القلب إذا كان محفوظاً مع الله كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ. وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم فإن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع رحمانية وشيطانية ونفسانية ، كالرؤيا فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه لا يفارقانه إلى الموت ، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين هم وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده ، ومن عداهم يصيب ويخطيء وليس بحجة على الخلق ، وقد كان سيد المحدثين الملهمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول الشيء فيرده عليه من هو دونه فيتبين له الخطأ فيرجع إليه ، وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ، ولا يلتفت إليها ولا يحكم بها ولا يعمل بها وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شيء فيحكم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ، ولا يلتفت اليها ويقول : حدثني قلبي عن ربي ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت وأنتم أخذتم عن الوسائط ، ونحن أخذنا بالحقائق وأنتم اتبعتم الرسوم. وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد ، وغاية صاحبه أن يكون جاهلاً يعذر بجهله حتى قيل لبعض هؤلاء : ألا تذهب تستمع الحديث من عبد الرزاق ؟ فقال ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الملك الخلاق ؟ وهذا غاية الجهل فان الذي يسمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن ، وأما هذا وامثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول، وهو يدعى انه يسمع الخطاب من مرسله فيستغني عما جاء به الرسول بما يلقى في قلبه من الخواطر والهواجس ، فهو من أعظم الناس كفراً ، وكذلك إن

ظن أنه يكتفي بذلك تارة، وبهذا تارة فما يلقى في القلوب لا عـــبرة به ولا التفات إليه إن لم يعرض على جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان ، وقد سئل عبدالله بن مسعود عـــن مسألة المفوّضة شهراً فقال بعد الشهر أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله وان يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله بريء منه ورسوله. وكتب كاتب لعمر بين يديه: هذا ما ارى الله عمر فقال لا : امحه واكتب : هذا ما رأى عمر . وقال عمر أيضاً: أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فقد رأيتني يوم أبي جندل ولو استطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته . واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور وهم أبر الأمة قلوباً واعمقها علماً وأبعدها من الشيطان . فكانوا أتبع الأمة للسنة وأشدهم اتهاماً لآرائهم . هؤلاء ضد ذلك وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة ، ولم يلتفتوا إلى شيء من الخواطر والهواجس والاتهامات حتى يقوم عليها شاهدان قال الجنيد قال أبو سليمان الداراني : ربمـــا يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا اقبلها الا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفـــع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود . وقال أيضاً : من ترك قراءة القرآن ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وادعى بهذا الشأن فهو مُدّع ، وقال سري السقطي : من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غالط . وقال الجنيد : مذهبنا هـــذا مقيد بالأصول الكتاب والسنة فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه لا يقتدى به . وقال أبو بكر الدقاق: من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر حرم مشاهدة القلب في الباطن وقال ابو الحسين النوري: من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربه ، ومن رأيته يدعى حالة لا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه . وقال أبو سعيد الخراز : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل . وقال الجريري : أمرنا هذا كله مجموع على فصل

واحد ، إن تلزم قلبك المراقبة ،يكون العلم على ظاهرك قائماً.وقال ابو حفص الكبير الشان : من لم يزن أفعاله وأحواله بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعدوه في ديوان الرجال ، وما أحسن ما قال ابو احمد الشيرازي : كان الصوفية يسخرون من الشيطان والآن الشيطان يسخر منهم.ونظير هذا ما قال بعض أهل العلم : كان الشيطان فيما مضى ينهب من الناس واليوم الرجل الذي ينهب من الشيطان .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده أمرهم بلزوم زيّ واحد وهيئة معينة وشيخ معين وطريقة مخترعة ، ويفرض عليهم لزوم ذلك بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض ، فلا يخرجون عنه ، ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمونه، وربما يلزم أحدهم موضعاً معيناً للصلاة لا يصلي إلا فيه ، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يوطن الرجل المكان للصلاة كما يوطن البعير ، وكذلك يرى احدهم لا يصلي إلا على سجادة ولم يصل رسول الله ﷺ على سجادة قط ، ولا كانت السجادة تفرش بين يديه بل كان يصلي على الأرض وربما سجد في الطين ، وكان يصلي على الحصير فيصلي على ما اتفق بسطه فإن لم يكن ثم شيء صلى على الأرض ، وهؤلاء استقلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة ليسوا مع اهل الفقه ولا مع اهل الحقائق ، وصاحب الحقيقة أشد شيء عليه التعبد بالرسوم الوضعية وهي من أعظم الحجب بين قلبه وبين الله ، فمتى تعبد بها حبس بها قلبه عن سيره فكان أحسن احواله الوقوف معها ولا وقوف في السير بل إما تقدم وإما تأخر كما قال تعالى : (لمن شاء منكم ان يتقدم أو يتأخر) فلا وقوف في الطريق إنما هو ذهاب وتقدم أو رجوع وتأخر ومن تأمل هدى رسول الله ﷺ وسيرته وجده مناقضاً لهدى هؤلاء فإنه كان يلبس القميص تارة والقباء تارة والجبة تارة والإزار والرداء تارة ، ويركب البعير وحده ومردوفا، ويركب الفرس مسرجا وعريانا، ويركب الحمار ويأكل

ما حضر ويجلس على الارض وعلى الحصير تارة وعلى البساط تارة ويمشي وحده تارة ، ومع اصحابه تارة ، وهدية عدم التكلف وعدم التعبد بغير ما أمره به ربه ، فبين هديه وهدي هؤلاء بون بعيد .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده الذي بلغ به من الجهال ما بلغ، الوسواس الذي كادهم به في أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية حتى القاهم في الآصار والأغلال وأخرجهم عن اتباع سنة رسول الله ﷺ وخيل لواحدهم ان ما جاءت به السنة لا يكفي حتى يضم اليه غيره ، فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد والتعب الحاضر وبطلان الأجر او تنقيصه ، ولا ريب أن الشيطان هو الداعي إلى الوسواس قداطاعوا الشيطان ولبوا دعوته واتبعوا امره ورغبوا عن اتباع سنة رسول الله ﷺ وطريقته حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله ﷺ واغتسل كاغتساله لم يطهر ، ولم يرتفع حدثه ، ولولا العذر بالجهل لكان هـذا مشاقة للرسول ﷺ ، فقد كان رسول الله ﷺ يتوضأ بالمُدّ وهو نحو رطل وثلث والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه وصحّ عنه أنه توضأ مرة ولم يزد على ثلاث بل أخبر أن من زاد عليها فقد اساء وظلم وتعدى، فالموسوس مسيء ظالم بشهادة رسول الله ﷺ فكيف يتقرب إلى الله بما هو مسيء به ، متعدٍ فيه لحدوده ؟ وصح عنه انه كان يغتسل هو وعائشة من قصعة بينهما فيها أثر العجين ولو رأى المسوس من يفعل هذا لأنكر عليه غاية الانكار وقال : ما يكفي هذا القدر لغسل اثنين كيف والعجين يحلله الماء فيغيره ، والرشاش ينزل في الماء فينجسه عند بعضهم ، ويفسده عند آخرين فلا تصح به الطهارة وكان ﷺ يفعل ذلك مع غير عائشة مثل ميمونة وأم سلمة وهـذا كله في الصحيح ، وثبت ايضاً في الصحيح عن ابن عمر انه قال : كان الرجال والنساء على عهد رسول الله ﷺ يتوضؤن من إناء واحد والآنية التي كان رسول الله ﷺ وازواجه واصحابه ونساؤهم يغتسلون منها لم تكن من كبار الآنية ولا

كانت لها مادة تمدها كأنبوب الحمام ونحوه ولم يكونوا يراعون فيضانها حتى يجري الماء من حافاتها كما يراعيه جهال الناس ممن بلي بالوسواس في حرم الحمام فهدي رسول الله ﷺ الذي من رغب عنه فقد رغب عن سنته جواز الاغتسال من الحياض والآنية وان كانت ناقصة غير فائضة ، ومن انتظر الحوض حتى يفيض ثم استعمله وحده لم يمكن أحداً ان يشاركه في استعماله فهو مبتدع مخالف للشريعة ، قال شيخنا : ويستحق التعزير البليغ الذي يزجره وامثاله عن أن يشرعوا في الدين ما لم يأذن به الله ويعبدوا الله بالبدع لا بالاتباع ، ودلت هذه السنن الصحيحة على ان النبي ﷺ واصحابه لم يكونوا يكثرون صبّ الماء، ومضى على هذا التابعون لهم بإحسان. قال سعيد بن المسيب : إني لاستنجي من كوز الحبّ وأتوضأ وافضل منه لأهلي قال الإمام أحمد : من فقه الرجل قلة ولوعه بالماء . وقال المروذي : وضأت ابا عبدالله بالعسكر فسترته من الناس لئلا يقولوا انه لا يحسن الوضوء لقلة صبه الماء وكان احمد يتوضأ فلا يكاد يبل الثرى . وثبت في الصحيح ان النبي ﷺ توضأ من إناء فأدخل يده فيه ثم تمضمض واستنشق وكذلك كان في غسله يدخل يده في الإناء ويتناول الماء منه والموسوس لا يجوز ذلك لعله ان يحكم بنجاسة الماء أو سلب طهوريته بذلك وبالجملة فلا تطاوعه نفسه باتباع رسول الله ﷺ وأن يأتي على ما يأتي به ابداً وكيف تطاوع المسوس نفسه ان يغتسل هو وامرأته من اناء واحد قدر الفرق قريباً من خمسة ارطال بالدمشقي يغمسان ايديهما فيه ويفرغان عليهما ؟! فالموسوس يشمئز من ذلك كما يشمئز المشرك اذا ذكر الله وحده . قال اصحاب الوسواس : إنما عملنا على ذلك الاحتياط لديننا والعمل بقوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، وقوله : « من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه » ، وقوله : « الإثم ما حاك في الصدور » ، وقال بعض السلف : الإثم حواز القلوب . وقد وجد النبي ﷺ تمرة فقال : « لولا اني أخشى أن

تكون من الصدقة لأكلتها » ؛ أفلا ترى انه ترك أكلها احتياطاً ؟ وقد أفتى مالك من طلق امرأته وشك هل هي واحدة أم ثلاث بأنها ثلاث احتياطاً للفروج ؟ وأفتى من حلف بالطلاق ان في هذه اللوزة حبتين وهو لا يعلم ذلك فقال : الأمر كما حلف عليه ، إنه حانث لأنه حلف على ما يعلم ، وقال فيمن طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها : تطلق جميع نسائه احتياطاً وقطعاً للشك. وقال أصحاب مالك فيمن حلف بيمين ثم أنسيها : انه يلزمه جميع ما يحلف به عادة فيلزمه الطلاق والعتاق والصدقة بثلث المال وكفارة الظهار وكفارة اليمين بالله ، والحج ماشياً ، ويقع الطلاق في جميع نسائه ، ويعتق عليه جميع عبيده وامائه ؛ وهذا أحد القولين عندهم ، ومذهب مالك أيضاً إذا حلف ليفعلن كذا إنه على حنث حتى يفعله ، فيحال بينه وبين امرأته إذا كان حالفاً بالطلاق ، حتى يفعل ، فاذا فعل خلي بينه وبين امرأتـــه . ومذهبه أيضاً إذا قال : إذا جاء رأس الحول فأنت طالق ثلاثا ، انها تطلق في الحال هذا كله احتياطاً . وقال الفقهاء : من خفي عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله. وقالوا : إذا كان معه ثياب طاهرة وتنجس منها ثوب وشكّ فيها صلى في ثوب بعد ثوب بعدد النجس وزاد صلاة ليتعين براءةذمته. وقالوا : إذا اشتبهت الأواني الطاهرة بالنجسة أراق الجميع وتيمم ، وكذلك إذا اشتبهت عليه القبلة فلا يدري أي جهة ، فإنه يصلي أربع صلوات ، عند بعض الأئمة ، لتبرأ ذمته بيقين . وقـــالوا : من ترك صلاة من يوم ثم نسيها وجب عليه أن يصلي خمس صلوات . وقد أمر النبي ﷺ من شكّ في صلاته أن يبني على اليقين ، وحرّم أكل الصيد إذا شك صاحبه بسهمه أو بغيره كما إذا وقع في الماء ، وحرم أكـــله إذا خالط كلبه كلب آخر للشك في تسمية صاحبه عليه ، وهذا باب يطول تتبعه ، فالاحتياط والأخـــذ باليقين غير مستنكر بالشرع وإن سميتموه وسواساً . وقد كان عبـــد الله بن عمر يغسل داخل عينيه في الطهارة حتى عمي ، وكان أبو هريرة إذا توضأ أشرع في العضد

وإذا غسل رجليه أشرع في الساقين ، فنحن إذا احتطنا لأنفسنا وأخذنا باليقين وتركنا ما يريب الى ما لا يريب ، وتركنا المشكوك فيه لليقين المعلوم وتجنبنا محل الاشتباه لم نكن بذلك عن الشريعة خارجين ، ولا في البدعة والجين . وهل هذا الأخير من التسهيل والاسترسال حتى لا يبالي العبد ولا يحتاط له بل يسهل الأشياء ويمشي حالها ولا يبالي كيف توضأ ولا بأي ماء توضأ ولا بأي مكان صلّى ، ولا يبالي ما أصاب ثوبه وذيله ولا يسأل عما عهد بل يتغافل ويحسن ظنه ، فهو مهمل لدينه ولا يبالي فيه ، ويحمل الأمور على الطهارة وربما كانت أفحش النجاسة ، ويدخل بالشك ويخرج بالشك ، فأين هذا ممن استقصى لدينه في فعل ما أمر به واجتهد فيه حتى لا يخل بشيء منه ، وإن زاد على المأمور فإنما قصده بالزيادة تكميل المأمور ولا ينقص منه شيئاً ، قالوا : وجماع ما ينكرونه علينا احتياط في فعل مأمور ، أو احتياط في اجتناب محظور ، وذلك خير وأحسن عاقبة من التهاون بهذين الأمرين فانه يفضي غالباً إلى النقص من الواجب ، والدخول في المحرم ، وإذا وازنّا بين هذه المفسدة ومفسدة الوسواس كانت مفسدة الوسواس أخف،هذا إن ساعدناكم على تسميته وسواساً وإنما نسميه احتياطاً واستظهاراً فلستم أسعد منا بالسنة ونحن حولها ندندن،وتكميلها نريد.قال أهل الاقتصاد والاتباع :قال الله سبحانه:(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) وقال (ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال تعالى (واتبعوه لعلكم تهتدون) وقال تعالى (وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه الى قوله- تتقون) وهذا الصراط المستقيم الذي وصانا باتباعه هو الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وهو قصد السبيل وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة قاله من قاله لكن الجور قد يكون جوراً عظيماً عن الصراط، وقد يكون يسيراً وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله ، وهذا كالطريق الحسي فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جوراً فاحشاً ، وقد يجور دون

ذلك فالميزان الذي تعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، والجائر عنه إما مفرط ظالم أو مجتهد أو متأول ، أو مقلد أو جاهل ، فمنهم المستحق للعقوبة ومنهم المغفور له ومنهم المأجور أجراً واحداً بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم في طاعة الله ورسوله أو تفريطهم ، ونحن نسوق من هدى رسول الله ﷺ وهدى أصحابه ما يبين أي الفريقين أولى باتباعه ثم نجيب عما احتجوا به بعون الله وتوفيقه ونقدم قبل ذلك ذكر النهي عن الغلو وتعدي الحـــدود والإسراف وان الاقتصاد والاعتصام بالسنة عليها مدار الدين قال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم) وقال تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) وقال (تلك حدود الله فلا تعتدوها)وقال تعالى (ادعو ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين) وقال تعالى (ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين) وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته « القط لي حصاً » فلقطت له سبع حصيات من حصى الخذف فجعل ينفضهن في كفه ويقول : « أمثال هؤلاء فارموا واياكم والغلو في الدين ، فانما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين » رواه أحمد والنسائي وقال أنس : قال رسول الله ﷺ « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقـــاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » فنهى رسول الله ﷺ عن التشدد في الدين وذلك بالزيادة على المشروع ، وأخبر ان تشديد العبد على نفسه بالنذر الثقيل فيلزمه الوفاء به وبالقدر كفعل أهل الوسواس فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم قدراً ، حتى استحكم ذلك وصار صفة لازمة لهم ، قال البخاري : وكره أهل العلم الإسراف فيه يعني الوضوء ، وان يجاوز فعل النبي ﷺ وقال ابن عمر.. اسباغ الوضوء الانقاء . فالفقه كل الفقه الاقتصاد في الدين ، والاعتصام بالسنة قـــال أبي بن كعب : عليكم بالسبيل والسنة وأيما عبد على سبيل وسنة ذكر الله فاقشعر جلده من خشية

الله إلا تحاتت عنه الخطايا كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة ، فاحرصوا إذا كانت أعمالكم اقتصاداً أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم قال الشيخ ابو محمد في كتاب « ذم الوسواس » : الحمد لله الذي هدانا بنعمته وشرفنا بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، ووفقنا للاقتداء به والتمسك بسنته ، ومنّ علينا باتباعه الذي جعله علماً على محبته ومغفرته وسبباً لكتابة رحمته وحصول هدايته ، فقال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون — إلى قوله — الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) الآية . اما بعد : فان الله سبحانه جعل الشيطان عدواً للانسان ، يقعد له على الصراط المستقيم ، ويأتيه من كل جهة وسبيل ، كما أخبر الله تعالى عنه أنه قال : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد اكثرهم شاكرين) وحذرنا الله من متابعته وأمرنا بمعاداته ومخالفته فقال تعالى : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) وقال: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) واخبر بما صنع بأبوينا تحذيراً لنا من طاعته وقطعاً للعذر في متابعته ، وأمرنا الله تعالى باتباع صراطه المستقيم ، ونهانا عن اتباع السبل فقال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وسبيل الله وصراطه المستقيم هو الذى كان عليه ﷺ وصحابته بدليل قوله تعالى : (يس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم) وقال تعالى : (وانك لعلى هدى مستقيم) وقال تعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) فمن اتبع رسول الله ﷺ في قوله وفعله فهو على صراط مستقيم ، وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه ، ومن خالفه في قوله او فعله فهو مبتدع متبع لسبيل الشيطان غير داخل فيمن وعده الله بالجنة والمغفرة والاحسان .

﴿ فصل ﴾

ثم إن طائفة الموسوسين قد تحقق منهم طاعـــة الشيطان ، حتى اتصفوا بوسوسته وقبلوا اقواله وأطاعوه وغنوا عن اتباع رسول الله ﷺ وصحابته حتى إن احدهم ليرى أنه اذا توضأ وضوءه ﷺ أوصلى بصلاته فوضوءه باطل وصلاته باطلة ، ويرى أنه إذا فعل مثل فعـــل رسول الله ﷺ في مؤاكلة الصبيان وأكل طعام عامة المسلمين انه قد صار نجسا يجب عليه تسبيع يده وفيه كما لو ولغ فيهما كلب أو بال عليهما هرٌ ثم إنه بلـــغ من استلاء ابليس عليهم أنهم أجابوه إلى ما يشبه الجنون أو يقارب مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات والأمور المحسوسات ، وعلم الانسان بحال نفسه من الأمور الضروريات اليقينيات ، وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلا يشاهده ببصره ويكبر ويقرأ بلسانه بحيث تسمعه أذنه ويعلمه بقلبه ، بل يعلمه غيره منه ويتيقنه ثم يشك هل فعل ذلك أم لا ، وكذلك يشككه الشيطان في نيتـه وقصده التي يعلمها من نفسه يقينا بل يعلمها غيره منه بقرائن احواله ، ومع هذا يقبل قول ابليس في انه ما نوى الصلاة ولا ارادها مكابرة منه لعيانه وجحداً ليقين نفسه ، حتى تراه متلدداً متحيراً كأنه يعالج شيئاً يجتذبه أو يجد شيئاً في باطنه يستخرجه كل ذلك مبالغة في طاعة إبليس وقبول وسوسته ، ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته ، ثم إنه يقبل قوله في تعذيب نفسه ، ويطيعه في الإضرار بجسده تارة في الغوص في الماء البـــارد وتارة بكثرة استعماله واطالة الفرك وربما فتح عينيه في الماء البارد وغسل داخلها حتى يضر ببصره ، وربما افضى إلى كشف عورته للناس ، وربمـــا صار إلى حالة يسخر منه الصبيان ويستهزىء به من يراه . قلت : وذكر ابن الجوزي عن ابن عقيل ان رجلا قال له : اغتمس في الماء مراراً كثيرة واشك هل صح الغسل أم لا فما ترى في ذلك ؟ فقال له الشيخ : اذهب فقد سقطت عنك الصلاة قال : وكيف قال لأن النبي ﷺ قال : رفع القـلم عن ثلاثة :

المجنون حتى يفيق والنائم حتى يستيقظ والصبي حتى يبلغ . ومن ينغمس في الماء مراراً ويشك هل أصابه أم لا فهو مجنون . قال : وربماشغلته توسوسه حتى تفوته الجماعة ، وربما فات الوقت ويشغله توسوسه في النية حتى تفوته التكبيرة الاولى ، وربما فوت عليه ركعة أو اكثر ، ومنهم من يحلف انه لا يزيد على هذه ويكذب قلت: وحكي لي من اثق به عن موسوس عظيم رأيته انا يكرر عقد النية مراراً عديدة فيشق على المأمومين مشقة كبيرة فعرض له أن حلف بالطلاق الا يزيد على تلك المرة فلم يدعه إبليس حتى فرق بينه وبين امرأته فاصابه لذلك غم شديد واقاما متفرقين دهراً طويلا حتى تزوجت تلك المرأة برجل آخر وجاءه منها ولد ، ثم انه حنث في يمين حلفها ففرق بينهما وردت إلى الاول بعد ان كاد يتلف لمفارقتها. وبلغني عن آخر كان شديد التنطع بالتلفظ بالنية والتقعر في ذلك الى ان قال : أصلي أصلي مراراً صلاة كذا وكذا واراد ان يقول اداء فأعجم الدال وقال : اذاء لله فقطع الصلاة رجل الى جانبه فقال : ولرسوله وملائكته وجماعة المصلين!!. قال ومنهم من يتوسوس في إخراج الحرف حتى يكرره مراراً قال فرأيت منهم من يقول الله أككبر قال : وقال لي انسان منهم : قد عجزت عن قول السلام عليكم فقلت له قل : مثل ما قلت الآن وقد استرحت. وقد بلغ الشيطان منهم أن عذبهم في الدنيا والآخرة واخرجهم عن اتباع الرسول وأدخلهم في جملة أهل التنطع والغلو وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً فمن أراد التخلص من هذه البلية فليتشعر أن الحق في اتباع النبي ﷺ في قوله وفعله ، وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك انه على الصراط المستقيم ، وان ما خالفه من تسويل ابليس ووسوسته ، ويوقن انه عدو له لا يدعوه إلى خير : (انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير) وليترك التعريج على كل ما خالف طريقة رسول الله ﷺ كائنا ما كان فإنه لا شك أن رسول الله ﷺ كان على الصراط المستقيم ومن شك في هذا فليس بمسلم، ومن علمه قال: اين العدول عن سنته؟ وأي شيء

يبغي العبد عن طريقته ويقول لنفسه : الست تعلمين ان طريقة رسول الله ﷺ هي الصراط المستقيم ؟ فاذا قالت : بلى . قال لها : فهل كان يفعل هـذا ؟ فستقول: لا . فيقول لها : (فماذا بعد الحق إلا الضلال) وهل بعـد طريق الجنة إلا طريق النار ، وهل بعد سبيل الله وسبيل رسوله إلا سبيل الشيطان؟ فإن اتبعت سبيله فأنت قرينه وستقولين : (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) ولينظر احوال السلف في متابعتهم لرسول الله ﷺ فليقتدبهم وليحتذ طريقتهم فقد روينا عن بعضهم انه قال: تقدمني قوم لو لم يتجاوزوا بالوضوء الظفر ما تجاوزته ، قلت هو ابراهيم النخعي . وقال زين العـــابدين يوماً لابنه : يا بني اتخذ لي ثوبا البسه عند قضاء الحاجة فإن الذباب يسقط على النتن ثم يقع على الثوب ثم انتبه . فقال : ما كان للنبي ﷺ واصحابه إلاثوب واحد ، فتركه. وكان عمر رضى الله عنه يهم بالامر ويعزم عليه فإذا قيل له لم يفعله رسول الله ﷺ انتهى حتى انه قال : لقد هممت أن انهي عن لبس هذه الثياب فانه بلغني انها تصبغ ببول العجائز . فقال له أبي : مالك ان تنهى فان رسول الله ﷺ قد لبسها ولبست في زمانه ولو علم الله أن لبسها حرام لبينه لرسوله . فقال عمر : صدقت. ثم لتعلم ان الصحابة ما كان فيهم مسوس ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادخرها الله عن رسوله وصحابته وهم خير الخلق وافضلهم ، ولو أدرك رسول الله ﷺ المسوسين لمقتهم ، ولو ادركهم عمر لضربهم وادبهم،ولو ادركهم الصحابة لبدعوهم ، وها أنا اذكر ما جاء في خلاف مذهبهم على ما يسر الله مفصلاً .

الفصل الأول : في النية في الطهارة والصلاة

النية هي القصد والعزم على فعل الشيء ومحلها القلب ، لا تعلق لها باللسان أصلا ، ولذلك لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه في النيـة لفظ بحال ، ولا سمع عنهم ذكر ذلك ، وهذه العبارات التي أحدثت عند افتتاح الطهارة والصلاة قد جعلها الشيطان معتركا لأهل الوسواس يحبسهم عندهـــا ويعذبهم فيها ، ويوقعهم في طلب تصحيحها ، فترى أحدهم يكررها ويجهد نفسه في

التلفظ بها وليست من الصلاة في شيء وإنما النية قصد فعل الشيء ، فكل عازم على فعل فهو ناويه لا يتصور انفكاك ذلك عن النية فإنه حقيقتها فلا يمكن عدمها في حال وجودها ، ومن قعد ليتوضأ فقد نوى الوضوء ، ومن قام ليصلي فقد نوى الصلاة ، ولا يكاد العاقل يفعل شيئاً من العبادات ولا غيرها بغير نية ، فالنية أمر لازم لأفعال الانسان المقصودة ، لا تحتاج إلى تعب ولا تحصيل ، ولو أراد إخلاء أفعاله الاختيارية عن نية لعجز عن ذلك ولو كلفه الله الوضوء والصلاة بغير نية لكلفه ما لا يطيق ، ولا يدخل تحت وسعه ، وما كان هكذا فما وجه التعب في تحصيله ؟ وإن شك في حصول نيته فهو نوع جنون ، فإنّ علم الانسان بنفسه أمر يقيني ، فكيف يشك فيه عاقل من نفسه ؟ ومن قام ليصلي صلاة الظهر خلف الإمام فكيف يشك في ذلك ؟ ولو دعاه داع الى شغل في تلك الحال لقال : اني مشتغل أريد صلاة الظهر . ولو قال له قائل في وقت خروجه للصلاة : أين تمضي ؟ لقال : أريد أن أصلي صلاة الظهر مع الإمام . فكيف يشك عاقل في هذا من نفسه وهو يعلمه يقيناً ؟ بل أعجب من هذا أن غيره يعلم نيته بقرائن الأحوال ، فإنه إذا رأى انساناً جالساً في الصف وقت الصلاة عند اجتماع الناس علم أنه يريد الصلاة ، وإذا رآه قد قام عند إقامتها ونهوض الناس اليها علم أنه إنما قد قام ليصلي ، فإن تقدم بين يدي المأمومين علم أنه يريد إمامتهم ، فإن رآه قام في الصف علم انه يريد الائتمام . قال : فاذا كان غيره يعلم نيته الباطنة بما ظهر من قرائن أحواله ، فكيف يجهلها من نفسه مع اطلاعه هو على باطنه ، فقبوله من الشيطان إنه ما نوى تصديق له في جحد العيان وإنكار الحقائق المعلومة يقيناً ، ومخالفة الشرع ورغبة عن السنة وعن طريق الصحابة . ثم ان النية الحاصلة لا يمكن تحصيلها والموجودة لا يمكن إيجادها لأن من شرط إيجاد الشيء كونه معدوماً فإن إيجاد الموجود محال ، وإذا كان كذلك فما يحصل له بوقوفه شيء ولوقف ألف عام . قال : ومن العجب أنه يوسوس حال قيامه حتى يركع

الإمام ، فاذا خشى فوات الركوع كبر سريعـــاً وأدركه ، فمن لم تحصل له النية في الوقوف الطويل حال فراغ باله كيف يحصلها في الوقت الضيق مـع شغل باله بفوات الركعة ، ثم ما يطلبه إما أن يكون سهلاً أو عسيراً ، فإن كان سهلاً فكيف يعسره ، وإن كان عسيرا فكيف يتسير عند ركوع الإمام سواه ، وكيف خفي ذلـــك على النبي ﷺ وصحابته من أولهم إلى آخرهم والتابعين ومن بعدهم ؟ وكيف لم ينتبه له سوى من استحوذ عليه الشيطان ؟ أفيظن بجهله أن الشيطان ناصح له ؟ أما علم أنه لا يدعو الى هدى ولا يهدي إلى خير ؟ وكيف يقول في صلاة رسول الله ﷺ وسائر المسلمين الذين لم يفعلوا فعل هذا الموسوس ، أهي ناقصة عنده مفضولة ، أم هي التامة الفاضلة ؟ فما دعاه الى مخالفتهم والرغبة عن طريقهم ؟ فإن قال : هذا مرض بليت به . قلنا : نعم سببه قبولك من الشيطان ولم يعذر الله أحداً بذلك ، ألا ترى أن آدم وحواء لما وسوس لهما الشيطان فقبلا منه أخرجاً من الجنة ، ونودي عليهما بما سمعت ، وهما أقرب الى العذر لأنهما لم يتقدم قبلهما من يعتبران به ، وأنت فقد سمعت وحذّرك الله من فتنته ، وبيّن لك عداوته وأوضح لك الطريق ، فما لك عذر ولا حجة في ترك السنة والقبول من الشيطان ، قلت: قال شيخنا: ومن هؤلاء من يأتي بعشر بدع لم يفعل رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه واحدة منها فيقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، نويت أصلي صلاة الظهر ، فريضة الوقت ، أداءً لله إماماً أو مأموماً ، أربع ركعات ، مستقبل القبلة ، ثم يزعج أعضاءه ويحني جبهته ويقيم عروق عنقـه ، ويصرخ بالتكبير كأنه يكبر على العدو ، ولو مكث أحدهم عمر نوح يفتش هل فعل رسول الله ﷺ أو أحد من أصحابه شيئاً من ذلك لما ظفر به ، إلا أن يجاهر بالكذب البحت فلو كان في هذا خير سبقونا اليه ، ولدلونا عليه ، فإن كان هذا هدى فقد ضلوا عنه ، وإن كان الذي كانوا عليه هو الهدى والحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ قال : ومن أصناف الوسواس ما يفسد الصلاة مثل تكرير بعض الكلمة كقوله

في التحيات:التحي التحي وفي السلام : اسّ اسّ وقوله في التكبير أككككبر ونحو ذلك فهذا الظاهر بطلان الصلاة وربما كان إماماً فأفسد صلاة المأمومين وصارت الصلاة التي هي أكبر الطاعات أعظم ابعاداً له عن الله من الكبائر وما لم يبطلها من ذلك فكروه وعدول عن السنة ورغبة عن طريق رسول الله ﷺ وهديه ، وما كان عليه أصحابه ، وربما رفع صوته بذلك فآذى سامعيه وأغرى الناس بذمه والوقيعة فيه ، فجمع على نفسه طاعة ابليس ومخالفة السنة وارتكاب شر الامور ومحدثاتها ، وتعذيب نفسه ، واضاعة الوقت والاشتغال بما ينقص اجره وفوات ما هو أنفع له وتعريض نفسه لطعن الناس فيه وتغرير الجاهل بالاقتداء به فإنه يقول : لولا أن ذلك أفضل لما اختاره لنفسه ، وإساءة الظن بما جاءت به السنة وانه لا يكفي وحده وانفعال النفس وضعفها للشيطان حتى يشتد طمعه فيه وتعريضه نفسه بالتشديد عليه بالقدر عقوبة له واقامته على الجهل، ورضاه بالخبل في العقل كما قال ابو حامد الغزالي وغيره الوسوسة سببها اما جهل بالشرع واما خبل في العقل وكلاهما من أعظم النقائص والعيوب ، فهذه نحو خمسة عشر مفسدة في الوسواس ، ومفاسده أضعاف ذلك بكثير وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عثمان بن ابي العاص قال قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي يلبسها علي فقال « ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً » ففعلت ذلك فأذهبه الله عني ، فأهل الوسواس قرة عين خنزب واصحابه نعوذ بالله منه .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك الإسراف في ماء الوضوء والغسل ، وقد روى احمد في مسنده من حديث ابن عمر انه ﷺ مرّ بسعد يتوضأ فقال « لا تسرف » فقال : يا رسول الله أفي الماء إسراف ؟ قال « نعم وان كنت على نهر جار » وفي جامع الترمذي من حديث ابيّ بن كعب أنه ﷺ قال: « للوضوء شيطان يقال

له الوهاب فاتقوا وسواس الماء » وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثا وقال « هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد اساء وتعدى وظلم » وفي كتاب «الشافي» لأبي بكر عبد العزيز من حديث ام سعد قالت قال رسول الله ﷺ « يجزىء من الوضوء مدٌ ومن الغسل صاعٌ وسيأتي قوم يستقلون ذلك فاؤلئك خلاف أهل سنتي والأخذ بسنتي في حضرة القدس منزه اهل الجنة » وفي « سنن » الأثرم من حديث سالم عن جابر قال : يجزىء من الوضوء المد ومن الغسل من الجنابة الصاع وقال رجل : ما يكفيني فغضب حتى تربدّ وجهه ثم قال : قد كفى من هو خير منك وأكثر شعرا. وقد رواه الامام أحمد في مسنده مرفوعاً ولفظه عن جابر قال ﷺ « يجزىء من الغسل الصاع ومن الوضوء المدُّ » وفي صحيح مسلم عن عائشة انها كانت تغتسل هي والنبي ﷺ من هذا —فإذا تورٌ مثل الصاع أو دونه— نشرع فيه جميعاً فأفيض بيدي على رأسي ثلاث مرات ، وما انقض لي شعراً . وفي سنن أبي داود والنسائي عن عباد ابن تميم عن ام عمارة انه ﷺ توضأ فأتي بماء في إناء قدر ثلثي المدّ . وقال عبدالرحمن بن عطاء سمعت سعيد بن المسيب يقول : إنلي ركوة أو قدحا مايسع الا نصف المد أو نحوه أبول وأتوضأ منه وأفضل منه فضلا قال عبد الرحمن : فذكرت ذلك لسليمان بن يسار فقال : انا يكفني مثل ذلك قال عبد الرحمن : فذكرت ذلك لأبي عبيدة بن محمد بن عمار فقال : هكذا سمعت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه الأثرم وقال ابراهيم النخعي : كانوا أشد استيفاء للماء منكم . وكانوا يرون أن ربع المدّ يجزىء من الوضوء . وهذا مبالغة عظيمة فإن ربع المد لا يبلغ أوقية ونصف بالدمشقي . وفي الصحيحين عن أنس كان ﷺ يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع الى خمسة أمداد وفي صحيح مسلم عن سفينة كان رسول الله ﷺ يغسله الصاع من الجنابة ويوضئه المد . وقال النخعي : إني لأتوضأ من كوز الحبّ مرتين . وتوضأ القاسم بن محمد بن ابي بكر بقدر

نصف المد أو أزيد بقليل . وقال محمد بن عجلان. الفقه في دين الله اسباغ الوضوء وقلة اهراق الماء ، وقال إحمد : كان يقال من قلة فقه الرجل ولعه بالماء . وقال الميموني : كنت أتوضأ بماء كثير فقال لي احمد : أترضى أن تكون كذا فتركته . وقال عبدالله : قلت لأبي: إني لأكثر الوضوء فنهاني عن ذلك وقال : يا بني يقال للوضوء شيطان يقال له الولهان ، قال لي ذلك غير مرة ينهاني عن كثرة صبّ الماء وقال لي : اقلل من هذا الماء يا بني . وقال اسحاق بن منصور ، قلت لأحمد تزيد على ثلاث في الوضوء ؟ فقال لا والله إلا رجل مبتلى . وقال أسود بن سالم – الرجل الصالح شيخ الإمام احمد – كنت مبتلى بالوضوء فنزلت دجلة أتوضأ فسمعت هاتفاً يقول : يا أسود حدثني يحيى بن سعيد : الوضوء ثلاثاً ما كان اكثر لم يرفع فالتفتُّ فلم أر أحداً . وقد روى ابو داود من حديث عبدالله بن المغفل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء ». وإذا قرنت هذا الحديث بقوله تعالى : (ان الله لا يحب المعتدين) وعلمت ان الله يحب عبادته نتج لك من هذا أن وضوء المسوس ليس بعبادة يقبلها الله ، وان أسقطت الفرض عنه فلا تفتح ابواب الجنة الثمانية لوضوئه يدخل من ايها شاء .

ومن مفاسد الموسوس انه يشغل ذمته بالزائد على حاجته إذا كان الماء مملوكاً لغيره كماء الحمام فيخرج منه وهو مرتهن الذمة بما زاد على حاجته ويتطاول عليه الدين حتى يرتهن من ذلك بشيء كثير جداً يتضرر به في البرزخ ويوم القيامة .

ومن ذلك الوسواس في انتقاض الطهارة لا يلتفت اليه . وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «اذا وجد احدكم في بطنه شيئاً فاشكل عليه أخرج منه شيء ، أم لا فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً او يجد ريحاً » وفي الصحيحين عن عبدالله بن زيد قال شكى إلى رسول الله ﷺ الرجل يخيل اليه انه يجد الشيء في الصلاة قال : لا « ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يشم ريحاً » وفي المسند وسنن أبي داود عن ابي سعيد عنه ﷺ

« ان الشيطان يأتي أحدكم في الصلاة فيأخذ شعرة من دبره فيمدها فيرى أنه قد أحدث فلا ينصرف أحدكم حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً» ولفظ ابي داود « إذا أتى الشيطان أحدكم فقال له قد احدثت فليقل كذبت إلا ما وجدريحاً بأنفه وصوتاً بأذنه » فأمر ﷺ بتكذيب الشيطان فيما يحتمل صدقه فيه فكيف إذا كان كذبه معلوماً متيقناً كقوله للموسوس لم يفعل كذا وقد فعل قال الشيخ ابو محمد : ويستحب للانسان ان ينضح فرجه وسراويله بالماء اذا بال ليدفع عن نفسه الوسوسة فمتى وجد بللا قال هذا من الماء الذي نضحته لما روى ابو داود قال ﷺ «اذا بال توضأوينضح» وفي رواية رأيت رسول الله ﷺ بال ثم نضح فرجه وكان ابن عمر ينضح فرجه اذا بال قال : ولا تجعل ذلك من همتك واله عنه . سئل الحسن او غيره في مثل هذا فقال : إلهُ عنه . فأعاد عليه المسألة فقال : ما بالك ؟ إله عنه .

﴿ فصل ﴾

ومن هذا ما يفعله كثير من المسوسين عند البول وهو عشرة أشياء: السلت والنتر والنحنحة والمشيء والقفز والحبل والتفقد والوجور والحشو والعصابة والدرجة . أما السلت فيسلته من أصله إلى رأسه ثلاثا على انه قد روى في ذلك حديث غريب لا يثبت ففي المسند وسنن ابن ماجه عن عيسى بن يزداد عن ابيه قال رسول الله ﷺ « إذا بال احدكم فليمسح ذكره ثلاث مرات ». وقال جابر : اذا بلت فامسح ذكرك فانه ينقطع رواه سعيدعنه ولأنه بالسلت والنتر يستخرج ما يخشى عوده بعد الاستنجاء قالوا : وان احتاج الى مشي خطوات لذلك ففعل فقد احسن والنحنحة تستخرج الفضلة ، وكذلك القفز يرتفع عن الأرض شيئاً ثم يجلس بسرعة والحبل يتخذ بعضهم حَبْلا يتعلق به حتى يكاد يرتفع ثم ينخرط فيه حتى يقعد والتفقد يمسك الذكر ثم ينظر في المخرج هل بقي فيه شيء أم لا والوجور يمسكه ثم يفتح الثقب ويصب فيه الماء ، والحشو يكون معه ميل وقطن يحشو به كما يحشو الدمّل بعد فجرها،

والعصابة يعصبه بخرقة والدرجة يصعد في سلم قليلا ثم ينزل بسرعة والمشي يمشي خطوات ثم يعيد الاستجمار . قال شيخنا : وذلك كله وسواس فراجعته في السلت والنتر فلم يره وقال : لم يصح الحديث. والبول كاللبن في الضرع إن تركته قرّ وإن حلبته دَرّ ، ومن اعتاد ذلك ابتلي منه بما عوفي منه من لهى عنه ولو كان هذا سنته لكان اولى الناس به رسول الله ﷺ واصحابه ، ولقد قال اليهودي لسلمان : علمكم نبيكم كل شيء حتى الخرأة قال : أجل فقد علمنا نبينا ذلك أو شيئاً منه بل علم المستحاضة ان تتلجم وعلى قياسها من به سلس البول ان يتحفظ ويشد عليه خرقة .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك أشياء سهل المبعوث بالحنيفية السمحة فيها فشدد فيها هؤلاء ، فمن ذلك المشي حافياً في الطرقات ، ثم يصلي ولا يغسل رجليه فقد روى ابو داود عن امرأة من بني عبد الاشهل قالت : قلت يا رسول الله ان لنا طريقاً إلى المسجد منتنة فكيف نفعل اذا تطهرنا ؟ قال : « اليس بعدها طريق اطيب منها » قالت : قلت بلى قال : « فهذه بهذه » وقال عبدالله بن مسعود : كنا لا نتوضأ من موطيء ، وعن علي أنه خاض في طين المطر ثم دخل المسجد وصلى ولم يغسل رجليه ، وسئل ابن عباس عن الرجل يطأ العذرة قال : ان كانت يابسة فليست بشيء ، وان كانت رطبة غسل ما أصابه. قال حفص : اقبلت مع عبدالله بن عمر عامدين إلى المسجد فلما انتهينا عدلت إلى المطهرة لأغسل قدمي من شيء اصابها فقال عبدالله: لا تفعل فإنك تطأ الردي ، ثم تطأ بعده الموطىء الطيب أو قال النظيف فيكون ذلك طهورا فدخلنا جميعا فصلينا وقال ابو الشعثاء : كان ابن عمر يمشي في الروث والدماء اليابسة حافيا ثم يدخل المسجد فيصلي ولا يغسل قدميه . وقال عمر ابن حدير : كنت أمشي مع أبي مجلز إلى الجمعة وفي الطريق عذرات يابسة فجعل يتخطاها ويقول : ما هذا إلا سوادات ثم جاء حافياً إلى المسجد فصلى

ولم يغسل قدميه . وقال عاصم الأحول : اتينا أبا العالية فدعونا بوضوء فقال: السنم متوضئين ؟ قلنا : بلى ولكن هذه الأقذار التي مررنا بها . قال : هل وطيئتم على شيء رطب يعلق بأرجلكم ؟ قلنا لا قال: فكيف بأشد من هذه الأقذار تجف فتنسفها الريح في رؤسكم ولحاكم .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك أن الخف والحذاء إذا اصابت النجاسة أسفله أجزأ دلكه بالأرض مطلقا وجازت الصلاة فيه بالسنة الثابتة ونص [1] عليه أحمد واختاره المحققون من اصحابه ورواية الدلك مطلقا قال ابو البركات: هي الصحيحة عندي لما روي ابو هريرة عنه ﷺ « إذا وطيء أحدكم بنعله الأذى فإن التراب له طهور » وفي لفظ « إذا وطيء أحدكم الأذى بخفيه فطهورهما التراب » رواها ابو داود ، وروى ابو سعيد الخدري ان رسول الله ﷺ صلى فخلع نعله فخلع الناس نعالهم ، فلما انصرف قال : « لم خلعتم ؟ » قالوا : يا رسول الله رأيناك خلعت فخلعنا فقال : « إن جبريل أتاني فأخبرني أن بهما خبثا فاذا جاء أحدكم المسجد فليقلب نعليه ، ثم لينظر فإن رآى خبثا فليمسحه بالأرض ثم ليصل فيهما » رواه الامام احمد وتأويل ذلك على مايستقذر من مخاطة ونحن ونحوه من الطاهرات لا يصح لوجوه احدها أن ذلك لا يسمى خبثا . الثاني: أن ذلك لا يؤمر بمسحه عند الصلاة فإنه لا يبطلها . الثالث : انه لا يخلع النعل لذلك في الصلاة فانه عمل لغير حاجة فاقل أحواله الكراهة . الرابع : أن روى في سننه في حديث الخلع من رواية ابن عباس ان النبي ﷺ قال : « ان جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما دم حلمة » والحلم كبار القراد ولانه محل يتكرر ملاقاة النجاسة له غالبا فأجزأ مسحه بالجامد كمحل الاستجمار بلافي النجاسة في يوم مرتين أو ثلاثا .

---

(١) في الاصل زيادة واو (ونص) وفي المطبوعة نص .

﴿ فصل ﴾

وكذلك ذيل المرأة على الصحيح قالت امرأة لأم سلمة إني أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر فقالت : قال رسول الله ﷺ « يطهره ما بعده » رواه احمد وأبو داود . وقد رخص النبي ﷺ للمرأة ان ترخي ذيلها ذراعاً ومعلوم أنه يصيب القذر ولم يأمرها بغسل ذلك بل افتاهنّ بأنه تطهره الأرض .

﴿ فصل ﴾

ومما لا تطيب به قلوب الموسوسين الصلاة في النعال وهي سنة رسول الله ﷺ واصحابه فعلا منه وامراً ، روى أنس ابن مالك ان النبي ﷺ كان يصلي في نعله متفق عليه وعن شداد بن اوس قال : قال رسول الله ﷺ « خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في خفافهم ولا نعالهم » رواه ابو داود وقيل للإمام احمد : أيصلي الرجل في نعليه ؟ فقال : إي والله . ويرى أهل الوسواس إذا بلى احدهم بصلاة الجنازة في نعليه قام على عقبيها كأنه واقف على الجمر حتى لا يصلي فيها وفي حديث ابي سعيد الخدري « إذا جاء احدكم المسجد فلينظر فإن رأى على نعله قذراً فليمسحه وليصل فيها » .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك أن سنة رسول الله ﷺ الصلاة حيث كان وفي أي مكان اتفق، سوى ما نهى عنه من المقبرة والحمام وأعطان الإبل فصح عنه ﷺ انه قال : « جعلت لي الارض مسجداً وطهوراً فحيثما أدركت رجلا من أمتي الصلاة فليصل » وكان يصلي في مرابض الغنم وأمر بذلك ولم يشترط حائلا. قال ابن المنذر : أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على إباحة الصلاة في مرابض الغنم إلا الشافعي فإنه قال : اكره ذلك الإ ما كان سليما من أبعارها وقال ابو هريرة : قال رسول الله ﷺ « صلوا في مرابض الغنم ، ولا تصلوا

في أعطان الإبل ، او مبارك الابل » وفي المسند أيضاً من حديث عبدالله بن المغفل قال رسول الله ﷺ : « صلوا في مرابض الغنم ولا تصلوا في أعطان الإبل فإنها خلقت من الشياطين» وفي الباب عن جابر بن سمرة والبراء بن عازب واسيد بن حضير (وذي الغرة) [1] كلهم رووا عن النبي ﷺ : صلوا في مرابض الغنم » وفي بعض الفاظ الحديث « صلوا في مرابض الغنم فإن فيها بركة » وقال : « الأرض كلها مسجد الا المقبرة والحمام » رواه اهل السنن كلهم الإ النسائي ، فاين هذا الهدي من فعل من لا يصلي إلا على سجادة تفرش فوق الحصير ويوضع عليها المنديل ولا يمشي على الحصير ولا على البساط بل يمشي عليها نقزا كالعصفور ، فما أحق هؤلاء بقول ابن مسعود : لأنتم أهدى من اصحاب محمد أو انتم على شعبة ضلالة . وقد صلى النبي ﷺ على حصير قد اسودّ من طول ما لبس فنضح له بالماء وصلى عليه ، ولم يفرش له فوقه سجادة ولا منديل وكان يسجد على التراب تارة وعلى الحصباء تارة وفي الطين تارة حتى يرى أثره على جبهته وانفه . وقال ابن عمر: كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول في المسجد ولم يكونوا يرشون شيئاً من ذلك رواه البخاري، ولم يقل : وتبول وهو عند ابي داود بإسناد صحيح بهذه الزيادة .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك أن الناس في عصر الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يأتون المساجد حفاة في الطين وغيره قال يحيى بن وثاب : قلت لابن عباس الرجل يتوضأ ويخرج إلى المسجد حافياً ؟ قال : لا باس به . وقال كميل بن زياد : رأيت علياً يخوض طين المطر ، ثم يدخل المسجد فصلى ولم يغسل رجليه . وقال ابراهيم النخعي : كانوا يخوضون الماء والطين الى المسجد فيصلون. وقال يحيى بن وثاب : كانوا يمشون في ماء المطر وينتضح عليهم ، رواها سعيد بن

---

(١) (ذي الغرة) لم تكن في الاصل .

منصور في سننه وقال ابن المنذر: وطيء ابن عمر بمنى وهو حاف في ماء وطين ثم صلى ولم يتوضأ ، قال وممن رأى ذلك علقمة والاسود وعبدالله بن معقل وسعيد بن المسيب والشعبي واحمد وابو حنيفة ومالك واحد الوجهين للشافعية قال : وهو قول عامة اهل العلم لأن تنجيسها فيه مشقة عظيمة منتفية بالشرع كما في أطعمة الكفار وثيابهم وثياب الفساق شربة المسكر وغيرهم قال ابو البركات ابن تيمية : وهذا كله يقوى طهارة الارض بالجفاف لأن الانسان في العادة لا يزال يشاهد النجاسات في بقعة في طرقاته التي يكثر فيها تردده الى سوقه مسجده فلو لم تطهر إذا أذهب الجفاف اثرها للزمه تجنب ما شاهده من بقاع النجاسة بعد ذهاب أثرها ، وما جاز له التحفي بعد ذلك ، وقد علم أن السلف الصالح لم يحترزوا من ذلك ويعضده أمره ﷺ بمسح النعلين بالارض لمن أتى المسجد ورآى فيهما خبثاً ولو نجست الارض بذلك نجاسة لا تطهر بالجفاف لأمر بصيانة طريق المسجد عن ذلك لأنه يسلكه الحافي وغيره قلت : وهذا اختيار شيخنا رحمه الله . وقال ابو قلابة : جفاف الأرض طهورها .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك ان النبي ﷺ سئل عن المذي فأمر بالوضوء منه فقال : كيف ترى بما اصاب ثوبي منه ؟ قال : « تأخذ كفاً من ماء فتنضح به حيث ترى أنه أصابه » رواه احمد والترمذي والنسائي فجوز نضح ما أصابه المذي كما أمر بنضح بول الغلام قال شيخنا : وهذا هو الصواب لأن هذه نجاسة يشق الاحتراز منها لكثرة ما يصيب الثاب العزب فهي اولى بالتخفيف من بول الغلام ومن أسفل الخف والحذاء .

ومن ذلك اجماع المسلمين على ما سنه لهم رسول الله ﷺ من جواز الاستجمار بالاحجار في زمن الشتاء والصيف ، مع ان المحل يعرق فينضح الى الثوب ولم يأمر بغسله من ذلك ، ومن ذلك انه يعفى عن يسير أرواث البغال والحمير

والسباع في احدى الروايتين عن أحمد ، اختارها شيخنا لمشقة الاحتراز . قال ابو الوليد ابن مسلم : قلت للأوزاعي : فأبوال الدواب مما لا يؤكل لحمه كالبغل والحمار والفرس ؟ فقال : قد كانوا يبتلون بذلك في مغازيهم فلا يغسلونه من جسد ولا ثوب . ومن ذلك نص احمد على ان الوَدْي يعفي عن يسيره كالمذي وكذلك يعفى عن يسير القيء نص عليه احمد وقال شيخنا : لا يجب غسل الثوب ولا الجسد من المدّة والقيح والصديد قال : ولم يقم دليل على نجاسته. وذهب بعض أهل العلم إلى أنه طاهر حكاه ابو البركات ، وكان ابن عمر لا ينصرف منه في الصلاة وينصرف من الدم وعن الحسن نحوه ، وسئل أبو مجلز عن القيح يصيب البدن والثوب فقال : ليس بشيء انما ذكر الله الدم ولم يذكر القيح ، وقال اسحاق ابن راهوية : كلما كان سوى الدم فهو عندي مثل العرق المنتن وشبهه ولا يوجب وضوءاً . وسئل أحمد: الدم والقيح عندك سواءٌ فقال: لا الدم لم يختلف الناس فيه ، والقيح قد اختلف الناس فيه ، وقال مرة : القيح والصديد والمدة عندي اسهل من الدم . ومن ذلك ما قاله ابو حنيفة أنه لو وقع بعر الفأر في حنطة فطحنت أو في دهن مائع جاز أكله ما لم يتغير لأنه لا يمكن صونه عنه قال : فلو وقع في الماء نجّسَهُ ، وذهب بعض أصحاب الشافعي إلى جواز أكل الحنطة التي أصابها بول الحمير عند الدياس من غير غسل قال : لأن السلف لم يحترزوا من ذلك . وقالت عائشة : كنا نأكل اللحم والدم خطوطاً على القدر ، وقد أباح الله صيد الكلب ، وأطلق ولم يأمر بغسل موضع فيه من الصيد ومضغه ولا تقويره ، ولا أمر به رسوله ولا أفتى به أحد من الصحابة . ومن ذلك ما أفتى به عبدالله بن عمر وعطاء ابن ابي رباح وسعيد بن المسيب وطاووس وسالم ومجاهد والشعبي وابراهيم النخعي والزهري ويحيى بن سعيد الأنصاري والحكم والأوزاعي ومالك واسحاق بن راهوية وأبو ثور والإمام أحمد في أصح الروايتين وغيرهم أن الرجل إذا رأى على بدنه

أو ثوبه نجاسة بعد الصلاة لم يكن عالماً بها أو كان يعلمها لكنه نسيها أو لم ينسها لكنه عجز عن إزالتها أن صلاته صحيحة لا إعادة عليه ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يصلي وهو حامل امامة بنت ابنته زينب فإذا ركع وضعها وإذا قام حملها ، متفق عليه ولأبي داود أنه كان في إحدى صلاتي العشي ، وهو دليل على جواز الصلاة في ثياب المربية والمرضع والحائض والصبي ما لم يتحقق نجاستها ، وقال أبو هريرة : كنا مع النبي ﷺ في صلاة العشاء فلما سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فلما رفع رأسه أخذهما بيده من خلفه أخذاً رفيقاً ويضعهما على الأرض فاذا عاد عادا حتى قضى صلاته رواه الامام احمد . وقال شداد بن الهادي عن أبيه خرج علينا رسول الله ﷺ وهوحامل الحسن أو الحسين فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها فلما قضى الصلاة قال« ان ابني هذا ارتحلني فكرهت أن أعجله» رواه أحمد والنسائي وقالت عائشة كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل وانا إلى جنبه وانا حائض وعلي مرط وعليه بعضه رواه ابو داود وقالت : كنت انا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد وأنا طامث حائض—فإن أصابه مني شيء غسل مكانه ولم يعده وصلى فيه رواه ابو داود : ومن ذلك ان النبي ﷺ كان يلبس الثياب التي نسجها المشركون ويصلي فيها وتقدم قول عمر ابن الخطاب وهمه أن ينهى عن ثياب بلغه انها تصبغ بالبول وقول ابي مالك إن تنهي عنها فإن رسول الله ﷺ لبسها ولبست في زمانه ، ولو علم الله انها حرام لبينه لرسوله قال : صدقت قلت : وعلى قياس ذلك الجوخ بل أولى بعدم النجاسة من هذه الثياب فتجنبه من باب الوسواس ، ولما قدم عمر بن الخطاب الجابية استعار ثوباً من نصراني فلبسه حتى خاطوا له قميصه وغسلوه وتوضأ من جرة نصرانية وصلى سلمان وأبو الدرداء في بيت نصرانية فقال لها أبو الدرداء: هل في بيتك مكان طاهر يصلى فيه ؟ فقالت : طهرا قلوبكما ثم صليا أين أحببتما فقال له سلمان : خذها من غير فقيه . ومن ذلك أن الصحابة

والتابعين كانوا يتوضؤون من الحياض والأواني المكشوفة ولا يسألون هل أصابتها نجاسة او وردها كلب أو سبع ففي « الموطا » عن يحيى بن سعيد أن عمر خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضاً فقال عمرو: ياصاحب الحوض هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر : لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا . وفي سنن ابن ماجه ان رسول الله ﷺ سئل: أنتوضأ بما أفضلت قال : « نعم وبما أفضلت السباع » ومن ذلك الحمر ؟ انـــه لو سقط عليه شيء من ميزاب لا يدري هل هو ماء أو بول لم يجب عليه أن يسأل عنه فلو سأل لم يجب على المسؤول أن يجيبه ، ولو علم أنه نجس ، ولا يجب عليه غسل ذلك . ومر عمر بن الخطاب يوماً فسقط عليه شيء من مـــيزاب ، ومعه صاحب له فقال : يا صاحب الميزاب ماؤك طاهر أو نجس ، فقـــال عمر : يا صاحب الميزاب لا تخبرنا ومضى . ذكره أحمد قال شيخنا : وكذلك إذا أصاب رجله أو ذيله بالليل شيء رطب ولا يعلم ما هو لم يجب عليه أن يشمه ويتعرف ما هو ؟ واحتج بقصة عمر في الميزاب وهذا هو الفقه فإن الأحكام إنما ترتب على المكلف بعد علمه بأسبابها ، وقبل ذلك هي على العفو ، فما عفا الله عنه فلا ينبغي البحث عنه . ومن ذلك الصلاة مع يسير الدم ولا يعيد قال البخاري : قال الحسن : ما زال المسلمون يصلون في جراحاتهم قال : وعصر ابن عمر بثرة فخرج منها دم فلم يتوضأ وبصق ابن أبي أوفى دماً ومضى في صلاته وصلى عمر بن الخطاب وجرحه يثغب دماً ومن ذلك أن المراضع مـا زالت من عهد رسول الله ﷺ وإلى الآن يصلين في ثيابهن والرضعاء يتقيؤون ويسيل لعابهم على ثياب المرضعة ويديها فلا تغسل شيئاً من ذلك لأن ريق الرضيع مطهر لفمه لأجل الحاجة كما أن ريق للسنّور مطهر لفمها وقد قال رسول الله ﷺ « إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات » وكان يصغي الاناء لها تشرب وكذلك فعل أبو قتادة مع العلم اليقيني أنها تأكل الفأر والحشرات والعلم القطعي أنه لم يكن بالمدينة حياض فوق القُلتين ترِدها

السنانير فكلاهما معلوم قطعاً ومن ذلك أن الصحابة ومن بعدهم كانوا يصلون وهم حاملوا سيوفهم وقد أصابها الدم ، وكانوا يمسحونها ويجتزؤون بذلك وعلى قياس هذا مسح المرآة الصقيلة إذا أصابتها النجاسة يطهرها وقد نص أحمد على طهارة سكين الجزار بمسحها . ومن ذلك انه نص على حبل الغسال انه ينشر عليه الثوب النجس ثم تجففه الشمس فينشر عليه الثوب الطاهر فقال لا بأس به وهذا كقول ابي حنيفة ان الأرض النجسة تطهرها الريح والشمس ، وهو وجه لأصحاب احمد حتى أنه يجوز التيمم بها . وحديث ابن عمر رضي الله عنهما كالنص في ذلك وهو قوله : كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول في المسجد ولم يكونوا يرشون شيئاً من ذلك وهذا لا يتوجه إلا على القول بطهارة الأرض بالريح والشمس ، ومن ذلك أن الذي دلت عليه سنة رسول الله ﷺ وآثار أصحابه أن الماء لا ينجس إلا بالتغير وإن كان يسيراً وهذا قول أهل المدينة وجمهور السلف واكثر أهل الحديث وبه قال عطا بن أبي رباح ، وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد والأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن انس وعبدالرحمن بن مهدي ، واختاره ابن المنـــذر ، وبه قال أهل الظـاهر ، ونص عليه أحمد في إحدى روايتيه واختاره جماعة من أصحابنا منهم ابن عقيل في مفرداته وشيخنا أبو العباس وشيخه ابن ابي عمر ، وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ « الماء لا ينجسه شيء » رواه الامام احمد ، وفي المسند والسنن عن أبي سعيد قال قيل : يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ؟ فقال « المـــاء طهور لا ينجسه شيء » قال الترمذي هذا حديث حسن وقال الامام احمد : حديث بئر بضاعة صحيح وفي لفظ للامام احمد أنه يستقى لك من بئر بضاعة وهي بئر يطرح فيها محايض النساء ولحم الكلاب وعذر الناس فقال رسول الله ﷺ « الماء طهور لا ينجسه شيء » وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي أمامة مرفوعاً « ان الماء لا ينجسه شيء الا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه » وفيها من حديث ابي سعيد

ان رسول الله ﷺ سئل عن الحياض التي بين مكة والمدينة تردها السباع والكلاب والحمر وعن الطهارة بها فقال : « لها ما حملت في بطونها ولنا ما غير طهور » وإن كان في إسناد هذين الحديثين مقال فإنا ذكرناهما للاستشهاد ، لا للاعتماد، وقال البخاري : قال الزهري : لا بأس بالماء إذا لم يتغير منه طعم أو ريح أو لون . وقال الزهري أيضا : إذا ولغ الكلب في الإناء ليس له وضوء غيره يتوضأ منه ثم يتيمم . قال سفيان : هذا الفقه بعينه . لقول الله تعالى : (فلم تجدوا ماء فتيمموا) ، وهذا ماء في النفس منه شيء يتوضأ به ويتيمم . ونصّ الإمام أحمد في حب زيت ولغ به كلب فقال : يؤكل .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك ان النبي ﷺ كان يجيب من دعاه فيأكل من طعامه ، وأضافه يهودي بخبز شعير وإهالة سنخة ، وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب ، وشرط عليهم عمر ضيافة من يمر عليهم من المسلمين وقال :أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله ذلك في كتابه ؛ ولما قدم عمر الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً فدعوه فقال : أين هو ؟ قالوا : في الكنيسة ، فكره دخولها وقال لعلي : إذهب بالناس ، فذهب علي بالمسلمين فدخلوا وأكلوا ، وجعل علي ينظر إلى الصور وقال : ما على أمير المؤمنين لو دخل وأكل . وكان النبي ﷺ يقبّل ابني ابنته في أفواههما ويشرب من موضع فم عائشة وتتعرّق [1] فيضع فاه على موضع فيها وهي حائض . وحمل أبو بكر الحسن على كتفه ولعابه يسيل عليه . وأتي رسول الله ﷺ بصبي فوضعه في حجره فبال عليه فدعا بماء فنضحه ولم يغسله ، وكانوا يأتون بالصبيان فيضعهم في حجره يبرك عليهم ويدعو لهم . وهذا الذي ذكرنا قليل من كثير من السنة ، ومن له اطلاع على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه لا يخفى عليه حقيقة الحال.

---

(١) هو العظم عليه اللحم اليسير .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عنه ﷺ « بعثت بالحنيفية السمحة » ، فجمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة ، فهي حنيفية في التوحيد ، سمحة في العمل ، وضد الأمرين الشرك ، وتحريم الحلال ، وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى انه « قال إني خلقت عبادي حنفاء وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا » ، فالشرك وتحريم الحلال قرينان وهما اللذان عابهما الله في كتابه على المشركين في سورة الانعام والاعراف، وقد ذم النبي ﷺ المتنطعين في الدين وأخبر بهلكتهم حيث يقول : « ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون » . وقال ابن أبي شيبة: حدثنا أبو أسامة عن مسعر قال : أخرج إليّ معن بن عبد الرحمن كتاباً وحلف بالله أنه خط أبيه فاذا فيه : قال عبد الله والذي لا إله غيره ما رأيت أحداً كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ ولا رأيت بعده أشد خوفاً عليهم من أبي بكر ، واني لأظن عمر (ض) كان أشد أهل الأرض خوفاً عليهم وكان رسول الله ﷺ يبغض المتعمقين حتى انه لما واصل بهم ورأى الهلال قال : « لو تأخر الهلال لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم » كالمنكل بهم . وكان الصحابة أقل الأمة تكلفاً اقتداء بنبيهم ﷺ ، قال الله تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) . وقال عبد الله بن مسعود : من كان منكم مستناً فليستنّ بمن قد مات فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة . اولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة أبرّها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. وقال انس: كنا عند عمر فسمعته يقول : نهينا عن التكلف وقال مالك قال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله ﷺ وولاة الأمور بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها من اقتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه

جهنم وساءت مصيراً . وقال مالك : بلغني أن عمر بن الخطاب كان يقول : سُنّت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة إلا أن تميلوا بالناس يميناً وشمالاً . وقال ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ، فأخبر ان الغالين يحرفون ما جاء به والمبطلون ينتحلون بأباطلهم غير ما كان عليه ، والجاهلون يتأولونه على غير تأويله ؛ وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة ، فلولا ان الله سبحانه يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك الوسوسة في مخارج الحروف والتنطع فيها ونحن نذكر ما ذكره العلماء بالفاظهم قال ابو الفرج ابن الجوزي : قد لبس ابليس على بعض المصلين في مخارج الحروف فتراه يقول الحمد الحمد.فيخرج باعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة ، وتارة يلبس عليه في تحقيق التشديد في إخراج ضاد المغضوب ولقد رأيت من يخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده ، والمراد تحقيق الحرف حسب ، وابليس يخرج هؤلاء بالزيادة عن التحقيق ، ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة ، وكل هذه الوساوس من ابليس . قال ابو محمد بن قتيبة في « مشكل القران » : وقد كان الناس يقرؤن بلغتهم ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الامصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة ولا علم التكلف فهفوا في كثير من الحروف وزلوا واخلوا ، ومنهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح وقربه من القلوب بالدين فلم أر فيمن يتعنت في وجوه قراءته اكثر تخليطا ولا اشد اضطراباً منه لأنه يستعمل في الحروف ما يدعه في نظيره ثم يؤصل اصلا ويخالفه الى غيره لغير علة ، ويختار في كثير من الحروف ما لا يخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز بإفراطه في المدّ والهمز والاشباع وافحاشه في الاضجاع

والادغام ، وحمله المتعلمين على المذهب الصعب ، وتعسيره على الأمة ما يسره الله تعالى ، وتضييقه ما فسحه ، ومن العجيب أنه يغري الناس بهذه المذاهب ويكره الصلاة بها ففي أي موضع تستعمل هـــذه القراءة ان كانت الصلاة لا تجوز بها وكان ابن عيينة يرى لمن قرأ في صلاته بحرفه أو ائتم بامام يقرأ به ان يعيد ، ووافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين ، منهم بشر بن الحـارث واحمد بن حنبل فقد شغف بقراءته عوام الناس وسوقتهم ، وليس ذلك إلا لما يرونه من مشقتها وصعوبتها وطول اختلاف المتعلم إلى المقرىء فيهـا فإذا رأواه عند قراءته مائل الشدقين دار الوريدين راشح الجبين توهموا ان ذلك لفضله في القراءة وحذقه بها ، وليس هكذا كانت قراءة رسول الله ﷺ ولا خيار السلف ولا القراء العالمين بل كانت سهلة رسلة: وقال الخلال في الجامع عن ابي عبد الله أنه قال لا أحب قراءة فلان يعني هذا الذي اشار اليه ابن قتيبة وكرهها كراهية شديدة ، وجعل يعجب من قراءته وقال : لا تعجبني فإن كان رجل يقبل منك فافهمه [1] وحكى عن ابن المبارك عن الربيع بن انس أنه نهاه عنها وقال الفضل بن زياد ان رجلا قال لأبي عبدالله فما اترك من قراءته ؟ قال الادغام والكسر ليس يعرف في لغة من لغـــات العرب وسأله عبدالله ابنه عنها فقال اكره الكسر الشديد والاضجاع وقال في موضع آخر ان لم تدغم ولم تضجع ذلك الاضجاع فلا بأس[2] وسأله الحسن بن محمد بن الحارث تكره ان يتعلم الرجل تلك القراءة فقال : اكرهه أشد كراهية إنما هي قراءة محدثة وكرهها شديداً حتى غضب . وروى عنه ابن سندي أنه سئل عنهـــا فقال : اكرهها أشد الكراهة . قيل له ما تكره منهـا ؟ قال : هي قراءة محدثة ما قرأ بها احد . وروى جعفر بن محمد عنه انه سئل عنا فكرهها وقال كرهها ابن ادريس أراه قال وعبدالرحمن بن مهدي وقال: ما أدري ايش هذه القراءة ثم قال وليس قراءتهم تشبه كلام العرب . وقال عبد الرحمن بن مهدي لو صليت خلف من يقرأ بها لأعدت الصلاة . ونص أحمد على أنه يُعيدُ وعنه

(١) في الاغاثة : فانهه . (٢) في الاغاثة :ان لم يضجع ولم يدغم فلا بأس به

رواية أخرى أنه لا يعيد . والمقصود أن الأئمة كرهوا التنطع والغلو في النطق بالحرف . ومن تأمل هدي رسول الله ﷺ وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم تبين له أن التنطع والتشدق والوسوسة في اخراج الحرف ليس من سنته .

﴿ فصل ﴾

في الجواب عما احتج به أهل الوسوس . قولهم : انما نفعله احتياط لا وسواس قلنا : سموه ما شئتم فنحن نسألكم هل هو موافق لفعل رسول الله ﷺ وأمره وما كان عليه اصحابه أو مخالف ؟ فإن زعمتم أنه موافق فبهت وكذب صريح فإذاً لا بد من الاقرار بعدم موافقته وأنه مخالف له فلا ينفعكم تسميته ذلك احتياطا ، وهذا نظير من ارتكب محظوراً وسماه بغير اسمه كما تسمى الخمر بغير اسمها ، والربا معاملة والتحليل الذي لعن رسول الله ﷺ فاعله : نكاحاً ونقر الصلاة الذي اخبر رسول الله ﷺ أن فاعله لم يصل وأنه لا تجزئه صلاته ولا يقبلها الله منه تخفيفاً، فهذا كله كتسميته الغلو في الدين والتنطع احتياطاً وينبغي أن يعلم ان الاحتياط الذي ينفع صاحبه ويثيبه الله عليه الاحتياط في ذلك والا فما احتاط لنفسه من خرج عن السنة ، بل ترك حقيقة الاحتياط . وكذلك المتسرعون الى وقوع الطلاق في موارد النزاع الذي اختلف فيه الأئمة كطلاق المكره وطلاق السكران والبتة وجمع الثلاث والطلاق بمجرد النية ، والطلاق المؤجل المعلوم بمجيء أجله ، واليمين بالطلاق وغير ذلك مما تنازع فيه العلماء إذا أوقعه المفتي تقليداً بغير برهان وقال : ذلك احتياط للفروج فقد ترك معنى الاحتياط فإنه يحرم الفرج على هذا ويبيحه لغيره فأين الاحتياط ها هنا ؟ بل لو ابقاه على حاله حتى تجمع الأمة على تحريمه واخراجه عمن هو حلال له أو يأتي برهان من الله ورسوله على ذلك لكان قد عمل بالاحتياط ، ونص على ذلك الامام أحمد في طلاق السكران فقال في رواية ابي طالب والذي لا يأمر بالطلاق فإنما أتى خصلة واحدة والذي يأمر بالطلاق قد أتى خصلتين حرمها عليه وأحلها لغيره ، فهذا خير

من هذا فلا يمكن الاحتياط في وقوع الطلاق إلا حيث اجمعت الأمة أو كان هناك نص عن الله ورسوله يجب المصير اليه قال شيخنا : والاحتياط حسن ما لم يفض بصاحبه الى مخالفة السنة فإذا افضى الى ذلك فالاحتياط ترك هـــذا الاحتياط ولهذا خرج الجواب عن احتجاجهم بقوله « من ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه » وعرضه » وقوله : « دع ما يريبك إلى ما يريبك » وقوله : « الإثم ما حاك في الصدر » فهذا كله من أقوى الحجج على بطلان الوسواس ، فإن الشبهات ما يشتبه فيه الحق بالباطل والحلال بالحرام على وجه لا يكون فيه دليل على أحد الجانبين ، أو تتعارض الأمارتان عنده فلا يترجح في ظنه أحدهما فيشتبه عليه هذا بهذا فأرشده النبي ﷺ الى ترك المشتبه والعدول الى الواضح الجلي . ومعلوم أن غاية الوسواس أن يشتبه على صاحبه هل هو طاعة وقربة أم معصية وبدعة هذا أحسن أحواله ، والواضح الجلي هو اتباع طريق رسول الله ﷺ وما سنّه للأمة قولا وعملا فمن ترك الشبهات عدل عن ذلك المشتبه إلى هذا الواضح فكيف ولا شبهة بحمد الله هنـــاك اذ قد بينت السنة أنه تنطع وغلوّ فالمصير إليه ترك للسنة وأخذ بالبدعة وترك لما يحبه الله ويرضاه ، وأخذ بما يكرهه ويبغضه ، ولا يتقرب به إليه البتة فانه لا يتقرب إليه الا بما شرع لا بما يهواه العبد ويفعله من تلقاء نفسه فهذا هو الذي يحيك في الصدر ويتردد في القلب ، وهو حواز القلب واما التمرة التي ترك رسول الله ﷺ أكلها وقال «أخشى ان تكون من الصدقة» فذلك من باب اتقاء الشبهات وترك ما أشتبه فيه الحلال بالحرام فإن التمرة كانت قد وجدها في بيته وكان يؤتى بتمر الصدقه يقسمه على من تحل له الصدقة ويدخل بيته تمر يفتات منه أهله فكان في بيته النوعان فلما وجد تلك التمرة لم يدر ﷺ من أي النوعين هي فأمسك عن أكلها فهذا الحديث أصل في الورع واتقـــاء الشبهات فما لاهل الوسواس وماله ؟ واما قولكم : ان مالكا أفتى فيمن طلق ولم يدر أواحدة طلق أم ثلاثا أنها ثلاث احتياطا . فنعم هذا قول مـــالك فكان حجة على

الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وعلى كل من خالفه في هذه المسألة حق يجب عليهم أن يتركوا قولهم لقوله ، وهذا القول مما يحتج له لا مما يحتج به ، على أن هذا ليس من باب الوسواس في شيء ، وإنما حجة هذا القول أن الطلاق يوجب تحريم الزوجة والرجعة ترفع ذلك التحريم فهو يقول : قد تيقن سبب التحريم وهو الطلاق وشك في رفعه بالرجعة فإنه يحتمل أن يكون رجعياً فترفعه الرجعة ، ويحتمل أن يكون ثلاثاً فلا ترفعه الرجعة ، فقد تيقن سبب التحريم وشك فيما يرفعه ، والجمهور يقولون : النكاح متيقن والقاطع له المزيل لحل الفرج مشكوك فيه فإنه يحتمل أن يكون المأتي به رجعياً فلا يزيل النكاح ، ويحتمل أن يكون بائناً فيزيله ، فقد تيقنا يقين النكاح وشككنا فيما يزيله ، فالأصل بقاء النكاح حتى يُتَيَقَّنَ ما يرفعه . فإن قلتم : فقد تيقن التحريم وشكّ في التحليل ، قلنا : الرجعية ليست بحرام عندكم ، ولهذا تجوزون وطأها ويكون رجعة إذا نوى به الرجعة ، فإن قلتم : بل هي حرام والرجعة حصلت بالنية حال الوطء قلنا : لا ينفعكم ذلك أيضاً فإنما تيقن تحريماً يزول بالرجعة لم يتيقن تحريماً لا تؤثر فيه الرجعة وليس المقصود تقرير هذه المسألة وإنما المقصود أنه لا راحة في ذلك لأهل الوسواس .

﴿ فصل ﴾

وأما من حلف بالطلاق أن في هذه اللوزة حبتين ونحو ذلك مما لا يتيقنه الحالف ، فإن كان كما حلف عليه فهذا لا يحنث عند الأكثرين وكذلك كما لو لم يتبين في الحال واستمر مجهولاً فإن النكاح ثابت بيقين ، فلا نزيله بالشك . ولمالك رحمه الله أصل في المطلقة كما لو طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها ووقف الحال مدة الإيلاء ولم يتبين ، طلق عليه الجميع ، وكما لو حلف أن هذا فلان أو حيوان وهو غير متيقن له بل هو شاك حال الحلف فتبين أن الأمر كما حلف عليه فإنه يحنث عنده ، وتطلق امرأته ، فمن حلف على رجل انه زيد فتبين أنه غيره أو لم يتبين أهو المحلوف عليه أم لا ، حنث عنده ، وإن

تبين انه المحلوف عليه وكان حال اليمين لا يعلم حقيقته ولا يغلب على ظنه ولا طريق له إلى العلم به في العادة ، فإنه يحنث عنده لشكه حال الحلف فالحالف يحنث بالمخالفة لما حلف عليه . أما في الطلب فبأن يفعل ما حلف على تركه ، وأما في الخبر فبأن يتبين كذبه . وعند مالك يحنث بأمر واحد وهو الشك حال اليمين ، سواء تبين صدقه أم لا ؛ وأبلغ من هذا انه يحنث من حلف بالطلاق على إنسان إلى جانبه أو حجرانه حجراً ونحو ذلك مما لا يشك فيه، وعمدته في الموضعين أن الحالف هازل ، فإن من قال : أنتِ طالق إن لم تكوني امرأة أو إن لم أكن رجلا ، لا معنى لكلامه إلا الهزل ، فإن هذا مما لا غرض للعقلاء فيه ، قالوا : وإن لم يكن هذا هزلاً فإن الهزل لا حقيقة له — الى أن قال — : وأما الذي اشتبهت عليه القبلة فالذي عليه أهل العلم كلهم انه يجتهد ويصلي صلاة واحدة ؛ وشذ بعض الناس فقال : يصلي أربع صلوات إلى أربع جهات ، وهذا قول شاذ مخالف للسنة ، وإنما التزمه قائله من مسألة الثياب ، وهذا ونحوه من وجوه الالتزامات عند المضايق طرد الدليل المستدل مما لا يلتفت اليها ولا يعول عليها ، ونظيره التزام من التزم واشترط النية لإزالة النجاسة لما ألزمهم أصحاب أبي حنيفة بذلك قال بعضهم : نقول به . ونظيره إدراك الجمعة والجماعة بإدراك تكبيرة مع الإمام لما ألزمت الحنفية من نازعها في ذلك بالتسوية بين الجمعة والجماعة التزمه بعضهم وقال: نقول به .

﴿ فصل ﴾

وأما من ترك صلاة من يوم لا يعلم عينها ، فاختلف الفقهاء في هذه المسألة على أقوال : أحدها انه يلزمه خمس صلوات ، وهو قول مالك والشافعي وأبي حنيفة وإسحاق ، لأنه لا سبيل له الى العلم ببراءة ذمته يقيناً إلا بذلك ، والقول الثاني : انه يصلي رباعية ينوي بها ما عليه ، ويجلس عقيب الثانية والثالثة والرابعة ، وهذا قول الأوزاعي وزفر بن الهذيل ومحمد بن مقاتل من

الحنفية بناء على انه يخرج من الصلاة بدون الصلاة على النبي محمد ﷺ وبدون السلام ، وان نيته الفرضية تكفي من غير تعيين كما في الزكاة ولا يضر جلوسه عقب الثالثة إن كانت المنسية رباعية لأنه زيادة من جنس الصلاة لا على وجه العمد . القول الثالث : انه يجزئه أن يصلي فجراً ومغربا ورباعية ينوي ما عليه ، وهذا قول سفيان الثوري ومحمد بن الحسن ، ويخرج على المذهب إذا قلنا بأن نية المكتوبة تكفي من غير تعيين.وقد قال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يسأل:ما تقول في رجل ذكر ان عليه صلاة لم يعينها فصلى ركعتينوجلس وتشهد ونوى بها الغداة ولم يسلم ثم قام فأتى بركعة وجلس فتشهد ونوى بها المغرب وقام ولم يسلم فأتى برابعة ثم جلس فتشهد ونوىبها ظهراً أو عصراً أو عشاء الآخرة ثم سلم ؟ فقال له أبي : هذا يجزئه ويقضى عنه على مذهب العراقيين لأنهم اعتمدوا في التشهد على خبر ابن مسعود : إذا قلت هذا فقد تمّت صلاتك ، وأما على مذهب صاحبنا أبي عبد الله الشافعي ومذهبنا لا يجزي عنه لأنا نذهب إلى قوله : « تحريمها التكبير وتحليلها التسليم »،ونذهب إلى الصلاة على رسول الله ﷺ فيها ، هذا لفظه . قال أبو البركات : هذا من أحمد يبين أن قضاء الواحدة لا يجزئه لتعذر التحلل المعتبر لا لفوت نية التعيين ، فاذا قضى ثلاثا كما قال الثوري اندفعت المفسدة في كل حال ، فليس في هذا راحة للموسوسين — إلى أن قال — وأما قولكم : ان الوسواس خير مما عليه أهل التفريط والاسترسال وتمشية الأمر كيف اتفق إلى آخره فلعمر الله إنها لطرف إفراط وتفريط وغلو وتقصير ، وزيادة ونقصان ، وقد نهى الله سبحانه عن الأمرين في غير موضع كقوله : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك — إلى قوله — ولا تبذّر تبذيراً) ، وقوله : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) ، الآية ؛ وقوله : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) ، الآية ؛ فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه ، وخير الناس النمط الأوسط الأول الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين ولم يلحقوا بغلو المعتدين ، وجعل الله

سبحانه هذه الأمة وسطاً وهي الخيار العدول لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط ، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف ، والأوساط محمية بأطرافها ، فخيار الأمور أوساطها ؛ قال الشاعر :

كانت هي الوسط المحميّ فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

﴿ فصل ﴾

ومن أعظم مكائده التي كاد بها أكثر الناس وما نجا منها إلا من لم يرد الله فتنته ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه واوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد اربابها من دون الله ، وعبدت قبورهم واتخذت أوثانا ، وبنيت عليها الهياكل ، وصورت صور أربابها فيها ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظلّ ثم جعلت اصناماً وعبدت مع الله وكان أول هذا الداء في قوم نوح كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول : (قال نوح رب إنهم عصوني – إلى قوله – وقد أضلوا كثيراً) قال ابن جرير : وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا ما حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان اشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ اليهم إبليس فقال : انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم . قال سفيان عن ابيه عن عكرمة قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. حدثنا ابن عبد الاعلى حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال : كانت آلهة يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك فكانت ودّ لكلب بدومة الجندل ، وكان سواع لهذيل ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد وكان يعوق لهمدان وكان نسر لذي الكلاع من حمير . وقال الوالبي عن ابن عباس : هذه اصنام كانت تعبد زمان نوح وقال البخاري حدثنا ابراهيم

بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج قال عطاء عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، واما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، واما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع اسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم يعبدوا حتى إذا هلك اولئك ونسي العلم عبدت. وقال غير واحد من السلف كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان اشار اليهما رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرت ما رأت فيها من الصور فقال رسول الله ﷺ « اولئك شرار الخلق عند الله » وفي لفظ آخر عند الصحيحين أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور وهذا كان سبب عبادة اللات فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد (افرأيتم اللات والعزى)؟ قال كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره. وكذا قال ابو الجوزاء عن ابن عباس كان يلت السويق للحاج. فقد رأيت أن سبب عبادة يغوث ويعوق ونسر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما اشار اليه النبي ﷺ قال شيخنا: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي اوقعت كثيراً من الامم اما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك فإن النفوس قد اشركت بتماثيل القوم الصالحين وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر ولهذا تجد أهل الشرك كثيراً يتضرعون عندها ويخشعون

ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونهـــا في بيوت الله ، ولا وقت السّحر ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً وأيضاً لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاتـــه كما يقصد بصلاته بركة المساجد كما نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصد ما قصده المشركون سدّاً للذريعة قال : واما اذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المخادعة لله ورسوله والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله ، فإن المسلمين قد أجمعوا على مـا علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها وانه لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندهـــا واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها ، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة للسنة الصحيحة الصريحة وصرح اصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك وطائفة اطلقت الكراهة والذي ينبغي أن يحمل على كراهة التحويم إحساناً للظن بالعلماء وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبدالله البجلي قال سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : «إني ابرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلاً فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخـــذ ابراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً الا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، الا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني انهاكم عن ذلك » وعن عائشة رضي الله عنها وعبدالله بن عباس قالا لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »

وفي رواية مسلم « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » فقد نهى عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته ثم إنه لعن وهو في السياق من فعل ذلك من أهل الكتاب ليحذر أمته أن يفعلوا قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً متفق عليه وقولها خشي هو بضم الخاء تعليلاً لمنع إبراز قبره وروى الامام أحمد في مسنده بإسناد جيد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « لعن الله اليهود اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » رواه الامام احمد وعن ابن عباس قال لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج رواه الامام احمد وأهل السنن وفي صحيح البخاري ان عمر بن الخطاب رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر فقال : القبر القبر !؟ وهذا يدل على انه كان من المستقر عند الصحابة رضي الله عنهم ما نهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور وفعل أنس لا يدل على اعتقاد جوازه فإن لعله لم يره أو لم يعلم أنه قبر أو ذهل عنه فلما نبهه عمر تنبه وقال ابو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ « الأرض كلها مسجد الا المقبرة والحمام » رواه الامام احمد واهل السنن الأربعة وصححه ابو حاتم ابن حبان . وأبلغ من هذا انه نهى عن الصلاة الى القبر فلا يكون القبر بين المصلي وبين القبلة فروى مسلم في صحيحه عن أبي مرثد الغنوي ان رسول الله ﷺ قال « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها » وفي هذا ابطال قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول وهو باطل من عدة أوجه منها أن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة المنبوشة والحديثة كما يقول المعللون بالنجاسة . ومنها انه ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذهم قبور انبيائهم مساجد ومعلوم قطعاً أن هذا

ليس لأجل النجاسة فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء لأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع ليس للنجاسة عليها طريق البتة فإن الله سبحانه حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم فهم في قبورهم طرٍيون ومنها أنه نهي عن الصلاة إليها ومنها انه اخبر ان الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام ، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحشوش والمجازر أولى من ذكر القبور ومنها ان موضع مسجده ﷺ كان مقبرة للمشركين فنبش قبورهم وسواها واتخذه مسجداً ولم ينقل ذلك التراب بل سوى الأرض ومهدها وصلى فيه كما ثبت في الصحيحين عن انس بن مالك قال لما قدم النبي ﷺ المدينة فنزل بأعلى المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف فأقام النبي ﷺ فيهم أربعة عشر ليلة ثم ارسل إلى ملأ بني النجار فجاءوا متقلدين السيوف وكأني انظر الى النبي ﷺ على راحلته وابو بكر يردفه وملأ بني النجار حتى القى بفناء ابي أيوب وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم ، وانه أمر ببناء المسجد فأرسل الى ملإ بني النجار فقال « يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا » قالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا الى الله فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين وفيه خرب وفيه نخل فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنبشت ثم بالخرب فسويت ، وبالنخل فقطع فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون وذكر الحديث . ومنها أن فتنة الشرك بالصلاة في القبور ومشابهة عباد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر فإذا نهى عن ذلك سدّاً الذريعة التشبه التي لا تكاد تخطر ببال المصلي فكيف بهذه الذريعة القريبة التي كثيراً ما تدعو صاحبها الى الشرك ودعاء الأموات والاستغاثة بهم وطلب الحوائج منهم واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد وغير ذلك مما هو محادّة ظاهرة لله ولرسوله فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة ، وما يدل على ان النبي ﷺ قصد منع الأمة من الفتنة بالقبور كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم.

ومنها انه لعن المتخذين عليها المساجد ، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لأمكن ان يتخذ عليها المسجد مع تطيينها بطين طاهر فتزول اللعنة وهو باطل قطعاً ومنها أنه قرن في اللعنة بين متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها فهما في اللعنة قريبان وفي ارتكاب الكبيرة صنوان ، فإن كل ما لعن رسول الله ﷺ فهو من الكبائر ، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لعن فاعله لكونه وسيلة الى تعظيمها وجعلها نُصباً يوفض اليها المشركون كما هو الواقع فهكذا اتخاذ المساجد عليها ولهذا قرن بينهما فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها وتعريض للفتنة بها ، ولهذا حكى الله سبحانه عن المتغلبين على أمر أصحاب الكهف انهم قالوا (لنتخذن عليهم مسجداً). ومنها انه ﷺ قال: « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » فذكره عقيب قوله « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » تنبيه منه على سبب لحوق اللعنة لهم وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً تعبد ، وبالجملة فمن له معرفة بالشرك واسبابه وذرائعه وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده جزم جزماً لا يحتمل النقيض ان هذه المبالغة منه واللعن والنهي بصيغته صيغة لا تفعلوا او صيغة إني انهاكم ليس لأجل النجاسة بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه وارتكب ما عنه نهاه ، واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه ، وقل نصيبه أو عدم من تحقيق شهادة ان لا إله إلا الله ، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريداً له وغضباً لربه أن يعدل به سواه ، فأبى المشركون الا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشائخ والصالحين وكلما كنتم أشد لهم تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم اسعد ، ومن أعدائهم أبعد ، ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ، ومنه دخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وانزالهم منازلهم التي

انزلهم الله إياها من العبودية ، وسلب خصائص الألهية عنهم ، وهـــذا غاية تعظيمهم وطاعتهم ، وأما المشركون فعصوا أمرهم وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم قال الشافعي رحمه الله عليه : أكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قـــبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس وممن علل بالشرك مشابهة اليهود والنصارى الأثرم في كتاب « ناسخ الحديث ومنسوخه » فقال بعد ان ذكر حديث أبي سعيد ان النبي ﷺ قال : « جعلت لي الأرض مسجداً الا المقبرة والحمام » وحديث زيد بن جبير عن داود بن الحصين عن نافع عن ابن عمران النبي ﷺ نهى عن الصلاة في سبع مواطن فنذكر منها المقبرة فقال الأثرم : إنما كرهت الصلاة في المقبرة للتشبه بأهل الكتاب لأنهم يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد .

﴿ فصل ﴾

ومن ذلك اتخاذها عيداً ، والعيد ما يعتاد مجيئه وقصده من مكان وزمان فأما الزمان فكقوله ﷺ يوم عرفة ويوم النحر وأيام منىً « عيدنا أهـــل الأسلام » رواه ابو داود وغيره واما المكان فكما روى أبو داود في سننه أن رجلاً قال يا رسول الله إني نذرت أن أنحر إبلاً ببُوَانة فقال أبها وثن من اوثان المشركين ، وعيد من أعيادهم قال لا قال « فأوف بنذرك » وكقوله : « لا تجعلوا قبري عيداً » . إذ العيد مأخوذ من المعاودة والاعتياد ، فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد الاجتماع فيه واتينا به للعبادة أولغيرها كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للخلق ومثابة كما جعل ايام التعبد فيها عيداً وكان للمشركين أعيادٌ زمانية ومكانية فلما جاء الله بالأسلام أبطلها وعوض الخلق عنها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر فاتخاذ القبور عيداً هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الأسلام وقد نهى عنه ﷺ في سيد القبور منبهاً به على غيره فقال ابو داود حدثنـــا

احمد بن صالح قال قرأت على عبدالله بن نافع اخبرني ابن ابي ذؤيب عن سعيد المقبري عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » . وهذا إسناد حسن رواته كلهم ثقاة مشاهير . وقال ابو يعلي الموصلي في مسنده حدثنا ابو بكر بن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب حدثنا جعفر بن ابراهيم من ولد ذي الجناحين حدثنا علي بن حسين انه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو فنهاه وقال الا أحدثكم حديثاً سمعته من ابي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً فإن تسليمكم يبلغني اينما كنتم» رواه ابو عبدالله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختارته ، وقال سعيد بن منصور في السنن حدثنا حبان بن علي حدثنا محمد بن عجلان عن ابي سعيد مولى المهدي قال رسول الله ﷺ «لا تتخذوا بيتي عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » وقال سعيد حدثنا عبد العزيز بن محمد ، اخبرني سهيل بن ابي سهيل قال رآني الحسن ابن ابي الحسن بن علي بن ابي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال هلم إلى العشاء فقلت لا أريده فقال مالي رأيتك عند القبر فقلت سلمت على النبي ﷺ فقال إذا دخلت المسجد فسلم ثم قال ان رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا بيتي عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر لعن الله اليهود اتخذوا قبور انبيائهم مساجد وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » ما انتم ومن بالاندلس إلا سواء فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لا سيما وقد احتج من أرسله به وذلك يقتضي ثبوته عنده هذا لو لم يكن روي من وجوه مسندة غير هذين فكيف وقد تقدم مسنداً ؟ قال شيخ الاسلام قدس الله روحه : ووجه الدلالة ان قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض وقد نهى عن اتخاذه عيداً فقبر غيره أولى بالنهي كائناً من كان ثم انه قرن ذلك بقوله : « ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً » أي لا تعطلوها

من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور فأمر بتحويل النافلة في البيوت ونهى عن تحري العبادة عند القبور، وهذا ضد مـــا عليه المشركون من النصارى وأشباههم ثم إنه عقب النهي عن اتخاذه عيداً بقوله «وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم» ويشير بذلك إلى أن ما ينالني منـــكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربـــكم من قبري وبعدكم فلا حاجة لكم الى اتخاذه عيداً وقد حرف هذه الأحاديث بعض من أخذ شبَهاً من النصارى بالشرك وشبَهاً من اليهود بالتحريف فقال: هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه ونهى أن يجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين فكأنه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحول الى الحول، واقصدوه كل ساعة وكل وقت، وهذا مراغمة ومحادّة ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ وقلب للحقائق ونسبة الرسول ﷺ الى التدليس والتلبيس بعـــد التناقض، قاتل الله أهل الباطل أنّى يؤفكون، ولا ريب أن من أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه بقوله لا تجعلوه عيداً فهو إلى التلبيس وفقـد البيان أقرب منه الى الدلالة والبيان فإن لم يكن هذا تنقيصاً فليس للتنقيص حقيقة فينا كمن يرمي أنصار الرسول وحزبه بدائه ومصابه، ويتسل كأنه بريء ولا ريب أن ارتكاب كل كبيرة بعد الشرك أسهل إثماً وأخف عقوبة من تعاطي مثل ذلك في دينه وسنته وهكذا غيرت ديانات الرسل ولولا أن الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذّابين عنه لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله، ولو أراد الرسول ﷺ ما قاله هؤلاء الضلال لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ويلعن فاعل ذلك فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عليها وأن يعتاد قصدها وانتيابها ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول وكيف يسأل الله أن لا يجعل قبره وثناً يعبد؟ وكيف يقول أعلم الخلق بذلك: لولا ذلك لأبرز قبره، ولكن خشي أن يتخذ مسجداً؟ وكيف يقول: «لا تجعلوا قبري عيداً وصلوا علي حيثما كنتم»؟ وكيف لم

يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف ، وهذا أفضل التابعين من اهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنه نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ واستدل بالحديث وهو الذي رواه وسمعه عن ابيه الحسين عن جده علي وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يرد المسجد ورأى أن ذلك من اتخاذه عيداً . قال شيخنا : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من اهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرابة النسب وقرب الدار لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط .

﴿ فصل ﴾

ثم إن في اتخاذ القبور أعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك ولكن ما لجرح بميت ايلام فمن مفاسد اتخاذها أعياداً الصلاة اليها ، والطواف بها وتقبيلها واستلامها ، وتعفير الخدود على ترابها ، وعبادة أصحابها والاستعانة بهم وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون وتفريج الكربات واغاثة اللهفات وغير ذلك من انواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها اوثانهم فلو رأيت غلاة المتخذيها عيداً وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد وضعوا لها الجباه وقبلوا الأرض وكشفوا الرؤوس وارتفعت أصواتهم بالضجيج وتباكوا حتى يسمع لهم النشيج ، ورأوا انهم قد أربوا في الربح على الحجيج واستغاثوا بمن لا يبدي ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد احرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين ، فتراهم حول القبر ركعاً سجداً ، يبتغون من البيت فضلاً ورضواناً ، وقد ملاؤا أكفهم خيبة وخسراناً ، فلغير الله بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات

ويسأل عن تفريج الكربات وإغناء ذوي الفاقات ، ومعافاة اولى العاهات والبليات ، ثم انبثوا بعد ذلك حول القبر طائفين ، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين ثم اخذوا في التقبيل والاستلام أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود ، التي يعلم الله انها لم تعفر بين يديه كذلك في السجود ، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقربوا لذلك القرابين ، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنيء بعضهم بعضاً،ويقول اجزل الله لنا ولكم اجراً وافراً وحظاً ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ولو بحجك كل عـــام ، هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم إذ هي فوق ما يخطر بالبال ويدور في الخيال ، وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم، وكل من شمّ أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن أهم الأمور سدّ الذريعة الى هذا المحظور ، وان صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول اليه واحكم في نهيه عنه وبوعده عليه، وان الخير والهدى في اتباعه وطاعته والشر والضلال في معصيته ومخـــالفته، ورأيت لأبي الوفاء ابن عقيل في ذلك فصلاً حسناً فذكرته بلفظه قال : لمـــا صعبت التكاليف على الجهال والطغام ، عدلوا عن اوضاع الشرع الى تعظيم اوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم قال: وهم عندي كفار بهذه الاوضاع مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع من ايقاد النيران وتقبيلها وتخليقها ، وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها : يا مولاي افعل بي كذا وكذا . وأخذ تربتها تبركاً وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال اليها والقاء الخرق على الشجر إقتداء بمن عبد اللات والعزّى، والويل لمن لم يقبل مشهد الكف ويتمسح بآجرة مسجد الملوسة يوم الأربعاء

ولم يقل الحمالون على جنازته : الصديق ابو بكر أو محمد وعلي أو لم يعقد على قبر أبيه أزجاً بالجص والآجرّ ولم يخرق ثيابه إلى الذيل ، ولم يرق ماء الورد على القبر انتهى . ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به وما نهى عنه وما كان عليه اصحابه وبين ما عليه اكثر النـــاس اليوم رأى أحدهما مناقضاً للآخر ، مضاداً له بحيث لا يجتمعان ابداً فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور وهؤلاء يصلون عندها ونهى عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله ، ونهى عن ايقـاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها ، ونهى ان تتخذ عيداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن ابي الهيّاج الأسدي قال : قال علي بن ابي طالب رضى الله عنه : ألا ابعثك على ما بعثني عليـــه رسول الله ﷺ ؟ ان لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته وفي صحيحه ايضاً عن ثمامة بن شفي قال كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوّي ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها ، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونهـــا من الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب ، ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه ، كما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر وان يقعد عليه وان يبنى عليه ، ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود في سننه عن جابر ان رسول الله ﷺ نهى أن تجصص القبور ، وان يكتب عليها قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهؤلاء يتخذون عليهـــا الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيره ، ونهى ان يزاد عليها غير ترابهـــا كما روى ابو داود من حديث جابر ايضاً أن رسول الله ﷺ نهى أن يجصص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه ، وهؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجر والأحجار والجص ، ونهى عمر بن عبد العزيز ان يبنى القبر بأجُرّ واوصى ان لا يفعل

ذلك بقبره ، وأوصى الأسود بن يزيد : لا تجعلوا على قبري آجراً . وقال ابراهيم النخعي : كانوا يكرهون الأجر على قبورهم ، واوصى ابو هريرة حين حضرته الوفاة ان لا يضربوا عليَّ فسطاطا وكره الإمام أحمد ان يضرب على القبر فسطاطا .

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً الموقدين عليها السرج الذين يبنون عليها المساجد والقباب ، مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محايدون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد وايقاد السرج عليها وهو من الكبائر ، وقد صرح الفقهاء من أصحاب احمد وغيرهم بتحريمه ، قال ابو محمد المقدسي : ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، ولأن فيه تضييعاً للمال من غير فائدة وإفراطاً في تعظيم القبور اشبه تعظيم الأصنام قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ولأن النبي ﷺ قال : « لعن الله اليهود اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا متفق عليه ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب اليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الموتى باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها انتهى . وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين أن شرعوا للقبور حجاً ووضعوا له مناسك ، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه « مناسك حج المشاهد » مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام ولا يخفي أن هذا مصادمة لدين الأسلام ودخول في دين عباد الأصنام . فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه ولاريب أن في ذلك من المفاسد مايعجز العبد عن حصره فمنها تعظيمها الموقع في الأفتتان بها والعكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها . وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند البيت الحرام ، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد ، والويل عندهم لقيمها ليلة يطفأ القنديل المعلق عليها . ومنها النذر لها ولسدنتها ومنها اعتقاد

المشركين بها أن بها يكشف البلاء ، وينصر على الأعداء ويستنزل غيث السماء وتفرج الكربات وتقضي الحاجات وينصر المظلوم ويجار الخايف الى غير ذلك ومنها الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها وايقاد السرج. ومنها الشرك الأكبر الذي يفعل عندها ، ومنها إيذاء أصحابها بما يفعل المشركون بقبورهم فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة كما أن المسيح يكره ما تفعله النصارى عند قبره وكذلك غيره من الأنبياء والاولياء والمشائخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرأون منهم كما قال الله تعالى : (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنـــا أن نتخذ من دونك من اولياء — إلى قوله — بُوراً) . قال الله للمشركين : (فقد كذبوكم بما تقولون) وقال تعالى : (واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق) الآية . وقال تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون — إلى قوله — اكثرهم بهم مؤمنون) . ومنها مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها ومنها محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه منها ومنها التعب العظيم مع الوزر الكبير والإثم العظيم ومنها إماتة السنن واحياء البدع ومنها تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والإحـــترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا ريب منه ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد ودين الله الذي بعث به رسوله بضد ذلك ولهذا كانت الرفضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وخربوا المساجد ومنها أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه والاستغفار له وسؤال العافيـــة له فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى

الميت فقلب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به وسؤاله حوائجهم واستنزال البركات منه ونصره لهم على الاعداء ونحو ذلك فصاروا مسيئين إلى نفوسهم والى الميت ، ولو لم يكن إلا بحرمان بركة ما شرعه الله ورسوله ثم وازن بينهما وبين زيارة أهل الأشراك التي شرعها لهم الشيطان واختر لنفسك . قالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ إذا كان ليلتي منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين واتاكم ما توعدون غداً مؤجلون وانا ان شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » رواه مسلم في صحيحه وعنها ايضاً ان جبريل اتاه فقال : ان ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم قالت: كيف اقول يا رسول الله قال : « قولي السلام على اهل الأرض المؤمنين والمسلمين يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وانا ان شاء الله لاحقون » وفي صحيحه ايضا عن سليمان بن بريدة عن ابيه قال كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : « السلام على أهل الديار » وفي لفظ «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم للاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن اراد أن يزور فليزور ولا تقولوا هُجْراً رواه الأمام احمد والنسائي وكان رسول الله ﷺ نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه ونهاهم أن يقولوا هجراً فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله فإن زيارته غير مأذون فيها ومن اعظم الهجر الشرك عندها قولاً وفعلاً وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « زوروا القبور فإنها تذكر الموت » وعن علي بن ابي طالب ان رسول الله ﷺ قال : « اني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة » رواه الإمام أحمد وعن ابن عباس قال مَرَّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل

عليهم بوجهه فقال « السلام عليكم يا اهل القبور يغفر الله لنـــا ولكم ونحن بالأثر » رواه احمد والترمذي وحسنه وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال كنت « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة » رواه ابن ماجه ، وروى الإمام احمد عن أبي سعيد قال رسول الله ﷺ « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فأن فيها عبرة » فهذه الزيارة التي شرعها رسول ﷺ لأمته وعلمهم اياها هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده اهل الشرك والبدع أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يصلح هـــذه الأمة إلا ما أصلح أولهـــا ، ولـــكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بمـــا أحدثوه من البدع والشرك ولقد جرد السلف الصالح التوحيد ، وحموا جانبه ، حتى كان أحـــدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا ، فقـــال سلمة بن وردان : رأيت أنس بن مالك يسلم على النبي ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو . ونص على ذلك الأئمة الأربعة أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر فإن الدعاء عبادة . وفي الترمـذي وغـيره مرفوعاً : « الدعاء هو العبادة » ، فجرّد السلف العبـادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن الله فيه ورسوله ﷺ من السلام على أصحابهـــا والاستغفار لهم والترحم عليهم ، وبالجملة فالميت قد انقطع عمله وهو محتاج إلى من يـــدعو له ويشفع فيه ، ولهذا شرع في الصلاة عليه من الدعاء وُجوبا أو استحبابا ما لم يشرع مثله في الدعاء للحيّ . قال عوف بن مالك : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول : « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ، واكرم نزله ، ووسع مدخله واغسله بالماء والثلـج والبرد ، ونقّه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وابـدله داراً من الخـلد خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه ، وادخله الجنة واعذه

من عذاب القبر ومن عذاب النار » ، حتى تمنّيت أن أكون أنا الميت لدعاء رسول الله ﷺ لذلك الميت رواه مسلم . وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول في صلاته على الجنازة : « اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت هديتها للاسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلانيتها جئنا شفعاء فاغفر له » ، رواه الإمام أحمد . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « إذا صليتم على الميت فاخلصوا له الدعاء » . وقالت عائشة وأنس عن النبي ﷺ : « ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون فيه إلا شفعوا فيه » رواه مسلم . وعن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه » رواه مسلم . فهذا مقصود الصلاة على الميت وهو الدعاء له والاستغفار والشفاعة فيه . ومعلوم انه في قبره أشد حاجة منه على نعشه ، فإنه معرض للسؤال وغيره . وقد كان ﷺ يقف على القبر بعد الدفن فيقول : « سلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » فعلم انه أحوج إلى الدعاء بعد الدفن ، فإذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعو به ونشفع له لا نستشفع به ، فبعد الدفن أولى وأحرى ؛ فبدّل أهل البدع والشرك قولاً غير الذي قيل لهم ، بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه والشفاعة له بالاستشفاع به ، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحساناً إلى الميت وإحساناً إلى الزائر وتذكيراً بالآخرة سؤال الميت والإقسام به على الله ، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد وأوقات الأسحار . ومن المحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو الدعاء عندهم مشروعاً وعملا صالحاً وتصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله ﷺ ثم يرزقه الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فهذه سنة رسول الله ﷺ في أهل القبور بضعاً وعشرين سنة حتى توفاه الله ، وهذه سنة خلفائه الراشدين ، وهذه طريقة جميع الصحابة

والتابعين لهم باحسان ، هل يمكن بشر على وجه الأرض أن يـــأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع ، أنهم إذا كان لهم حـاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسّحوا بها ، فضلاً أن يصلوا عندها أو يسألوا الله بأصحابها أو يسألوهم حوائجهم ، فليوقفونا على أثر واحد ، وحرف واحد في ذلك بل يمكنهم ان يأتوا عن الخلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك أكثر حتى لقد وجد في ذلك عدة مصنفات ليس فيها عن رسول الله ﷺ ولا عن خلفائه الراشدين ولا عـــن أصحابه حرف واحد من ذلك بل فيها من خلاف ذلك كما قدمنا من الاحاديث المرفوعة ، وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يحاط بها وقد ذكرنا إنكار عمر على انس صلاته عند القبر وقوله : « القبر القبر » وقد ذكر محمد بن اسحاق في مغازيه من زيادات يونس بن بكير عن ابي خلدة خالد بن دينار قال حدثنا ابو العالية قال لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف له فأخذنا المصحف فحملناه الى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخه بالعربية فأنا أول رجل من العرب قرأه قرأته مثلمـــا اقرأ القرآن فقلت لأبي العالية : ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه فقلت : وما يرجون منه ، قال كانت السماء اذا حبست عنهم أبرزوا السرير فيمطرون فقلت من كنتم تظنون الرجل قال رجل يقال له دانيال ، قلت : منذ كم وجدتموه مات قال منذ ثلاثمائة سنة قلت . أما كان تغير منه شيء؟ قال: لا الاشعيرات من قفاه إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والانصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به الناس ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله فهم قد اتخذوا من القبور اوثاناً من لا

يداني هذا ولا يقاربه ، واقاموا لها سدنة وجعلوها معابد أعظم من المساجد فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بهـــا فضيلة أو سنة أو مباحاً لقصد المهاجرون والانصار هذا القبر علماً لذلك ودعوا عنده وسنوا ذلك لمن بعدهم ، ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخلوف التي خلفت بعدهم وكذلك التابعون لهم باحسان راحوا على هذا السبيل، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ بالأمصار عدد كثير وهم متوافرون فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ولا دعاه ولا دعا عنده ولا دعا به ولا استسقى به ولا استنصر به ، ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله بل على نقل ما هو دونه ، وحينئذ فلا يخلو إما أن يكون الدعاء عندها والدعاء بأربابها أفضل منه في غير تلك البقعة أو لا يكون فان كان أفضل فكيف خفي علماً وعملاً على الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة بهذا الفضل العظيم ، ويظفر به الخلوف علماً وعملاً ولا يجوز أن يعلموه ويزهدوا فيه مع حرصهم على الخير ولاسيما الدعاء فان المضطر يتشبث بكل سبب ، وان كان فيه كراهة فكيف يكونون مضطرين الى كثير من الدعاء وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور ولا يقصدونه ، وهـــذا محال طبعاً وشرعاً فتعين القسم الآخر ، وهو انه لا فضل للدعاء عندها ولا هو مشروع ولا مأذون فيه بقصد الخصوص ، بـــل تخصيصها بالدعاء عندها ذريعة الى مـــا تقدم من المفاسد ، ومثل هذا مما لا يشرعه الله ورسوله البتة ، بل استحباب الدعاء عندهـــا شرع عبادة لم يشرعها الله ولم ينزل بها سلطاناً ، وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير فروى غير واحد عن المعرور بن سويد قال صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها (ألم ترَ كيف فعل ربك باصحاب الفيل) و(لايلاف قريش) ثم رأى الناس يذهبون مذاهب فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المومنين مسجد صلى فيه النبي ﷺ يصلون فيه فقال : إنمـــا هلك

من كان قبلكم بمثل هذا كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ، ويتخذونهـــا كنائس وبيعاً فمن ادركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها ، وكذلك ارسل عمر ايضاً فقطع الشجرة التي بايع تحتهـا اصحاب رسول الله ﷺ بل قد أنكر رسول الله ﷺ لما سألوه ان يجعل لهم شجرة يعلقون عليها اسلحتهم ومتاعهم بخصوصها . فروى البخاري في صحيحه عن ابي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله الى حنين ونحن حـــدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لهـا ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات انواط فقال النبي ﷺ « هذا كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم » فإذا كان اتخاذهذهالشجرة لتعليق الأسلحةوالعكوف حولها إتخاذ إلهمعاللهمع انهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده ، فأي نسبة للفتنة بشجرة الى فتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون . قال بعض اهل العلم من اصحاب مالك : فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم شجرة أو سدرة يقصدها الناس ويعظمونها ، ويرجون الـبرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها . ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب وغيره علم أن بين السلف وبين هؤلاء الخلف من البدع أبعد ممـــا بين المشرق والمغرب وانهم على شيء والسلف على شيء كما قيل :

سارت مشرّقة وسرت مغرباً شتان بين مُشَرّق ومُغَرّب

والأمر والله أعظم ممـــا ذكرنا وقد ذكر البخاري في صحيحه عن أم الدرداء قالت : دخل علي ابو الدرداء مغضباً فقلت : مالك ؟ فقال : والله ما أعرف فيهم شيئاً من أمر محمد ﷺ إلا انهم يصلون جميعاً . وروى مالك في الموطا عن عمه ابي سهيل بن مالك عن ابيه انه قال: ما اعرف شيئاً ممـــا

ادركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة يعني الصحابة رضى الله عنهم ، وقال الزهري دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت له ما يبكيك ؟ فقال : ما اعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة ، وهذه الصلاة قد ضيعت ذكره البخاري وفي لفظ اخر ما كنت اعرف شيئاً على عهد رسول الله ﷺ إلا قد أنكرته اليوم ، وقال الحسن البصري : سأل رجل ابا الدرداء فقال رحمك الله لو أن رسول الله ﷺ بين أظهرنا هل كان ينكر شيئاً مما نحن عليه ؟ فغضب وقال : وهل كان يعرف شيئاً مما أنتم عليه ؟. وقال المبارك بن فضالة : صلى الحسن الجمعة وجلس يبكي فقيل له: ما يبكيك يا ابا سعيد ؟ قال : تلومونني على البكاء ولو أن رجلاً من المهاجرين إطلع من باب مسجدكم ما عرف شيئاً مما كان عليه عهد رسول الله ﷺ أنتم عليه اليوم إلا هذه ، وهذه هي الفتنة العظمى التي قال عنها عبدالله بن مسعود كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير تجري على الناس يتخذونها سنة إذا غيرت قيل غيرت السنة وهذا منكر وهذا مما يدل على ان العمل اذا جرى على خلاف السنة فلا عبرة به ولا التفات اليه فإن العمل قد جرى على خلاف السنة منذ زمن ابي الدرداء وانس كما تقدم وذكر ابو العباس احمد بن يحيى حدثنا محمد بن عبيد بن ميمون حدثني عبدالله بن اسحاق الجعفري قال كان عبدالله بن حسن يكثر الجلوس إلى ربيعة قال فتذاكروا يوماً السنن فقال رجل كان في المجلس: ليس العمل على هذا فقال عبدالله : أرأيت ان كثر الجهل حتى يكونوا هم الحكام فهم الحجة على السنة فقال ربيعة : أشهد أن هذا الكلام كلام أبناء الأنبياء .

﴿ فصل ﴾

ومن أعظم مكائده ما نصبه للناس من الأنصاب والازلام التي هي من عمله وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك وعلق الفلاح باجتنابه فقال (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) فالأنصاب كلما نصب يعبد من دون الله من شجر أو حجر

او وثن أو قبر وهي جمع واحدها نُصب كطنبٍ وأطناب قال مجاهد وقتادة وابن جريج : كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها وكانوا يعظمون هذه الحجارة قالوا وليست بأصنام وإنما الصنم ما يصور وينقش قال ابن عباس هي الأصنام التي تعبد من دون الله . وقال الزجاج حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان وقال الفراء : هي الآلهة التي كانت تعبد من أحجار وغيرها وأصل اللفظة الشيء المنصوب الذي يقصده من رآه ومن قوله تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نُصب يوفضون)قال ابن عباس الى غاية وعلم يسعون وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن يعني إلى أنصابهم أيهم يستلمها أول . قال الزجاج : وهكذا على قراءة من قرأه بضمتين نصب كقوله تعالى: (وما ذبح على النصب) قال : ومعناه أصنام لهم والمقصود أن الأنصاب كل شيء نصب من خشبة أو علم أو حجر والإيفاض الاسراع وامّا الأزلام فقال ابن عباس هي قداح كانوا يستقسون بها الأمور أي يطلبون بها علم ما قسم لهم وقال سعيد بن جبير كانت لهم حصيات اذا اراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها وقال أيضاً :هي القدحان اللذان كان يستقسم بها أهل الجاهلية في أمورهم أحدهما مكتوب عليه (أمرني ربي) والآخر (نهاني ربي) فاذا أرادوا أمراً ضربوا بها فإن خرج الذي عليه : امرني ربي فعلوا ما هموا به ، وان خرج الذي عليه نهاني ربي تركوه قال أبو عبيد : الأستقسام طلب القسمة وقال المبرد : الاستقسام أخذ كل واحد قسمه وقيل الاستقسام إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح كقسم اليمين وقال الزهري : (وان تستقسموا بالأزلام) أي تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين قال ابو اسحق الزجاج وغيره الاستقسام بالأزلام حرام ولا فرق بينة وبين قول المنجم : لا تخرج من أجل نجم كذا واخرج من اجل طلوع نجم كذا لأن الله تعالى يقول (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً) وذلك دخول في علم الله عز وجل الذي هو غيب

عنا فهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله تعالى . والمقصود ان الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام فالأنصاب للشرك والعبادة والأزلام للتكهن وطلب علم ما استأثر الله به هذه للعلم وتلك للعمل ودين الله سبحانه مضاد لهذا وهـــذا ، والذي جاء به رسول الله ﷺ أبطلها وكسر الأنصاب والأزلام فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان المشركين من شجرة أو عمود أو وثن أو قبر أو خشبة أو غير ذلك والواجب هدم ذلك كله ومحو أثره كما أمر النبي عليه السلام علياً بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالارض كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال قال رضي الله عنه ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالاً إلا طمسه ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته وعمّى الصحابة بامر عمر بن الخطاب قبر دانيال وأخفوه عن الناس ولمـــا بلغه ان الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله ﷺ ارسل بقطعها رواه ابن وضاح في كتابه فقال : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب بقطـــع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة قال عيسى بن يونس :وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر فإذا كان هذا فعـــل عمر بالشجرة التي ذكرها الله في القرآن وبايع تحتها الصحابة لرسول الله ﷺ فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي قدعظمت الفتنة بها واشتدت البلية بها ، وأبلغ من ذلك ان رسول الله ﷺ هدم مسجد الضرار ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه كالمساجد المبنية على القبور فإن حكم الأسلام فيها ان تهدم كلها حتى تسوى بالأرض وهي اولى بالهـــدم من مسجد الضرار وكذلك القبب التي على القبور كما تقدم فبناء أسس على معصية ومخالفة بناء غير محترم أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً . وقد أمر رسول الله ﷺ بهدم القبور المشرفة كما تقدم فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليهـــا أولى وأحرى لأنه لعن متخذي المساجد عليها ونهى عن البناء عليها فتجب

المبادرة والمسارعة الى هدم ما لعن رسول الله ﷺ فاعله ونهى عنه والله يقيم لدينه وسنة رسول الله ﷺ من ينصرهما ويذب عنهما فهو أشد غيرة واسرع وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر وطفئه فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله ﷺ ولا يصح هذا الوقف ولا يحل اثباته وتنفيذه قال الإمام ابو بكر الطرطوشي : انظروا رحمكم الله أينما وجـــدتم سدرة او شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات انواط فاقطعوها وقال الحـــافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بابي شامة في كتابه « الحوادث والبدع » : ومن هذا القسم ايضاً ما قد عمّ به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بهـا أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله وسننه ويظنون أنهم يتقربون بذلك ثم يتجاوزون هذا إلى ان يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لها وهي من بين عيون وشجر وحجر وحايط . وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعـــددة كعوينة الحمى خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها فما اشبهها بذات انواط التي في حديث ابي واقد الليثي انهم مَرُّوا مـع رسول الله ﷺ بسمرة عظيمة خضراء يقال لها ذات انواط فقالوا لرسول ﷺ اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط فقال النبي ﷺ : الله أكبر هذا كما قال قوم موسى اجعل لنـــا إلهاً كما لهم الهة قال انكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم » .قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ثم ذكر ما صنعه بعض اهل العلم ببـــلاد افريقية انه كان الى جانب عين تسمى عين العافية كان العامة قد افتتنوا بهـا يأتونها من الآفاق فمن تعذر عليه نكاح أو ولد قال امضوا بي إلى العافية فيعرف

بها الفتنة فخرج في السحر فهدمها وأذن في الصبح عليها ثم قال: اللهم اني هدمتها لك فلا ترفع بها رأساً قال فما رفع بها رأساً إلى الآن وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الأسلام وحزب الله الموحدين كالعامود المخلق والنصب الذي كان بمسجد النارنج عند المصلى كان يعبده الجهـــال والنصارى الذي كان تحت الطاحون عند مقابر النصارى ينتابه الناس للتبرك به وكان صورة صنم في نهر القلوط ينذرون له ويتبركون به وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده ويتبرك به المشركون وكان عموداً طويلاً على رأسه حجر كالكرة وعند مسجد درب الحجر نصب قد بني عليه مسجد صغير يعبده المشركون ويسر الله كسره فما أسرع اهل الشرك الى اتخـــاذ الأوثان من دون الله ، ولو كانت ما كانت ويقولون ان هـــذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر أي تقبل العبادة من دون الله فـــإن النذر عبادة وقربة يتقرب بهـــا الناذر الى المنذور له ويتمسحون بذلك النصب ويستلمونه ولقد أنكر السلف التمسح بحجر المقام الذي أمر الله أن يتخذ منه مصلى كما ذكر الأزرقي في كتاب مكة عن قتادة في قوله تعالى (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قال إنما أمروا ان يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . ولقد تكلفت الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها ذكر لنا من رأى أثره واصابعه فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب فتنة اصحاب القبور وهي اصل فتنة عبادة الأصنام كما قاله السلف من الصحابة والتابعين . وقد تقدم ومن أعظم كيد الشيطان أنه ينصب لأهل الشرك قبر معظم يعظمه الناس ثم يجعله وثناً يعبد من دون الله ثم يوحي الى أوليائه أن من نهى عـــن عبادته واتخاذه عيداً وجعله وثنا فقد تنقصه وهضمه حقه فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته ويكفرونه وذنبه عند أهل الشرك أمره بما أمر الله به ورسوله ونهيه عما نهى الله عنه ورسوله من جعله وثنا وعيدا وايقاد السرج عليه وبناء المساجد والقباب عليه وتجصيصه واشادته وتقبيله واستلامه ودعائه

والدعاء به والسفر اليه والاستغاثة به من دون الله مما قد علم بالاضطرار من دين الاسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ من تجريد التوحيد لله وان لا يعبد الا الله فإذا نهى الموحد عن ذلك غضب المشركون واشمأزّت قلوبهم وقالوا قد تنص أهل الرتب العالية وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر ويسري ذلك في نفوس الجهال والطغام وكثير ممن ينتسب الى العلم والدين حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم ووالوا أهل الشرك وعظموهم وزعموا أنهم هم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله ويأبى الله ذلك فما كانوا اولياءه إن اولياؤه الا المتقون الموافقون له المتبعون له العارفون بما جاء به الداعون اليه لا المتشبعون بما لم يعطوا، اللابسو ثياب الزور الذين يصدون الناس عن سنه نبيّهم ويبغونها عوجا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

﴿ فصل ﴾

ولا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم صراط أهل نعمته ورحمته وكرامته أن النهي عن اتخاذ القبور أوثاناً واعياداً وأنصابا والنهي عن اتخاذها مساجد أو بناء المساجد عليها وايقاد السرج عليها والسفر اليها والنذر لها واستلامها وتقبيلها وتعفير الجباه في عرصاتها غض من أصحابها ولا تنقيص لهم ولا تنقص كما يحسبه أهل الشرك والضلال بل ذلك من إكرامهم وتعظيمهم واحترامهم ومتابعتهم فيما يحبونه وتجنب ما يكرهونه ، فأنت والله وليهم ومحبهم وناصر طريقهم وسنتهم وعلى هديهم ومناجهم وهؤلاء المشركون اعصى الناس لهم وأبعدهم عن هديهم ومتابعتهم كالنصارى مع المسيح واليهود مع موسى ومن أهل الرافضة مع علي فأهل الحق أولى لأهل الحق من أهل الباطل فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض فاعلم أن القلوب إذا اشغلت بالبدع اعرضت عن السنن فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا إليه وتعظيم الأنبياء

والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم دون عبادة قبورهم والعكوف عليها واتخاذها أعياداً فإن من اقتفى آثارهم كان متسبباً إلى تكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوته الناس إلى اتباعهم فمن أعرض عما دعوا اليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر فأي تعظيم لهم واحترام في هذا ، وإنما اشتغل كثير من الناس بانواع من العبادات المبتدعة التي يكرهها الله ورسوله لإعراضهم عن المشروع أو بعضه وان قاموا بصورته الظاهرة فقد هجروا حقيقته المقصودة منه وإلا فمن اقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه عارفاً بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح ، مهتماً بها كل الاهتمام أغنته عن الشرك وكل من قصر فيها أو بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك ومن أصغى إلى كلام الله بقلبه وتدبره وفهمه أغناه عن السماع الشيطاني الذي يصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة وينبت النفاق في القلب ، وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول بكليّته وحدث نفسه باقتباس الهدى والعلم منه لا من غيره اغناه عن البدع والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها ، ومن بعد عن ذلك فلا بد له أن يتعوض عنه بما لا ينفعه كما أن من عمر قلبه بمحبة الله وذكره وخشيته والتوكل عليه والإنابة إليه اغناه ذلك عن محبة غيره ، وخشيته والتوكل عليه ، وأغناه ايضاً عن عشق الصور فإذا خلا من ذلك صار عبد هواه أي شيء استحسنه ملكه واستعبده فالمعرض عن محبة التوحيد مشرك شاء أم أبى ، والمعرض عن السنن مبتدع شاء أم أبى ، والمعرض عن محبة الله وذكره عبد الصور شاء أم أبى ، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا به .

فإن قيل: فما الذي اوقع عباد القبور في الافتتان بها مع العلم ان ساكنيها أموات لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟ قيل أوقعهم في ذلك أمور :منها الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله بل جميع

الرسل من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك فقلّ نصيبهم من ذلك، ودعاهم الشيطان الى الفتن ، ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته.. ومنها أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرية على رسول الله ﷺ تناقض دينه وما جاء به كحديث اذا اعيتكم الأمور فعليكم باصحاب القبور وحديث: لو أحسن احدكم ظنه بحجر نفعه ، وامثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الاسلام ، وضعها المشركون وراجت على اشباههم من الجهال والضلال والله سبحانه بعث رسوله بقتل من حسّن ظنه بالأحجار وجنب أمته الفتنة بالقبور بكل طريق كما تقدم. ومنها حكايات حكيت لهم عن تلك القبور أن فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها وفلاناً دعاه أو دعا به في حاجته فقضيت له وفلان نزل به ضرر فاسترجى صاحب القبر فكشف ضره وعند السدنة والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره وهم من أكذب خلق الله على الأحياء والأموات ، والنفوس مولعة بقضاء حوائجها وإزالة ضروراتها ويسمع بأن قبر فلان ترياق مجرّب والشيطان تلطف في الدعوة فيدعوه اولاً إلى الدعاء عنده فيدعو العبد عنده بحرقة وانكسار وذلة فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه لأجل القبر فأنه لو دعا كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه ، فيظن الجاهل أن للقبر تأثير في إجابة تلك الدعوة والله سبحانه يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً وقد قال تعالى : (كلا نمدّ هؤلاء ، وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً) وقد قال الخليل : (وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الأخر) قال الله سبحانه : (ومَنْ كفر فأمتعه قليلاً) الآية ، فليس كل من أجاب الله دعاءه راضياً عنه ولا محبًّا له ولا راضياً بفعله فإنه يحب البر والفاجر والمؤمن والكافر ، وكثير من الناس يدعو دعاء يعتدي فيه أو يشرك في دعائه أو يكون مما لا يجوز أن يسأل فيحصل له ذلك أو بعضه ليظن ان عمله صالح مرضي لله ويكون بمنزلة من املى له وأمدّه بالمال والبنين ، وهو يظن أن الله

يسارع له في الخيرات وقد قال تعالى : (فلمّا نسوا ما ذكروا به ففتحنا عليهم أبواب كل شيء) ، فالدعاء قد يكون عبادة فيثاب عليه الداعي، وقد يكون دعاء مسألة فتقضى به حاجته ، ويكون مضرة عليه اما أن يعاقب بما يحصل له أو تنقص به درجته فتقضى حاجته ويعاقبه على ما جرت عليه من اضاعة حقوقه وارتكاب حدوده والمقصود ان الشيطان يلطف كيده بحسن الدعاء عند القبر وأنه أرجح منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار ، فإذا قرر ذلك عنده نقله درجة اخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به والإقسام على الله به ، وهذا أعظم من الذي قبله فإن شأن الله اعظم من ان يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه،وقد أنكر أئمة الأسلام ذلك فقال ابو الحسين القدوري في شرح كتاب الكرخي قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف يقول قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به قال : واكره ان يقول أيسألك بمقعد العز من عرشك وأكره ان يقول : بحق فلان وبحق أنبيائك ، واسألك بحق البيت الحرام. قال ابو الحسن : أما المسألة بغير الله فمنكرة في قولهم انه لا حق لغير الله عليه، وإنما الحق لله على خلقه واما قوله بمقعد العز من عرشك فكرهه ابو حنيفة ورخص فيه أبو يوسف قال : وروى ان النبي ﷺ دعا بذلك ، قال ولأن مقعد العز من العرش إنما يراد به القدرة التي خلق الله بها العرش مع عظمته فكأنه سأله بأوصافه وقال ابن بلدجي في شرح « المختار » ويكره ان يدعو الله تعالى إلا به فلا يقول أسألك بفلان وملائكتك وبأنبيائك ونحو ذلك لأنه لا حق للمخلوق على خالقه أو يقول في دعائه أسألك بمقعد العز من عرشك ، وعن ابي يوسف جوازه وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه أكره كذا هو عند محمد حرام وعند ابي حنيفة وأبي يوسف هو إلى الحرام اقرب ، وجانب التحريم اغلب وفي فتاوي أبي محمد ابن عبد السلام أنه لا يجوز سؤال الله سبحانه بشيء من مخلوقاته لا الأنبياء ولا غيرهم وتوقف في نبينا ﷺ لاعتقاده أن ذلك جاء في حديث وانه لم يعرف صحة الحديث ، فإذا قرر الشيطان

عنده أن الأقسام على الله به والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه ، والنجح في قضاء حاجته نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله ، ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى الى ان يتخذ قبره وثناً يعكف عليه ويوقد عليه القنديل ويعلق الستور ويبني عليه المسجد ويعبده بالسجود له والطواف وتقبيله واستلامه والحج اليه والذبح عنده ، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس الى عبادته واتخاذه عيداً ومنسكاً وان ذلك انفع لهم في دنياهم وآخرتهم قال شيخنا قدس الله روحه :وهذه الأمور المبتدعه عند القبور مراتب أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجته ويستغيث به كما كان يفعله كثير من الناس قال : وهؤلاء من جنس عباد الأصنام ، وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب ، يدعو أحدهم من يعظمه فيتمثل له الشيطان أحياناً ، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة ، وكذلك السجود للقبر والتمسح به وتقبيله . المرتبة الثانية : أن يسأل الله به ، وهذا يفعله كثير من المتأخرين ،وهو بدعة باتفاق المسلمين . الثالثة : أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد ، فيقصد زيارته والصلاة عنده لأجل طلب حوائجه ، فهذا أيضاً من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين ، وهي محرمة وما علمت في ذلك نزاعاً بين أئمة الدين ، وإن كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك ، ويقول بعضهم : قبر فلان ترياق مجرّب . والحكاية المنقولة عن الشافعي أنه كان يقصد الدعاء عند قبر أبي حنيفة من الكذب الظاهر .

﴿ فصل ﴾

في الفرق بين زيارة الموحدين وزيارة المشركين

أما زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء :أحدهما تذكر الآخرة والاتعاظ والاعتبار ، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله : « زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » . الثاني : الإحسان إلى الميت أن لا يطول عهده به فيهجره

وينساه ، كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه ، فـــإذا زار الحي فرح بزيارته وسُرّ بذلك ، فالميت أولى لأنه قد صار إلى دار هجر أهلها اخوانهم وأهلهم ومعارفهم ، فإذا زاره وأهدى له هدية من دعاء أو صدقة أو أهدى قربة ازداد بذلك سروره وفرحه ، كما يُسَرّ الحي بمن يزوره ويهدي له ، ولهذا شرع النبي ﷺ للزائر أن يدعو لأهل القبر بالرحمـــة والمغفرة وسؤال العافية ، ولم يشرع أن يدعوهم ولا يدعو بهم ولا يصلي عنـــدهم . الثالث : إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ فيحسن الى نفسه وإلى المزور . وأما الزيارة الشركية فأصلها مـــأخوذ عن عباد الأصنام قالوا : الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله لا يزال تأتيه الألطاف من الله ، ويفيض على روحه الخيرات ، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له ، قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ويعكف بهمّته عليه ، ويوجه قصده كله وإقباله عليه ، بحيث لا يبقى له التفات إلى غيره ، وكلما كان جمع القلب والهمة عليه أعظم كان أقرب الى الانتفاع بـــه ، وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما ، وصرح بها عبـــاد الكواكب في عبادتها قالوا : إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور ، وبهذا السرّ عبدت الكواكب ، واتخـذت لها الهياكل ، وصنفت لها الدعوات ، واتخذت الأصنام المجسدة لها ، وهذا بعينه الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعياداً ، وتعليق الستور عليها ، وإيقـاد السرج عليها ، وبناء المساجد عليها ، وهو الذي قصد الرسول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية ، وسدّ الذرائع المفضية اليه ، فوقف المشركـون في طريقـه وناقضوه قصده ، وكان رسول الله ﷺ في شقّ وهؤلاء في شق ، وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا ان آلهتهم تنفعهم وتشفع لهم عند الله ،

قالوا : فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله وتوجه بهمته اليه ، وعكف بقلبه عليه ، صار بينه وبينه اتصال يفيض بـــه عليه منه نصيب مما يحصل له من الله ، وشبّهوا ذلك بمن يخـــدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان ، فهو من شديد التعلق به ، فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقـــه به . فهذا سرّ عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطـــاله وتكفير أصحابه ، ولعنهم واباح دماءهم واموالهم ، وسبى ذراريهم وأوجب لهم النار. والقرآن من أوله الى آخره مملوء من الرد على أهله وابطال مذهبهم قال الله تعالى (ام اتخذوا من دون الله شفعاء، قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض) فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض وهو الله وحده ، فهو الذي يشفع بنفسه الى نفسه ليرحم عبده فيأذن لمن يشاء أن يشفع فيه ، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له ، والذي يشفع عنده إنما شفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه الى نفسه ، وهي ارادته سبحانه من نفسه أن يرحم عبده ، وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله (واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وقوله : (يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقـــال تعالى (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع)وقال (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع) فأخبر سبحانه انه ليس للعبـــاد شفيع من دونه ، بل إذا اراد سبحانه رحمة عبده أذن لمن يشفع فيه كما قال (مامن شفيع إلا من بعد اذنه) وقال (من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه) فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل بإذنه والفرق بين

الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور فالشفاعة التي ابطلهـــا شفاعة الشريك فإنه لا شريك له ، والتي اثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ، ويقول : اشفع في فلان . ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه ، وهم الذين ارتضى الله سبحانه وتعالى قال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقال : (يومئذ لا تنفـــع الشفاعة الا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً) فأخبر انه لا يحصل يومئـــذ شفاعة تنفع الا بعد رضاه قول المشفوع له وإذنه للشافع . فاما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه ، فإنه سبحانـــه علقها بأمرين : رضاه عن المشفوع وإذنه للشافع فما لم يوجد مجموع الأمرين لا توجد الشفاعة وسر ذلك أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء وأغلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده هم الرسل والملائكة المقربون وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ، ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم وأمره ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً فهم مملوكون ومربوبون أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه ، فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وانتفعوا له عند الله فهو أجهل الناس بحق رب العالمين سبحانه وتعالى وما يجب له ويمتنع عليه ، فإن هـذا محال ممتنع شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج ، وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي ، والفرق بينهما هو الفرق بين الخالق والمخلوق والرب والعبد ، والمالك والمملوك ، والغني والفقير ، والذي لا حاجة به الى أحد قط والمحتاج من كل وجـــه الى غيره ، والشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وأعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم ، ولو هم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس فلحاجتهم

إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ، ويرضون عن المشافع لأنهم يخافون ان يردوا شفاعتهم فتنقص طاعتهم لهم ، ويذهبون الى غيرهم فلا يجدون بُداً من قبول شفاعتهم مع الكره وعدم الرضا فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكلما سواه فقير اليه بذاته وكل من في السموات والارض عبد له مقهور بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته ولا الهيته مثقال ذرة قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً الآية وقال) سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي (له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وقال (قل لله الشفاعة جميعاً له ما في السموات والأرض) فأخبر ان حال ملكه السموات والارض يوجب ان تكون الشفاعة كلها له وحده ، وان احداً لا يشفع عنده إلا بإذنه فانه ليس شريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض فتبين ان الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يفعلها الناس ، ويفعلها بعضهم مع بعض ، ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المتعاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع ، إلا بعد اذنه ، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه ، فإنه هو الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله ، فمتخذي الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ومتخذ الرب وحده ، إلهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوه ومخوفه الذي يتقرب اليه وحده ، ويطلب رضاه ، ويتباعد عن سخطه هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع ان يشفع فيه قال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء) إلى قوله (قل لله الشفاعة جميعاً) وقال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما

يشركون) ، فبين سبحانه ان المتخذي شفعاء مشركون ، وان الشفاعة لا تحصل باتخاذهم وانما تحصل بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له وسر الفرق بين الشفاعتين أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها الى المشفوع عنده لا خلقاً ولا أمراً ولا اذنـــاً ، بل هو سبب له محرك من خارج كسائر الاسباب التي تحرك الاسباب ، وهذا السبب المحرك للانسان قد يكون عند التحرك لأجـــل ما يوافقه ، كمن شفع عنده في أمر يحبه ويرضاه ، وقد يكون عنده ما يخالفه كمن يشفع عنده في أمر يكرهه ، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته اقوى من المعارض ، فيقبل شفاعة الشافع ، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها ، وقد يتعارض عنده الامران فيبقى متردداً بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد وبين الشفاعة التي تقتضي القبول فيتوقف الى ان يترجح عنده أحد الامرين بمرجح فشفاعة الانسان عنـــد المخلوق مثله هي السعي في سبب منفصل عن المشفوع اليه بحركة به ولو على كره منه ، فمنزلة الشفاعة عنده بمنزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل اما بقوة وسلطان واما برغبة فلا بد أن يحصل للمشفوع اليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها واما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته ، وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه ، فإنه إن لم يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويحبها منه ويرضى عن المشفوع له لم يمكن ان توجد ، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب اليه ولا لرهبته منه ، ولا لرغبة فيما لزمه ، وإنمـا يشفع عنده امتثالاً لأمره ، ومجرد طاعة له فهو مطيع ما حوى بالشفاعة مطيـع بامتثال الأمر ، فأن احداً من الانبياء والملائكة وجميع المخلوقات، لا تتحرك شفاعته ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى وخلقه فالرب تعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع ، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليـه حتى يقبل ، والشافع عند المخلوق مستغن عنـه في أكثر اموره ، وهو في الحقيقة شريكه ، ولو كان مملوكه وعبده ، فالمشفوع عنده محتاج اليـــه فيما

يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك ، كما أن الشافع محتاج اليه فيما يناله منه من رزق أو نصر وغيره ، فكل منهما محتاج الى الآخر ، ومن وفقه الله لفهم هذا الموضوع ومعرفته تبين له حقيقة التوحيد والشرك والفرق بين ما أثبته الله من الشفاعة ، وبين ما نفاه وأبطله ، (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

﴿ فصل ﴾

ومن مكائد عدو الله ومصائده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصار بها قلوب الجاهلين والمبطلين سماع المكاء والتصديه والغناء بالآلات المحرمة التي تصد القلوب عن القرآن وتجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن وهو رقية اللواط والزنا وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى ، كاد به النفوس المبطلة وحسنه لها مكراً منه وغروراً ، وأوحى اليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه ، واتخذت لأجله القرآن مهجوراً فلو رأيتهم عند ذياك السماع ، وقد خشعت منهم الاصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه وانصبابها انصبابة واحدة اليه ، فتمايلوا له ولاكتمايل النشوان وتكسروا في حركاتهم ورقصهم أرأيت تكسر المخانيث والنسوان ويحق لهم ذلك وقد خالط خماره النفوس ففعل بهم اعظم مما تفعله حميّا الكؤوس فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق واثواب تشقق واموال في غير طاعة الله تنفق ، حتى اذا عمل السكر فيهم عمله وبلغ الشيطان منهم أمنيته امله واستفزهم بصوته وحيله واجلب عليهم بخيله ورجله وخز في صدورهم وخزاً اوازهم إلى ضرب بالأقدام أزّاً فطوراً يجعلهم كالحمير حول المدار وتارة كالدباب ترقص وسط الديار فيا رحمتاه للسقوف والارض من دك تلك الاقدام ويا سوأتاه من اشباه الحمير والانعام ويا شماتة أعداء الاسلام بالذين يزعمون انهم خواص الاسلام ، قضوا حياتهم لذة وطربا واتخذوا دينهم لهوا ولعباً مزامير

الشيطان احب اليهم من استماع سور القرآن لو سمع احدهم القرآن من أوله الى آخره لما حرك له ساكناً ولا ازعج له قاطناً ولا أثار فيهم وجداً ولا قدح فيه من لواعج الشوق الى الله زنداً حتى اذا تـــلي عليهم قرآن الشيطان وولج مزموره سمعه تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينه فجرت، وعلى اقدامه فرقصت وعلى يديـــه فصفقت وعلى زفراته فتزايدت وعلى نيران اشواقه فاشتعلت فيا ايها الفاتن المفتون والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون هلا كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن وهذه الأذواق والاواجيد عنـــد قراءة القرآن المجيد وهذه الأحوال السنيات عند السور والآيات ولكن كل امر يصبو الى ما يناسبه ويميل إلى ما يشاكله والجنسية علة الضم قدراً وشرعاً والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعاً فمن اين هذا الاخاء والنسب لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب، ومن اين هذه المصالحة الـــتي اوقعت في عقد الايمان وعهد الرحمن خللا افتخذونه وذريتة أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ولقد أحسن القائل :

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفـــة لكنه اطراق ساه لاهـــي
وأتى الغنـــاء فكا الحمير تناهقوا والله مـــا رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمـة شادن فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا تقييـــده باوامر ونواهـــي
سمعوا له رعداً وبرقـــا اذ حوى زجراً وتخويفـاً بفعـــل مناهي
ورأوه اعظم قاطع للنفس عن شهواتها يا ويحهـــا المتناهي
وأتى السماع موافقـــاً أغراضهـــا فلأجـــل ذاك غدا عظيم الجاه
اين المساعد للهوى من قاطع أسبابه عنـــد الجهول الساهي
ان لم يكن خمر الجسوم فإنـــه خمر العقول مماثـــلٌ ومضاهي
فأنظر الى النشوان عنـــد شرابه وأنظر الى النشوان عند ملاهي
واحـكم بأي الخمرتـــين أحـ ـقُّ بالتحـريم والتأثيم عنـــد الله

وقال آخر :

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض من سماع الغنا
وكم قلت يا قوم انتم على ... شفا جرف ما به من بنا
شفا جرف تحتـــه هوة ... الى درك كم به من عنا
وتكرار ذا النصح منا لهم ... لنعذر فيهم الى ربنا
فلما استهانوا بتنبيهنـــا ... رجعنا الى الله في أمرنا
فعشنا على سنة المصطفى ... وماتوا على بابنا تنتنا

ولم يزل أنصار الإسلام وائمـــة الهدى تصيح بهؤلاء من اقطـار الأرض وتحذر من سلوك سبيلهم واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة قال الامام ابو بكر الطرطوشي في خطبة كتابه في تحريم السماع: الحمدلله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين ونسأل الله أن يرينـــا الحق حقاً فنتبعه والباطل باطلاً فنجتنبه ، وقد كان الناس فيما مضى يستتر أحدهم بالمعصية اذا واقعها ثم يستغفر الله ويتوب اليه منها ثم كثر الجهل وقل العلم وتناقص الأمر حتى صار أحدهم يأتي المعصية جهاراً ثم يزداد الأمر ادباراً حتى بلغنـــا ان طائفة من اخواننا المسلمين وفقنا الله وإياهم استزلهم الشيطـــان واستغواهم في حب الأغاني واللهو وسماع الطقطقة والتغبير واعتقدته من الذي يقربهم الى الله وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقت سبيل المؤمنين وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) فرأيت أن أوضح الحق وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التي تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وابدا بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم في أقاصي الأرض ودانيها حتى تعلم هذه الطائفة انهـــا قد خالفت علماء المسلمين في بدعتهـا والله ولي التوفيق ، ثم قال أما مالك فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه وقـــال اذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله ان يردها بالعيب وسئل مالك ما ترخص فيه

أهل المدينة من الغناء فقال إنما يفعله عندنا الفساق قال : واما ابو حنيفة فأنه يكره الغناء ويجعله من الذنوب وكذلك مذهب أهـــل الكوفة سفيان وحماد وابراهيم والشعبي وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك ولا نعلم خلافاً ايضاً بين أهل البصرة في المنع منه قلت مذهب ابي حنيفة في ذلك أشد المذاهب وقوله فيه اغلظ الأقوال وقد صرح أصحابه بتحريم سمـــاع الملاهي كلها كالمزمار والدف حتى والضرب بالقضيب فصرحوا بانـــه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة وأبلغ من ذلك قالوا ان السماع فسق والتلذذ به كفر هذا لفظهم وروي في ذلك حديث لا يصح رفعه قالوا ويجب عليه ان يجتهد في ان لا يسمعه إذا مر به أو كان في جواره ، وقال ابو يوسف في دار يسمع منها صوت المعازف والملاهي ادخل عليهم بغير اذنهم لأن النهي عن المنكر فرض فلو لم يجز الدخول بغير اذن لامتنع الناس من اقامة الفرض قالوا ويتقدم اليه الإمام إذا سمع ذلك من داره فأن اصر حبسه وضربه سياطاً وان شاء أزعجه عن داره ، وأما الشافعي فقال في كتاب ادب القضاء: ان الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته وصرح اصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه وانكروا على من نسب اليه حله كالقاضي ابي الطيب الطبري والشيخ ابي اسحاق وابن الصباغ، قال الشيخ ابو سحاق في التنبيه ولا تصح الاجارة على منفعة محرمة كالغناء والزمر وحمل الخمر ولم يذكر فيه خلافا ، وقال في المهذب: ولا تجوز على المنافع المحرمة لأنه محرم فلا يجوز أخذ العوض عنه كالميتة والدم فقد تضمن كلام الشيخ اموراً أحدها ان منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة الثاني ان الاستيجار عليها باطل الثالث ان أكل المال به أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضاً عن الميتة والدم الرابـــع انه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغني ويحرم عليه ذلك فأن بذل ماله في مقابله محرم وان بذله في ذلك كبذله في مقابلة الدم والميتة الخامس ان الزمر حرام واذا كان الزمر الذي هو أخف آلات اللهو حراماً فكيف بمـــا هو اشد منه كالعود

والطنبور واليراع ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذلك فأقل ما فيه انه من شعار الفساق وشاربي الخمور وكذلك قال ابو زكريا النووي في روضته القسم الثاني ان يغني ببعض آلات الغناء بما هو من شعار شاربي الخمر وهو مطرب كالعود والطنبور والصنج وساير المعازف والاوتار يحرم استماعه واستعماله قال وفي اليراع وجهان صحح البغوي التحريم ثم ذكر عن الغزالي الجواز قال والصحيح تحريم اليراع وقد حكى ابو عمر بن الصلاح الاجماع على تحريم السماع الذي جمع الدف والشبابة والغناء اذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند ائمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ولم يثبت عن احد ممن يعتد بقوله في الاجماع والاختلاف اباحة هذا السماع والخلاف المنقول عن بعض اصحاب الشافعي انما نقل في الشبابة مفردة والدف مفرداً فمن لا يحصل أولا يتأمل ربما اعتقد خلافاً بين الشافعيين في هذا السماع الجامع هذه الملاهي وذلك وهم بين من الصابر اليه تنادي عليه ادلة الشرع والعقل مع انه ليس كل خلاف يستروح اليه ويعتمد عليه ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء واخذ بالرخص من اقاويلهم تزندق او كاد وقال : وقولهم في السماع المذكور انه من القربات والطاعات قول مخالف لاجماع المؤمنين ومن خالف اجماعهم فعليه ما في قوله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) واطال الكلام في الرد على هاتين الطائفتين اللتين بلاء الاسلام منهم المحللون لما حرم الله والمتقربون إلى الله بما يباعدهم عنه والشافعي وقدماء اصحابه والعارفون بمذهبه من اغلظ الناس قولا في ذلك وقد تواتر عن الشافعي انه قال خلفت ببغداد شيئاً احدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن فاذا كان هذا قوله في التغبير وتعليله عنه انه يصد عن القرآن وهو شعر مزهد في الدنيا يغني به مغن فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو على مخدة على توقيع غنائه فليت شعري ما يقول في سماع التغبير عنده كتفلة في بحر قد اشتمل على

كل مفسدة وجمع كل محرم فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل ، قال سفيان بن عيينة: كان يقال احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون. ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين .

﴿ فصل ﴾

واما مذهب الإمام احمد فقال عبدالله ابنه سألت ابي عن الغناء فقال ينبت النفاق في القلب لا يعجبني ثم ذكر قول مالك انما يفعله عندنا الفساق قال عبدالله وسمعت ابي يقول سمعت القطان يقول: لو ان رجلا عمل بكل رخصة بقول أهل الكوفة في النبيذ وأهل المدينة في السماع وأهل مكة في المتعة لكان فاسقاً ، قال احمد وقال سليمان التيمي لو اخذت برخصة كل عالم أو زلة كل عالم اجتمع فيك الشر كله ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره اذا رآها مكشوفة وامكنه كسرها وعنه في كسرها اذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان ونص في ايتام ورثوا جارية مغنية واراد وا بيعها فقال لا تباع إلا على أنها ساذجة فقالوا اذا بيعت مغنية ساوت عشرين الفاً أو نحوها وإذا بيعت ساذجة لا تساوي الفين فقال لا تباع إلا على أنها ساذجة ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الايتام .

﴿ فصل ﴾

قال ابو بكر الطرطوشي: وهذه الطائفة مخالفة لجماعة المسلمين لانهم جعلوا الغناء ديناً وطاعة ورأت اعلانه في المساجد والجوامع وسائر البقاع الشريفة الكريمة وليس في الأمة من رأى هذا الرأي قلت ومن أعظم المنكرات تمكينهم من اقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله في المسجد الاقصى عشية عرفة ويقيمونه ايضاً في مسجد الخيف ايام منى وقد اخرجناهم منه بالضرب والنفي مراراً ورأيتهم يقيمونه في المسجد الحرام والناس في الطواف فاستدعيت حزب

الله وفرقنا سماهم ورأيتهم يقيمونه بعرفات والناس في الدعاء والتضرع والابتهال والضجيج إلى الله وهم في هذا السماع الملعون باليراع والدف والغناء فإقرار هذه الطائفة فسق بقدح في عدالة من أقرهم ومنصبه الديني وما أحسن ما قال بعض العلماء وقد شاهد هذا أفعالهم .

الاقل لهم قول عبد نصوح ... وحق النصيحة أن تستمع :
متى عـــلم الناس في ديننا ... بأن الغنا سنة تتبـــع ؟
وأن يأكل المرء أكل الحمـا ... ر ويرقص في الجمع حتى يقع
وقالوا سكرنا بحب الإلـــه ... وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك البهائم إن أشبعت ... يُرقصها ريُّها والشبـــع
ويسكره الناي ثم الغنـــاء ... و(يس) لو تليت ما انصدع
فيـــا للعقول ويا للنهى ... ألا منكر منكم للبدع ؟
تهانُ مساجدنا بالسما ... ع وتكرم عن مثل ذاك البيع

وقال آخر وأحسن ما شاء:

ذهب الرجال وحال دون مجالهم ... زمـــر من الأوباش والأنذال
زعمـــوا بأنهم على آثارهم ... ساروا ولكن سيرة البطـال
لبسوا الدلوق مرقعا وتقشفوا ... كتقشف الأقطـــاب والأبدال
قطعوا طريق السالكين وغوروا ... سبل الهدى بجهـــالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى ... وحشوا بواطنهم من الأدغـــال
إن قلت قال الله قـــال رسوله ... همزوك همز المنكر المتغـــالي
أو قلت قد قال الصحابة والأولى ... تبعوهم في القول والأعمـــال
أو قلت : قال الآل آل المصطفى ... صلى عليه الله أفضل آل
او قلت : قال الشافعي وأحمد ... وأبو حنيفة والهمام العـــالي
او قلت : قال صحابهم من بعدهم ... فالكل عندهم كشبه خيـال
ويقول : قلبي قال لي عن سره ... عن سرّ سرّي عن صفا أحوالي

عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي ... عن شاهدي عن واردي عن حالي
عن صفو وقتي عن حقيقة مشهدي ... عن سر ذاتي عن صفا احوالي
دعوى اذا حققتها ألفيتها ... القاب زور لفقت بمحال
تركو الحقائق والشرائع واقتدوا ... بظواهر الجهال والضلال
جعلوا المرا فتحا والفاظ الخطا ... شطحاً وصالوا صولة الأذلال
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم ... نبذ المسافر فضلة الآكال
جعلوا السماع مطية لهواهم ... وغلوا فقالوا فيه كل محال
هو طاعة ، هو قربة ، هو سنة ... صدقوا لذاك الشيخ ذي الاضلال
شيخ قديم صادهم بتحيّل ... حتى أجابوا دعوة المحتال
هجروا له القرآن والأخبار وال ... آثار إذ شهدت لهم بضلال
ورأوا سماع الشعر أنفع للفتى ... من أوجه سبع لهم بتوال
تا الله ما ظفر العدو بمثلها ... من مثلهم واخيبة الآمال !
نصب الحبال لهم فلم يقعوا بها ... فأتي بذا الشرك المحيط الغالي
فإذا همُ وسط العرين ممزقي ال ... أثواب والأديان والأحوال
لا يسمعون سوى الذي يهوونه ... شغلا به عن سائر الأشغال
ودُعُوا إلى ذات اليمين فأعرضوا ... عنها وسار القوم ذات شمال
خروا على القرآن عند سماعه ... صماً وعميانا ذوي اهمال
فإذا تلى القاري عليهم سورة ... فأطالها عدوه في الانتقال
ويقول قائلهم : أطلت وليس ذا ... عشراً فخفف أنت ذو إملال
هذا وكم لغو وكم صخب وكم ... ضحك بلا أدب ولا اجمال
حتى إذا قام السماع لديهم ... خشعت له الأصوات بالإجلال
وامتدت الأعناق تسمع وَحْي ذا ... ك الشيخ من مترنم قوّال
وتحركت تلك الرؤس وهزها ... طرب وأشواق لنيل وصال
فهنالك الأشواق والأشجان وال ... أحوال لا أهلا بذي الأحوال

تا الله لو كانوا صُحاةً أبصروا ... ماذا دهاهم من قبيح فعال
لكنما سكر السماع أشدُّ من ... سكر المدام ، وذا بلا اشكال
فإذا هما اجتمعا لنفس مَرَّةً ... نالت من الخسران كل منال
يا أمـــة لعبت بدين نبيّهـا ... كتلاعب الصبيان في الأوحال
اشبهتم اهـــل الكتاب بدينكم ... والله لن يرضى بذي الأفعال
كم ذا يعـــير منهم بفريقكم ... سرّاً وجهراً عند كل جدال
قالوا لنا دين عبادة اهـــله ... هذا السماع فذاك دين محـــال
بـــل لا تجيء شريعة بجوازه ... فسلوا الشرائع تكتفوا بسؤال
لو قلـــتم فسق ومعصية وتز ... يين من الشيطان للأنذال
ليصدَّ عن وَحْي الإله ودينه ... وينال فيه حيلة المحتـــال
كنا شهدنا أنَّ ذا دينٌ أتى ... بالحق ، دين الرسل لا بضلال
والله منهم قد سمعنا ذا الى الـ ... أذان من أفواههم بمقـــال
وتمام ذاك القول بالحيـــل التي ... فسخت عقود الدين فسخ فصال
جعلته كالثوب المهلهل نسجه ... فيه تفصله من الأوصال
ما شئت من مكر ومن خدع ومن ... حيل وتلبيس بلا إقـــلال
فاحتل على إسقاط كل فريضة ... وعلى حرام الله بالإحلال
واحتل على المظلوم يقلب ظالماً ... وعلى الظلوم بضدّ تلك الحال
واقلب وحوّل فالتحوُّل كله ... في القلب والتحويل ذو أعمال
إن كنت تفهم ذا ظفرت بكلما ... تبغي من الأفعال والأقوال
فاحتل على شرب المدام وسَمِّها ... غير اسمها واللفظ ذو إجمال
واحتل على أكل الربا واهجر شنا ... عة لفظه واحتـــل على الأنذال
واحتل على الوطىء الحرام ولا تقل ... هذا زنا وانكح رخيّ البال
واحتل على حَلّ العقود وفسخها ... بعـــد اللزوم وذاك ذو إشكال
إلا على المحتال فهو طبيبهـــا ... يا محنة الأديان بالمحتـــال

واحتل على نقض الوقوف وعودها طلقاً ولا تستحيِ من إبطال
فكرّرْ وقدّرْ ثم فصّلْ بعد ذا فإذا غلبت فلجّ في الإشكال
واحتل على الميراث وانزعه من الـ ورّاث ثم ابلع جميع المال
قل أثبتوا نسباً وحصراً فيكمُ حق تحوزوا الإرث للأموال
واعمد إلى تلك الشهادة واجعل الـ إبطال همّكَ تحظَ بالإبطال
فالحصر إثباتٌ ونفي غير مع لوم وهذا موضع الإشكال
واحتل على مال اليتيم فإنه رزقٌ هَنِيٌّ من ضعيف الحال
لا سوطه تخشى ولا من سيفه والقول قولك في نفاد المال
واحتل على أكل الوقوف فإنها مثل السوائب ربة الإهمال
فأبو حنيفة عنده هي باطل في الأصل لم تحتج إلى إبطال
فالمالُ مالٌ ضائعٌ أربابه هلكوا فخذ منه بلا مكيال
وإذا تصح بحكم قاضٍ عادل فشروطها صارت الى اضمحلال
قد عطّل الناس الشروط وأهملوا مقصودها فالكل في إهمال
وتمام ذاك قضاتنا وشهودنا فاسأل بهم ذا خبرة بالحال
أما الشهود فهم عدول عن طريـ ـق العدل في الأقوال والأعمال
زوراً وتنميماً وكتماناً وتلـ ـبيساً وإسرافاً بأخذ نوال
ينسى شهادته ويحلف أنه ناسٍ لها والقلب ذو إغفال
فإذا رأى المنقوش قال: ذكرتها يا للمذكّر جئت بالآمال
ويقول قائلهم أخوض النار في نزر يسير ذاك عين خبال
ثقّلْ لي الميزان اني خائض للمنكبين أُجَرُّ بالأغلال
أما القضاة فقد تواتر عنهمُ ما قد سمعت فلا تفه بمقال
ماذا تقول لمن يقول حكمت انك فاسقٌ أو كافرٌ في الحال
فإذا استغثت أُغِثتَ بالجلد الذي قد طرقوه كمثل طرق نعال
فيقول: طق فتقول قط فتعارضا ويكون قول الجلد ذا أعمال

فأجارك الرحمن من ضرب ومن عرض ومن كذب وسوء مقال
هذا ونسبة ذاك أجمعه إلى دين الرسول وذا من الأهوال
حاشا رسول الله يحكم بالهوى والجهل تلك حكومة الجهّال
والله لو عرضت عليه كلها لاجتثّها بالنقض والأبطال
الا التي منها يوافق حكمه فهو الذي يلقاه بالاقبال
احكامه عدل وحق كلها في رحمة ومصالح وجلال
شهدت عقول الخلق قاطبة بما في حكمه من صحة وكمال
فأذا اتت احكامه الفيتها وفق العقول تزيل كل عقال
حق يقول السامعون لحكمه ما بعد هذا الحق غير ضلال
لله احكام الرسول وعدلها بين العباد ونورها المتلالي
كانت بها في الأرض أعظم رحمة والناس في سعد وفي اقبال
أحكامهم تجري على وجه السدا د وحالهم في ذاك احسن حال
امنا وعزّاً في هدى وتراحم وتواصل ومحبة وجلال
فتغيرت اوضاعها حتى غدت منكورة بتلوث الأعمال
فتغيرت أعمالهم وتبدلت احوالهم بالنقص بعد كمال
لو كان دين الله فيهم قائماً لرأيتهم في أحسن الأحوال
واذا هم حكموا بحكم جائر حكموا لمنكره بكل وبال
قالوا: أتنكر حكم شرع محمدٍ حاشا لذا الشرع الشريف العالي
عجت فروج الناس ثم حقوقهم لله بالبكرات والآصال
كم تستحل بكل حكم باطل لا يرتضيه ربنا المتعالي
والكل في قعر الجحيم سوى الذي يقضي بدين الله لا لنوال
اوما سمعت بأن ثلثيهم غدا في النار في ذاك الزمان الخالي
وزماننا هذا فربك عالم هل فيه ذاك الثلث أم هو خال
يا باغي الأحسان يطلب ربه ليفوز منه بغاية الآمال

انظر الى هدي الصحابة والذي ... كانوا عليه في الزمان الخالي
واسلك طريق القوم اين تيمموا ... خذ يمنة ما الدرب ذات شمال
والله ما اختاروا لأنفسهم سوى ... سبل الهدى في القول والأفعال
درجوا على نهج الرسول وهديه ... وبه اقتدوا في سائر الأحوال
نعم الرفيق لطالب يبغي الهدى ... فمآله في الحشر خير مآل
القانتين المخبتين لربهم — الناطقين باصدق الأقوال
التاركين لكل فعل سيء ... والعاملين باحسن الأعمال
اهواؤهم تبع لدين نبيهم ... وسواهمو بالضد في ذي الحال
ما شابهم في دينهم نقص ولا ... في قولهم شطح الجهول الغالي
عملوا بما علموا ولم يتكلفوا ... فلذاك ما شابوا الهدى بضلال
وسواهمو بالضد في الأمرين قد ... تركوا الهدى ودعوا الى الاضلال
فهم الأدلة للحيارى من يسر ... بهداهم لم يخش من اضلال
وهمو النجوم هداية واضاءة ... وعلو منزلة وبعد منال
يمشون بين الناس هونا نطقهم ... بالحق لا بجهالة الجهال
حلماً وعلماً مع تقى وتواضع ... ونصيحة مع رتبة الأفضال
يحيون ليلهم بطاعة ربهم ... بتلاوة وتضرع وسؤال
ودموعهم تجري بفيض دموعهم ... مثل انهمال الوابل الهطال
في الليل رهبان وعند جهادهم ... لعدوهم من أشجع الأبطال
واذا بدا علم الرهان رأيتهم ... يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم اثر السجود لربهم ... وبها أشعة نورها المتلالي
ولقد ابان لك الكتاب صفاتهم ... في سورة الفتح المبين العالي
وبرابع السبع الطوال صفاتهم ... قوم بحبهم ذوو إذلال
وبراءة والحشر فيها وصفهم ... وبـ (هل أتى) وبسورة الأنفال

﴿ فصل ﴾

هذا السماع الشيطاني المضاد للسماع الروحاني له في الشرع بضعة عشر اسماً: اللهو واللغو والباطل والزور والمكاء والتصدية ورقية الزنا وقرآن الشيطان ومنبت النفاق في القلب والصوت الأحمق والصوت الفاجر وصوت الشيطان ومزامير الشيطان والسمود .

أسماؤه دلت على أوصافه ... تباً لذي الأسماء والأوصاف

فنذكر مجاري هذه الأسماء ووقوعها عليه في كلام الله ورسوله وأصحابه ليعلم أصحابه بما ظفروا ، وأي تجارة رابحة خسروا :

فدع صاحب المزمار والدف والغنا ... وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعش في غيّه وضلاله ... على (تاتنا) يحيا ويبعث أشيبا
وفي (تنتنا) يوم المعاد نجاته ... الى الجنة الحمراء يدعى مقرّبا
سيعلم يوم العرض أيّ بضاعة ... أضاع وعند الوزن ما خفّ أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته ... إذا حصلت أعماله كلها هبا
دعاه الهدى والغيّ من ذا يجيبه ... فقال لداعي الغيّ أهلاً ومرحبا
وأعرضَ عن داعي الهدى قائلا له ... هواي إلى صوت المعازف قد صبا
يراعٌ ودفٌ بالصنوج وشاهدٌ ... وصوتُ مغنٍ ، صوته يقنص الظبا
إذا ما يغني فالظبا تجيبه ... الى أن يراها حوله تُشبه الدبا
فما شئتَ من صيد بغير تطارد ... ووصل حبيب كان بالهجر عُذبا
فيا آمِري بالرشد لو كنت حاضراً ... لكان إلى المنهيّ عنك أقربا

﴿ فصل ﴾

فالإسم الأول : اللهو ، ولهو الحديث ، قال الله تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) الى قوله : (فبشرْه بعذاب أليم) ، قال الواحدي وغيره أكثر المفسرين على ان المراد بلهو الحديث الغناء قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جبير ومقسم عنه ، وقاله عبد الله بن مسعود

في رواية أبي الصهباء عنه ، وهو قول مجاهد وعكرمة . روى ثور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) قال : هو الرجل يشتري الجارية تغنّيه ليلاً ونهاراً . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع اليه وإلى مثله من الباطل ؛ هذا قول مكحول ، وهذا اختيار أبي إسحاق أيضاً ، قال : أكثر ما جاء في التفسير ان لهو الحديث هو الغناء لأنه يلهي عن ذكر الله . قال الواحدي : قال أهل المعاني : ويدخل في هذا الكلام من اختار اللهو والغناء. والمزامير والمعازف على القرآن ، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء فلفظ الشراء يذكر في الاستبدال والاختيار وهو كثير في القرآن ، قال : ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه الآية: لعله أن لايكون أنفق مالاً قال : وبحسب المرء من الضلا لة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق . قال الواحدي : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء،ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة باعلان الغنا قال:وأما غناء القينات فذلك أشد ما في الباب وذاك لكثرة الوعيد الوارد فيه ، وهو ما روي ان النبي ﷺ قال : « من استمع الى قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة » ، والآنك : الرصاص المذاب . وقد جاء في تفسير لهو الحديث بالغنا مرفوعاً الى النبي ﷺ ، ففي مسند الإمام أحمد ومسند عبد الله بن الزبير الحميدي وجامع الترمذي من حديث ابي امامة والسياق للترمذي ان النبي ﷺ قال : « لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام » ، في مثل هذا نزلت هذه الآية: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) ، وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم ، فعبيد الله بن زحر ثقة والقاسم ثقة وعلي ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سنذكرها إن شاء الله ، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين بلهو الحديث بأنه الغناء ، فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ، قال أبو الصهباء :

سألت ابن مسعود عن قوله : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) قال : والله الذي لا إله غيره هو الغناء ، يرددها ثلاث مرات . وصح عن ابن عمر أيضاً انه الغناء. قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير من كتابه « المستدرك » : ليعلم طالب هذا العلم ان تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند . وقال في موضع آخر من كتابه : هو عندنا في حكم المرفوع . وهذا وإن كان فيه نظر فلا ريب انه أولى بالقبول من تفسيرمن بعدهم فهم أعلم بمراد الله من كتابه، فعليهم نزل وهم أول من خوطب به من الأمة وقد شاهدوا تفسيره من الرسول علماً وعملاً وهم العرب الفصحاء على الحقيقة فلا معدل عن تفسيرهم ما وجد اليه سبيل ولا تعارض بين تفسير لهو الحديث بالغناء وتفسيره باخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة ويشغلهم عن القرآن فكلاهما لهو الحديث ولهذا قال ابن عباس لهو الحديث الباطل والغناء فمن الصحابة من ذكر هذا ومنهم من ذكر الآخر ومنهم من جمعهما الغناء أشد لهواً واعظم ضرراً من احاديث الملوك واخبارهم فإنه رقية الزنا ومنبت النفاق وشرك الشيطان وخمرة العقول وصده عن القرآن أعظم من غيره من الكلام الباطل لشدة ميل النفوس إليه ورغبتها فيه . إذا عرف هذا فأهل الغنا ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغنا عن القرآن وان لم ينالوا جميعه فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو والحديث بالقرآن (ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً (واذا تلي عليه القرآن ولى مستكبراً كأن لم يسمعه (كأن في اذنيه وقرا) وهو الثقل والصمم وإذا علم منه شيئاً استهزأ به فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفراً وان وقع بعضه للمغنين ومستميعهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم يوضحه انك لا تجد احداً اعتنى بالغنا وسماع آلاته الا وفيه ضلال عن طريق الهدى علماً وعملاً وفيه رغبة عن استماع القرآن الى سماع الغناء بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا الى ذاك وثقل

عليه سماع القرآن وربما حمله الحال الى ان يسكت القارىء ويستطيل قراءته ويستزيد المغنّي ويستقصر نوبته واقل مافي هذا أن يناله نصيب وافر من هذا الذم ، والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة ، أما من مات قلبه ، وعظمت فتنته فقد سد على نفسه طريق النصيحة (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) الى قوله (عذاب عظيم) .

﴿ فصل ﴾

الاسم الثاني والثالث الزور واللغو قال تعالى : (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) قال محمد بن الحنفية: الزور ها هنا الغناء وقال له ليث عن مجاهد وقال الكلبي : لا يحضرون مجالس الباطل واللغو في اللغة كلما يلغى ويطرح والمعنى لا يحضرون الباطل واذا مروا بكل ما يلغى من قول أو عمل اكرموا نفوسهم عن ان يقفوا عليه أو يميلوا اليه ويدخل في هذا اعياد المشركين كما فسرها به السلف والغنا وانواع الباطل كلها . قال الزجاج لا يجالسون اهل المعاصي ولا يمالئونهم عليها ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو لأنهم يكرمون انفسهم عن الدخول فيه والاختلاط بأهله . وقد روى ان عبدالله بن مسعود (ض) بلهو فأعرض عنه فقال رسول الله ﷺ ان اصبح ابن مسعود لكريماً وقـــد اثنى الله على من اعرض عن اللغو اذا سمعه فقال : (واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم) وهذه الآية وان كان سبب نزولها خاصاً فمعناه عام متناول لكل من سمع لغواً فاعرض عنه وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه لنا اعمالنا ولكم اعمالكم وتأمل كيف قال سبحانه وتعالى : (لا يشهدون الزور) ولم يقل بالزور لأن يشهدون بمعنى يحضرون فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور فكيف بالتكلم به وفعله والغنا من اعظم الزور والزور يقال على الكلام الباطل وعلى العمل الباطل وعلى العين نفسها ، في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به فقال هـذا الزور فالزور القول والفعل والمحل واصل لفظه من الميل ومنه الزّور بالفتح ومنه

زرت فلاناً اذا ملت اليه وعدلت اليه فالزور ميل عن الحق الثـــابت الى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفعلا .

﴿ فصل ﴾

الاسم الرابع الباطل والباطل ضد الحق ويراد به المعدوم الذي لا وجود له والموجود الذي مضرة وجوده اكبر من منفعته فمن الأول قول الموحد كل إله سوى الله باطل ومن الثاني قوله : السحر باطل والكفر باطل قال تعالى : (وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً) فالباطل أما معدوم لا وجود له وإمـــا موجود لا نفع فيه فالكفر والفسوق والعصيان والسحر والغناء واستماع الملاهي كله من النوع الثاني . قال ابن وهب اخبرني سليمان بن بلال عن كثير بن زيد انه سمع عبدالله يقول للقاسم بن محمد كيف ترى في الغنا فقال له القاسم هو الباطل فقال قد عرفت انه باطل فكيف ترى فيـه؟ فقال القاسم أرأيت الباطل اين هو قال في النار قال فهو ذاك وقال رجـــل لابن عباس ما تقول في الغناء احلال هو أم حرام قال لا اقول حراماً إلا ما في كتاب الله فقال أحلال هو فقال ولا اقول ذلك ثم قال أرأيت الحق والباطل إذا جاءا يوم القيمة فأين يكون الغنا فقال الرجل يكون مع الباطل فقال ابن عباس اذهب فقد أفتيت نفسك فهذا جواب ابن عباس عن غناء الأعراب الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط والتشبيب بالأجنبيات واصوات المعازف والآلات المطربة فان غنا القوم لم يكن فيه شيء من ذلك ولو شاهدوا هذا الغنا لقالوا فيه اعظم قول فان مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير وأعظم من فتنته فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعة بإباحته فمن قاس هذا على غناء القوم فقياسه من جنس قياس الربا على البيع والميتة على المذكاة والتحليل الملعون فاعله على النكاح الذي هو سنة رسول الله ﷺ وهو أفضل من التخلي لنوافل العبادة فلو

كان نكاح التحليل جائزاً في الشرع لكان افضل من قيام الليل وصيام التطوع فضلاً ان يلعن فاعله .

﴿ فصل ﴾

واما اسم المكا والتصدية فقال تعالى عن الكفار (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال ابن عباس وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة المكاء الصفير والتصدية التصفيق وكذلك قال اهل اللغة المكا الصفير يقال مكا يمكو مكاء إذا جمع يديه ثم صفر فيهما ومنه مكتب است الدابة اذا خرج منه ريح بصوت ولهذا جاء على بناء الأصوات كالعواء والثغاء قال ابن السكيت الاصوات كلها مضمومة إلا حرفين النداء والغناء . واما التصدية ففي اللغة التصفيق يقال صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه قال حسان بن ثابت يعيب على المشركين بتصفيرهم وتصفيقهم :

إذا قام الملائكة انبعثتم صلاتكم التصدي والمكاء

وهكذا الاشباه يكون المسلمون في الصلوات الفرض وهم في التصفير والتصفيق قال بن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ويصفرون ويصفقون وقال مجاهد كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويصفرون ويصفقون يخلطون عليه طوافه وصلاته ونحوه عن مقاتل ولا ريب انهم كانوا يفعلون هذا وهذا فالمتقربون الى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول واخوانهم والمخلطون به على اهل الصلاة والذكر والقراءة اشباه النوع الثاني . قال ابن عرفة وابن الانباري المكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله تعالى اخبر انهم جعلوا مكان الصلاة التي امروا بها المكاء والتصدية فالزمهم ذلك عظيم الأوزار وهذا كقولك زرته فجعل جفائي صلتي أي اقام

الجفاء مقام الصلة والمقصود ان المصفقين والصفارين في يراع او مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء ولو انه مجرد الشبه الظـــاهر فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم وان لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم والله سبحـانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة اليه في الصلاة اذا نابهم أمر بل امروا بالعدول عنه إلى التسبيح لئلا يتشبهوا بالنساء فكيف اذا فعلوه لا لحاجـــة وقرنوا به انواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً .

﴿ فصل ﴾

وأما تسميته رقية الزنا فهو اسم موافق لمسماه ولفظ مطابق لمعناه فليس في رقى الزنا أنجع منه وهذه التسمية معروفة عن الفضيل بن عياض وقال ابن ابي الدنيا اخبرني الحسن بن عبدالرحمن قال قال فضيل بن عياض الغناء رقية الزنا قال ابراهيم بن محمد المروزي عن ابي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد يابني أمية إياكم والغنا فأنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة وانه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السكر فان كنتم ولا بد فاعلون فجنبوه النساء فأن الغنا داعية الزنا قال واخبرني محمد بن الفضل الأزدي قال نزل الحطيئة برجل من العرب ومعه ابنته مليكة فلما جن الليل سمع غناء فقال لصاحب المنزل كف هذا عني فقال وما تكره من ذلك فقال ان الغناء من رادة الفجور ولا أحب ان تسمعه هذه يعني ابنته فأن كففته والا خرجت عنك ثم ذكر عن خالد بن عبدالرحمن قال كنا في عسكر سليمان بن عبدالملك فسمع غناء من الليل فأرسل إليهم بكرة فجيء بهم فقال ان الفرس ليصهل فستودق له الرمكة وان الفحل ليهدر فيضيع له الناقة وان التيس لينب فتستخرم له العنز وان الرجل ليتغنى فتشتاق إليه المرأة ثم قال اخصوهم فقال عمر بن عبدالعزيز هذا مثلة فلا يحل فخلى سبيلهم قال واخبرني الحسين بن عبد الرحمن قال ابو عبيدة معمر بن المثنى جاور الحطيئة قوماً من بني كلاب فمشى ذوو النهي منهم بعضهم الى بعض

وقالوا يا قوم انكم قد رميتم بداهية هذا الرجل شاعر والشاعر يظن فيحقق ولا يستأني فيتثبت ولا يأخذ الفضل فيعفو فأتوه وهو في فناء خبائه فقالوا يا أبا مليكة إنه قد عظم علينا حقك بتخطيك القبائل الينا وقد اتيناك لنسألك عما تحب فنأتيه وعما تكره فنزدجر عنه فقال جنبوني ندي مجلسكم ولا تسمعوني أغاني شبيبكم فان الغنا رقية الزنا فإذا كان الشاعر المفتوق اللسان الذي هابت العرب هجاءه خاف عاقبة الغنا وان تصل رقيتها الى حرمته فما الظن بغيره ولا ريب ان كل غيور يجنب أهله سماع الغنا كما يجنبهن أسباب الريب ومن طرق اهله إلى سماع رقية الزنا فهو أعلم بالاسم الذي يستحقه ومن الأمر المعلوم عند القوم ان المرأة اذا استعصت على الرجل اجتهد ان يسمعها صوت الغنا فحينئذ تعطي اللبان وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جداً فإذا كان الصوت بالغنا صار انفعالها من وجهين من جهة الصوت ومن جهة معناه ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاديه « يا انجشة رويدك رفقاً بالقوارير » يعني النساء فإذا اجتمع الى هذا رقية الدف والشبابة والرقص بالتخنيث والتكسير فلو حبلت المرأة من غناء حبلت من هذا الغنا فلعمر الله كم من حرة صارت بالغنا من البغايا وكم من حر اصبح به عبدا للصبيان والصبايا وكم من غيور تبدل به اسماً قبيحاً بين البرايا وكم من ذي غنى وثروة اصبح بسببه على الارض بعد المطارف والحشايا وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به انواع البلايا وكم اهدى للمشغوف من اشجان واحزان فلم يجد بداً من قبول تلك الهدايا وكم جرع من غصة وازال من نعمة وجلب من نقمة وذلك منه من احدى العطايا وكم خبأ لأهله من الآم تنتظره وغموم متوقعة وهموم مستقبلة :

فسل ذا خبرة ينبئك عنه ... لتعلم كم خبايا في الزوايا
وحاذر ان شغفت به سهاماً ... مريشة باهداب المنايا
إذا ما خالطت قلباً كئيباً ... تقلب بين أطباق الرزايا
ويصبح بعد ان قد كان حراً ... عفيف الفرج عبداً للصبايا
ويعطي من به يغني غناء ... وذلك منه من شر العطايا

﴿ فصل ﴾

وأما تسميته منبت النفاق فقال علي بن الجعد حدثنا سلام بن مسكين حدثنا شيخ عن ابي وائل عن عبدالله بن مسعود قال الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع والذكر ينبت الايمان في القلب كما ينبت الماء الزرع وقال شعبة حدثنا الحكم عن حماد عن ابراهيم قال عبدالله بن مسعود مرفوعاً رواه بن ابي الدنيا في كتابه في ذم الملاهي اخبرنا عصمة بن الفضل حدثنا حرمي بن عمارة حدثنا سلام بن مسكين حدثنا شيخ عن ابي وائل عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقد تابع حرمى بن عمارة عليه بهذا الاسناد والمتن مسلم بن ابراهيم قال ابو الحسن بن المنادي في كتاب احكام الملاهي حدثنا محمد بن عبدالله بن حمدان المعروف بحمدان الوراق حدثنا مسلم بن مسلم بن ابراهيم حدثنا سلام بن مسكين فذكر الحديث فمداره على هذا الشيخ المجهول وفي رفعه نظر والموقوف اصح فإنه قيل فما وجه انباته للنفاق في القلب من بين سائر المعاصي قيل : هذا من ادل شيء على فقه الصحابة في احوال القلوب واعمالها ومعرفتهم بأدويتها وادوائها وانهم هم اطباء القلوب دون المنحرفين عن طريقهم الذين داووا امراض القلوب باعظم ادوائها فكانوا كالمداوي السقم بالسم القاتل وهكذا فعلوا بكثير من الأدوية التي ركبوها أو بأكثرها فاتفق قلة الأطباء وكثرة المرضى وحدوث أمراض مزمنة لم تكن في السلف والعدول عن الدواء النافع الذي ركبه الشارع وميل المريض الى ما يقوي مادة المرض فاشتد المرض وتفاقم الأمر وامتلات الدور والطرقات والأسواق من المرضى وقام كل جهول يطب الناس . فاعلم أن للغناء خواصّ لها تأثير في صبغ القلب في النفاق ونباته فيه كنبات الزرع بالماء فمن خواصه انه يلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره والعمل بما فيه فان القرآن والغناء يجتمعان في القلب أبدا لما بينهما من التضاد فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ومجانبة

شهوات النفوس وأسباب الغي وينهي عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك ويحسنه ويهيج النفوس إلى شهوات فيثير كامنها ويزعج قاطنها ويحركها إلى كل قبيح ويسوقها الى وصل كل مليحة ومليح فهو والخمر رضيعا لبان وفي تهييجها على القبائح فرسا رهان فأنه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وخليفته وخدنه وصديقه عقد الشيطان بينهما عقد الأخاء الذي لا ينفسخ واحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تنسخ، وهو جاسوس القلوب وسارق المروة وسوس العقل يتغلغل في مكامن القلوب ويطلع على سرائر الافئدة ويدب إلى محل التخييل فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والوقاحة والرعونة والحماقة فبينما ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل وبهجة الايمان ووقار الأسلام وحلاوة القرآن فأذا استمع الغنا ومال اليه نقص عقله وقـــل حياؤه وذهبت مروؤته وفارقه بهاؤه وتخلا عنه وقاره وفرح به الشيطان وشكى إلى الله ايمانه وثقـل عليه قرآنه وقال يا رب لا تجمع بيني وبين قرآن عدوك في صدر واحـــد فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه وابدى من سره ما كان يكتمه وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب والزهزهة [1] والفرقعـــة بالأصابع فيميل برأسه ويهز منكبيه ويضرب الأرض برجليه ويدق على أم رأسه بيديه ويثب وثبات الذئاب ويدور دوران الحمار حول الدولاب ويصفق بيديه تصفيق النسوان ويخور من الوجد كخوران الثيران وتارة يتأوه تأوه الحزين وتارة يزعق زعقات المجانين ولقد صدق الخبير به من اهله حيث يقول :

اتذكر ليـــلة وقد اجتمعنا على طيب السماع إلى الصباح
ودارت بيننـــا كأس الأغاني فأسكرت النفوس بغـير راح
فـــلم تر فيهم إلا نشاوى سروراً والسرور هناك صاحي
اذا نادى اخو اللذات فيـــه أجاب اللهو حيّ على السماح
ولم نملك سوى المهجات شيئاً ارقناها لألحاظ مـــلاح

وقال بعض العارفين: السماع يورث النفاق في قوم والتكذيب في قوم والفجور

(١) لعله الرهرهة .

في قوم والرعونة في قوم وأكثر ما يورث عشق الصور واستحسان الفواحش وادمانه يثقل القرآن على القلب ويكرهه إلى سماعه بالخاصة وإن لم يكن هذا نفاقاً فما للنفاق حقيقة وسر المسألة انه قرآن الشيطان كما سيأتي فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن في قلب ابداً وأيضاً فان اساس النفاق ان يخالف الظاهر الباطن وصاحب الغناء بين أمرين أما ان ينتهك فيكون فاجراً أو يظهر النسك فيكون منافقاً فانه يظهر الرغبة في الله والدار الأخرة وقلبه يغلي بالشهوات ومحبة ما يكرهه الله ورسوله من اصوات المعازف وآلات اللهو وما يدعو اليه الغناويهيجه فقلبه بذلك مغمور وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله وكراهه ما يكرهه قفر وهذا محض النفاق . وأيضاً فإن الإيمان قول وعمل : قول الحق وعمل بالطاعة وهذا ينبت على الذكر وتلاوة القرآن ، والنفاق قول الباطل وعمل الغي وهذا ينبت على الغناء ؛ وأيضاً فمن علامات النفاق قلة ذكر الله والكسل عند القيام إلى الصلاة ، وقلّ أن تجد مفتوناً بالغنا إلا وهذا وصفه ؛ إلى أن قال : والغنا يدعو إلى الفتنة ، فتنة الشهوات ، والمنافق يدعو الى فتنة الشبهات . قال الضحاك : الغنا مفسدة للقلب ، مسخطة للرب . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده : ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم ان صوت المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب على الماء . فالغناء يفسد القلب ، فإذا فسد القلب هاج فيه النفاق ، وبالجملة فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء وحال أهل الذكر والقرآن تبين له صدق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب .

﴿ فصل ﴾

وأما تسميته قرآن الشيطان فمأثور عن التابعين وقد روي فيه حديث مرفوع ، قال قتادة : لما هبط إبليس قال : يا رب لعنتني فما شرابي ؟ قال: كل مسكر ، قال : فأين سكني ؟ قال : الأسواق . قال : فما صوتي ؟ قال :

المزامير ، قال : فما مصائدي ؟ قال النسائي : هذا والمعروف في هـذا وقفه ، وقد رواه الطبراني في معجمه من حديث ابي امامة مرفوعاً الى النبي ﷺ . وقال ابن أبي الدنيا في كتابه « مصائد الشيطان وحيله » : حدثنا أبو بكر التميمي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا يحيى بن أيوب قال : حدثني ابن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة عن رسول الله ﷺ قال : « ان إبليس لما نزل الى الأرض قال : يا رب أنزلتني الى الأرض وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتاً ، قال : الحمام ، قال : فاجعل لي مجلساً ، قال: الأسواق ومجامع الطرق ، قال : فاجعل لي طعاماً ، قال : كل ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : فاجعل لي حديثا ، قال : الكذب . قال : اجعل لي رسلا ، قال : الكهنة ، قال : اجعل لي مصائداً : قال : النساء » . شواهد هذا الأثر كثيرة ، فكل جملة منه لها شاهد من السنة أو من القرآن ، فكون السحر من عمل الشيطان شاهده قوله تعالى : (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) الى قوله : (يعلمون الناس السحر) . وأما كون الشعر قرآنه ، فشاهده ما رواه أبو داود في سننه من حديث جبير بن مطعم انه رأى رسول الله يصلي فقال : « الله أكبر كبيراً ، الله أكبر كبيراً ، الله أكبر كبيراً ، الحمد لله كثيراً ، الحمد لله كثيراً ، الحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه ». قال: نفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه : الموتة ». ولما علم الله رسوله القرآن وهو كلامه صانه عن تعليم قرآن الشيطان ، وأخبر انه لا ينبغي له فقال : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) . وأما كون الوشم كتابه فإنه من عمله وتزيينه ، ولهذا لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة ، فلعن الكاتبة والمكتوب عليها . وأما كون الميتة ومتروكة التسمية طعامه فإن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر عليه اسم الله ويشارك آكله والميتة لا يذكر عليها اسم الله ، فهي وكل طعام لم يذكر عليه اسم الله من طعامه ، ولهذا لما سأل

الجن الذين آمنوا برسول الله ﷺ الزاد قال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه » ، فلم يبح لهم طعام الشياطين وهو متروك التسمية . وأما كون المسكر شرابه قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) ، فهو يشرب من الشراب الذي عمله أولياؤه بأمره وشاركهم في عمله ، فيشاركهم في عمله وشربه وإثمه وعقوبته . وأما كون الأسواق مجلسه ، ففي الحديث الآخر انه يركز رايته في السوق ولهذا يحضره اللغو واللغط والصخب والخيانة والغش وكثير من عمله ، وفي صفة النبي ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس صخاباً بالأسواق . وأما كون الحمام بيته فشاهده كونه غير محل الصلاة ، وفي حديث أبي سعيد : الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام ، ولأنه محل كشف العورات ، وهو بيت مؤسس على النار وهي مادة الشيطان التي خلق منها . وأما كون المزمار مؤذنه ففي غاية المناسبة فإن الغناء قرآنه ، والرقص والتصفيق اللذان هما المكاء والتصدية صلاته ، فلا بد لهذه الصلاة من مؤذن وإمام ومأموم ، فالمؤذن المزمار ، والإمام المغني ، والمأموم الحاضرون . وأما كون الكذب حديثه فهو الكاذب الآمر بالكذب ، المزين له ، فكل كذب يقع في العالم فهو من تعليمه وحديثه . وأما كون الكهنة رسله فلأن المشركين يهرعون اليهم ويفزعون اليهم في أمورهم العظام ، ويصدّقونهم ويتحاكمون اليهم ويرضون بحكمهم ، كما يفعل أتباع الرسل بالرسل ، فإنهم يعتقدون انهم يعلمون بالغيب ويخبرون عن المغيبات التي لا يعرفها غيرهم ، فهم عند المشركين بمنزلة الرسل ، فالكهنة رسل الشيطان حقيقة ، أرسلهم إلى حزبه من المشركين ، وشبّههم بالرسل الصادقين حتى استجاب لهم حزبه ، ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ، ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال رسول الله ﷺ : « من أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » ، فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة ، وأتباع رسل الله ، فلا يجتمع في

العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء بل يبعد عن رسول الله بقـــدر قربه من الكاهن ، ويكذّب الرسول بقدر تصديقه للكاهن . وقوله :اجعل لي مصائد، قال : مصائدك النساء ، فالنساء أعظم شبكة يصطاد بهن الرجال كما سيأتي إن شاء الله في الفصل الذي بعد هذا . والمقصود ان الغناء المحرم قرآن الشيطان ، ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين قرّنه بما يزينه من الألحان المطربة وآلات الملاهي والمعازف وأن يكون من امرأة جميلة أو من صبي جميل ليكون ذلك أدعى إلى قبول النفس لقرآنه وتعويضها به من القرآن المجيد .

﴿ فصل ﴾

وأما تسميته بالصوت الأحمق والصوت الفاجر فهي تسمية الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى فروى الترمذي من حديث ابن أبي ليلى عن عطاء عن جابر قال خرج النبي ﷺ مع عبدالرحمن بن عوف الى النخـــل فإذ ابنه ابراهيم يجود بنفسه فوضعه في حجره ففاضت عيناه فقال عبدالرحمن بن عوف أتبكي وأنت تنهى الناس فقال«اني لم انه عن البكاء وإنما نهيت عن صوتين احمقين فاجرين صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة وهذا هو الرحمة ومن لا يرحم لا يرحم لولا انه أمر حق ووعد صدق وان آخرنا سيلحق اولنا لحزنا عليك حزنا هو أشد من هذا وانا بك لمحزونون تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»قال الترمذي هذا حديث حسن فأنظر الى هذا النهي المؤكد بتسمية صوت الغنا صوتاً أحمق ولم يقتصر على ذلك حتى وصفه بالفجور ولم يقتصر على ذلك حتى سماه من مزامير الشيطان وقد أقر النبي ﷺ أبا بكر الصديق على تسميته الغنا مزمور الشيطان في الحديث الصحيح كما سيأتي فإن لم يستفد التحريم من هذا لم يستفده من نهي ابداً وقد اختلف في قوله لا تفعل وقوله نهيت عن كذا أيهما ابلغ والصواب بلا ريب ان صيغت نهيت ابلغ في التحريم لان لا تفعل محتملة

النهي وغيره بخلاف الفعل الصريح فكيف يستجيز العارف اباحة ما نهى عنه رسول الله ﷺ وسماه صوتاً أحمق فاجراً ومرفق الشيطان وجعله والنياحة التي لعن فاعلها أخوين واخرج النهي عنها مخرجاً واحداً ووصفها بالحمق والفجور وصفاً واحداً وقال الحسن صوتان ملعونان مزمار عند نغمة ورنة عند مصيبة وقال أبو بكر الهذلي قلت للحسن أكان نساء المهاجرين يصنعن ما يصنع النساء اليوم قال لا ولكن ها هنا خمش وجوه وشق جيوب ونتف أشعار ولطم خدود ومزامير الشيطان صوتان قبيحان فاحشان عند نعمة ان حدثت وعند مصيبة ان نزلت ذكر الله المؤمنين فقال (في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وجعلتم انتم في أموالكم حقاً معلوماً للمغنية عند النعمة والنائحة عند المصيبة .

﴿ فصل ﴾

وأما تسميته صوت الشيطان فقد قال تعالى للشيطان وحزبه (إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً) الى قوله : (وما يعدهم الشيطان الا غروراً) قال ابن ابي حاتم في تفسيره حدثنا ابي قال اخبرنا ابو صالح كاتب الليث حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) كل داع الى معصية ومن المعلوم ان الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية ولهذا فسر صوت الشيطان به قال ابن ابي حاتم حدثنا ابي انبأنا يحيى بن المغيرة حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال استنزل منهم من استطعت قال وصوته الغناء والباطل وبهذا الاسناد الى جرير بن منصور عن منصور عن مجاهد قال صوته المزامير ثم روى باسناده عن الحسن البصري قال صوته هو الدف وهذه الاضافة اضافة تخصيص كما ان إضافة الخيل والرجل اليه كذلك فكل متكلم بغير طاعة الله ومصوت بيراع أو مزمار أو دف حرام أو طبل فذلك صوت الشيطان وكل

ساع في معصية الله على قدميه فهو من رجله وكل راكب في معصية الله فهو من خيله كذلك قال السلف كما ذكر ابن ابي حاتم عن بن عباس قال رجله كل رجل مشت في معصية الله وقال مجاهد كل رجل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رجله وقال قتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والأنس.

﴿ فصل ﴾

وأما تسميته مزمور الشيطان في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت دخل علي النبي ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه ودخل ابو بكر فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ فاقبل عليه رسول الله ﷺ فقال دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجنا فلم ينكر رسول الله ﷺ على أبي بكر تسميته الغنا مزمار الشيطان وأقرهما لأنهما جاريتان غير مكلفتين تغنيان بغناء الأعراب الذي قيل في يوم حرب بعاث من الشجاعة والحرب وكان اليوم يوم عيد فتوسع حزب الشيطان في ذلك الى صوت امرأة جميلة أجنبية أو صبي أمرد وصورته فتنة يغني بما يدعو الى الزنا والفجور وشرب الخمور مع آلات اللهو التي حرمها رسول الله ﷺ في عدة أحاديث كما سيأتي مع التصفيق والرقص وتلك الهيئة المنكرة التي لا يستحلها أحد من أهل الأديان فضلاً عن أهل العلم والإيمان ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب في الشجاعة ونحوها في يوم عيد بغير شبابة ولا دف ولا رقص ولا تصفيق ويدعون الحكم الصريح لهذا المتشابه وهذا شأن كل مبطل نعم نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان في بيت رسول الله ﷺ على ذلك الوجه نحن نحرم وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك وبالله التوفيق.

﴿ فصل ﴾

واما تسميته بالسمود فقد قال تعالى : (أفمن هذا الحديث تعجبون

وتضحكون ولا تبكون وانتم سامدون) قال عكرمة عن ابن عباس السمود الغناء في لغة حمير يقال اسمدي لنا أي غني لنا قال ابو زيد

وكأن العزيف فيها غناء للندامى من شارب مسمود

قال ابو عبيدة المسود الذي غني له وقال عكرمة كانوا إذا سمعوا القرآن يغنون فنزلت هذه الآية وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن السمود الغفلة والسهو عن الشيء قال المبرد هو الاشتغال عن الشيء لهم أو فرح يتشاغل به وأنشد :

رَمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سمودا

وقال ابن الأنباري المسامد الملاهي والسامد الساهي والسامد المتكبر والسامد القائم وقال ابن عباس في الآية وانتم مستكبرون وقال الضحاك أشرون بطرون وقال مجاهد غضباً مبرطمون وقال غيره لاهون غافلون فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه. فهذه اربعة عشر اسماً سوى اسم الغناء .

﴿ فصل ﴾

في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف وسياق الاحاديث في ذلك عن عبدالرحمن بن غنم قال حدثنا أبو عامر وأبو مالك الأشعري سمع النبي ﷺ يقول ليكونن من امتي يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف هذا حديث صحيح اخرجه البخاري في صحيحه محتجاً به وعلقه تعليقاً مجزوماً به فقال في باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه وقال هشام بن عمار حدثنا صدقة بن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس الكلابي حدثنا عبدالرحمن بن غنم الأشعري حدثني ابو عامر أو ابو مالك الاشعري والله ما كذبني سمعت النبي ﷺ يقول ليكونن من امتي قوم يستحلون الخز والحرير والمعازف ولينزلن اقوام الى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولوا ارجع الينا غداً فيبيتهم الله ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة ولم يصنع من قدح في هذا الحديث شيئاً كابن حزم

نصرة لمذهبه الباطل في اباحة الملاهي وزعم انه منقطع لأن البخاري لم يصل سنده به وجواب هذا الوهم من وجوه احدها ان البخاري قد لقي هشام بن عمار وسمع منه فإذا قال قال هشام فهو بمنزلة قوله عن هشام . الثاني انه لو لم يسمعه منه فهو لم يستجز الجزم به عنه إلا وقد صح انه حدث به وهذا كثير ما يكون لكثرة من رواه عنه عن ذلك الشيخ وشهدته فالبخاري أبعد خلق الله عن التدليس الثالث انه ادخله في كتابه المسمى بالصحيح محتجاً به فلولا صحته عنده لما فعل ذلك الرابع انه علقه بصيغة الجزم دون صيغة التمريض فإنه إذا توقف في الحديث أو لم يكن على شرطه يقول: ويروى عن رسول الله ﷺ ويذكر عنه ونحو ذلك فأذا قال قال رسول الله ﷺ فقد حزم وقطع باضافته اليه الخامس انا لو اضربنا عن هذا كله صفحاً . فالحديث متصل صحيح عند غيره.

قال ابو داود في كتاب اللباس حدثنا عبد الوهاب بن نجدة حدثنا بشر بن بكير عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطيه بن قيس قال سمعت عبد الرحمن بن غنم الاشعري قال حدثنا ابو عامر أو ابومالك فذكره مختصراً ورواه ابو بكر الأسماعيلي في كتاب الصحيح مسنداً فقال ابو عامر ولم يشك ووجه الدلالة منه ان المعازف هي آلات اللهو كلها لا خلاف بين أهل اللغة في ذلك ولو كانت حلالا لما ذمهم على استحلالها ولما قرن استحلالها باستحلال الخمر والخز فان كان بالحاء والراء المهملتين فهو استحلال الفروج الحرام وان كان بالخاء والزاي المعجمتين فهو نوع من الحرير غير الذي صح عن الصحابة لبسه اذ الخز نوعان احدهما من حرير والثاني من صوف وقد روى هذا الحديث بالوجهين وقال ابن ماجه في سننه حدثنا عبدالله بن سعيد حدثنا حسن بن عيسى عن معاوية بن صالح عن حاتم بن حريث عن ابي مريم عن عبدالرحمن بن غنم الاشعري عن ابي مالك الاشعري قال: قال رسول الله ﷺ ليشربن ناس من امتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير » وهذا اسناد صحيح وقد توعد مستحل المعازف فيه بأن

يخسف الله بهم الأرض ويمسخهم قردة وخنازير وان كان الوعيد على جميع هذه الأفعال فلكل واحد قسط من الذم والوعيد وفي الباب عن سهل بن سعد الساعدي وعمران بن حصين وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وابي هريرة وابي امامة الباهلي وعائشة أم المؤمنين وعلي بن ابي طالب وأنس بن مالك وعبدالرحمن بن سابط والغاز بن ربيعة ونحن نسوقها لتقريها عيون أهل القرآن وتشجى بها حلوق أهل سماع الشيطان فأما حديث سهل بن سعد قال بن ابي الدنيا أخبرنا الهيثم بن خارجة حدثنا عبدالرحمن بن زيد بن اسلم عن ابي حازم عن سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله ﷺ يكون في أمتي خسف ومسخ قيل يا رسول الله متى؟ قال اذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمر وأما حديث عمران بن حصين فرواه الترمذي من حديث الأعمش عن هلال بن ربيعة عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور قال الترمذي هذا حديث غريب وأما حديث عبدالله بن عمر فروى أحمد في مسنده وابو داود عنه ان النبي ﷺ قال: «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيرا وكل مسكر حرام وفي لفظ آخر لأحمد ان الله حرم على امتي الخمر والميسر والمزر والكوبة والقنين وأما حديث ابن عباس ففي المسند ايضاً عنه ان الرسول ﷺ حرم الخمر والميسر والكوبة كل مسكر حرام والكوبة الطبل قاله سفيان قيل البربط والقنين هو الطنبور بالحبشية والتقنن الضرب به قاله الأعرابي وأما حديث ابي هريرة فرواه الترمذي عنه قال قال رسول الله ﷺ إذا اتخذ الفيء دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وتعلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعق امه وأدنى صديقه واقصى اباه وظهرت الأصوات في المساجد وساد القبيلة فاسقهم وكان زعيم القوم ارذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات تتابع كنظام بالٍ قطع سلكه فتتابع قال الترمذي

هذا حديث حسن غريب وقال بن ابي الدنيا حدثنا عبدالله بن عمر الجشمي حدثنا سليمان بن سالم ابو داود حدثنا حسان بن ابي سنان عن رجل عن ابي هريرة قال قال رسول الله ﷺ يمسخ قوم من هذه الأمة في آخر الزمان قردة وخنازير قالوا يارسول الله أليسوا يشهدون أن لا إله إلا الله وإن محمدا رسول الله قال بلى ويصومون ويصلون ويحجون قالوا فما بالهم قال اتخذوا المعازف والدفوف والقينات فباتوا على شرابهم ولهوهم فأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير وأما حديث ابي أمامة الباهلي فهو في مسند الإمام أحمد والترمذي عنه عن رسول الله ﷺ قال تبيت طائفة من أمتي على أكل وشرب ولهو ولعب ثم يصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير ويبعث على أحياء من احيائهم ريحاً فتنسفهم كما نسفت من كان قبلكم باستحلالهم الخمر وضربهم الدفوف واتخاذهم القينات». في رجاله فرقد السبخي وهو من كبار الصالحين ولكن ليس بقوي في الحديث وقال الترمذي تكلم فيه يحيى بن سعيد وقد روى عنه الناس وقال ابن أبي الدنيا حدثنا عبدالله بن عمر الجشمي حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا فرقد السبخي حدثنا قتادة عن سعيد بن المسيب عن رسول الله ﷺ قال يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس فيقولون خسف الليلة بدار فلان وخسف الليلة ببني فلان وليرسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور فيها وليرسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عاداً بشربهم الخمر واكلهم الربا واتخاذهم القينات وقطيعتهم الرحم وفي مسند أحمد من حديث عبيدالله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة عن النبي ﷺ قال ان الله بعثني رحمة وهدى للعالمين وأمرني ان امحق المزامير والكبارات يعني البرابط والمعازف والأوثان التي كانت تعبد في الجاهلية قال البخاري عبيدالله بن زحر ثقة وعلي بن يزيد ضعيف والقاسم بن عبدالرحمن ثقة . وفي الترمذي ومسند أحمد بهذا الأسناد بعينه ان النبي ﷺ

قال «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام» وفي مثل هذا نزلت الآية (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) وأما حديث عائشة فقال بن ابي الدنيا حدثنا الحسن بن محبوب حدثنا النضر بن هاشم بن القاسم حدثنا ابو معشر عن محمد بن المنكدر عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ يكون في امتي خسف ومسخ وقذف قالت عائشة يا رسول الله وهم يقولون لا إله إلا الله فقال إذا ظهرت القينات وظهر الربا وشربت الخمر ولبس الحرير وكان ذا عند ذا» وقال ابن أبي الدنيا أيضاً حدثنا محمد بن ناصح حدثنا بقية بن الوليد عن يزيد بن عبدالله الجهني حدثنا ابو العلاء عن انس بن مالك انه دخل على عائشة ورجل معه فقال لها الرجل يا ام المؤمنين حدثينا عن الزلزلة فقالت اذا استباحوا الزنا وشربوا الخمر وضربوا بالمعازف غار الله في سمائه فقال تزلزلي بهم فإن تابوا ونزعوا والا هدمتها عليهم قلت يا ام المؤمنين اعذاب لهم قالت بل موعظة ورحمة وبركة للمؤمنين ونكال وعذاب وسخط على الكافرين قال انس ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد به فرحاً مني بهذا الحديث وأما حديث علي فقال ابن ابي الدنيا أيضاً حدثنا الربيع بن ثعلب حدثنا فرج بن فضالة عن يحيى بن سعيد عن محمد بن علي عن علي قال قال رسول الله ﷺ إذا عملت امتي خمسة عشر خصلة حل بها البلا قيل يا رسول الله وما هن قال اذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبرّ صديقه وجفا أباه وارتفعت الأصوات في المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وشربت الخمور ولبس الحرير واتخذت القينات ولعن آخر أول هذه الأمة اولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً وخسفاً ومسخا حدثنا عبد الجبار بن عاصم حدثنا أبو طالب حدثنا اسماعيل بن عياش عن عبدالرحمن التميمي عن عباد بن أبي علي عن علي عن النبي ﷺ انه قال تمسخ طائفة من امتي قردة وطائفة خنازير ويخسف بطائفة ويرسل على طائفة

الريح العقيم بأنهم شربوا الخمر ولبسوا الحرير واتخذوا القيان وضربوا بالدفوف وأما حديث أنس فقال ابن أبي الدنيا حدثنا ابو عمرو هرون بن عمر القُرشي حدثنا الخصيب بن كثير عن أبي بكر الهذلي عن قتادة عن انس قال قال رسول الله ﷺ ليكونن في هذه الامة خسف وقذف ومسخ وذاك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف قال واخبرنا ابو اسحاق الأزدي سدثنا اسمعيل بن ابي اويس حدثنا عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أحد ولد أنس بن مالك وعن غيره عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ ليبيتن رجال على أكل وشرب وعزف فيصبحون على ارائكهم ممسوخين قردة وخنازير وأما حديث عبدالرحمن ابن سابط فقال ابن ابي الدنيا اخبرنا اسحق بن اسماعيل حدثنا جرير عن ابان بن ثعلبة عن عمرو ابن مرة عن عبدالرحمن بن سابط قال قال رسول الله ﷺ يكون في امتي خسف وقذف ومسخ قالوا: مَتى ذاك يا رسول الله قال اذا ظهر المعازف واستحلوا الخمور واما حديث الغاز ابن ربيعة فقال ابن ابي الدنيا حدثنا عبدالجبار بن عاصم حدثنا اسماعيل بن عباس عن عبدالله بن عبيد عن ابي العباس الهمداني عن عمارة بن راشد عن الغاز بن ربيعة رفع الحديث قال ليمسخن قوم وهم على اريكتهم قردة وخنازير بشربهم الخمر وضربهم بالبرابط والقيان قال ابن ابي الدنيا حدثنا عبد الجبار بن عاصم قال حدثني المغيرة بن ابي المغيرة عن صالح عن خالد يرفع ذلك الى النبي ﷺ انه قال ليستحلن ناس من امتي الحدير والخمر والمعازف وليأتين الله على اهل حاضر منهم عظيم يجبل حتى ينبذه عليهم ويمسخ الأخرين قردة وخنازير قال ابن ابي الدنيا انبأنا أبو هرون بن عبد الله حدثنا يزيد بن هرون انبأنا اشرس ابو شيبان الهذلي قال : قلت لفرقد السبخي اخبرني يا ابا يعقوب من تلك الغرائب التي قرأت في التوراة فقال يا ابا شيبان والله ما اكذب على ربي مرتين أو ثلاثا لقد قرأت في التوراة ليكونن خسف وقذف ومسخ في امة محمد في اهل القبلة قال قلت يا ابا يعقوب ما اعمالهم قال باتخاذهم

القينات وضربهم بالدفوف ولبسهم الحرير والذهب ولئن بقيت حتى ترى اعمالاً ثلاثة فاستيقن واستعد واحذر قال : قلت ما هي قال اذا تكافأ الرجال بالرجال والنساء بالنساء ورغبت العرب في ابنيـــة العجم فعند ذلك قلت له العرب خاصة قال بل اهل القبلة ثم قال والله ليقذفن رجال من السماء بحجارة يشدخون بها في طرقهم وقبائلهم كما فعل بقوم لوط وليمسخن اخرون قردة وخنازير كما فعل ببني اسرائيل وليخسفن بقوم كاخسف بقارون. وقدتظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمة وهو مقيد في اكثر الأحاديث باصحـاب الغناء وشراب الخمر وفي بعضها مطلق قال سالم بن ابي الجعد ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينتظرون ان يخرج اليهم فيطلبون اليـــه حاجتهم فيخرج اليهم وقد مسخ قرداً أو خنزيراً وليمرن الرجل على الرجل في حانوته يبيع فيرجع اليه وقد مسخ قرداً أو خنزيراً وقال ابو هريرة لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان الى الأمر يعملانه فيمسخ احدهما قرداً أو خنزيراً فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه ان يمضي إلى شأنه ذلك حتى يقضي شهوته حتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه فيخسف بأحدهما فلا يمنع الذي نجـا منهما ما رأى بصاحبه ان يمشي لشأنه ذلك حتى يقضي شهوته منه . وقال عبدالرحمن بن غنم : سيكون حيان متجاورين فيشق بينهما نهر فيسقيان منه فبسهم واحد يقبس بعضهم من بعض فيصبحان يوماً من الإيام وقد خسف باحدهما والاخر حي وقال عبد الرحمن بن غنم أيضاً يوشك ان يقعد اثنان على رحى يطحنان فيمسخ احدهما والآخر ينظر وقال مالك بن دينار بلغني ان ريحا تكون في آخر الزمان وظلم فيفزع الناس لها علمائهم فيجدونهم قد مسخوا، قال بعض أهل العلم اذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق وانصبغ بذلك صبغة تامة صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغـيرهما ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهـه بدواً خفياً ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهراً على وجهه ثم يقوى حتى يقلب الصورة

الظاهرة كما قلب الهيئة الباطنة ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخاً من صور الحيوانات التي تخلقوا باخلاقها في الباطن فقل ان ترى محتالاً مكاراً مخادعاً ختارا إلاوعلىوجهه مسحة قرد وقل أن ترى رافضياً إلاعلى وجهه مسحة خنزير وقل ان ترى شرهاً نهما نفسه نفس كلبية إلا على وجهه مسحة كلب فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط فإذا استحكمت الصفات المذمومة في النفس قويت على القلب الصورة الظاهرة ولهذا خوف النبي ﷺ من سابق الإمام في الصلاة ان يجعل الله صورته صورة حمار لمشابهته للحمار في الباطن فإنه لم يستفد من مسابقة الإمام إلا فساد صلاته وبطلان اجره فإنه لا يسلم قبله فهو شبيه الحمار في البلادة وعدم اليقظة إذا عرف هذا فأحق بالمسخ هؤلاء الذين ذكروا في هذه الأحاديث فهم أسرع الناس مسخاً قردة وخنازير لمشابهتهم لهم في الباطن وعقوبات الرب نعوذ بالله منها جارية على وفق حكمته وعدله وقد ذكرنا شبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني ونقضناها نقضاً وابطالاً في كتابنا الكبير في السماع وذكرنا الفرق بين ما يحركه سماع الأبيات وما يحركه سماع الآيات وذكرنا الشبه التي دخلت على كثير من العباد في حضوره حتى عدوه من القرب فمن أحب الوقوف على ذلك فهو مستوفى في ذلك الكتاب وإنما أشرنا ها هنا الى نبذة يسيرة من كونه من مكائد الشيطان وبالله التوفيق .

﴿ فصل ﴾

ومن مكائده التي بلغ فيها مراده مكيدة التحليل الذي لعن رسول الله ﷺ فاعله وشبهه بالتيس المستعار وعظم بسببه العار والشنار وعير المسلمين به الكفار وحصل به من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد واستكريت له التيوس المستعارات وضاقت به ذرعاً النفوس الابيات ونفرت منه أشد من نفورها من السفاح وقالت لو كان هذا نكاحاً صحيحاً لم يلعن رسول الله ﷺ من أتى بما

شرعه من النكاح فالنكاح سنة وفاعل السنة مقرب غير ملعون والمحلل مع وقوع اللعنة عليه بالتيس المستعار مقرون فقد سماه رسول الله ﷺ بالتيس المستعار وسماه السلف بمسمار النار فلو شاهدت الحرائر المصونات على حوانيت المحللين مبتذلات تنظر المرأة الى التيس نظرة الشاة الى شفرة الجازر وتقول يا ليتني قبل هذا كنت من أهل المقابر حتى إذا تشارطا على ما يجتلب اللعنة والمقت نهض واستتبعها خلفه للوقت بلا زفاف ولا إعلان بل بالتخفي والكتمان فلا جهاز ينقل ولا فراش إلى بيت الزواج يحول ولا صواحب يهدينها إليه ولا مصلحات يجلينها عليه ولا مهر مقبوض ولا مؤخر ولا نفقة ولا كسوة تقدر ولا وليمة ولا دثار ولا دف ولا إعلان ولا شعار والزوج يبذل المهر وهذا التيس يطأ بالاجر حتى إذا خلا بها وارخى الحجاب والمطلق والولي واقفان على الباب دنا ليطهرها بمائه النجس الحرام ويطيبها بلعنة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام حتى إذا قضيا عرس التحليل ولم يحصل بينهما المودة والرحمة التي ذكرها الله في التنزيل فانها لا تحصل باللعن الصريح ولا يوجبها إلا النكاح الجائز الصحيح فإن كان قبض اجرة ضرابه سلفاً وتعجيلاً وإلا حبسها حتى تعطيه أجره طويلاً فهل سمعتم بزوج لا يأخذ بالساق حتى يأخذ أجرته بعد الشرط والأتفاق حتى إذا طهرها وطيبها وخلصها بزعمه من الحرام وجنبها قال اعترفي بما جرى بيننا ليقع عليك الطلاق فيحصل بعد ذلك بينكما الالتئام والاتفاق فتأتي المصخمة الى حضرة الشهود فيسألونها هل كان ذلك فلا يمكنها الجحود فيأخذون منها أو من المطلق اجراً وقد ارهقوهما من امرهما عسراً هذا وكثير من هؤلاء المستأجرين للضرائب يحلل الأم وابنتها في عقدين ويجمع ماءه في اكثر من اربع وفي رحم اختين وإذا كان هذا شأنه وصفته فهو حقيق بما رواه عبدالله بن مسعود قال لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له رواه الحاكم في الصحيح والترمذي وقال حديث حسن صحيح قال : والعمل عليه عند أهل العلم منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبدالله بن عمر رضي الله

الله عنهم وهو قول الفقهاء من التابعين ورواه الإمام أحمد في مسنده والنسائي في سننه باسناد صحيح ولفظها: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والموصولة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي ايضاً عن عبدالله بن مسعود قال آكل الربا ومؤكله وشاهداه وكاتبه الى علموا به والواصلة والمستوصلة ولاوي الصدقة والمتعدي فيها والمرتد على عقبيه اعرابيًا بعد هجرته والمحلل والمحلل له ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيمة وعن علي بن ابى طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ انه لعن المحلل والمحلل له رواه احمد واهل السنن كلهم غير النسائي وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لعن الله المحلل والمحلل له رواه احمد باسناد رجاله كلهم ثقات وثقهم ابن معين وغيره وقال الترمذي في كتاب العلل سألت أبا عبدالله محمد ابن اسماعيل البخاري عن هذا الحديث فقال هو حديث حسن وعبدالله جعفر المخزومي صدوق وثقة وعثمان بن محمد الاخنسي ثقة وقال ابو عبدالله بن ماجه في سننه حدثنا محمد بن بشار حدثنا ابو عامر عن زمعة بن صالح عن سلمة ابن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لعن الله رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له وعن ابن عباس ايضاً قال سئل رسول الله ﷺ عن المحلل فقال لا الانكاح رغبة لانكاح دلسة واستهزاء بكتاب الله ثم يذوق العسيلة رواه ابو اسحق الجوزجاني في كتاب المترجم اخبرنا اسماعيل بن ابراهيم بن ابي حبيبة عن داود بن حصين عن عكرمة عنه وهؤلاء كلهم ثقات إلا ابراهيم فأن كثيراً من الحفاظ يضعفه والشافعي حسن الرأي فيه ويحتج بحديثه وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ألا اخبركم بالتيس المستعار قالوا بلى يا رسول الله قال هو المحلل ولعن الله المحلل والمحلل له رواه ابن ماجه باسناد رجاله كلهم موثوقون ولم يجرح واحد منهم وعن عمر بن دينار وهو من أعيان التابعين انه سئل عن رجل طلق امرأته فجاء رجل من اهل القرية بغير علمه ولا علمها فأخرج شيئاً من ماله فتزوجها ليحلها له فقال لا اثم ثم ذكر ان النبي ﷺ سئل عن مثل ذلك

فقال: «لا حتى ينكح مرتغباً لنفسه فأذا فعل ذلك لم تحل له حتى يذوق العسيلة رواه ابو بكر ابن ابي شيبة في المصنف باسناد جيد وهذا المرسل قد اجتح به من ارسله فدل على ثبوته عنده وقد عمل به اصحاب رسول الله ﷺ كما سيأتي وهو موافق لبقية الاحاديث الموصولة ومثل هذا حجة باتفاق الأئمة وهو والذي قبله نص في التحليل المنوي وكذلك حديث نافع عن ابن عمر ان رجلاً قال له امرأة تزوجتها لأحلها لزوجها لم يأمرني ولم يعلم قال لا الأنكاح رغبة ان اعجبتك امسكها وان كرهتها فارقتها وان كنا نعد هذا على عهد رسول الله ﷺ سفاحاً ذكره شيخ الأسلام في ابطال التحليل .

﴿ فصل ﴾

وأما الأثار عن الصحابة ففي كتاب المصنف لابن ابي شيبة وسنن الأثرم والاوسط لابن المنذر عن عمر بن الخطاب انه قال لا اوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتها ولفظ عبد الرزاق وابن المنذر لاأوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتها وهو صحيح عن عمر وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الملك ابن المغيرة قال سُئِل عمر عن تحليل المرأة لزوجها فقال ذاك السفاح رواه ابن ابي شيبة وقال عبد الرزاق انبأنا الثوري عن عبدالله بن شريك العامري قال سمعت ابن عمر سئل عن رجل طلق بنت عم له ثم رغب فيها وندم فأراد ان يتزوجها رجل يحلها له فقال ابن عمر كلاهما زان وان مكث عشرين سنة أو نحو ذلك اذا كان الله يعلم انه يريد ان يحلها له قال واخبرنا معمر عن الثوري عن الأعمش عن مالك ابن الحارث عن ابن عباس وسأله رجل فقال إن عمي طلق امرأته ثلاثاً فقال: إن عمك عصى الله فلم يجعل له مخرجاً واطاع الشيطان فاندمه قال كيف ترى في رجل يحللها لزوجها ففرق بينهما وقال لاترجع اليه إلا بنكاح رغبة غير دلسة رواه ابو اسحاق الجوزجاني في كتاب المترجم وذكره ابن المنذر عنه في كتابه الاوسط وفي المهذب لأبي اسحاق الشيرازي عن ابي مرزوق التجيبي ان رجلاً أتى عثمان رضي الله عنه فقال : ان جاري طلق امرأته في

غضب ولقي شدة فأردت أن أحتسب نفسي ومالي فأتزوجها ثم أبني بها ثم أطلقها فترجع لزوجها الأول ، فقال له عثمان : لا تنكحها إلا نكاح رغبة . وذكر أبو بكر الطرطوشي في خلافه عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المحلل : لا ترجع اليه إلا بنكاح رغبة غير دلسة ولا استهزاء بكتاب الله . وعلي رضي الله عنه ممن روى عن النبي ﷺ انه قال : « لعن الله المحلل » ، وقد جعل هذا من التحليل . وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عباس قال : لعن الله المحلّل والمحلّل له ، وهو من روى عن النبي ﷺ : « لعن الله المحلّل والمحلّل له » ، وقد فسره بما قصد به التحليل وان لم تعلم به المرأة ، فكيف بما اتفقا عليه وتراضيا وتعاقدا على انه نكاح لعنة لا نكاح رغبة . وذكر ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لعن الله المحلّل والمحلّل له . وروى الجوزخاني بإسناد جيد عن ابن عمر انه سئل عن رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها فقال : لعن الله المحلّل والمحلّل له . قال شيخ الاسلام : وهذه الآثار عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس وابن عمر مع انها نصوص فيما إذا قصد التحليل ولم يظهر ولم يتواطآ عليه ، فهي مبنية على ان هذا هو التحليل وهو المحلل الملعون على لسان رسول الله ﷺ ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بمراده ومقصوده ، لا سيما إذا رووا حديثاً وفسروه بما يوافق الظاهر ، هذا مع انه لم يعلم ان أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فرّق بين تحليل وتحليل ، ولا رخص في شيء من أنواعه ، مع ان المطلقة ثلاثا مثل امرأة رفاعة القرظي قد كانت تختلف اليه المدة الطويلة وإلى خلفائه لتعود إلى زوجها فيمنعونها من ذلك ، ولو كان التحليل جائزاً لدلها ﷺ على ذلك فإنها لم تكن تعدم من يحللها لو كان التحليل جائزاً ، قال : والأدلة الدالة على ان هذه الأحاديث النبوية قصد بها التحليل وان لم يشترط في العقد كثيرة جداً ليس هذا موضع ذكرها . انتهى .

ذكر الآثار عن التابعين

قال عبد الرزاق : انبأنا معمر عن قتادة قال : إذا نوى الناكح والمنكح

والمرأة أو واحد منهم التحليل فلا يصلح . أخبرنا ابن جريج قال : قلت : المحلل عامداً هل عليه من عقوبة ؟ قال : ما علمت ، واني لأرى أن يعاقب ، قال : وكلهم ان تمالئوا على ذلك سيئون وإن أعطـــوا الصداق . أخبرنا ابن جريج قال : قلت لعطاء : يطلق المحلل فيراجعها زوجها، قال :يفرق بينهما. أخبرنا معمر عن من سمع الحسن يقول في رجل تزوج امرأة ليحلها ولا يعلمها، فقال الحسن : اتق الله ولا تكن مسمار نار في حـــدود الله . وقال إبراهيم النخعي : إذا كان نية أحد الثلاثة ، الزوج الأول أو الزوج الآخر أو المرأة انه محلل ، فنكاح الآخر باطل، فلا تحل للأول، قال : وقال الحسن البصري: إذا هم احد الثلاثة بالتحليل فقد أفسد قال : وقال أبو بكر بن عبدالله المزني في المحلل والمحلل له اولائك كانوا يسمون في الجاهلية التيس المستعار قال:وقال ابن ابي نجيح عن مجاهد في قول الله تعالى (انظنّا ان يقيما حدود الله)قال:ان ظنّا أن نكاحها على غير دلسة رواه بن ابي حاتم في التفسير عنه قال : هشيم انبأنا سيار عن الشعبي انه سئل عن رجل تزوج امرأة كان زوجها طلقا ثلاثاً قبل ذلك ايطلقها لترجع الى زوجهـا الأول قال : لا حتى يحدث نفسه انه يعمر معها وتعمر معه أي تقيم معه رواه الجورجاني وروى عن النفيلي حدثنا يحيى ابن عبدالملك بن ابي عيينة حدثنا عبدالملك عن عطاء في الرجـل يطلق أمرأته فينطلق الرجل الذي يتحزن فيتزوجها من غير مؤامرة منه فقال ان كان تزوجها ليحلها له لم تحل له وان كان تزوجها يريد امساكها فقد حلت له وقال : سعيد ابن المسيب فيرجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها الأول ولم يشعر بذلك زوجها الأول ولا المرأة قال: ان كان نكحها ليحلها فلا يصلح ذلك لهما فلا تحل له رواه حرب في مسائله وعنه أيضاً قال: الناس يقولون حتى يجامعها وأنا أقول اذا تزوجها تزويجاً صحيحاً لا يريد بذلك احلالها فلا بأس ان يتزوجها الأول رواه سعيد بن منصور عنه فهؤلاء الأئمة الأربعة اركان التابعين وهم الحسن وسعيد بن المسيب وعطاء ابن ابي رباح وابراهيم النخعي وقال ابو

الشعشاء جابر ابن زيد في رجل تزوج امرأة ليحلها للأول كزوجها وهو لا يعلم قال : لا يصلح ذلك إذا كان تزوجها ليحلها .

ذكر الآثار عن التابعي ومن بعدهم: قال ابن المنذر: وممن قال ذلك لا يصلح الا نكاح رغبة مالك بن انس والليث ابن سعد وقال : مالك يفرق بينهما على كل حال وتكون الفرقة فسخاً بغير طلاق وقال : سفيان الثوري اذا تزوجها وهو يريد ان يحلها لزوجها ثم بدا له ان يمسكها لا يعجبني الا ان يفارقها ثم يستقبل نكاحاً جديداً قال الأمام احمد ابن حنبل جيد وقال : اسحاق لا يحل له ان يمسكها لأن المحلل لا يتم له عقد النكاح وكان ابو عبيد يقول يقول الحسن والنخعي وقال الجوزجاني : حدثنا اسماعيل بن سعيد قال سألت احمد ابن حنبل عن الرجل يتزوج المرأة ونفسه ان يحلها لزوجها الأول ولم تعلم المرأة بذلك هو محلل وإذا أراد بذلك الأحلال فهو ملعون قال الجوزجاني وبه قال أبو أيوب وقال ابن ابي شيبة : لست أرى ان ترجع بهذا النكاح الى زوجها الأول وقال الجوزجاني : وأقول ان الاسلام دين الله الذي اختاره واصطفاه وطهره حقيق بالتوقير والصيانة مما لعله يشينه وينزه عما أصبح ابناء الملل من أهل الذمة يعيرون به المسلمين على ما تقدم فيه من النهي عن النبي ﷺ ولعنه عليه ثم ساق الأحاديث المرفوعة في ذلك والآثار .

﴿ فصل ﴾

ومن العجائب معارضة هذه الأحاديث والآثار عن الصحابة بقوله تعالى : (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله) والذي نزلت عليه هذه الآية هو الذي لعن المحلل والمحلل له واصحابه أعلم الناس بكتاب الله فلم يجعلوه زوجا وابطلوا نكاحه ولعنوه وأعجب من هذا قول بعضهم نحن نحتج بكونه سماه محللاً فلولا انه اثبت الحل لم يكن محللاً فيقال هذه من العظائم فإن هذا يتضمن ان رسول الله ﷺ لعن من فعل السنن التي جاء بها وفعل ما هو صحيح

جائز في شريعته وانما سماه محللا لأنه أحل ما حرمه الله فاستحق اللعنة فإن الله سبحانه حرمها على المطلق حتى تنكح زوجاً غيره والنكاح اسم في كتاب الله وسنة رسوله للنكاح الذي يتعارفه الناس بينهم نكاحاً وهو الذي شرع اعلانه والضرب عليه بالدف والوليمة فيه وجعل للإيواء والسكن وجعله الله مودة ورحمة وجرت العادة فيه بضد ما جرت في النكاح المحلل فإن المحلل لم يدخل على كسوة ولا نفقة ولا سكنى ولا اعطاء مهر ولا تحصيل نسب ولا مهر ولا قصد المقام مع الزوجة وانما دخل عارية كالتيس المستعار للضراب ولهذا شبه به النبي ﷺ ثم لعنه فعلم قطعا انه ليس هو الزوج المذكور في القرآن وقد فطر الله سبحانه قلوب الناس على ان هذا ليس بنكاح ولا المحلل بزوج وانهذا منكر قبيح يعيربه المرأة والزوج والمحلل والولي فكيف يدخل هذا في النكاح الذي شرعه الله ورسوله واحبه وأخبر انه من سنته ومن رغب عنه فليس منه وتأمل قوله تعالى : (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) فإن طلقها هذا الثاني فلا جناح عليهما وعلى الأول ان يتراجعا أي ترجع اليه بعقد جديد فأتى بحرف إن الدالة على انه يمكنه أن يطلق وأن يقيم والتحليل الذي يفعله هؤلاء لا يتمكن الزوج فيه من الأمر بشيء بل يشرطون عليه انه متى وطئها فهي طالق ثم لما علموا أنه قد لا يخبر بوطئها ولا يقبل قولها في وقوع الطلاق انتقلوا إلى أن جعلوا الشرط أخبار المرأة بأنه دخل بها فمجرد أخبارها بذلك تطلق عليه والله سبحانه شرع النكاح للمواصلة الدائمة والاستمتاع وهذا النكاح جعله اصحابه سبباً لانقطاعه ولوقوع الطلاق فيه فإنه متى وطىء كان وطؤه سبباً لأنقطاع النكاح وهذا ضد شرع الله وأيضاً فأن الله سبحانه جعل نكاح الثاني وطلاقه كنكاح الأول وطلاقه واسمه فهذا زوج وهذا زوج وهذا نكاح وذلك نكاح وكذلك الطلاق ومعلوم أن نكاح المحلل وطلاقه واسمه لا يشبه نكاح الأول ولا طلاقه ولا اسمه ذاك زوج راغب قاصد للنكاح باذل للمهر ملتزم للنفقة والسكنى والكسوة وغير ذلك من خصائص النكاح

والمحلل بريء من ذلك كله غير ملتزم بشيء منه وإذا كان الله ورسوله قد حرم نكاح المتعة مع أن قصد الزوج الاستمتاع بالمرأة وأن يقيم معها زماناً وهو ملتزم لحقوق النكاح فالمحلل الذي ليس له غرض أن يقيم مع المرأة إلا قدر ما ينزو عليها كالتيس المستعار لذلك ثم يفارقها اولى بالتحريم . وسمعت شيخ الإسلام يقول : نكاح المتعة خير من نكاح التحليل من عشرة اوجه أحدهـا ان نكاح المتعة كان مشروعاً في الإسلام ونكاح التحليل لم يشرع في زمن من الأزمان الثاني أن الصحابة تمتعوا على عهد النبي ﷺ ولم يكن في الصحابة محلل قط .الثالث نكاح المتعة مختلف فيه بين الصحابة فأباحه ابن عباس وإن قيل انه رجع عنه وأباحه عبدالله بن مسعود ففي الصحيحين عنه قال كنا غزونا مع رسول الله ﷺ ليس لنا نساء فقلنا الا نستخصي فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا ان ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ عبدالله : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وفتوى ابن عباس بها مشهورة وقال عروة قام عبد الله بن الزبير بمكة فقال : إن ناساً أعمى الله قلوبهم كما اعمى أبصارهم يفتون بالمتعة يعرض بعبدالله بن عباس فناداه فقال: انك جلف جاف فلعمري لقد كانت المتعة تفعل على عهد إمام المتقين يريد رسول الله ﷺ فقال ابن الزبير فجرب نفسك فوالله لئن فعلتها لأرجمنك باحجارك فهذه أقوال ابن مسعود وابن عباس في المتعة وذلك قولها وروايتها في نكاح التحليل إلى أن قال وانما هو كما قال الحسن مسمار نار في حدود الله وهذه التسمية مطابقة للمعنى . قال شيخ الإسلام: يريد الحسن أن المسمار هو الذي يثبت الشيء المسمور فكذلك هذا يثبت تلك المرأة لزوجها وقد حرمها الله عليه إلى أن قـــال الثاني : عشران نكاح المحلل لا يشبه نكاح أهل الجاهلية ولا نكاح أهل الأسلام فكان الجاهلية يتعاطون في انكحهم أموراً منكرة ولم يكونوا يرضون نكاح التحليل ولا يفعلونه . ففي صحيح البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على اربعة انحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب

الرجل إلى الرجل ابنته أو وليته فيصدقها ثم ينكحها والنكاح الآخر كان الرجل يقول لأمرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه فيعتزلها زوجها ولا يمسها ابداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها اصابها زوجها إذا أحب وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ونكاح آخر يجتمع الرهط مما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فأذا حملت ووضعت ومر ليالى بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع أحد منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من امركم وقد ولدت فهوا بنك يا فلان تسمى من احبت باسمه فيلتحق به ولدها لا يستطيع ان يمتنع ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا كن ينصبن على ابوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن فأذا حملت احداهن فوضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم الحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث الله محمداً ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله الا نكاح الناس اليوم ومعلوم ان نكاح المحلل ليس من نكاح النـــاس الذي اشارت إليه عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ اقره ولم يهدمه ولا كان أهل الجاهلية يرضون به فلم يكن من انكحتهم فإن الفطر والأمم تنكره وتعير به .

﴿ فصل ﴾

وسبب هذا كله معصية الله ورسوله وطاعة الشيطان في ايقاع الطلاق على غير الوجه الذي شرعه الله ورسوله فإن الله سبحانه يبغض الطلاق في الأصل كما روى أبو داود من حديث عبدالله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال ابغض الحلال الى الله الطلاق وفي سنن ابن ماجـــه من حديث ابي موسى قال : قال رسول الله ﷺ ما بال قوم يلعبون بحدود الله يقول قد طلقتك قد راجعتك قد طلقتك وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ إن

إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منزلة اعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئاً قال : ويجيء احدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيدنيه منه أو قال فيكرمه ويقول نعم أنت. فالشيطان وحزبه قد اغروا بايقاع الطلاق والتفريق بين المرء وزوجه وكثيراً ما يندم المطلق ولا يصبر عن امرأته ولا تطاوعه نفسه الى ان يصبر عنها إلى ان تتزوج زواج رغبة تبقى فيه مع الزوج إلى ان يموت عنها أو يفارقها إذا قضى منها وطره ولا بد له من المرأة فيفزع الى التحليل وهو حيلة من عشر حيل نصبوها للناس أحدها التحليل على عدم وقوع الطلاق وهو نوعان يحتال على عدم وقوعه مع صحة النكاح بالتسريح فيأمرونه ان يقول لها إذا طلقتك أو إذا وقع عليك طلاقي فأنت طالق قبله ثلاثاً فلا يمكن ان يقع عليها الطلاق بعد ذلك لا مطلقاً ولا مقيداً عند المسرحين فسدوا باب الطلاق وجعلوا المرأة كالغل في عنق الرجل لا سبيل الى طلاقها ابداً الحيلة الثانية التحيل على عدم وقوع الطلاق بكون النكاح فاسداً فلا يقع فيه الطلاق ويتحيلون لبيان فساده من وجوه منها ان عدالة الولي شرط في صحته فإذا كان في الولي ما يقدح في عدالته فالنكاح باطل فلا يقع فيه الطلاق والقوادح كثيرة فلا تكاد تفتش في من شئت الا وجدت قادحاً ومنها ان عدالة الشهود شرط والشاهد يفسق بجلوسه على مقعد حرير واستناده إلى مسند حرير أو جلوسه تحت مركاة حرير أو تجمره بمجمرة فضة ونحو ذلك مما يكاد لا يخلو البيت منه وقت العقد ونحو ذلك فيالعجب يكون الوطيء حلالا والنسب لاحقاً والنكاح صحيحاً حتى يقع الطلاق فحينئذ يطلب وجه فساده الحيلة الثالثة التحيل بالمخالفة حتى يفعل المحلوف عليه فإذا فعله تزوجها بعقد جديد الحيلة الرابعة إذا وقع الفاس في الرأس وحنث ولا بد اشترى غلاماً دون البلوغ وزوجه بها وأمرها ان تمكنه من ايلاج الحشفة هناك فإذا فعل وهبها إياه فانفسخ نكاحها بملكه فتعتد وترد إلى المطلق فإن عجزوا عن ذلك واعوزهم انتقلوا

إلى الحيلة الخامسة وهي استكراء التيس المستعار الملعون لينزو عليها ويحلها بزعمه فهذه خمس حيل للخاصة وأما جهال العامة فلما رأوا أن المقصود التحيل على ردها إلى المطلق بأي طريق اتفق قالوا المقصود هو الرجوع والحيلة مقصودة لغيرها وأعيان الحيل ليست مقصودة فاستنبطوا لهم خمس حيل أخرى أحدها أن يأمروا المحلل أن يطأها برجله فيطؤها وهي قاعدة أو مضطجعة برجله ثم يخرج ورأوا أن الوطىء بالرجل أسهل عليهم وأقل مفسدة من الوطىء بالآلة فإذا كان كلاهما غير مقصود فما كان أقل فساداً كان أقرب إلى المقصود الحيلة الثانية أن تكون حاملاً فتلد ذكراً وكأنهم قاسوا الذكر الذي يشقها خارجاً على الذكر الذي يشقها داخلاً وهذا من جنس قياس التيس الملعون على الزوج المقصود . الحيلة الثالثة أن يصب المحلل عليها دهناً يتشرب به جسدها ولا يطأها كأنهم قاسوا تشرب جسدها الدهن وسريانه فيه على شربه للنطفة وسرايتها فيه . الحيلة الرابعة السفر عنها أو سفرها عنه فاذا قدم ظن أن ذلك كاف عن الزوج ولا أدري من اين القى لهم الشيطان ذلك وكأنهم ظنوا انهم قد التقوا من الآن وأن السفر قطع حكم ما مضى رأساً . الحيلة الخامسة ان يجتمعا على عرفات فإذا وقف بها على الجبل لم تحتج بعد ذلك الى زوج آخر عندهم وقد سألنا نحن وغيرنا عن ذلك وسمعناه منهم .

﴿ فصل ﴾

واعلم أنه متى اتقى الله في طلاقه وطلق كما امره الله ورسوله وشرعه له اغناه عن ذلك كله ولهذا قال تعالى بعد أن ذكر الطلاق المشروع : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) . فلو اتقى الله عامة المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال والمكر والاحتيال فأن الطلاق الذي شرعه الله سبحانه ان يطلقها طاهراً من غير جماع ويطلقها واحدة ثم يدعها حتى تنقضي عدتها فأن بدا له ان يمسكها في العدة أمسكها وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها امكنه

أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر وإن لم يكن له فيها غرض لم يضره أن تتزوج بزوج غيره فمن فعل هذا لم يندم ولم يحتج إلى حيلة ولا تحليل ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال عصيت ربك وفارقت امرأتك ولم تتق الله فيجعل لك مخرجاً . وقال سعيد بن جبير جاء رجل الى بن عباس فقال اني طلقت امرأتي الفا فقال اما ثلاثاً فتحرم عليك امرأتك وبقيتهن زور اتخذت آيات الله هزواً. وقال مجاهد كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال انه طلق امرأته ثلاثاً فسكت حتى ظننت انه رادها اليه فقال ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ثم يقول يا بن عباس يا بن عباس وان الله قال (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) وانك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً عصيت ربك وبانت منك امرأتك ذكره ابو داود وقد روى النسائي عن محمود بن لبيد قال اخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال أيلعب بكتاب الله وانا بين اظهركم حتى قام رجل فقال يا رسول الله ألا اقتله ؟ وهذه الآثار موافقة لما دل عليه القرآن فإن الله سبحانه وتعالى انما شرع الطلاق مرة بعد مرة ولم يشرعه جملة واحدة اصلا قال تعالى : (الطلاق مرتان) والمرتان في لغة العرب بل وسائر لغات الناس انما يكون لما يأتي مرة بعد مرة فهذا القرآن من اوله إلى آخره وسنة رسول الله ﷺ وكلام العرب قاطبة شاهدة بذلك كقوله تعالى : (سنعذبهم مرتين) وقوله (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين) وقوله (يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) ثم فسرها بالأوقات الثلاثة وشواهد هذا أكثر من أن تحصر ثم قال سبحانه : (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) فهذه هي الثالثة فهذا هو الطلاق الذي شرعه الله سبحانه مرة بعد مرة فهذا شرعه من حيث العدد وأما شرعه من حيث الوقت فشرع الطلاق للعدة وقد فسره النبي ﷺ بأن يطلقها طاهراً من غير جماع فلم يشرع جمع ثلاث ولا تطليقتين ولم يشرع الطلاق في حيض ولا في طهر وطئها

فيه وكان المطلق في زمن النبي ﷺ كله وزمن ابي بكر كله وصدرا من خلافة عمر إذا طلق ثلاثاً يحسب له واحدة وفي ذلك حديثان صحيحان احدهما رواه مسلم والثاني رواه الإمام احمد في مسنده فأما حديث مسلم فرواه عن طريق ابن طاووس عن ابيه عن ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وسنتين من خلافة عمر رضى الله عنهما الثلاث واحدة فقال عمر ان الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه اناة فلو امضيناه عليهم فأمضاه عليهم وفي صحيحه ايضاً عن طاووس أن ابا الصهباء قال لابن عباس هات من هنيّاتك ألم يكن الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر واحدة؟ فقال قد كان ذلك فلما كان في زمن عمر تتابع الناس في الطلاق فاجازه عليهم وفي لفظ ابي داود أن رجلا يقال له ابو الصهباء كان كثير السؤال لابن عباس فقال أما علمت ان الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل ان يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وصدر من امارة عمر فلما رأى الناس قد تتابعوا فيها قال اجيزوها عليهم هكذا في هذه الرواية قبل ان يدخل بها وبهذا أخذ اسحق بن راهوية وخلق من السلف جعلوا الثلاث واحدة في غير المدخول بها وسائر الروايات الصحيحة ليس فيها قبل الدخول ولهذا لم يذكر مسلم منها شيئاً وهذا الحديث قد رواه عن ابن عباس ثلاثة نفر طاووس وهو من أجل من روى عنه وأبو الصهباء العدوي وأبو الجوزاء وحديثه عند الحاكم في المستدرك ولفظه ان أبا الجوزاء أتى ابن عباس فقال أتعلم أن الثلاث كن يردون على عهد رسول الله ﷺ إلى واحدة قال نعم قال الحاكم هذا حديث صحيح الأسناد ولم يخرجاه ورواية طاوس نفسه عن ابن عباس ليس في شيء منها قبل الدخول وانما حكى ذلك طاوس عن سؤال أبي الصهباء لابن عباس فأجابه ابن عباس بما سأله عنه ولعله انما بلغه جعل الثلاث واحدة في حق مطلق قبل الدخول فسأل عن ذلك ابن عباس وقال كانوا يجعلونها واحدة فقال ابن عباس نعم الأمر على ما قلت وهذا لا مفهوم له فأن التقييد في الجواب وقع في مقابلة

تقييد السؤال وهذا لا يغير مفهومه نعم لو لم يكن السؤال مقيداً فقيدالمسئول الجواب كان مفهومه معتبراً ، وهذا كما اذا سألعن فأرة وقعت في سمن فقال إذا وقعت الفأرة في السمن فألقوها وما حولها وكلوه ولم يدل ذلك على تقييد الحكم بالسمن خاصة وبالجملة فغير المدخول بها فرد من أفراد النساء فذكر النساء مطلقاً في أحد الحديثين وذكر بعض أفرادهن في الحديث الآخر فلا تعارض بينهما أما الحديث الآخر فقال أبو داود في سننه حدثنا أحمد بن صالح حدثنا عبدالرزاق أخبرنا بن جريج قال اخبرني بعض بني ابي رافع مولى النبي ﷺ عن عكرمة عن ابن عباس قال طلق عبد يزيد ابن ركانة واخوته ام ركانه ونكح امرأة في مزينة فجائت إلى النبي ﷺ فقالت ما يغنى عني إلا كما تغنى هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها فأخذت النبي ﷺ حمية فدعا ركانة وإخوته ثم قال لجلسائه أترون فلاناً يشبه منه كذا وكذا من عبد يزيد وفلاناً كذا وكذا قالوا نعم فدعا ركانة فقال النبي ﷺ طلقها ففعل فقال راجع امرأتك ام ركانة واخوته فقال اني طلقتها ثلاثاً يا رسول الله قال قد علمت ارجعها وتلا قوله تعالى (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) الآية فأمره أن يراجعها وقد طلقها ثلاثاً وتلى الآية التي بعدها وما بعدها صريحة في كون الطلاق الذي شرعه الله لعباده هو الطلاق الذي يكون للعدة فاذا شارفت انقضاءها فأما أن يمسكها بمعروف أو يفارقها بمعروف وانه سبحانه شرعه على وجه التوسعة والتيسير فلعل المطلق أن يندم فيكون له سبيل المراجعة وهو قوله (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) فأمره بالمراجعة وتلاوته للآية كاف في الاستدلال على ما كان عليه الحال فأن قيل هذا الحديث فيه مجهول وهو بعض بني ابي رافع والمجهول لا تقوم به حجة فالجواب من ثلاثة أوجه أحدها ان الامام احمد قال في المسند حدثنا سعد بن ابراهيم حدثنا أبي عن محمد ابن اسحاق قال حدثني الحصين عن عكرمة مولى ابن عباس قال طلق ركانة بن عبد يزيد اخو المطلب امرأته ثلاثاً قال

في مجلس واحد قال نعم فحزن عليها حزناً شديداً فسأله رسول الله ﷺ كيف طلقها قال طلقتها ثلاثاً قال : في مجلس واحد قال نعم قال فانما تلك واحدة فأرجعها إن شئت قال فراجعها قال وكان ابن عباس يرى ان الطلاق عند كل طهر ورواه الحافظ ابو عبدالله محمدبن عبد الواحد المقدسي في مختارته التي هي أصح من صحيح الحاكم فهذا موافق للأول وكلاهما موافق لحديث طاوس وأبي الصهباء وأبي الجوزاء عن عباس وطـــاوس وعكرمة اعلم اصحاب ابن عباس به فأن طاوس كان مولاه ومصاحباً له وكان يقيده على العلم وكان طاوس خاصاً عنده يجتمع به كثيراً ويدخل عليه مع الخاصة وكان طاوس وعكرمة يفتيان بأن الثلاث واحدة وكذلك ابن اسحق لمـــا صح عنده هذا الحديث افتى بموجبه وكان يقول: جهل السنة فيرد إليهـــا ورواة هذا الحديث افتوا به وعملوا به وعن ابن عباس فيـــه روايتان أحدهما موافقة عمر تأديبـــاً وتعزيزاً للمطلقين والثانية الأفتاء بموجبه وروى حماد ابن زيد عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس وحسبك بهذا السند صحة وجلالة : إذا قال انت طالق ثلاثاً بفم واحد فهي واحدة ذكره ابو داود في السنن الوجه الثاني أن هذا المجهول هو من التابعين من ابناء مولى النبي ﷺ ولم يكن الكذب مشهوراً فيهم والقصة محفوظة معروفة وقد تابعه عليها داود ابن الحصين وحديث ابي الصهباء فهب ان وجود روايته وعدمها سواءً ففي حديث داود كفاية وقد زالت تهمة تدليس ابن اسحق بقوله حدثني وقد احتج الأئمة بهذا السند بعينه في حديث تقرير العرايا بخمسة اوسق أو دونها وأخذوا به وعملوا بموجبه مع مخالفته عموم الأحاديث الصحيحة في منع بيع الرطب بالتمر والقول بهذه الأحاديث موافق لظاهر القرآن ولأقوال الصحابة وللقياس ولمصالح بني آدم فأما ظاهر القرآن فإن الله شرع الرجعة في كل طلاق الاطلاق غير المدخول بها والمطلقة طلقـــة ثالثة بعد الأوليين وليس في القرآن طلاق بائن إلا هذين الوصفين أحدهما بائن غير محرم والثاني بائن محرم وقال تعالى (الطلاق مرتان)

والمرتان ما كان مرة بعد مرة كما تقدم وأمّاالقياس فإن الله سبحانه قال(والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا انفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) ثم قال (ويدرأ عنها العذاب ان تشهد أربع شهادات بالله)فلو قال أشهد بالله أربع شهادات إني صادق أو قالت أشهد بالله أربع شهادات إنه كاذب كانت شهادة واحدة ولم تكن أربعاً فكيف يكون قوله أنت طالق ثلاثا ثلاثا ثلاث تطليقات وأي قياس اصح من هذا وهكذا كلما يعتبر فيه العدد من الأقرار ونحوه قالوا ولهذا لو قال المقر بالزنا اني اقر أربع مرات كان ذلك مرة واحدة فهكذا الطلاق سواء فهذا القياس وتلك الآثار وذاك ظاهر القرآن وأما أقوال الصحابة فيكفي كون ذلك كان على عهد الصديق ومعه جميع الصحابة لم يختلف عليه منهم أحد ولا حكي في زمانه القولان حتى قال بعض أهل العلم إنما ذلك اجماع قديم وإنما حدث الخلاف في زمن عمر واستمر الخلاف في المسئلة الى وقتنا هذا كما سنذكره قالوا فقد صح بلا يشك انهم كانوا في زمن الرسول ﷺ وابي بكر مدة خلافته كلها وصدرا من خلافة عمر يوقعون على من طلق ثلاثاً واحدة قالوا فنحن احق بدعوى الأجماع منكم لأنه لا يعرف في عهد الصديق أحد ردّ ذلك ولا خالفه فإن كان اجماع فهو من جانبنا أظهر ممن يدعيه من نصف خلافة عمر وهلم جرّا فإنه لم يزل الاختلاف فيها قائماً وذكره أهل العلم في مصنفاتهم قديماً وحديثاً فممن ذكر الخلاف في ذلك داود واصحابه واختاروا ان الثلاث واحـــدة وممن حكي الخلاف الطحاوي في كتابه اختلاف العلماء وفي كتابه تهذيب الآثار وأبو بكر الرازي في كتاب أحكام القرآن وحكاه ابن المنذر وحكاه ابن حزم وحكاه المؤرج في تفسيره وحكى حجة القولين ثم قال: وهي مسئلة خلاف بين العلماء وحكاه محمد ابن نصر المروزي واختار القول أنها واحدة فيحق البكر ثلاثاً في حق المدخول بها وحكاه من المتأخرين المازري في كتاب المعلم وحكاه عن محمد بن مقاتل من أصحاب أبي حنيفة وهو من أجل أصحابهم ومن الطبقة الثالثة من أصحاب ابي

حنيفة فهو أحـــد القولين في مذهب ابي حنيفة وحكاه التلمساني في شرح التفريع في مذهب مالك قولا في مذهبه بل رواية عن مالك وحكاه غيره قولاً في المذهب فهي أحد القولين في مذهب مالك وابي حنيفة وحكاه شيخ الإسلام عن بعض أصحاب أحمد وهو اختياره واسوأ احواله أن يكون كبعض اصحاب الوجوه في مذهبه كالقاضي وأبي الخطاب وهو اجل من ذلك فهو قول في مذهب أحمد بلا شك وأما التابعون فقال ابن المنذر كان سعيد ابن جبير وطاووس وأبو الشعثاء وعطاء وعمرو بن دينار يقولون من طلق البكر ثلاثاً فهي واحدة قال : واختلفوا في هذا الباب عن الحسن فروي عنه انها ثلاثاً وذكر قتادة وحميد ويونس عنه انه رجع عن قوله بعد ذلك وقال واحدة بائنة . وقال محمد بن نصر في كتاب « اختلاف العلماء » : أجمع أهل العلم ان الرجل إذا طلق امرأته تطليقة ولم يدخل بها بانت منه وليس عليهـــا عدة واختلف في غير المدخول بها إذا طلقها الزوج ثـــلاثا بلفظ واحد ، فقال الأوزاعي ومالك وأهل المدينة : لا تحل حتى تنكـح زوجاً غيره . وروي عن ابن عباس وغير واحد من التابعين انهم قالوا : إذا طلقها ثلاثا قبل أن يدخل بها فهي واحدة . وأكثر أهل الحديث على القول الأول ، قال : وكان ابن إسحق يقول : طلاق الثلاث للبكر واحدة . على هذا قلت : هذا تأويل ابن إسحق ، وأما أبو داود فجعله منسوخاً ، فقال في كتاب « السنن » : باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ، ثم ساق حديث ابن عباس: ان الرجل إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلق ثلاثا ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: (الطلاق مرّتان) ، ثم ذكر في أثناء الباب حديث أبي الصهباء وكأنه اعتقد ان حكمه كان ثابتاً لما كان الرجل يراجع امرأته كلما طلقها وهذا وهم لوجهين أحدهما : ان المنسوخ هو ثبوت الرجعة بعد الطلاق ولو بلغ ما بلغ ، كما كان في أول الإسلام . الثـاني : ان النسخ لا يثبت بعـد موت رسول الله ﷺ ، وكون الثلاث واحدة قد عمل به في خلافة الصدّيق كلها وأول خلافة عمر ،

فمن المستحيل أن ينسخ بعد ذلك . وأما ابن المنذر فقال : لم يكن ذلك على علم النبي ﷺ ولا عن امره، قال : وغير جائز أن يظن بابن عباس انه يحفظ عن النبي ﷺ ثم يفتي بخلافه، فلما لم يجز ذلك دلت فتيا ابن عباس على ان ذلك لم يكن عن علم النبي ﷺ ولا عن أمره ، إذ لو كان ذلك عن علم النبي ﷺ لما استحل ابن عباس أن يفتي بخلافه ، أو يكون ذلك منسوخاً استدلالاً بفتيا ابن عباس ، وهذا المسلك ضعيف جداً لوجوه ، أحدها : ان حديث عكرمة عن ابن عباس في رد النبي ﷺ امرأة ركانة عليه بعد الطلاق ثلاثا يبطل هذا التأويل رأساً . الثاني : ان لو كان هذا صحيحاً ، لقال ابن عباس لأبي الصهباء: ما أدري أبلغ ذلك رسول الله ﷺ أو لم يبلغه ، فلما أقره على ذلك اقرار رادٍ لذلك علم انه مما بلغه. الثالث: انه لو كان ذلك صحيحاً لم يقل عمر: ان الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ؛ بـــل كان الواجب أن يبين السنة عن رسول ﷺ في خلاف ذلك ، وان هذا العمل من الناس خلاف دين الإسلام وشرع محمد ﷺ ولم يقل فـلو انا أمضيناه عليهم فإن هذا إمضاء من الله ورسوله لا من عمر . الرابع انه من المستحيل والممتنع أن يكون خيار الخلق يطلقون في عهد رسول الله ﷺ وعهد خليفته من بعده ويراجعون على خلاف دينه فيطلقون طلاقاً محرماً ويراجعون رجعة محرمة ولا يعلمون بذلك رسول الله ﷺ وهو بين اظهرهم ثم حديث ابن عباس الذي رواه احمد يرد ذلك ثم يرده فتوى ابن عباس في احدى الروايتين عنه باصح اسناد كما ان الرواية الأخرى ثابتة عنه وكيف يستمر جهل خيار الأمة في الطلاق والرجعة مدة حياته ﷺ ومدة حياة الصديق وشطراً من خلافة عمر ثم يظهر لهم بعد ذلك الطلاق والرجعة الجائزان وكيف يصح قول عمر ان الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه اناة وكيف يصح قوله فلو امضيناه عليهم فهذا المسلك كما ترى وأما الأمام احمد فأنما رده بفتوى ابن عباس بخلافه وهو راوي الحديثين قال الأثرم : سألت أبا عبدالله عن حديث ابن عباس كان الطلاق ثلاثاً على عهد

رسول الله ﷺ وابي بكر وعمر جعل طلاق الثلاث واحدة بأي شيء تدفعه قال برواية الناس عن ابن عباس من وجوه خلافه وكذلك نقـــل عنه ابن منصور وهذا المسلك انما يجيء على أحد الروايتين أن الصحابي إذا عمل بخلاف الحديث لم يحتج به واتبع عمل الصحابي والمشهور عنه أن العبرة بما رواه الصحابي لا بقوله إذا خالف الحديث ولهذا أخذ برواية ابن عباس في حديث بريرة وان بيع الأمة لا يكون طلاقاً لها لأن رسول الله ﷺ خيرها ولو انفسخ النكاح ببيعها لم يخيرها مع أن مذهب ابن عباس أن الأمة بيعها طلاقها واحتج بظاهر القرآن وهو قوله (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت ايمانكم) فأباح وطيء مملوكته المزوجة ولو كان النكاح باقياً لم ينفسخ ولم يُبَح له وطؤها والجمهور واحمد معهم خالفوه في ذلك وقالوا لا يكون بيعها طلاقاً واحتجوا بحديث بريرة وتركوا رأيه لروايته فأن روايته معصومة ورأيه غير معصوم والمشهور من مذهب الشافعي الأخذ بروايته دون رأيه والمشهور من مذهب ابي حنيفة عكس ذلك وعن احمد روايتان فهذا المسلك في رد الحديث لا يقوى وسلك آخرون في رد الحديث مسلكاً آخر فقالوا هو حديث مضطرب لا يصح ولذلك اعرض عنه البخاري وترجم في صحيحه على خلافه فقال باب في جواز الثلاث في كلمة لقوله (الطلاق مرتان) ثم ذكر حديث اللعان وفيه فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه النبي ﷺ وهو لا يقر على باطل قالوا ووجه اضطرابه انه تارة يروي عن طاووس عن ابن عباس وتارة عن طاووس عن ابي الصهباء عن ابن عباس وتارة عن ابي الجوزاء عن ابن عباس فهذا اضطرابه من جهة السند واما المتن فأن ابا الصهباء تارة يقول ألم تعلم أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل ان يدخل بها جعلوها واحـــدة وتارة يقول ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وابي بكراً وصدّرا من خلافة عمر واحدة فهذا يخالف اللفظ الآخر وهذا المسلك من اضعف المسالك ورد الحديث به ضرب من التعنت ولا يعرف احد من الحفاظ قدح في هـــذا الحديث ولا

ضعفه والأمام احمد لما قيل له بأي شيء ترده فقال برواية الناس عن ابن عباس خلافه ولم يرده بتضعيف ولا قدح في صحته وكيف يتهيأ القـــدح في صحته ورواته كلهم أئمة حفاظ حدث به عبد الرزاق وغيره عن ابن جريج بصيغة الإخبار وحدث به كذلك ابن جريج عن ابن طاووس وحدث به ابن طاووس عن ابيه وهذا اسنادلا مطعن فيه لطاعن وطاوس من أخص اصحاب ابن عباس ومذهبه ان الثلاث واحدة وقد رواه حماد بن زيد عن ايوب عن غير واحد عن طاووس فلم ينفرد به عبد الرزاق ولا ابن جريج ولا عبدالله بن طاووس فالحديث من أصح الأحاديث وترك رواية البخاري لا يوهنه وله حكم امثاله من الأحاديث الصحيحة التي تركها البخاري لئلا يطول كتابه فأنه سماه الجـــامع المختصر الصحيح ومثل هذا العذر لا يقوله من له حظ من العلم وأما رواية من رواه عن ابي الجوزاء فأن كانت محفوظة فهي ما تزيد الحديث إلا قوة وإن لم تكن غير محفوظة فهي وهم في الكنية انتقل فيها عبدالله بن المؤمل عن ابن عباس عن ابن أبي مليكة عن ابي الصهباء إلى ابي الجوزاء فإنه سيء الحفظ والحفاظ قالوا ابو الصهباء وهذا لا يوهن الحديث وهذه الطريق عند الحاكم في المستدرك واما رواية من رواه مقيداً قبل الدخول فقد تقدم انهـــا لا تناقض رواية الآخرين على انها عند ابي داود عن ايوب عن غير واحد ورواية الاطلاق عن معمر وابن جريج عن ابن طاووس عن ابيه فأن تعارضا فهذه الرواية اولى وأن لم تتعارضا فالأمر واضح وحديث داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ صريح في كون الثلاث واحدة في حق المدخول بها وغاية ما يقدر في حديث أبي الصهباء أن قوله قبل الدخول زيادة من نفسه فيكون الأخذ بها اولى وحينئذ فيدل أحد حديثي ابن عباس على ان هذا الحكم ثابت في حق البكر وحديثه الآخر على انه ثابت في حكم الثيب ايضاً فأحد الحديثين يقوي الآخر ويشهد بصحته وبالله التوفيق وقد رده آخرون بمسلك اضعف من هذا كله فقالوا هذا حديث لم يروه عن النبي ﷺ إلا ابن عباس وحده ولا عن ابن عباس إلا طاووس

وحده قالوا فأين أكابر الصحابة وحفاظهم عن رواية مثل هذا الأمر العظيم الذي الحاجة اليه شديدة جداً فكيف خفي هذا على جميع الصحابة وعرفه ابن عباس وحده وخفي على اصحاب ابن عباس كلهم وعلمه طاووس وحده وهذا أفسد من جميع ما تقدم ولا ترد أحاديث الصحابة واحاديث الأئمة الثقات بمثل هذا فكم من حديث تفرد به واحد من الصحابة لم يروه غيره وقبلته الأئمة كلهم فلم يرده أحد منهم وكم من حديث تفرد به من هو دون طاووس بكثير ولم يرده احد من الأئمة ولا نعلم أحداً من أهل العلم قديما ولا حديثاً قال ان الحديث اذا لم يروه إلا صحابي واحد لم يقبل وانما يحكى عن اهل البدع ومن تبعهم في ذلك اقوال لا يعرف لها قائل من الفقهاء وقد تفرد الزهري بنحو ستين سنة لم يروها غيره وعملت بها الأئمة ولم تردها بتفرده هذا مع ان عكرمة روى عن ابن عباس حديث ركانة وهو موافق لحديث طاووس عنه فإن قدح في عكرمة ابطل وتناقض فأن الناس احتجوا بعكرمة وصحح ائمة الحفاظ حديثه ولم يلتفتوا إلى قدح من قدح فيه فأن قيل هذا هو الحديث الشاذ وأقل أحواله أن يتوقف فيه ولا يجزم بصحته عن رسول الله ﷺ قيل ليس هذا هو الشاذ وانما الشذوذ أن يخالف الثقات فيما رواه فيشذ عنهم بروايته فأما إذا روى الثقة حديثاً منفرداً به لم يرو الثقات خلافه فإن ذلك لا يسمى شاذاً وإن اصطلح على تسميته شاذاً بهذا المعنى لم يكن هذا الاصطلاح موجباً لرده ولا مسوغاً له . قال الشافعي وليس للشاذ أن ينفرد الثقة برواية الحديث بل الشاذ أن يروي خلاف ما رواه الثقات قاله في مناظرته لبعض من ردّ الحديث بتفرد الراوي به ثم إن هذا القول لا يمكن احداً من الأئمة واهل العلم ولا من اتباعهم طرده ولو طردوه لبطل كثير من اقوالهم وفتاويهم والعجب إن الرادين لهذا الحديث بمثل هذا الكلام قد بنوا كثيراً من مذاهبهم على احاديث ضعيفة انفرد بها وانها لا تعرف عن سواها وذلك اشهر وأكثر من ان نعده ولما رأى بعضهم ضعف هذه المسالك وانها لا تحدث شيئاً استروح الى تأويله

فقال معنى الحديث ان الناس كانوا يطلقون على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وعمر واحدة ولا يوقعون الثلاث فلما كان في اثناء خلافة عمر اوقعوا الثلاث وأكثروا من ذلك فأمضاه عليهم عمر كما أوقعوه فقوله كان الثلاث على عهد رسول الله ﷺ واحدة أي في التطليق وايقاع المطلقين لا في حكم الشرع قال هذا القائل وهذا من اقوى ما يحاب به وبه يزول كل اشكال ولعمر الله لو سكت هذا كان خيراً له واستر فإن هذا المسلك اضعف ما قيل في الحديث وسياقه يبين بطلانه بياناً ظاهراً لا اشكال فيه وكأن قائله أحب الترويج على قوم ضعفاء العلم مخلدين الى حضيض التقليد فروج عليهم مثل هذا وهذا القائل كأنه لم يتأمل الفاظ الحديث ولم يعن بطرقه فقد ذكرنا من بعض الفاظه قول ابي الصهباء لابن عباس أما علمت إن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وصدر من أمارة عمر فأقر ابن عباس بذلك وقال نعم وايضا فقول هذا المتأول انهم كانوا يطلقون على عهد رسول الله ﷺ واحدة قد نقضه هو بعينه وأبطل حيث اجتمع على وقوع الثلاث بحديث الملاعن وحديث محمود بن لبيد ان رجلاً طلق امرأته على عهد رسول الله ﷺ ثلاثاً فغضب رسول الله ﷺ وقال : أيلعب بكتاب الله وانا بين اظهركم. ثم زاد هذا القائل زيادة في الحديث من عنده فقال وامضاه عليه ولم يرده وهذه اللفظة موضوعة لا تروى في شيء من طرق هذا الحديث البتة وليست في شيء من كتب الحديث وانما هي من كيس هذا القائل حمله عليها فرط التقليد ومحمود بن لبيد لم يذكر ما جرى بعد ذلك من امضاء اورد إلى واحدة والمقصود أن هذا القائل تناقض وتأول الحديث تأويلاً يعلم بطلانه من سياقه ومن بعض الفاظه أن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وصدر من خلافة عمر يرد إلى الواحدة وهذا موافق للفظ الآخر كان إذا طلق امرأته ثلاثاً جعلوها واحدة وجميع الفاظه متفقة على هذا المعنى يفسر بعضها بعضاً فجعل هذا وامثاله المحكم متشابهاً والواضح مشكلاً

وكيف يصنع بقوله فلو امضيناه عليهم فأن هذا يدل على ان هذا رأي من عمر رأى ان يمضيه عليهم لتتابعهم فيه وسدهم على انفسهم مـــا وسعه الله عليهم وجمعهم ما فرقه وتطليقهم على غير الوجه الذي شرعه وتعديهم حدوده وهؤلاء لم يتقوه في الطلاق ولم يراعوا حدوده فلا يستحقون المخرج الذي ضمنه لمـــن اتقاه ولو كان الثلاث تقع ثلاثاً على عهد رسول الله ﷺ وهو دينه الذي بعثه الله به لم يضف عمر امضاءه إلى نفسه ولا كان يصح هذا القول منه وهو بمنزلة من يقول في الزنا وقتل النفس وقذف المحصنات لو حرمناه عليهم وبمنزلة من يقول في وجوب الظهر والعصر ووجوب صوم رمضان والغسل من الجنابة فلو فرضناه عليهم ففرضه عليهم فدعوى هذه التأويلات المستكرهة التي كلما نظر فيها طالب علم ازداد بصيرة في المسألة وقوى جانبها عنده فإنه يرى ان الحديث لا يرد بمثل هذه الأشياء . وقـــد سلك ابو عبد الرحمن النسائي في سننه في الحديث مسلكاً آخر فقال باب طلاق الثلاث المتفرقة قبـــل الدخول بالزوجة ثم ساقه فقال حدثنا ابو داود وحدثنا ابو عاصم عن ابن جريج عن ابن طاووس عن ابيه أن ابا الصهباء جاء إلى ابن عباس فقال يا ابن عباس ألم تعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدر من خلافة عمر ترد إلى واحدة قال نعم وانت اذا طابقت بين هذه الترجمة وبين لفظ الحديث وجدته لا يدل عليها ولا يشعر بها بوجه من الوجوه بل الترجمة لون والحديث لون آخر وكأنه لما اشكل عليه وجه الحديث حمله على ما إذا قال لغير المدخول بها انت طالق انت طالق انت طالق طلقة واحـــدة ومعلوم أن هذا الحـــكم لم يزل ولا يزال كذلك ولا يتقيد ذلك بزمان رسول الله ﷺ وابي بكر وصدر من خلافة عمر ويمضي الثلاث بعد ذلك على المطلق فالحديث لا يندفع بمثل هذه البتة إلى أن قال ومـــا يوضح ذلك أن جمهور الفقهاء من الطوائف الثلاثة احتجوا على الشافعي في تجويزه جمع الثلاث بالقرآن . قالوا ما شرع سبحانه جمع الطلاق الثلاث وما شرع الطلاق بعد الدخول بغير عوض الا شرع

فيه الرجعة ما لم يستوف العدة واحتجوا عليه بقوله تعالى (الطلاق مرتان) قالوا ولا يعقل في لغة من لغات الأمم المرتان إلا مرة بعد مرة فعارضهم بعض اصحابه بقوله تعالى: (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها اجرها مرتين) وقوله ﷺ ثلاثة يؤتون اجرهم مرتين فأجابهم الآخرون بأن المرتين والمرات يراد بها الافعال تارة والأعيان تارة وأكثر ما تستعمل في الافعال وأما الأعيان فكقوله في الحديث انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ مرتين أي شقتين وفلقتين ولما خفي هذا على من لم يحط به علماً زعم ان الانشقاق وقع مرة بعد مرة في زمانين وهذا مما يعلم أهل الحديث ومن له خبرة بأحوال الرسول ﷺ وسيرته انه غلط وانه لم يقع الانشقاق إلا مرة واحدة ولكن هذا وأمثاله فهموا من قوله مرتين المرة الزمانية اذا عرف هذا فقوله (نؤتها اجرها مرتين) وقوله (يؤتون اجرهم مرتين) أي ضعفين فيؤتون اجرهم مضاعفاً وهذا يمكن اجتماع المرتين فيه في زمان واحد ، وأما المرتان من الفعل فمحال اجتماعهما في زمن واحد فإنهما مثلان واجتماع المثلين محال ، وهو نظير اجتماع حرفين في آن واحد من متكلم واحد وهذا مستحيل قطعاً ، فيستحيل أن يكون مرّتا الطلاق في إيقاع واحد ، ولهذا جعل مالك وجمهور العلماء من رمى الجمار بسبع حصات جملة انه غير مؤد للواجب عليه وإنما يحتسب له رمي حصاة واحدة فهي رمية لا سبع رميات ، واتفقوا كلهم على انه لو قال في اللعان: أشهد بالله أربع شهادات اني صادق ، كانت شهادة واحدة ، وفي الحديث الصحيح : من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر ، فلو قال : سبحان الله وبحمده مائة مرة هذا اللفظ لم يستحق الثواب المذكور وكانت تسبيحة واحدة ، وكذلك قوله: تسبحون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمدون ثلاثا وثلاثين وتكبروه أربعاً وثلاثين ، لو قال : سبحان الله ثلاثا وثلاثين لم يكن مسبحاً هذا العدد حتى يأتي به مرة واحدة بعد واحدة ، ونظائر ذلك في الكتاب والسنة أكثر من أن

تذكر . قالوا : فقوله : (الطلاق مرتان) إما أن يكون خبراً في معنى الأمر أي : إذا طلقتم فطلقوا مرتين ، وإما أن يكون خبراً عن حكمه الشرعي الديني ، أي الطلاق الذي شرعه لكم ، وشرعت فيه الرجعة مرتان . وعلى التقديرين إما أن يكون ذلك مرة بعد مرة فلا يكون موقعاً للطلاق الذي شرعه له إلا إذا طلق مرة بعد مرة ولا يكون موقعاً للمشروع بقوله : أنت طالق ثلاثا ولا مرتين قالوا : ويوضح ذلك أنه حصر إطلاق المشروع في مرتين فلو شرع جمع الطلاق في دفعة واحدة لم يكن الحصر صحيحاً ولم يكن الطلاق كله مرتان بل كان منه مرتان ومنه مرة واحدة تجمعه ، وهذا خلاف ظاهر القرآن وانه لا طلاق للمدخول بها إلا مرتان وتبقى الثالثة المحرمة بعد ذلك قالوا : ويدل عليه ان الطلاق اسم محلى باللام وليست للعهد بل للعموم فالمراد بالآية كل الطلاق مرتان والمرة الثالثة التي تحرمها عليه وتسقط رجعته ، وهذا صريح في ان الطلاق المشروع هو الطلاق المتفرق لأن المرّات لا تكون إلا متفرقة كما تقدم قالوا : ويدل عليه قوله تعالى : (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فهذا حكم كل طلاق شرعه الله إلا المطلقة المسبوقة بطلقتين قبلها فإنه لا يبقى بعدها إمساك ، إلى أن قال : ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث انه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر لأنه غير مطلق للعدة فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى فلا تكون الثانية للعدة . قال الإمام أحمد في ظاهر مذهبه ومن وافقه : إذا أراد أن يطلقها ثانية طلقها بعد عقد أو رجعة لأن العدة تنقطع بذلك فإذا طلقها بعد ذلك أخرى طلقها للعدة . وقال في رواية أخرى عنه : له أن يطلقها الثانية في الطهر الثاني والثالثة في الطهر الثالث ، وهو قول أبي حنيفة ، فيكون مطلقاً للعدة أيضاً لأنها تبنى على ما مضى ، والصحيح هو الأول وانه ليس له أن يردف الطلاق قبل الرجعة أو العقد لأن الطلاق الثاني لم يكن استقبال العدة بل هو طلاق لغير العدة فلا يكون مأذوناً فيه فإن العدة إنما تحتسب من

الطلقـــة الأولى لأنها طلاق العدة ، بخلاف الثانية والثالثة ، ومن جعله مشروعاً قال : هو الطلاق لتام العدة ، والطلاق لتامها كالطلاق لاستقبالهـــا وكلاهما طلاق للعدة واصحاب القول الأول يقولون المراد بالطلاق للعـــدة لاستقبالها كما في القراءة الأخرى التي تفسر القراءة المشهورة (فطلقوهن في قبل عدتهن) قالوا فإذا لم يشرع ارداف الطلاق بها للطلاق قبل الرجعة أو العقد فلأن لا يشرع جمعها معه اولى واحرى فإن ارداف الطلاق اسهل من جمعـه ولهذا يسوغ الإرداف في الأطهار من لا يجوز الجمع في الطهر الواحد وقداحتج عبدالله بن عباس على تحريم جمع الثلاث بهذه الآية قال مجاهد كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال انه طلق امرأته ثلاثاً فسكت حتى ظننت انه رادها اليه ثم قال : ينطلق احدكم فيركب الاحموقة ثم يقول يا ابن عباس وأن الله عز وجل قال (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) فما اجد لك مخرجاً عصيت ربك وبانت منك امرأتك وان الله عز وجل يقول (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن) وهذا حديث صحيح ففهم ابن عباس من الآية أن جمع الثلاثة محرم وهذا فهم من دعا له النبي ﷺ ان يفقه في الدين ويعلمه التأويل وهو من احسن التأويل كما تقرر الوجه الثاني من الاستدلال بالآية قوله تعالى (لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا ان يأتين بفاحشة مبينة)وهذا انما هو في الطلاق الرجعي فأما البائن فلا سكن لها ولا نفقة بسنة رسول الله ﷺ الصحيحة التي لا مطعن في صحتها الصريحة التي لا شبهة في دلالتها فدل على ان هذا حكم كل طلاق شرعه الله ما لم تسبقه طلقتان قبله ولهـــذا قال الجمهور انه لا يشرع له ولا يملك ابانتها بطلقة واحدة بدون العوض وابوحنيفة قال يملك ذلك لأن الرجعة حقه وقدأسقطها والجمهور يقولون ثبوت الرجعة وان كان حقاً له فلها عليه حقوق الزوجية فلا يملك اسقاطها إلا بمخالفة أو باستيفاء العدد كما دل عليه القرآن . الوجه الثالث انه قال (وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) فإذا طلقها ثلاثاً جملة واحدة فقد تعدى حدود الله

فيكون ظالماً . الوجه الرابع انه سبحانه قال (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وقد فهم أعلم الأمة بالقرآن وهم الصحابة ان الأمر هنـــا هو الرجعة قالوا وأي أمر يحدث بعد الثلاث إلى ان قال: قالوا ان الله سبحانه شرع الطلاق على ايسر الوجوه وارفقها بالزوج والزوجة لئلا يسارع العبد في وقوعه ومفارقة حبيبته ومد له وقت العدة اجلاً لاستدراك الفارطة بالرجعة فلم يبح له ان يطلق المرأة في حال حيضها لأنه وقت نفرته عنها وعدم قدرته على استمتاعه بها ولا عقيب جماعها لأنه قد قضى غرضه منها وربما فترت رغبته فيها وزهد في امساكها لقضاء وطره فإذا طلقها في هاتين الحالتين ربمـا يندم فيما بعد هذا مع ما في الطلاق في الحيض في تطويل العدة وعقيب الجماع من طلاق من لعلها قد اشتمل رحمها على ولد منه فلا يريد فراقهـــا فأما إذا حاضت ثم طهرت فنفسه تتوق إليها لطول عهده بجماعها فلا يقدم على طلاقها في هذه الحال إلا لحاجته إليه فلم يبح له الشارع ان يطلقها إلا في هذه الحال أو في حال استبانة حملها لأن إقدامه أيضاً على طلاقها في هذه الحال دليل على حاجته إلى الطلاق وقد أكد النبي ﷺ هذا بمنعه لعبدالله بن عمران يطلق في الطهر الذي يلي الحيضة التي طلقها فيها بل امره ان يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم ان بدا له ان يطلقها طلقها في ذلك الطهر فكأنه طلقها في الحيضة لاتصاله بها وكونه معها كالشيء الواحد. الثاني: انه لو أذن له في طلاقها في ذلك الطهر فيصير كأنه راجع لأجل الطلاق وهذا ضد مقصود الرجعة فإن الله إنما شرعها للامساك ولمنفعة النكاح وعود الفراش فلا يكون لأجل الطلاق فيكون كأنه راجع ليطلق وإنما شرعت الرجعه لتمسك وبهذا بعينه ابطلنا نكاح المحلل فإن الله سبحانه شرع النكاح للامساك والمعاشرة والمحلل تزوج ليطلق فهو مضاد لله في شرعه ودينه الثالث انه إذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر ثم تحيض ثم تطهر زال ما في نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق وربما صلحت الحال بينهما وأقلعت عما يدعوه إلى طلاقها فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها

واذا كان الشارع ملتفتاً الى مثل هذه الرحمة والشفقة على الزوج وشرع الطلاق على هذا الوجه الذي هو أبعد شيء عن الندم فكيف يليق بشرعه ابانتها وتحريمها عليه بكلمة واحدة يجمع فيها ما شرعه متفرقاً بحيث انه لا يكون له سبيل إليها وكيف تجتمع في حكمة الشارع وحكمه هـــذا وهذا فهذه الوجوه ونحوها مما بين بها الجمهور ان جمع الثلاث غير مشروع وهي بعينها تبين عدم الوقوع وانه انما يقع المشروع وحـــده وهي الواحدة قالوا فتبين لنا بأصول الشرع وقواعده اننا أسعد منكم وان قياس الأصول وقواعد الشرع من جانبنا ، وقد تأيدت بالسنة الصحيحة التي ذكرناها ، وقولكم المطلق ثلاثاً قد جمع ما فسخ له في تفريقه هو إلى أن يكون حجة عليكم أقرب فأنه إنما اذن له فيه وملكه مفرقاً لا مجموعاً فإذا جمع ما أمر بتفريقه فقد تعدى حدود الله وخالف ما شرعه ولهذا قال من قال من السلف رجل أخطأ السنة فيرد اليها فهذا أحسن من كلامكم وأبين وأقرب إلى الشرع والمصلحة ثم هذا ينتقض عليكم بسائر ما ملكه الله العبد واذن فيه مفرقاً فأراد ان يجمعه كرمي الجمار الذي شرعه مفرقاً واللعان الذي شرعه كذلك وايمان القسامة التي شرعت كذلك ونظير قياسكم هـــذا ان له ان يؤخر الصلوات كلها ويصليها في وقت واحد لأنه جمع ما امر بتفريقه على ان هذا قد فهمه كثير من العوام يؤخرون صلوات اليوم إلى الليل ويصلون الجميع في وقت واحد ويحتجون بمثل هذه الحجة بعينها ولو سلكتم عن نصر المسألة بمثل ذلك لكان أقوى لها .

﴿ فصل ﴾

فاستروح بعضهم إلى مسلك آخر غير هذه المسالك لما تبين فسادها فقال هذا حديث واحد والأحاديث الكثيرة عن رسول الله ﷺ دالة على خلافه وذكر أحاديث منها مـا في الصحيحين عن فاطمة بنت قيس ان أبا حفص بن

المغيرة طلقها البتة وهو غائب فأرسل اليها وكيله بشعير فسخطته فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال : « ليس لك عليه نفقة » . وقد جاء تفسير هذه البتة في الحديث الآخر الصحيح انه طلقها ثلاثا ، فلم يجعل لها النبي ﷺ سكنى ولا نفقة ، فقد أجاز عليها الثلاث وأسقط بذلك نفقتها وسكناها .

وفي المسند: أن هذه الثلاث كانت جميعاً ، فروي من حديث الشعبي ان فاطمة خاصمت زوجها إلى النبي ﷺ لما أخرجها من الدار ومنعها من النفقة فقال مالك ولا بنة قيس قال : يا رسول الله ان أخي طلقها ثلاثا جميعاً وذكر الحديث .

ومنها ما في الصحيحين عن عائشة ان رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت فطلقت فسئل النبي ﷺ : أتحل للأول ؟ قال : « لا حتى يذوق عسيلتها كما ذاق الأول » . ووجه الدليل انه لم يستفصل : هل طلقها ثلاثا مجموعة أو متفرقة ؟ فلو اختلف الحال لوجب الاستفصال . ومنها ما اعتمد عليه الشافعي في قصة الملاعنة ان عويمر العجلاني أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا فيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك اذهب فأت بها » .قال سهل : فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ ، فلما فرغا من تلاعنها قال عويمر : كذبت عليها يا رسول الله ان أمسكتها ، فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله ﷺ . قال الزهري : وكانت تلك سنة المتلاعنين متفق على صحته . قال الشافعي : فقد أقرّه رسول الله ﷺ على الطلاق ثلاثا ، ولو كان حراماً ما أقرّه عليه . ومنها ما رواه النسائي عن محمود بن لبيد قال : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام مغضباً ثم قال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » ؟ حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ألا أقتله؟ ولم يقل انه لم يقع عليه إلا واحدة بل الظاهر انه أجازها عليه إذ لو كانت واحدة لبيّن له ذلك لأنه إنما طلقها ثلاثا يعتقد لزومها فلو لم تلزمه لقال له : هي زوجتك بعد ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا

يجوز . ومنها ما رواه أبو داود وابن ماجه عن ركانة انه طلق امرأته البتّة فأتى النبي ﷺ فقال : ما أردت إلا واحـــدة قال : آلله ما أردت بها إلا واحدة؟، قال : الله ما أردت إلا واحدة ؛ رواه الترمذي وفيه قال:يارسول الله اني طلقت امرأتي البتة فقال : « ما أردت بها ؟ » قلت : واحدة قال : « والله » ، قلت : والله ، قال : « فهو ما أردت » . قـال أبو داود : هذا أصح من حديث ابن جريج ان ركانة طلق امرأته ثلاثا . وقـال ابن ماجة : سمعت أبا الحسن علي بن محمد الطنافسي يقول : ما أشرف هذا الحديث . قال أبو عبد الله ابن ماجة : أبو عبيد تركه ناحيته وأحمد جبن عنه .ووجه الدلالة انه حلفه ما أراد بها إلا واحدة ، وهذا يدل على انه لو أراد بهـــا أكثر من واحدة لألزمه ذلك ، ولو كانت واحدة مطلقاً لم يفترق الحـال بين أن يريد واحدة أو أكثر ، وإذا كان هذا في الكناية فكيف في الطـلاق الصريح إذا صرح فيه بالثلاث . ومنها ما رواه الدارقطني من حديث حماد بن زيد:حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال : سمعت أنس بن مالك يقول سمعت معاذ بن جبل يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا معاذ من طلق للبدعـة واحـدة أو اثنتين أو ثلاثا ألزمناه بدعته » . ومنها ما رواه الدارقطني منحديث ابراهيم ابن عبد الله بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده قال : طلق بعض آبائي امرأته البتة فانطلق بنـوه إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ان أبانا طلق امرأته ألفاً فهل له من مخرج ؟ فقال : « إن أباكم لم يتق الله فيجعل له مخرجاً بانت منه بثلاث على غير سنة وتسعمائة وسبعة وتسعون إثم في عنقه ». ومنها ما رواه الدارقطني أيضاً من رواية زاذان عن علي : سمـــع النبي ﷺ رجلاً طلق البتة فغضب وقال : « تتخـذون آيات الله هزواً ودين الله هزواً ولعباً ، مَن طلق البتة ألزمناه ثلاثا ، لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره » . ومنها ما رواه الدارقطني أيضاً من حديث الحسن البصري قـــال : حدثنا عبد الله بن عمر انه طلق امرأته وهي حـــائض ثم أراد أن يتبعها بطلقتين

أخريين عند القرئين فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « يا ابن عمر ما هكذا أمرك الله ، انك قد أخطأت السنة ، والسنة أن تستقبل الطهر فطلق عند ذلك أو امسك » ، فقلت: « يا رسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثا أكان يحل أن أراجعها ؟ قال : « لا كانت تبين منك وتكون معصية ». ومنها ما رواه أبو داود والنسائي عن حماد بن زيد قال: قلت لأيوب: هل علمت أحداً قال: أمرك بيدك انها ثلاثا غير الحسن؟ قال: لا ، ثم قال : اللهم غفراً إلا ماحدثني قتادة عن كثير مولى سمرة عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال ثلاثا ، فلقيت كثيراً فسألته فلم يعرفه فرجعت إلى قتادة فأخبرته فقال:نسي، رواه الترمذي وقال : لا نعرفه إلا من حديث سليمان بن حرب عن حماد بن زيد ، وحسبك بسليمان بن حرب وحماد بن زيد ثقتين ثبتين . ومنها ما رواه البيهقي من حديث سويد بن غفلة عن الحسن انه طلق عائشة الخثعمية ثلاثا ثم قال : لولا اني سمعت جدّي أو حدثني أبي انه سمع جدي يقول : أيما رجل طلق امرأته ثلاثا عند الاقراء أو ثلاثا مبهمة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره لراجعتها،رواه منحديث ابي حميد حدثنا سلمةبن الفضل عن عمرو بن أبيقيس عن ابراهيم بن عبد الأعلى عن سويد وهذا مرفوع ، قالوا : فهذه الأحاديث أكثر وأشهر وعامتها أصح من حديثأبي الصهباء وحديثابنجريجعنعكرمة عن ابنعباس ، فيجب تقديمها عليه ولا سيما على قاعدة الإمام أحمد فإنه يقدم الأحاديث المتعددة على الحديث الفرد عند التعارض وإن كان حديث الفرد متأخراً كما قدم في إحدى الروايتين أحاديث تحريم الأوعية على حديث بريرة لكونها كثيرة متعددة ، وحديث بريدة في إباحتها فرد وهو متأخر ، فإنه قال : كنت نهيتكم عن الانتباذ في الأوعية فاشربوا في ما بدا لكم غير ألا تشربوا مسكراً ، مع انه حديث صحيح رواه مسلم ولا نعرف له علة . قال الآخرون : هذه الأحاديث التي ذكرتموها ولم تدعوا بعدها شيئاً هي بين أحاديث صحيحة لا مطعن فيها ولا حجة فيها وبين

أحاديث صريحة الدلالة لكنها باطلة أو ضعيفة لا يصح شيء منها وأما حديث فاطمة بنت قيس فمن اصح الأحاديث مع ان أكثر المنازعين لنا في هذه المسألة قد خالفوه ولم يأخذوا به فأوجبوا للمبتوتة النفقة والسكنى ولم يلتفتوا إلى هذا الحديث ولا عملوا به وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه وأما الشافعي ومالك فأوجبوا لها السكنى والحديث قد صرح فيه بأنه لا نفقة لها ولا سكنى فخالفوه ولم يعملوا به فإن كان الحديث صحيحاً فهو حجـــة عليكم وإن لم يكن محفوظاً بل هو غلط كما قاله بعض المتقدمين فليس حجة علينا في جمع الثلاث فأما ان يكون حجة لـكم على منازعيـكم ليس حجة لهم عليكم فبعيد عن العدل والانصاف هذا مع اننا ننزل عن هذا المقام ونقول : الاحتجاج بهذا الحديث فيـــه نوع سهو من المحتج به ولو تأمل طرق الحديث وكيف وقعت القصة لم يحتج به فإن الثلاث المذكورة فيه لم تكن مجموعة وإنما كان قد طلقها تطليقتين قبل ذلك ثم طلقها آخر الثلاث هكذا جاء مصرحاً به في الصحيح فروى مسلم في صحيحه عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ان أبا عمرو ابن حفص بن المغيرة خرج مع علي ابن ابي طالب إلى اليمن فأرسل إلى امرأتـــه فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها وأمر لها الحارث بن هشام وعياش بن ابي ربيعة بنفقة فقالا لها : والله ما لك نفقة إلا أن تكوني حاملاً فأتت النبي ﷺ فذكرت له قولهما فقال : لا نفقة لك. وساق الحديث بطوله فهذا المفسر يبين ذلك المجمل وهو قوله طلقها ثلاثاً وقال الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة عن فاطمة بنت قيس أنها أخبرته أنها كانت عند أبي حفص بن المغيرة وإن أبا حفص بن المغيرة طلقها آخر ثلاث تطليقات وساق الحديث ذكره أبو داود ثم قال وكذلك رواه صالح بن كيسان وابن جريج وشعيب ابن أبي حمزة كلهم عن الزهري ثم ساق من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبيدالله قال أرسل مروان الى فاطمة فسألها فأخبرته أنها كانت عند أبي حفص وكان النبي ﷺ أمر علي ابن ابي طالب على بعض اليمن

فخرج معه زوجها فبعث إليها بتطليقة كانت بقيت وذكره بتمامه والواسطة بين مروان وبينها هو قبيصة بن ذؤيب كذا ذكره أبو داود في طريق أخرى فهذا بيان حديث فاطمة قالوا ونحن أخذنا به جميعه ولم نخالف منه شيئاً إذ كان صحيحاً صريحاً لا مطعن فيه ولا معارض له فمن خالفه فهو محتاج إلى الاعتذار وقد جاء هذا الحديث بخمسة ألفاظ طلقها ثلاثاً وطلقها البتة وطلقها آخر ثلاث تطليقات وأرسل إليها بتطليقة كانت بقيت لها وطلقها ثلاثاً جميعاً فهذه جملة الفاظ الحديث وبالله التوفيق وأمـــا اللفظ الخامس وهو قولهطلقها ثلاثاً جميعـــاً فهذا أولاً من حديث مجالد عن الشعبي ولم يقلذلكعن الشعبي غيره مع كثرة من روى هذه القصةعن الشعبي فتفرد مجالد على ضعفه من بينهم بقوله ثلاثاً جميعاً وعلى تقدير صحته فالمراد به انه اجتمع لها التطليقات الثلاث لأنهاوقعت بكلمة واحدة فإذا طلقها آخر ثلاثصح ان يقال طلقها ثلاثاً جميعاً فإن هذه اللفظة يراد بها تأكيد العدد وهو الأغلب عليها لا الاجتماع في الآن الواحد كقوله تعالى(ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً)فالمرادحصول الإيمان من الجميع لا إيمانهم في آن واحد سابقهم ولاحقهم .

﴿ فصل ﴾

وكذلك ما ذكره من حديث عائشة ان رجلاً طلق امرأته ثلاثا فسئل النبي ﷺ هل تحل للأول فقال لا الحديث وهو حق يجب المصير إليه لكن ليس فيه انه طلقها ثلاثا بفم واحد فلا تدخلوا فيه ما ليس فيه وقولكم لم يستفصل . جوابه: ان الحال قد كان عندهم معلوماً أن الثلاث إنمـــا تكون واحدة وهذا مقتضى اللغة والقرآن والشرع والعرف كما بينا فخرج الكلام على المفهوم المتعارف من لغة القوم .

﴿ فصل ﴾

وأما ما اعتمد عليه الشافعي من طلاق الملاعن ثلاثاً بحضرة النبي ﷺ ولم ينكره فلا دليل فيه لأن الملاعنة يحرم عليه إمساكهاوقد حرمت عليه تحريماً

مؤبداً فما يزداد الطلاق الثلاث هذا التحريم الذي هو مقصود اللعان إلا تأكيداً وقوة وهذا جواب شيخنا رحمه الله وقال ابن المنذر وقد ذكر الأدلة على تحريم جمع الطلاق الثلاث وانه بدعة ثم قال: واما ما اعتل به من رأى أن مطلق الثلاث في مرة واحدة مطلق للسنة بحديث العجلاني فانما أوقع الطلاق عنده على اجنبية علم الزوج الذي طلق ذلك ولم يعلم لأن قائله يوقع الفرقة بالتعان الرجل قبل أن تلتعن المرأة فغير جائز أن يحتج بمثل هذه الحجة من يرى أن الفرقة تقع بالتعان الزوج وحده انتهى وحينئذ فنقول إما أن تقع الفرقة بالتعان الزوج وحده كما يقوله الشافعي أو بالتعانها كما يقوله احمد أو يقف على تفريق الحاكم فأن وقعت بالتعانه أو بالتعانها فالطلاق الذي وقع منه لغو لم يفد شيئاً البتة وهو طلاق في اجنبية وإن وقفت الفرقة على تفريق الحاكم فهو تفريق بينهما تفريقاً يحرمها عليه تحريماً مؤبداً فالطلاق الثلاث أكد هذا التحريم الذي هو وجوب اللعان ومقصود الشارع فكيف يلحق به طلاق غير الملاعنة وبينهما أعظم فرق .

﴿ فصل ﴾

وأما حديث محمود بن لبيد في قصة المطلق ثلاثاً فالاحتجاج به على الجواز من باب قلب الحقائق والاحتجاج بأعظم ما يدل على التحريم لا على الإباحة والاستدلال به على الوقوع من باب التكهن والخرص والزيادة في الحديث ما ليس فيه ولا يدل عليه بشيء من وجوه الدلالات البتة ولكن المقلد لا يبالي بنصرة تقليده كما اتفق له وكيف يظن برسول الله ﷺ انه أجاز عمل من استهزأ بكتاب الله وصححه واعتبره في شرعه وحكمه ونفذه وقد جعله مستهزئاً بكتاب الله وهذا صريح في ان الله سبحانه لم يشرع جمع الثلاث ولا جعله من أحكامه .

﴿ فصل ﴾

واما حديث ركانة انه طلق امرأته البتة وأن رسول الله ﷺ استحلفه

ما اراد بها إلا واحدة فحديث لا يصح قال ابو الفرج ابن الجوزي في كتاب العلل له قال احمد حديث ركانة ليس بشيء وقال الخـــلال في كتاب العلل الأثرم قلت لأبي عبدالله حديث ركانة فضعفه وقال شيخنـــا الأئمة عن الكبار والعارفون بعلل الحديث كالامام احمد والبخاري وابي عبيد وغيرهم ضعفوا حديث ركانة البتة وكذلك ابو محمد بن حزم وقالوا أن رواته قوم مجاهيل لا تعرف عدالتهم ولا ضبطهم قال وقال الامام احمد حديث ركانة انه طلق امرأته البتة لا يثبت وقال ايضاً حديث ركانة في البتة ليس بشيء لان ابن اسحق يرويه عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس ان ركانة طلق امرأته ثلاثاً واهـــل المدينة يسمون من طلق ثلاثاً البتة فإن قيل قد قال ابو داود حديث البتة اصح من حديث ابن جريج ان ركانة طلق امرأته ثلاثاً لأن اهل بيته اعلم يعني وهم الذين رووا حديث البتة قال شيخنا في الجواب ابو داود انما رجح حديث البتة على حديث ابن جريج لأنه روى حديث ابن جريج من طريق فيها مجهول قال حدثنا احمد بن صالح حدثنا عبد الرزاق عـــن ابن جريج حدثني بعض ولد ابي رافع عن عكرمة عن ابن عباس طلق عبد يزيد ابو ركانة واخوته أم ركانة ثلاثاً الحديث ولم يرو الحديث الذي رواه احمد في مسنده عن ابراهيم بن سعد حدثني ابي عن محمد بن اسحق حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس طلق ركانة بن زيد امرأته ثلاثاً في مجلس واحد فلهذا رجح ابو داود حديث البتة على حديث ابن جريج ولم يتعرض لهذا الحديث ولا رواه في سننه ولا ريب انه أصح من الحديثين وحديث ابن جريج شاهد له وعاضد فإذا انضم حديث ابي الصهباء إلى حديث ابن اسحق إلى حديث ابن جريج مع اختلاف مخارجها وتعدد طرقها افادت العلم بانهـــا اقوى من حديث البتة بلا شك ولا يمكن من شم روائح الحديث ولو على بعد ان يرتاب في ذلك فكيف يقدم الحديث الضعيف الذي ضعفه الأئمة ورواته مجاهيل على هذه الأحاديث؟ .

﴿ فصل ﴾

وأما حديث معاذ بن جبل فقد وهت مسألة يحتج فيها بهذا الحديث الباطل والدارقطني إنما رواه للمعرفة وهو أجل من أن يحتج به وفي إسناده اسماعيل ابن أمية الدارع يرويه عن حماد وقال الدارقطني بعد روايته واسماعيل بن أمية متروك الحديث .

﴿ فصل ﴾

وأما حديث عبادة بن الصامت الذي رواه الدارقطني فقد قال عقيب اخراجه رواته مجهولون الا شيخنا وابن عبدالباقي وأما حديث زاذان عن علي فيرويه إسماعيل بن أمية القرشي وهذا كوفي ضعيف الحديث قلت في اسناده مجاهيل وضعفاء وأما حديث الحسن عن ابن عمر فهو امثل هذه الأحاديث الضعاف قال الدارقطني حدثنا محمد بن عبيد الحافظ حدثنا محمد بن شاذان الجوهري حدثنا يعلى بن منصور حدثنا شعيب بن زريق ان عطاء الخراساني حدثهم عن الحسن حدثنا عبدالله بن عمر فذكره وشعيب وثقه الدارقطني وقال أبو الفتح الأزري فيه لين وقال البيهقي وقد روى هذا الحديث هذه الزيادات انفرد فيها شعيب وتكلموا فيه انتهى ولا ريب ان الثقات الأثبات الأئمة رووا حديث ابن عمر هذا ولم يأت احد منهم بما أتى به شعيب البتة ولهذا لم يرو حديثه هذا احد من أصحاب الصحيح ولا السنن وأما حديث كثير مولى سمرة عن أبي سلمة عن أبي هريرة فقد أنكره كثير لما سئل عنه ومثل هذا بعيد ان ينسى وقد اعلّ البيهقي هذا الحديث وقال كثير لم يثبت من معرفته ما يوجب الاحتجاج به قال : وقول العامة بخلاف روايته وقد ضعفه عبدالحق في أحكامه وابن حزم في كتابه وأما حديث سويد بن غفلة عن الحسن فمن رواية محمد بن حميد الرازي قال أبو زرعة : الرازي كذاب وقال صالح جزرة: ما رأيت احذق بالكذب منه ومن الشاذ كوفي وسلمة بن الفضل قال : ابو حاتم منكر الحديث وإن كان رواته ثقى فقد ضعفه إسحق بن راهوية وغيره .

﴿ فصل ﴾

فلما رأى آخرون ضعف هذا المسلك استروحوا الى مسلك آخر وظنوا أنهم قد استراحوا به من كلفة التأويل ومشقته فقالوا : الاجماع قد انعقد على لزوم الثلاث وهو أكثر من خبر الواحد كما قال الشافعي الأجماع أكبر من الخبر المنفرد وذلك ان الخبر يجوز الخطأ والوهم على راويه بخلاف الأجماع فإنه معصوم قالوا ونحن نسوق عن الصحابة والتابعين ما يبين ذلك فثبت في صحيح مسلم أن عمر أمضى عليهم الثلاث ووافقه الصحابة قال : سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن شقيق سمع انساً يقول قال : عمر في الرجل طلق امرأته ثلاثاً قبل ان يدخل بها قال هي ثلاث لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره وكان إذا أتى به أوجعه وروى البيهقي من حديث ابن ابي ليلى عن علي فيمن طلق ثلاثا قبل الدخول قال لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره وروى حاتم بن اسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره وروى ابو نعيم عن الأعمش عن حبيب ابن ابي ثابت عن بعض اصحابه جاء رجل إلى علي فقال:طلقت امرأتي الفاً فقال ثلاثاً تحرمها عليك واقسم سائرها بين نسائك وقال علقمة بن قيس اتى رجل ابن مسعود فقال ان رجلاً طلق امرأته البارحة مائة قال قلتها مرة واحدة قال نعم قال تريد ان تبين منك امرأتك قال : نعم قال : هو كما قلت وأتاه رجل فقال انه طلق امرأته البارحة عدد النجوم فقال : له مثل ذلك ثم قال: قد بين الله أمر الطلاق فمن طلق كما امر الله فقد بين له ومن لبس جعلنا بسه لبسه والله لا تلبسون على أنفسكم ونتحمله عنكم هو كما تقولون وروى مالك في الموطا عن ابن شهاب عن محمد ابن عبدالرحمن بن ثوبان عن محمد بن إياس بن البكير قال:طلق رجل امرأته ثلاثاً قبل ان يدخل بها ثم بدا له أن ينكحها فجاء يستفتي فذهبت معه أسأل له فسأل اباهريرة وابن عباس عن ذلك فقالا لا نرى أن تنكحها حتى تنكح زوجاً غيرك قال إنما كان طلاقي اياها واحدة فقال ابن عباس إنك قد أرسلت من

يدك ما كان لك من فضل. وفي الموطإ أيضاً في هذه القصة أن ابن البكير سأل عنها ابن الزبير فقال: إن هذا أمر ما لنا فيه قول اذهب إلى ابن عباس وأبي هريرة فأني تركتهما عند عائشة فسلهما ثم ائتنا فأخبرنا فذهب فسألهما فقال ابن عباس لأبي هريرة أفته قد جاءتك معضلة فقال ابو هريرة الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجاً غيره وقال ابن عباس مثل ذلك فهذه عائشة لم تنكر عليهما ولا ابن الزبير وفي الموطإ أيضاً عن النعمان بن ابي عياش عن عطاء ابن يسار قال : جاء رجل يستفتي عبدالله بن عمر عن رجل طلق امرأته ثلاثا فقال : عطاء فقلت إيما طلاق البكر واحدة فقال لي عبدالله إنما أنت قاضي الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجاً غيره وروى عبيدالله عن نافع عن ابن عمر إذا طلق امرأته ثلاثا قبل أن يدخل بها لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره وروى البيهقي من حديث معاذ بن معاذ حدثنا شعبة عن طارق بن عبدالرحمن سمعت قيس بن ابي عاصم قال : سأل رجل المغيرة وأنا شاهد عن رجل طلق امرأته مائة قال : ثلاثا تحرم وسبعة وتسعون فضل وروى البيهقي عن سويد بن غفلة قال : كانت عائشة الخثعمية عند الحسن فلما قتل علي قالت لتهنك الخلافة فقال بقتل علي تظهرين الشماتة اذهبي فأنت طالق ثلاثا فتلفعت بثيابها وقعدت حتى قضت عدتها فبعث إليها ببقية بقيت من صداقها وعشرة آلاف صدقة فقالت لما جاءها الرسول : متاع قليل من حبيب مفارق فلما بلغه قولها بكى وقال: لولا انني سمعت جدي أو قال حدثني أبي انه سمع جدي يقول: أيما رجل طلق امرأته ثلاثا عند الأقراء أو ثلاثا مبهمة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره لراجعتها وقال الامام احمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عطاء بن السائب عن علي انه قال في الحرام والبتة والبائن والخليه والبرية ثلاثا ثلاثا قال : شعبة وأتيت عطاء فقلت : من حدثك عن علي قال : ابو البحتري قال احمد وانا أهابها لا اجيب فيها لأنه يروى عن عامة الناس أنها ثلاث علي وزيد وابن عمر وعامة التابعين وأما ابن عباس فروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء بن ابي رباح وعمرو بن دينار ومالك بن الحارث ومحمد

ابن إياس بن البكير ومعاوية بن ابي عياش وغيرهم انه الزم بالثلاث من أوقعها جملة قال الامام أحمد وقد سأله الأثرم بأي شيء ترد حديث ابن عباس كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر طلاق الثلاث واحدة بأي شيء تدفعه قال برواية الناس عن ابن عباس من وجوه خلافه ثم ذكر عن عدة عن ابن عباس أنها ثلاث والى هذا نذهب وذكر البيهقي ان رجلاً أتى عمران بن حصين وهو في المسجد فقال رجل طلق امرأته ثلاثا في مجلس واحد فقال : أثم بربه وحرمت عليه امرأته فانطلق الرجل فذكر ذلك لأبي موسى يريد بذلك عيبه فقال ألا ترى ان عمران قال كذا وكذا فقال أبو موسى أكثر الله فينا مثل ابي نجيد قالوا فهذا عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وعبدالله بن مسعود وعبدالله ابن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعمران بن الحصين والمغيرة بن شعبة والحسن بن علي واما التابعون فأكثر من ان يذكروا والاجماع يثبت بدون هذا ولهذا حكاه غير واحد منهم ابو بكر ابن العربي وأبو بكر الرازي وهو ظاهر كلام الامام أحمد فانه قال في رواية الأثرم وذكر قول من قال إذا خالف السنة يرد الى السنة وليس بشيء فقال هذا مذهب الرافضة وظاهر هذا ان القول بالوقوع بإجماع أهل السنة قال الآخرون قد عرفتم ما في دعوى الاجماع الذي لم يعلم له مخالف انه راجع الى عدم العلم لا الى العلم بانتفاء المخالف وعدم العلم ليس علماً يحتج به ويقدم على النصوص الثابتة هذا إذا لم يعلم مخالف فكيف إذا علم مخالف وحينئذ تكون المسألة مسألة نزاع يجب ردها الى الله ورسوله ومن أبى ذلك فهو إما جاهل مقلد وإما متعصب صاحب هوى عاصي لله ورسوله يتعرض للحوق الوعيد فإن الله تعالى يقول (فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فإذا ثبت ان المسألة مسألة نزاع وجب قطعاً ردها الى كتاب الله وسنة رسوله وهذه المسألة مسألة نزاع بين أهل العلم الذين هم اهله والنزاع

فيها من عهد الصحابة إلى وقتنا هذا وبيان ذلك من وجوه أحداهـا ما رواه أبو داود وغيره من حديث حماد بن زيد عن ايوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : إذا قال انت طالق ثلاثا بفم واحد فهي واحدة وهـــذا الاسناد على شرط البخاري . وقال عبد الرزاق اخبرنا معمر عن ايوب قال دخل الحكم ابن عيينة على الزهري بمكة وانا معه فسألوه عن البكر تطلق ثلاثاً فقال سئل عن ذلك ابن عباس وأبو هريرة وعبدالله بن عمر فكلهم قالوا لا تحل حتى تنكح زوجاً غيره قال فخرج الحكم وأنا معه فأتى طاووسا وهو في المسجد فأكب عليه فسأله عن قول ابن عباس فيها وأخبره بقول الزهري قال فرأيت طاووسا رفع يديه تعجباً من ذلك وقال والله ما كان ابن عباس يجعلها إلا واحدة اخبرنا ابن جريج قال اخبرني حسن بن مسلم عن ابن شهاب ان ابن عباس قال إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا ولم يجمع كن ثلاثا قال فأخبرت طاووسا فقال اشهد ما كان ابن عباس يراهن إلا واحدة فقوله إذا طلق ثلاثا ولم يجمع كن ثلاثاً أي إذا كن متفرقات فدل على انهن إذا جمعن كانت واحدة وهـــذا هو الذي حلف عليه طاووس أن ابن عباس كان يجعله واحدة ونحن لا نشك أن ابن عباس صح عنه خلاف ذلك وانها ثلاثا فهما روايتان ثابتتان عن ابن عبـــاس بلا شك . الوجه الثاني أن هذا مذهب طاووس قال عبد الرازق اخبرنا ابن جريج عن ابن طاووس عن ابيه انه كان لا يرى طلاقاً ما خالف وجه الطلاق ووجه العدة وانه كان يطلقها واحدة ثم يدعها حتى تنقضي عدتها وقال ابو بكر بن ابي شيبة حدثنا اسماعيل بن علية عن ليث عن طاووس وعطاء انهما قالا إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا قبل أن يدخل بها فهي واحدة . الوجه الثالث : انه قول عطا بن ابي رباح قال ابن ابي شيبة حدثنا محمد بن بشر حدثنا اسماعيل عن قتادة عن طاووس وعطاء وجابر بن زيد انهم قالوا إذا طلقها ثلاثا قبل أن يدخل بهـا فهي واحدة . الوجه الرابع: انه قول جابر عن زيد كما تقدم. الوجه الخامس أن هذا مذهب محمد بن اسحق حكاه عنه الامام احمد في رواية الأثرم ولفظه

حدثنا سعد بن ابراهيم عن ابيه عن ابن اسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أن ركانة طلق امرأته ثلاثا فجعلها النبي ﷺ واحـــدة قال ابو عبدالله وكان هذا مذهب ابن اسحق يقول خالف السنة فيرد إلى السنة . الوجه السادس انه مذهب اسحق بن راهويه في البكر قال محمـــد ابن نصر المروزي في كتاب اختلاف العلماء له وكان اسحق يقول طلاق الثلاث للبكر واحدة وتأويل حديث طاوس عن ابن عباس كان طلاق الثلاث على عهـــد رسول الله ﷺ وابي بكر وعمر تجعل واحدة على هـــذه قال : فان قال لها ولم يدخل بها انت طالق أنت طالق أنت طالق فأن سفيان واصحاب الرأي والشافعي وأحمد وأبا عبيد قالوا بانت منه بالأولى وليست الثنتان بشيء لأن غير المدخول بها تبين بواحدة ولا عدة عليها وقال مالك وربيعة وأهل المدينة والأوزاعي وابن ابي ليلى إذا قالها ثلاث مرات انت طالق ثلاث مرات نسقاً متتابعة حرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره فأن هو سكت بين التطليقتين بانت بالأولى ولم تلحقها الثانية فصار في وقوع الثلاث قبل الدخول بها ثلاثة مذاهب للصحابة والتابعين ومن بعدهم أحدها أنها واحدة سواء قالها بلفظ واحد أو بثلاثة الفاظ أنها واحدة والثالث انه إن أوقعها بلفظ واحد فهي ثلاث وان اوقعها بثلاثة الفاظ فهي واحدة. الوجه السابع أن هذا مذهب عمر وابن دينار في الطلاق قبل الدخول . قال ابن المنـــذر في كتاب الأوسط وكان سعيد ابن جبير وطاووس وأبو الشعثـــاء وعمر وابن دينار يقولون من طلق البكر ثلاثـاً فهي واحـــدة . الوجه الثـــامن : انه مذهب سعيد ابن جبير كما حكاه ابن المنذر وغيره عنه وحـكاه الثعلبي عن سعيد بن المسيب وهو غلط عليه إنما هو مذهب سعيد بن جبير الوجه التاسع انه مذهب الحسن البصري الذي استقر عليه قال ابن المنذر واختلف في هذا الباب عن الحسن فروي عنه كما روينا عن أصحاب النبي ﷺ وذكر قتادة وحميد ويونس عنه انه رجع عن قوله بعد ذلك فقال واحدة باينة وهذا الذي ذكره ابن المنذر

رواه عبد الرزاق في المصنف فقال اخبرنا معمر عن قتادة قال : سألت الحسن عن الرجل يطلق البكر ثلاثا فقال: الحسن وما بعد الثلاث؟فقلت صدقت وما بعد الثلاث فأفتى الحسن بذلك زمناً ثم رجع وقال واحدةتبينها (ويحطها فقاله حبائه)[1] الوجه العاشر انه مذهبعطاء بن يسار قال عبد الرزاق انبأنا مالك عن يحيىبن سعيد عن بكير عن نعمان بنأبيعياشسأل رجل عطاء بنأبي يسار عن الرجليطلق البكر ثلاثا فقال إنما طلاق البكر واحدة فقال له عبدالله بن عمرو بن العاص انت قاضي الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجاً غيره فذكر عطاء مذهبه وعبدالله بن عمرو ومذهبه الوجه الحادي عشر انه مذهب خلاس بن عمرو حكاه بشر بن الوليد عن أبي يوسف عنه الوجه الثاني عشر انه مذهب محمد بن مقاتل الرازي حكاه عنه المازري في كتابه المعلم بفوائد مسلم قال الخطيب حدث عن عبدالله ابن المبارك وعبـــاد ابن العوام ووكيع ابن الجراح وأبي عاصم النبيل روى عنه احمد والبخاري في صحيحه وكان ثقة . الوجه الثالث عشر انه إحدى الروايتين عن مالك حكاها عنه جماعة من المالكية منهم التلمساني صاحب شرح الجلاب وعزاها الى أبي زيد انه حكاها رواية عنمالك وحكاه غيره قولاً في مذهب مالكوجعله شاذاً [2].

الوجه الرابع عشر ان ابن مغيث المالكي حكاها في كتاب الوثائق له وهو مشهور عند المالكية عن بضعة عشر فقيها من فقهاء طليطلة المفتين على مذهب مالك هكذا قال واحتج لهم بأن قوله أنت طالق ثلاثاً كذب لأنه لم يطلق ثلاثاً ولم يطلق إلا واحدة كما لو قال أحلف يميناً ثلاثاً كان يميناً واحدةثم ذكر حججهم من الحديث . الوجه الخامس عشر ان أبا الحسن علي بن عبدالله بن ابراهيم اللخمي النبطي صاحب كتاب الوثائق الكبير الذي يصنف في الوثائق

---

(١) ما بين القوسين نقلتها حسبما في الأصل ولم أفهم معناها ،

(٢) بياض في الأصل .

مثله حكى الخلاف فيها عن السلف والخلف حتى عن المالكية انفسهم فقال وأما من قال أنت طالق ثلاثاً فقد بانت منه قال البتة أو لم يقل قال : وقال بعض الموثقين يريد المصنفين في الوثائق اختلف أهل العلم بعد اجماعهم على انه مطلق كم يلزمه من الطلاق فالجمهور من العلماء على انه يلزمه الثلاث وبه القضاء وعليه الفتوى وهو الحق الذي لا شك فيه قال : وقال بعض السلف يلزمه من ذلك طلقة واحدة وتابعهم على ذلك قوم من الخلف من المفتين بالأندلس قال واحتجوا على ذلك بحجج كثيرة وأحاديث مسطورة أضربنا عنها واقتصرنا على الصحيح منها فمنها ما رواه داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس ان ركانة طلق زوجته عند رسول الله ثلاثاً في مجلس واحد فقال النبي ﷺ إنما هي واحدة فإن شئت فدعها وان شئت فارجعها ثم ذكر حديث أبي الصهباء وذكر بعض التأويلات التي ذكرناها . الوجه السادس عشر أن أبا جعفر الطحاوي حكى القولين في كتابة تهذيب الآثار فقال باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً معاً ثم ذكر حديث أبي الصهباء ثم قال فذهب قوم إلى أن الرجل إذا طلق امرأته ثلاثاً معاً فقد وقعت عليها واحدة إذا كانت في وقت سنة وذلك أن تكون طاهراً من غير جماع واحتجوا في ذلك بهذا الحديث وقالوا لما كان الله عز وجل لما أمر عباده أن يطلقوا الوقت على صفة فطلقوا على غير ما أمرهم به لم يقع طلاقهم الا ترى لو ان رجلا أمر رجلاً ان يطلق امرأته في وقت فطلقها في غيره أوامره ان يطلقها على شريطة فطلقها على غير تلك الشريطة ان طلاقه لا يقع إذا كان قد خالف ما أمر به ثم ذكر حجج الآخرين والجواب من حجج هؤلاء على عادة أهل العلم والدين في انصاف مخالفيهم والبحث معهم لم يسلك طريق جاهل ظالم معتد يبرك على ركبتيه ويفجر عينيه ويصول بمنصبه لا بعلمه ، وبسوء قصده لا بحسن فهمه ، ويقول القول بهذه المسألة كفر يوجب ضرب العنق ، ليبهت الخصم به ويمنعه عن بسط لسانه ، والجري معه في ميدانه ، والله سبحانه عند لسان كل قائل ، وهو له يوم

الوقوف بين يديه عما قال سائل . الوجه السابع عشر : ان شيخنا حكى عن جده أبي البركات انه كان يفتي بذلك أحياناً سراً،وقال في بعض مصنفاته: هذا قول بعض أصحاب مالك وأبي حنيفة وأحمد . قلت : أما المالكية فقد حكينا الخلاف عنهم ، وأما أصحاب أبي حنيفة فإن محمد بن مقاتل من الطبقة الثانية من أصحاب أبي حنيفة ، وأما أصحاب أحمد فان اراد افتـــاء جده بذلك أحياناً وإلا فلم اقف على نقل لأحد منهم. الوجه الثامن عشر : ما قاله أبو الحسن النبطي في وثائقه وقد ذكر الخلاف في المسألة ثم قال : ومن بعض حججهم أيضاً في ذلك ان الله تعالى أمر بتفريق الطلاق بقـوله : (الطلاق مرتان) وإذا جمع الإنسان ذلك في كلمة كان واحدة وكان ما زاد عليها لغوا ، كما جعل مالك – رحمه الله – الذي رمى السبع جمرات في مرة واحدة جمرة واحدة وبنى عليها ، فالطلاق عندهم مثله . قال : وممن نصر هذا القول من أهل الإفتاء بالأندلس اصبغ بن الحباب ومحمد بن بقي ومحمد بن عبـــد السلام الحسني وابن زنباع مع غيرهم من نظرائهم ، هذا لفظه . الوجه التاسع عشر : ان ابا الوليد هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي القرطبي صاحب كتاب«مفيد الحكام فيما يعرض لهم من النوازل والأحكام » ذكر الخلاف بين السلف والخلف في هذه المسألة ، حتى ذكر الخلاف فيها في مذهب مالك نفسه ، وذكر من كان يفتي بها من المالكية ، والكتاب مشهور معروف عنـــد أصحاب مالك كثير الفوائد جداً ، ونحن نذكر نصه فيه بلفظه ، فنذكر ما ذكره عن أبي مغيث ثم نتبعه بكلامه ليعلم ان النقل بذلك معلوم متداول بين أهل العلم وان من قصر في العلم باعـــه وطال في الجهل والظـــلم دفاعه ، يبادر الى التكفير والعقوبة جهلاً منه وظلماً ، ويحق له وهو الدعي في العلم وليس منـه أقرب رحماً . قال ابن هشام قال ابن مغيث : الطلاق ينقسم على ضربين طلاق السنة وطلاق البدعة فطلاق السنة هو الواقع على الوجه الذي ندب الشارع اليه. وطلاق البدعة نقيضه وهو أن يطلقها في حيض أو نفاس أو ثـــلاثاً في كلمة

واحدة فإن فعل لزم الطلاق ، ثم اختلف أهل العلم بعد إجماعهم على انه مطلق كم يلزمه من الطلاق ، فقال علي بن أبي طالب وابن مسعود : تلزمه طلقة واحدة ، وقاله ابن عباس وقال : قوله ثلاثا لا معنى له لأنه لم يطلق ثلاث مرات ، وإنما يجوز قوله في ثلاث إذا كان مخبراً عما مضى فيقول طلقت ثلاثا يخبر عن ثلاثة أفعال كانت منه في ثلاثة أوقات كرجل قال : قرأت أمس سورة كذا ثلاث مرات فذلك يصح ولو قرأها مرة واحدة فقال : قرأتها ثلاث مرات لكان كاذباً وكذلك لو حلف بالله ثلاثا يردد الحلف كانت ثلاثة أيمان ولو قال أحلف بالله ثلاثا لم يكن حلف بالله إلا يميناً واحدة والطلاق مثله ، ومثله قال الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، روينا ذلك عن ابن وضاح ، وبه قال من شيوخ قرطبة ابن زنباع شيخ هدى ومحمد بن بقي بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الخشني فقيه عصره واصبغ ابن الحباب وجماعة سواهم من فقهاء قرطبة ، وكان من حجة ابن عباس ان الله فرق في كتابه لفظ الطلاق فقال : (الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) يريد أكثر الطلاق الذي يمكن بعده الإمساك بالمعروف وهو الرجعة في العدة ،ومعنى قوله(أو تسريح بإحسان)يريد تركها بلارتجاع حتى تنقضي عدتها ، وفي ذلك إحسان اليه وإليها إن وقع ندم منهما قال تعالى: (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ، يريد الندم على الفرقة والرغبة في المراجعة ، وموقع الثلاث غير محسن لأنه ترك المندوحة التي وسع الله بها ونبه عليها فذكر الله سبحانه لفظ الطلاق معرفاً فدل انه إذا جمع انه لفظ واحد فتدبره وقد يخرّج من غير ما مسألة من المدونة ما يدل على ذلك من ذلك قول الرجل ما لي صدقة في المساكين ان الثلث من ذلك يجزئه ، هذا كله لفظ صاحب الكتاب بحروفه ، أفترى الظالم الجاهل المعتدي يجعل هؤلاء كلهم كفاراً مباحة دماؤهم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ، بل هؤلاء من أكابر أهل العلم والدين وذنبهم عند أهل العمى أهل التقليد كونهم لم يرضوا لأنفسهم

بما يرضي به المقلدون وردوا ما تنازع فيه المسلمون الى الله ورسوله : وتلك شكاة ظاهر عنك عارها . الوجه العشرون : ان هذا مذهب أهل الظاهر داود وأصحابه وذنبهم عند كثير من الناس أخذهم بكتاب الله وسنة نبيهم ونبذهم القياس وراء ظهورهم فلم يعبأوا به شيئاً ، وخالفهم أبو محمد بن حزم في ذلك وأباح جمع الثلاث وأوقعها . فهذه عشرون وجهاً في إثبات النزاع في هذه المسألة بحسب بضاعتنا المزجاة من الكتب ، وإلا فالذي لم نقف عليه من ذلك كثير ، وقد حكى ابن وضاح وابن مغيث ذلك عن علي وابن مسعود والزبير وعبد الرحمن بن عوف وابن عباس ولعله إحدى الروايتين عنهم وإلا فقد صح بلا شك عن ابن مسعود وعلي والزبير وابن عباس الإلزام بالثلاث لمن أوقعها جملة ، وصح عن ابن عباس انه جعلها واحدة ، ولم نقف على نقل صحيح عن غيره من الصحابة بذلك ، فلذلك لم نعد ما حكى عنهم في الوجوه المبينة للنزاع وإنما نعد ما وقفنا عليه في مواضعه ونعزوه اليها وبالله التوفيق

فإن قيل: فقد ذكرتم أعذار الأئمة الملزمين بالثلاث عن تلك الأحاديث المخالفة لقولهم فما عذركم أنتم عن أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين المحدث الملهم الذي أمرنا باتباع سنته والاقتداء به: أفتظنون به أنه كان يرى رسول الله ﷺ وخليفته من بعده والصحابة في عهده يجعلون الثلاث واحدة مع انه أيسر على الأمة واسهل وابعد من الحرج ثم يعمد الى مخالفة ذلك برأيه ويلزم الامة بالثلاث من قبل نفسه فيضيق عليهم ما وسعه الله ويعسر ما سهله ويسد ما فتحه ويحرج ما فسحه ثم يتابعه على ذلك أكابر الصحابة ويوافقونه ولا يخالفونه ثم هب أنهم خافوا منه في حياته. وكلا فإنه أتقى لله من ذلك وكان إذا بينت له المرأة ما خفي من الحق رجع اليه وكان الصحابة أتقى لله وأعلم به من أن تأخذهم لومة لائم في الحق وان يمسكوا عنه خوفاً من عمر فقد دار الأمر بين القدح في عمر رضى الله عنه والصحابة معه وبين رد تلك الاحاديث اما لضعفها واما لنسخها وخفي علينا الناسخ وإما بتأويلها وحملها على محمل

يصح ولا ريب ان هذا أولى لتوفية حق الصحابة الذين هم أعلم بالله ورسوله من جميع من بعدهم قيل : لعمر الله ان هذا لسؤال يورد أمثاله أهل العلم وانه ليحتاج الى جواب شاف كاف فنقول: الناس ها هنا طائفتان طائفة اعتذرت عن هذه الأحاديث لأجل عمر ومن وافقه وطائفة اعتذرت عن عمر ولم ترد الاحاديث فقالوا الاحكام نوعان نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها بحسب الازمنة ولا الامكنة ولا اجتهاد الائمة كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك فهذه لا يتطرق اليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه والنوع الثاني يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً كمقادير التعزيرات واجناسها وصفاتها فإن الشارع يتنوع فيها بحسب المصلحة فشرع التعزيز بالقتل لمدمن الخمر في المرة الرابعة وعزم على التعزير بتحريق البيوت على المتخلف عن حضور الجماعة لولا منعه من تعدي العقوبة إلى غير من يستحقها من النساء والذرية وعزر بحرمان النصيب المستحق من السلب وأخبر عن تعزير مانع الزكاة بأخذ شطر ماله وعزر بالعقوبات المالية في عدة مواضع وعزر من مثـــل بعبده بإخراجه عنه واعتاقه عليه وعزز بتضعيف الغرم على سارق ما لا قطع فيه وكاتم الضالة وعزر بالهجر ومنـــع قربان النساء ولم يعرف انه عزر بدرة ولا حبس ولا سوط وانما حبس في تهمة ليتبين حال المتهم وكذلك أصحابه تنوعوا في التعزيرات بعده فكان عمر يحلق الرأس وينفي ويضرب ويحرق حوانيت الخمارين والقرية التي يباع فيها الخمر وحرق قصر سعد بالكوفة لما احتجب فيه عن الرعية وكان له رضي الله عنه في التعزير اجتهاد وافقه عليه الصحابه لكمال نصحه ووفور علمـــه وحسن اختياره للأمة وحدوث اسباب اقتضت تعزيزه لهم بما يردعهم لم يكن مثلها على عهد رسول الله ﷺ أو كانت ولكن زاد الناس وتتابعوا فيها فمن ذلك انهم لما زادوا في شرب الخمر وتبايعوا فيه وكان قليلاً على عهد رسول الله ﷺ جعله عمر ثمانين ونفى فيه ومن ذلك اتخاذه درة يضرب بها من يستحق الضرب ومن

ذلك اتخاذه داراً للسجن ومن ذلك ضربه للنوائح حتى بدا شعرها وهذا باب واسع اشتبه فيه على كثير من الناس الاحكام الثـــابتة اللازمة التي لا تتغير بالتعزيرات التـــابعة للمصالح وجودا وعـــدما ومن ذلك انه رضي الله عنة لما رأى الناس قد أكثروا من الطلاق الثلاث ورأى أنهم لا ينتهون عنه إلا بعقوبة فرأى إلزامهم بها عقوبة لهم ليكفوا عنها وذلك إما من التعزير العارض الذي يفعل عند الحاجة كما كان يضرب في الخمر ثمانين ويحلق فيها الرأس وينفى عن الوطن وكما منع ﷺ الذين خلفوا عنه عن الاجتماع بنسائهم فهذا له وجه وإما ظنّا ان جعل الثلاث واحدة كان مشروطاً بشرط وقد زال كما ذهب الى ذلك في متعة الحج إما مطلقا واما متعة الفسخ فهذا وجه آخر واما لقيام مانع قام في زمانه منع من جعل الثلاث واحدة كما قام عنده مانـــع من بيع أمهات الاولاد ومانع من أخذ الجزية من نصارى بني تغلب وغير ذلك فهذا وجه ثالث فإن الحكم ينتفي لانتفاء شرطه أو لوجود مانعه والالزام بالفرقة فسخاً أو طلاقاً لمن لم يقم بالواجب مما يسوغ فيه الاجتهاد لكن تارة يكون حقاً للمرأة كما في العنة والايلاء والعجز عن النفقة والغيبة الطويلة عند من يرى ذلـــك وتارة يكون حقاً للزوج كالعيوب المانعة له من استيفاء المعقود عليه أو كماله وتارة يكون حقاً لله كما في تفريق الحكمين بين الزوجين عند من يجعلهما وكيلين وهو الصواب وكما في وقوع الطلاق بالمؤلي إذا لم يف في مدة التربص عند كثير من السلف والخلف وكما قال بعض السلف ووافقهم عليه بعض أصحاب أحمد انهما إذا تطاوعا على الاتيان في الدبر فرق بينهما وقريب من ذلك ان الأب الصالح إذا أمر ابنه بالطلاق لما يراه من مصلحة الولد فعليه ان يطيعه كما قاله أحمد وغيره واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر عبدالله بن عمر ان يطيع أباه لما أمره بطلاق زوجته فالالزام إما من الشارع وإما من الامام بالفرقة اذا لم يقم الزوج بالواجب هو من موارد الاجتهاد وأصل هذا هو ان الله سبحانه لما كان يبغض الطلاق لما فيه من كسر الزوجة وموافقة رضا عدوه إبليس حيث يفرح بذلك

ويكرم من يكون على يديه من أولاده ويدنيه منه ومفارقة طاعته بالنكاح الذي هو واجب أو مستحب وتعريض كل من الزوجة للفجور والمعصية وغير ذلك من مفاسد الطلاق وكان مع ذلك قد يحتاج اليه الزوج أو الزوجة وتكون المصلحة فيه، شرعه على وجه تحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة وحرمه على ذلك الوجه فشرعه على أحسن الوجوه وأقومها لمصلحة الزوج والزوجة فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع طلقة واحدة ثم يدعها حتى تنقضي عدتها فإن زال الشر بينهما وحصلت الموافقة كان له سبيل الى لم الشعث وإعادة الفراش كما كان الأمر، وإلا تركها حتى انقضت عدتها فإن تبعتها نفسه كان له سبيل إلى خطبتها وتجديد العقد عليها برضاها وإن لم تتبعها نفسه تركها فنكحت من شاءت وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار فهذا هو الذي شرعه واذن فيه ولم يأذن في إبانتها بعد الدخول إلا بالتراضي بالفسخ والافتداء فإذا طلقها مرة بعد مرة بقي له طلقة واحدة فإذا طلقها الثالثة حرمها عليه عقوبة به ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجاً غيره يدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق فإذا علم ان حبيبته تصير إلى غيره فيحظى بها دونه أمسك عن الطلاق فلما رأى أمير المؤمنين ان الله سبحانه عاقب المطلق ثلاثاً بأن حال بينه وبين زوجته وحرمها عليه حتى تنكح زوجاً غيره علم أن ذلك لكراهة الطلاق المحرّم وبغضه له فوافقه أمير المؤمنين في عقوبة لمن طلق ثلاثاً جميعاً بأن الزمه بها وأمضاها عليه فإن قيل كان أسهل من ذلك أن يمنع الناس من ايقاع الثلاث ويحرمه عليهم ويعاقب بالضرب والتأديب من فعله لئلا يقع المحذور الذي يترتب عليه قيل : نعم لعمر الله قد كان يمكنه ذلك ولذلك ندم عليه في آخر أيامه وود أنه كان فعله قال الحافظ أبو بكر الاسماعيلي في مسند عمر أخبرنا أبو يعلى عن صالح بن مالك عن مجالد بن يزيد ابن أبي مالك عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب ما ندمت على شيء ندامتي على ثلاث: ألا أكون قتلت النوائح ومن المعلوم انه رضي الله عنه لم يكن مراده

تحريم الطلاق الرجعي الذي أباحه الله وعلم بالضرورة من دين رسول الله ﷺ جوازه ولا الطلاق المحرم الذي أجمع المسلمون على تحريمه كالطلاق في الحيض وفي الطهر المجامع فيه ولا الطلاق قبل الدخول الذي قال الله فيه (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن)هذا كله من أبين المحال فتبين قطعاً أنه أراد تحريم إيقاع الثلاث فعلم أنه إنما كان أوقعها لاعتقاده جواز ذلك ولذلك قال: إن الناس قد استعجلوا في شيء كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم وهذا كالصريح في أنه غير حرام عنده وإنما أمضاه لأن المطلق كانت له فسحة من الله في التفريق فرغب عما فسحه الله له الى الشدة والتغليظ فأمضاه عمر عليه فلما تبين له بالآخرة ما فيه من الشر والفساد ندم على الا يكون حرم عليهم إيقاع الثلاث ومنعهم منه وهذا هو مذهب الاكثرين مالك وأحمد وأبي حنيفة فرأى عمر ان المفسدة تندفع بذلك وما زاد الأمر الا شدة أخبر ان الأولى كان عدوله الى تحريم الثلاث الذي يدفع المفسدة من أصلها واندفاع هذه المفسدة بما كان عليه الامر في زمن رسول الله ﷺ وأبي بكر وأول خلافة عمر أولى من ذلك كله ولا يندفع الشر والفساد بغيره البتة ولا يصلح للناس سواه ولها لما رغب عنه كثير من الناس احتاجوا إلى أحد أمرين لا بد لهم منهما إما الدخول فيما لعن رسول الله ﷺ فاعله وتابع عليه اللعنة واما التزام الاصار والاغلال ورؤية حبيبته حسرة والذي شرعه الله ورسوله ودلت عليه السنة الصريحة الصحيحة يخلص من هذا وهذا ولكن تأبى حكمة الله ان يفتح للظالمين المعتدين لحدوده الراغبين عن تقواه وطاعته أبواب اليسر والفرج والسهولة فإن الله سبحانه إنما جعل ذلك لمن اتقاه والتزم طاعته وطاعة رسوله كما قال تعالى في السورة التي بين فيها الطلاق وأحكامه وحدوده وما شرعه لعباده فيه (ومن يتق الله يجل له مخرجا) وقال فيها (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) وقال فيها (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) فمن طلق على غير تقوى الله كان حقيقاً الا يجعل له مخرجاً والا يجعل له من أمره يسرا وقد أشار الى هذا

بعينه الصحابة حيث قال ابن عباس وابن مسعود لمن طلق ثلاثاً جميعاً: انك لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً قال شعبة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال عصيت ربك وبانت منك امرأتك انك لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) وقال الأعمش عن مالك عن ابن الحارث عن ابن عباس أن رجلاً أتاه فقال: إن عمي طلق امرأته ثلاثاً فقال أن عمك عصى الله فأندمه الله وأطاع الشيطان فلم يجعل له مخرجاً فقال أفلا يحللها له رجل فقال من يخادع الله يخدعه والله تعالى قد جرت سنته في خلقه بان يحرم الطيبات شرعا وقدراً على من ظلم وتعدى حدوده وعصى أمره وأن ييسر للعسرى من يخل بما أمره به فلم يفعله واستغنى عن طاعته باتباع شهواته وهواه كما انه سبحانه ييسر لليسرى من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فهذا نهاية إقدام الناس في باب الطلاق . ينبغي أن يقال : فإذا خفي على أكثر الناس حكم الطلاق ، ولم يفرقوا بين الحلال والحرام منه جهلا واوقعوا الطلاق المحرم يظنونه جائزاً هل يستحقون العقوبة بالالزام به لكونهم لم يتعلموا دينهم الذي أمرهم الله به وأعرضوا عنه ولم يسألوا أهل العلم كيف يطلقون وماذا أبيح لهم من الطلاق وماذا يحرم عليهم منه؟ أم يقال لا يستحقون العقوبة لأن الله سبحانه لا يعاقب شرعاً ولا قدرا إلا بعد قيام الحجة ومخالفة أمره كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) واجمع الناس على ان الحدود لا تجب إلا على عالم بالتحريم متعمد الارتكاب اسبابها والتعزيرات ملحقة بالحدود فهذا موضع نظر واجتهاد وقد قال النبي ﷺ التائب من الذنب كمن لا ذنب له فمن طلق على غير ما شرعه الله وأباحه جاهلاً ثم علم فندم وتاب فهو حقيق بان لا يعاقب وأن يفتى بالمخرج الذي جعله الله لمن اتقاه ويجعل له من أمره يسراً — إلى ان قال:

﴿ فصل ﴾

ومن مكائده التي كاد بها الإسلام وأهله الحيل والمكر والخداع الذي يتضمن تحليل ما حرمه الله واسقاط ما فرضه ومضادته في أمره ونهيه وهي من

الرأي الباطل الذي اتفق على ذمة فإن الرأي رأيان رأي يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار فهو الذي اعتبره السلف وعملوا به ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالابطال والاهدار وهو الذي ذموه وأنكروه وكذلك الحيل نوعان نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه والتخلص من الحرام وتخليص الحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومصلحة ونوع يتضمن اسقاط الواجبات وتحليل المحرمات وقلب المظلوم ظالماً والظالم مظلوماً والحق باطلاً والباطل حقاً فهذا النوع الذي اتفق السلف على ذمه وصاحوا بأهله من أقطار الأرض. قال الإمام احمد: لا يجوز شيء من الحيل في ابطال حق مسلم وقال الميموني قلت لأبي عبدالله من حلف على يمين ثم احتال لابطالها فهل تجوز تلك الحيلة قال نحن لا نرى الحيلة إلا ما يجوز قلت اليس حيلتنا فيها ان نتبع ما قالوا وإذا وجدنا لهم قولاً في شيء اتبعناه. قال بلى هكذا هو قلت أوليس هذا منا نحن حيلة قال نعم فبين الامام احمد ان من اتبع ما شرعه الله وجاء عن السلف في معاني الاسماء التي علقت بها الاحكام ليس بمحتال الحيلة المذمومة وان سميت حيلة فليس الكلام فيها وغرض الإمام احمد بهذا الفرق بين سلوك الطريق المشروعة التي شرعت لحصول مقصود الشارع وبين الطريق التي تسلك لابطال مقصوده فهذا هو سر الفرق بين النوعين وكلامنا الان في النوع الثاني قال شيخنا: فالدليل على تحريم هذا النوع وإبطاله من وجوه :

الوجه الأول : قوله سبحانه : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) ، وقال : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) . وقال في أهل العهد : (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) ، فأخبر سبحانه ان هؤلاء المخادعين مخدوعون وهم لا يشعرون ، وان الله خادع من خدعه ، وأنه يكفي المخدوع شرّ من خدعه ، والمخادعة هي الاحتيال والمراوغة باظهار

الخير مع إبطان خلافه ليحصل مقصود المخادع ، وهذا موافق لاشتقاق اللفظ من اللغة فانهم يقولون : طريق خيدع إذا كان مخالفاً للقصد لا يشعر به ولا يفطن له ، ويقال للسراب الخيدع لأنه يغوي من يراه ، وضب خـــدع أي مراوغ ، وأخدع من ضب ، ومنه : الحرب خدعة ، وسوق خـادعة : أي متلونة ؛ وأصله الإخفاء والستر ، ومنه سميت الخزانة مخدعاً ، فلما كان القائل آمنت مظهراً لهذه الكلمة غير مريد حقيقتها المطلوبة شرعاً بل مريد لحكمها وثمرتها فقط مخادعا كان المتكـــلم بلفظ بعت واشتريت وطلقت ونكحت وخالعت وأجرت وساقيت وأقرضت ، غير مريد لحقائقها الشرعية المطلوبة منها شرعاً بل مريداً لأمور أخرى غير ما شرعت له مخادعاً ، ذاك مخادع في أصل الإيمان وهذا مخادع في أعماله وشرائعه . قال شيخنا : وهذا ضرب من النفاق في آيات الله وحدوده ، كما ان الأول نفاق في أصل الدين ، يؤيد ذلك ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس انه جاءه رجل فقال : ان عمي طلق امرأته ثلاثا ، أيحلها له رجل ؟ فقال : من يخادع الله يخدعه . وعن أنس بن مالك انه سئل عن العينة ، يعني بيع الحريرة فقال : ان الله لا يخدع ، هذا ما حرم الله ورسوله ، رواه أبو جعفر محمد بن سليمان المعروف بمطين في كتاب « البيوع » له . وعن ابن عباس انه سئل عن العينة يعني بيع الحريرة فقال : ان الله لا يخدع هذا مما حرم الله ورسوله ، رواه الحافظ ابو محمـــد النخشبي فسمى الصحابة من أظهر عقد التبايع ومقصوده به الربا خداعاً لله وهم المرجوع اليهم في هذا الشأن والمعول عليهم في فهم القرآن ، الى أن قال :

الوجه الثاني : ان الله سبحانه وتعالى ذم المستهزئين بآياته المتكلم بالأقوال التي جعل الشارع لها حقائق ومقاصد ، مثل كلمـــة الايمان وكلمة الله التي يستحل بها الفروج ، ومثل العهود والمواثيق التي بين المتعاقدين ، وهو لا يريد بها حقائقها المقومة لها ولا مقاصدها التي جعلت هذه الألفاظ محصلة لها ، بل يريد أن يراجع المرأة ليضرّها ويسيء عشرتها ولا حاجة له في نكاحهـــا أو

ينكحها ليحلها لمطلقها لا ليتخذها زوجة أو يخلعها ليلبسها أو يبيع بيعاً جائزاً ، ومقصوده به ما حرمه الله ورسوله هو ممن اتخذ آيات الله هزواً ولعباً يوضحه :

الوجه الثالث : وهو ما رواه ابن ماجه بإسناد حسن عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام يلعبون بحدود الله ويستهزؤون بآياته طلقتك راجعتك طلقتك راجعتك » ، فجعل المتكلم بهذه العقود غير مريد لحقائقها وما شرعت له ، مستهزئاً بآيات الله متلاعباً بحدود الله ، ورواه ابن بطة بإسناد جيد ولفظه : خلعتك راجعتك خلعتك راجعتك .

الوجه الرابع : ما رواه النسائي عن محمود بن لبيد ان رجلاً طلق امرأته ثلاثاً على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم» — الحديث . وقد تقدم فجعله لاعباً بكتاب الله مع قصده الطلاق ، لكنه خالف وجه الطلاق وأراد به غير ما أراد الله به ، فإن الله سبحانه أراد أن يطلق طلاقاً يملك فيه رد المرأة إذا شاء ، فطلق ثلاثاً لا يملك فيه ردها الى أن قال :

الوجه الخامس : ان الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به في سورة (ن) وانه عاقبهم بأن أرسل على جنتهم طائفاً وهم نائمون فأصبحت كالصريم ، وذلك لما تحيلوا على إنقاص نصيب المساكين بأن يصرموها مصبحين قبل مجيء المساكين ، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله أو من حقوق عباده .

الوجه السادس : ان الله سبحانه أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد ؛ قال بعض الأئمة : ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ، فمن يتلبس بعلم الفقه

وهو غير فقيه إذ الفقيه من يخشى الله بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها ليس المتحيل على اباحة محارمه واسقاط فرائضه ومعلوم انهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى وكفراً بالتوراة وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ظاهره ظاهر الابقاء وباطنه الاعتداء ولهذا والله أعلم مسخوا قردة لان صورة القرد فيها شبه من صورة الانسان وفي بعض أوصافه شبه منه وهو مخالف له في الحد والحقيقة فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله بحيث لم يتمسكوا الا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته مسخهم الله قردة يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقاً الى ان قال :

الوجه العاشر : ما روى محمد ابن عمرو عن ابي سلمة عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود استحلوا محارم الله بادنى الحيل» رواه ابو عبدالله ابن بطة.

حدثنا أحمد ابن سلام حدثنا الحسن ابن الصباح الزعفراني حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو وهذا اسناد جيد يصحح مثله الترمذي وهو نص في تحريم استحلال محارم الله بالحيل وإنما ذكر ﷺ أدنى الحيل منبها على ان مثل هذا المحرم العظيم الذي قد توعد الله عليه بمحاربة من لم ينته عنه فمن أسهل الحيل على من أراد فعله ان يعطيه مثلاً الفا الا درهما باسم القرض ويبيعه خرقة تساوي درهما بخمسمائة وكذلك المطلق ثلاثا من اسهل الاشياء عليه ان يعطي بعض السفهاء عشرة دراهم مثلاً ويستعيره لينزو على مطلقته فتطيب له بخلاف الطريق الشرعي فانه يصعب معه عودهـــا حلالا إذ من الممكن الا يطلق بل ان يموت المطلق أولاً قبله ثم انه ﷺ نهانا عن التشبه باليهود وقد كانوا احتالوا في الاصطياد يوم السبت بان حفروا خنادق يوم الجمعة يقع فيها الحيتان يوم السبت ثم يأخذونها يوم الأحد وهـــذا عند المحتالين جائز وعند الفقهاء حرام لان المقصود هو الكف عما ينال به الصيد بطريق التسبب والمباشرة .

ومن احتيالهم انه سبحانه لما حرم عليهم أكل الشحوم تأولوا ان المراد نفس ادخاله الفم وان الشحم هو الجامد دون المذاب فجملوه فباعوه وأكلوا ثمنه وقالوا ما أكلنا الشحم ولم ينظروا في ان الله إذا حرم الانتفاع بشيء فلا فرق بين الانتفاع بعينه أو ببدله اذ المبدل يسد مسده فلا فرق بين حال جموده وذوبه فلو كان ثمنه حلالاً لم يكن في تحريمه كبير أمر وهذ هو الوجه الحادي عشر وهو ما روى ابن عباس قال بلغ عمر أن فلانا باع خمراً فقال : قاتل الله فلانا ألم يعلم ان رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها متفق عليه قال : الخطابي جملوها معناه أذابوها حتى تصير ودكا فيزول عنها اسم الشحم يقال : جملت الشحم واجلته والجميل الشحم المذاب وعن جابر بن عبدالله انه سمع النبي ﷺ يقول « إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة نانه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هي حرام ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه رواه البخاري وأصله متفق عليه قال الإمام احمد في رواية صالح وأبي الحارث في أصحاب الحيل عمدوا إلى السنن فاحتالوا في نقضها فالشيء الذي قيل انه حرام احتالوا فيه حتى احلوه ثم أجتح بهذا الحديث وحديث لعن الله المحلل والمحلل له . قال الخطابي وقد ذكر حديث الشحوم : في هذا الحديث بطلان كل حيلة يحتال بها للتوصل إلى المحرم وانه لا يتغير حكمه بتغير هيآته وتبديل اسمه وقد مثلت حيلة اصحاب الشحوم بمن قيل له لا تقرب مال اليتيم فباعه وأخذ ثمنه فأكله وقال لم آكل نفس مال اليتيم واشترى شيئاً في ذمته ونقده وقال هذا قد ملكته وصار عوضه ديناً في ذمتي فإنما أكلت ما هو في ملكي باطناً وظاهراً ولولا أن الله سبحانه رحم هذه الأمة بان نبّيها نبيهم على ما لعبت به اليهود وكان السابقون منهافقهاء اتقياء علموا مقصود الشارع فاستقرت

الشريعة بتحريم المحرمات من الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها وإن تبدلت صورها وبتحريم اثمانها لطرق الشيطان لأهل الحيل ما طرق لهم من الأيمان ونحوها إذ البابان باب واحد على ما لا يخفى .

الوجه الثاني عشر : أن باب الحيل المحرمة مداره على تسميته الشيء بغير اسمه وعلى تغيير صورته مع بقاء حقيقته فمداره على تغيير الاسم مع بقـــاء المسمى وتغيير الصورة مع بقاء الحقيقة فإن المحلل مثلا غير اسم التحليل إلى اسم النكاح واسم المحلل إلى الزوج وغير مسمى التحليل بان جعـــل صورته صورة النكاح والحقيقة حقيقة التحليل ومعلوم قطعاً أن لعن الرسول على ذلك انما هو لما فيه من الفساد العظيم الذي اللعنة من بعض عقوبته وهذا الفساد لم يزل بتغيير الإسم والصورة مع بقاء الحقيقة ولا يتقدم الشرط عن صلب العقد إلى ما قبله فإن المفسدة تابعـــة للحقيقة لا للاسم ولا لمجرد الصورة وكذلك المفسدة العظيمة التي اشتمل عليها الربا لا تزول بتغيير اسمه من الربا إلى المعاملة ولا تغيير صورته من صورة إلى صورة والحقيقة معلومة متفق عليها بينهما قبل العقد يعلمها من قلوبهما عالم السرائر فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد ثم غيرا اسمه إلى المعاملة وصورته إلى التبايع الذي لا قصد لهما فيه البتة وانما هو حيلة ومكر ومخادعة لله ورسوله وأي فرق بين هذا وبين ما فعلته اليهود من استحلال ما حرمه الله عليهم من الشحوم بتغيير اسمه وصورته فانهم أذابوه حتى صار ودكا وباعوه وأكلوا ثمنه وقالوا إنما أكلنا الثمن لا المثمن فـلم نأكل شحماً وكذلك من استحل الخمر باسم النبيذ كما في حديث ابي مالك الاشعري عن النبي ﷺ ليشربن ناس من امتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير إلى ان قال وقد أخبر ﷺ أن طائفة من امته تستحل الربا باسم البيع كما أخبر عن استحلال الخمر باسم آخر فروى ابن بطة باسناده عن الاوزاعي عن النبي ﷺ يأتي على الناس زمان يستحلون الربا بالبيع يعني العينة وهذا وإن كان مرسلا

فإنه صالح للاعتضاد به بالاتفاق وله من المستندات ما يشهد له وهي الاحاديث الدالة على تحريم العينة فانه من المعلوم ان العينة عند مستحلها إنما يسميها بيعاً وفي هذا الحديث بيان انها ربا لا بيع فان الامة لم يستحل احد منها الربا الصريح وانما استحل البيع وصورته فصوروه بصورة البيع واعاروه لفظه ومن المعلوم ان الربا لم يحرم لمجرد صورته ولفظه وإنما حرم لحقيقته ومعناه ومقصوده وتلك الحقيقة والمعنى المقصود قائم في الحيل الربوية كقيامها في صريحه سواء الى ان قال : قال بشر ابن السري وهو من شيوخ الامام أحمد نظرت في العلم فإذا الحديث والرأي فوجدت في الحديث ذكر النبيين والمرسلين وذكر ربوبية الرب تعالى وجلاله وعظمته وذكر الجنة والنار والحلال والحرام والحث على الارحام وجماع الخير ونظرت في الرأي فاذا فيه المكر والخديعة والتشاح واستقصاء الحق والمماكاة في الدين واستعمال الحيل والبعث على قطيعة الارحام والتجري على الحرام وقال أبو داود سمعت أحمد ابن حنبل وذكر اصحاب الحيل فقال يحتالون لنقض سنن رسول الله ﷺ والرأي الذي اشتقت منه الحيل المتضمنة لاسقاط ما أوجب الله واباحة ما حرم الذي اتفق السلف على ذمه وعيبه فروى حرب عن الشعبي قال : قال ابن مسعود إياكم وارأيت وارأيت وارأيت فإنما هلك من كان قبلكم بأرايت ارأيت ولا تقيسوا اشياء بشيء فتزل قدم بعد ثبوتها .

وعن الشعبي عن مسروق قال : قال عبدالله ليس من عام الا الذي بعده شر منه لا اقول عام اخصب من عام ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فينهدم الاسلام وينثلم .

وقال عمر بن الخطاب إياكم واصحاب الرأي فانهم أعداء السنن اعيتهم الاحاديث ان يحفظوها وتفلتت منهم ان يعوها فاستحيوا حين سئلوا ان يقولوا لا نعلم فعارضوها برأيهم فاياكم واياهم وقال الامام أحمد في رواية ابي الحارث هذه الحيل التي وضعها هؤلاء احتالوا في الشيء الذي قيل لهم انه حرام فاحتالوا

فيه حتى احلوه وقال : قال رسول الله ﷺ لعن الله اليهود وحرمت عليهم الشحوم فأذابوها وأكلوا اثمانها فإنما اذابوها حتى ازالوا عنها اسم الشحوم وقد لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له وقال في رواية ابنه صالح ينقضون الايمان بالحيل وقد قال الله تعالى (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) وقال تعالى (يوفون بالنذر) وقال: في رواية ابي طالب في التحيل لاسقاط العدة: سبحان الله ما اعجب هذا ابطلوا كتاب الله والسنة جعل الله على الحرايز العدة من الحمل فليس من امرأة تطلق أو يموت زوجها الا تعتد من اجل الحمل ففرج بوطا ثم يعتقها على المكان فيزوجها فيطؤها فان كانت حاملا كيف يصنع يطؤها رجل اليوم ويطؤها الآخر غدا؟! هذا نقض لكتاب الله والسنة قال النبي ﷺ لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض،فلا يدري هي حامل ام لا سبحان الله ما اسمج هذا وقال في رواية حبيش ابن سندي في الرجل يشتري الجارية ثم يعتقها من يومه ويتزوجها ايطؤها من يومه فقال كيف يطؤها هذا من يومه وقد وطئها ذاك بالأمس وغضب وقال هذا أخبث قول الى ان قال : ومن تأمل الشريعة ورزق فيها فقه نفس رآها قد ابطلت على أهل الحيل مقاصدهم وقابلتهم بنقيضها وسدت عليهم الطرق التي فتحوها للتحيل الباطل فمن ذلك ان الشارع منع المتحيل على الميراث بقتل موروثه ونقله الى غيره دونه لما احتال عليه ومن ذلك بطلان وصية الموصى له بمال اذا قتل الموصي ومن ذلك بطلان تدبير المدبر اذا قتل سيده ليعجل العتق ومن ذلك تحريم المنكوحة في عدتها على الزوج تحريماً مؤبداً عند عمر بن الخطاب ومالك واحد الروايتين عن أحمد لما احتال على وطئها بصورة العقد المحرم ومن ذلك ما لو احتال المريض على منع امرأته من الميراث بطلاقها فانها ترثه ما دامت في العدة عند طائفة وعند اخرين ترث وان انقضت عدتها ما لم تتزوج وعند طائفة ترث وإن تزوجت ومن ذلك بطلان اقرار المريض لوارثه بمال لانه يتخذه حيلة على الوصية له

ونظاير ذلك كثيرة فالمحتال بالباطل معامل بنقيض قصده شرعاً وقدراً، وقد شاهد الناس عياناً أنه من عاش بالمكرمات بالفقر ولهذا عاقب الله سبحانه من احتال على اسقاط نصيب المساكين وقت الجذاذ بحرمانهم الثمرة كلها وعاقب من احتال على الصيد المحرم بان مسخهم قردة وخنازير وعاقب من احتال على أكل اموال الناس بالربا بانه يمحق ماله كما قال تعالى : (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) فلا بد أن يمحق مال المربي ولو بلغ ما بلغ واصل هذا أن الله سبحانه جعل عقوبات اصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم فجعل عقوبة الكاذب إهدار كلامه ورده عليه وجعل عقوبة الغال من الغنيمة لما قصد تكثير ماله بالغلول حرمان سهمه وإحراق متاعه وجعل عقوبة من اصطاد في الحرم أو لإحرام تحريم أكل ما صاده وتغريمه نظيره وجعل عقوبة من تكبر عن قبول الحق والانقياد له أن الزمه من الذل والصغار بحسب ما تكبر عنه من الحق وجعل عقوبة من استكبر عن عبوديته وطاعته أن صيره عبداً لأهل عبوديته وطاعته وجعل عقوبة من أخاف السبيل وقطع الطرق ان يقطع أطرافه ويقطع عليه الطرق كلها بالنفي من الأرض فلا يسير فيها إلا خائفاً وجعل عقوبة من التذ بدنه كله بالوطء الحرام ايلام بدنه كله وروحه بالجلد والرجم فيصل الالم إلى حيث وصلت اللذة وشرع النبي ﷺ عقوبة من اطلع في بيت غيره ان يقلع عينه بعود أو نحوه افساداً للعضو الذي خانه به واولجه بيته بغير اذنه واطلع به على حرمته وعاقب كل خاين بانه يضل كيده ويبطله ولا يهديه لمقصوده وإن نال بعضه فالذي ناله سبب لزيادة عقوبته وخيانته والله لا يهدي كيد الخائنين وعاقب من حرص على الولاية والامارة والقضاء بان شرع منعه وحرمانه ما حرص عليه كما قال النبي ﷺ انا لا نولي عملنا هذا من سأله». ولهذا عاقب أبا البشر بان أخرجه من الجنة لما عصاه بالأكل من الشجرة ليخلد فيها فكانت عقوبته اخراجه منها ضد ما أمله وعاقب من اتخذ معه إلها آخر ينتصر به ويتعزز به بان جعله عليه ضداً يذل به كما قال تعالى (واتخذوا

من دون الله إلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً)وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) وقال تعالى(لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا) ضد ما أمله المشرك من اتخاذ الآلهة من النصر والمدح وعاقب الناس اذا بخسوا الكيل والميزان بجور السلطان عليهم باخذ اموالهم اضعاف ما يبخس به بعضهم بعضاً وعاقبهم اذا منعوا الزكاة والصدقة ترفيها لاموالهم بحبس الغيث عنهم فيمحق بذلك اموالهم ويسوى غنيهم وفقيرهم في الحاجة عاقبهم إذا اعرضوا عن كتابه وسنة نبيه وطلبوا الهدى من غيره بان يضلهم ويسد عليهم ابواب الهدى كما قال ﷺ في حديث على الذي رواه الترمذي وغيره وذكر القرآن: من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره اضله الله فان المعرض عن القرآن اما ان يعرض عنه كبراً فجزاؤه ان يقصمه الله أوطلباً للهدى من غيره فجزاؤه ان يضله الله وهذا باب واسع جداً عظيم النفع لمن تدبره تجده متضمناً لمعاقبة الرب سبحانه من خرج عن طاعته بان يعكس عليه مقصوده شرعاً وقدراً دنيا واخرة وقد اطردت سنته الكونية سبحانه في عباده بان من مكر بالباطل مكر به ومن احتال احتيل عليه ومن خادع غيره خدع قال الله تعالى (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم)وقال تعالى (ولا يحيق المكر السيء إلا باهله) فلا تجد ماكراً إلا وهو ممكور به ولا خادعاً إلا وهو مخدوع ولا محتالا إلا وهو محتال عليه .

﴿ فصل ﴾

إذا تدبرت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع الى المحرمات وذلك عكس باب الحيل الموصلة اليها فالحيل وسائل وأبواب الى المحرمات وسد الذرائع عكس ذلك فبين البابين اعظم تناقض والشارع حرم الذرائع وان لم يقصد بها المحرم لافضائها اليه فكيف إذا قصد بها المحرم نفسه الى ان قال: قال شيخ الاسلام وتجويز الحيل يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة فان

الشارع يسد الطريق إلى ذلك المحرم بكل ممكن ولهذا اعتبر الشارع في البيع والصرف والنكاح وغيرها شروطاً سد ببعضها التذرع إلى الربا والزنا وكمل بها مقصود العقود ولم يمكن المحتال الخروج منها في الظاهر فيريد الاحتيال على ما منع الشارع منه فيأتي بها مع حيلة أخرى توصله بزعمه الى نفس ذلك الشيء الذي سد الشارع الذريعة اليه ولم يبق لتلك الشروط التي يأتي بها فائدة ولا حقيقة بل تبقى بمنزلة العبث واللعب وتطويـــل الطريق الى المقصود من غير فائدة قال واعتبر هذا بالشفعة فان الشارع أباح انتزاع الشقص من مشتريه والشارع لا يخرج الملك عن مالكه بقيمة أو غيرها الا لمصلحة راجحة وكانت المصلحة ها هنا تكميل العقار للشريك فانه بذلك يزول ضرر المشاركة والمقاسمة وليس في هـــذا التكميل ضرر على البائع لان مقصوده من الثمن يحصل باخذه من المشترى شريكاً كان أو اجنبيا فالمحتال لاسقاطها مناقض مقصود الشارع مضاد له في حكمه فالشارع يقول لا يحل له الاخذ بانواع من الحيل التي ظاهرها مكر وخداع وباطنها منع الشريك مما أباحه له الشارع ومكنه منه وتفويت نفس مقصود الشارع والمصيبة الكبرى إظهار المحتال انه إنما فعل ما اذن له الشارع في فعله وانه مكنه من الخداع والمكر والتحيل على اسقاط حق الشريك وهذا بين لمن تأمله قال : والمقصود بيان تحريم الحيل وان صاحبهـا متعرض لسخط الله وأليم عقابه ويترتب على ذلك ان ينقض على صاحبها مقصوده منها بحسب الامكان وذلك في كل حيلة بحسبها فلا يخلو الاحتيال أما أن عن واحد أو اثنين فأكثر فان كان من اثنين فأكثر فإن كان عقد بيع تواطأ عليه تحيلا على الربا كما في العينة حـــكم بفساد العقدين ويرد الى الأول رأس ماله كما قالت أم المؤمنين عائشة وكان بمنزلة المقبوض بعقد ربا لا يحل الانتفاع به بل يجب رده ان كان باقيا وبدله ان كان تالفا وكذلك ان جمعا بين بيع وقرض أو اجارة وقرض أو مضاربة أو شركة أو مساقاة أو مزارعة وقرض حكم بفسادهما فيجب ان يرد عليه بدل ماله الذي جعلاه قرضا والعقد الآخر فاسد حكمه

حكم العقود الفاسدة وكذلك ان كان نكاحاً تواطآ عليه كان حكمه حكم الانكحة الفاسدة وكذلك أن تواطآ على هبة أو بيع لاسقاط الزكاة أو على هبة لتصحيح نكاح فاسد او وقف فاسد مثل ان تريد مواقعة مملوكها فتهبه لرجل فيزوجها به فإذا قضت وطرها منه استوهبته من الرجل فوهبها إياه فانفسخ النكاح فهذا البيع والهبة فاسدان في جميع الأحكام وإن كان الاحتيال من واحد فإن كانت الحيلة يستقل بها لم يحصل بها غرضه فإن كان عقداً كان فاسداً مثل ان يهب لابنه هبة يريد أن يرجع فيها لئلا تجب عليه الزكاة فان وجود هذه الهبة كعدمها ليست هبة في شيء من الأحكام لكن ان ظهر المقصود ترتب الحكم عليه ظاهراً وباطناً وإلا كانت فاسدة في الباطن فقط وإن كانت حيلة لا يستقل بها مثل ان ينوي التحليل ولا يظهره للزوجة او يرتجع المرأة اضراراً بها أو يهب ماله ضراراً لورثته ونحو ذلك كانت هذه العقود بالنسبة اليه والى من علم غرضه باطلة فلا يحل له وطؤ المرأة ولا يرثها لو ماتت .

وإذا علم الموهوب له أو الموصى له غرضه لم يحصل له الملك في الباطن فلا يحل له الانتفاع به بل يجب رده إلى مستحقه وأما بالنسبة إلى العاقد الآخر الذي لم يعلم فانه صحيح يفيد مقصود العقود الصحيحة ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة وان كانت الحيلة له وعليه كطلاق المريض صح الطلاق من جهة انه ازال ملكه ولم يصح من حيث انه يمنع الارث فإنه انما منع من قطع الارث لا من ازالة ملك البضع وان كانت الحيلة فعلا يفضى إلى غرض له مثل ان يسافر في الصيف ليتأخر عنه الصوم إلى الشتاء لم يحصل غرضه بل يجب عليه الصوم في هذا السفر قلت ونظير هذا ما قاله المالكية انه لا يستبيح رخصة المسح على الخفين إذا لبسهما لنفس المسح فلو مسح لذلك لم يجزئه وعليه إعادة الصلاة ابداً وانما تثبت الرخصة في حق من لبسهما لحاجة كالبرد والركوب ونحوهما فيمسح عليهما لمشقة النزع وخالفهم باقي الفقهاء في ذلك والمنع جار على أصول من راعى المقاصد .

قال شيخنا: وان كان يفضي إلى سقوط حق غيره مثل أن يطأ امرأة ابيه أوابنه ليفسخ نكاحه أو مثل أن يباشر المرأة ابن زوجها أو أباه عند من يرى ذلك موجباً للتحريم فهذه الحيل بمنزلة الاتلاف للملك بقتل أو غصب لا يمكن ابطالها لان حرمة المرأة بهذا السبب حق لله يترتب عليه فسخ النكاح ضمناً والافعال الموجبة للتحريم لا يعتبر لها العقد فضلا عن القصد وهـذا بمنزلة أن يحتال على نجاسة مائع فإن تنجس المائعات بالمخالطة وتحريم المصاهرة بالمباشرة أحكام تثبت بأمور حسية فلا ترفع الاحكام مع وجود تلك الاسباب: قلت هذا كان قول الشيخ اولاً ثم رجع إلى أن تحريم المصاهرة لا يثبت بالمباشرة المحرمة وحينئذ فصورة ذلك ان ترضع امرأته الكبيرة أو امه امرأته الصغيرة لينفسخ نكاحها فإن فسخ النكاح ها هنا لا يتوقف على العقل ولا على القصد بل لو كانت المرضعة مجنونة ثبت التحريم فهو بمنزلة ان يلقى في مائع ما ينجسه . قال: وان كانت الحيلة فعلا يفضي إلى تحليل له أو لغيره مثل ان يقتل رجلا ليتزوج امرأته أو يزوجها غيره فهنا تحل المرأة لغـير من قصد تزويجها به فانها بالنسبة اليه كمن مات عنها زوجها وقتل بحق أو في سبيل الله.

واما بالنسبة إلى من قصد بالقتل ان يتزوج المرأة امـا بمواطاة منها أو بدونها فهذا يشبه من بعض الوجوه ما لو خلل الخمر بنقلهـا من موضع إلى موضع من غير ان يطرح فيها شيئاً والصحيح انها لا تطهر وان كانت تطهر إذا تخللت بفعل الله ، وكذلك هذا الرجل لو مات بدون هذا القصد حلت المرأة فاذا قتله لهذا القصد أمكن أن يقال تحرم عليه مع حلها لغيره ويشبه هذا الحلال إذا صاد الصيد وذبحه لحرام فإنه يحرم على ذلك المحرم ويحـل للحلال ومما يؤيد هذا ان القاتل يمنع الارث ولا يمنعه غيره من الورثة لكن لما كان مال الرجل تطلع اليه نفوس الورثة كان القتل مما يقصد به المـال بخلاف الزوجة فان ذلك لا يكاد يقصد فان التفات الرجل إلى امرأة غيره بالنسبة إلى التفات الوارث إلى مال الموروث قليل وكونه يقتله ليتزوجهـا

فهذا أقل فلذلك لم يشرع ان قتل رجلا حرمت عليه امرأته كما شرع ان من قتل موروثا منع ميراثه فاذا قتله ليتزوج بها فقد وجدت الحكمة فيه فيعاقب بنقيض قصده واكثر ما يقال في رد هذا أن الافعال المحرمة لحق الله سبحانه لا تفيد الحل كذبح الصيد وتحليل الخمر والتذكية في غير المحل امـــا المحرم لحق الادمي كذبح المغصوب فانه يفيد الحل او يقال ان الفعل المشروع لثبوت الحـكم يشترط فيه وقوعه على الوجه المشروع كالذكاة ، والقتـــل لم يشرع لحل المرأة وانما انقضى النكاح بانقضاء الاجل فحصل الحل ضمناً وتبعاً ويمكن أن يقال في جواب هذا أن قتل الآدمي حرام وهـذا لو أباحه حل فالمحرم هناك انما هو تفويت المالية على المالك لا إزهاق الروح وقد اختتف في الذبح بآلة مغصوبة وفيه عن احمد روايتان واختلف العلمـــاء في ذبح المغصوب وقد نص احمد على انه ذكي وفي حديث رافع بن خديج في ذبح الغنم المنهوبة والحديث الآخر في المرأة التي اضافت النبي ﷺ فذبحت له شاة اخذتها بدون اذن أهلها فقال: « اطعموها الاسارى» وفي هذا دليل ان المذبوح بدون اذن اهله يمنع من أكله المذبوح له دون غيره كالصيد اذا ذبحه الحلال لحرام حرم على الحرام دون الحلال وقد نقل صالح عن أبيه فيمن سرق شاة فذبحها لا يحل أكلها يعني له قلت لأبي فان ردها على صاحبها قال توكل فهذه الرواية قد يؤخذ منها أنها حرام على الذابح مطلقاً لأن احمد لو قصد التحريم من جهة ان المالك لم يأذن في الأكل لم يخص الذابح بالتحريم فهذا القول الذي دل عليه الحديث في الحقيقة حجة لتحريم مثل هذه المرأة على القاتل ليتزوجها دون غيره بطريق الأولى هذا كله كلام شيخنا .

وبعد : فالتحريم مطرد على قواعد احمد ومالك من وجوه متعددة منها مقابلة الفاعل بنقيض قصده كطلاق الفار وقاتل موروثه وقاتل الموصي والمدبّر اذا قتل سيده ومنها سد الذرائع ومنها تحريم الحيل ومنها تخليل الخمر كما ذكر شيخنا والله أعلم قال : فتلخص ان الحيل نوعان أقوال وأفعـــال فالاقوال

يشترط لثبوت احكامها العقل ويعتبر فيها القصد وتكون صحيحة تارة وفاسدة العقد تارة أخرى ثم ما ثبت حكمه منه ما يمكن فسخه ورفعه بعد وقوعه كالبيع والنكاح ومنه ما لا يمكن فيه ذلك كالعتق والطلاق فهذا الضرب إذا قصد به الاحتيال على فعل محرم أو اسقاط واجب أمكن ابطاله امـــا من جميع الوجوه . وإما من الوجه الذي يبطل مقصود المحتال بحيث لا يترتب عليه الحـكم المحتال على حصوله كما حكم به الصحابة في طلاق الفار .

وأما الأفعال فإن اقتضت الرخصة للمحتال لم يحصل كالسفر للقصر والفطر وان اقتضت تحريماً على الغير فانه قد يقع ويكون بمنزلة اتلاف النفس والمال وإن اقتضت حلا عاماً إما بنفسها أو بواسطة زوال الملك فهذه مسألة القتل وذبح الحلال للصيد وذبح الغاصب للمغصوب وبالجملة اذا قصد بالفعل استباحة محرم لم يحل له وان قصد ازالة ملك الغير ليحل فالاقيس الا يحـــل له ايضاً وان حل لغيره وقد دخل في القسم الأول احتيـــال المرأة على فسخ النكاح بالردة فهي لا تمشي غالباً الا عند من يقول الفرقة تنجز بنفس الردة او يقول بانها لا تقتل فالواجب في مثل هذه الحيلة أن لا ينفسخ بها النكاح واذا علم الحاكم انها ارتدت لذلك لم يفرق بينهما وتكون مرتدة من حيث العقوبة والقتل غير مرتدة من جهة فساد النكاح حتى لو توفيت أو قتلت قبل الرجوع استحق ميراثها لكن لا يجوز له وطؤها في حال الردة فان الزوجة قد يحرم وطؤها باسباب من جهتها كما لو احرمت لكن لو ثبت انها مرتدة ثم قالت : إنمـــا ارتددت للفسخ لم يقبل هذا فإنه قد يجعل ذريعة إلى عود نكاح كل مرتدة بأن تلقن أنها ارتدت للفسخ ولانها متهمة في ذلك ولان الاصل أنها مرتدة في جميع الأحكام .

﴿ فصل ﴾

وقد استدل البخاري في صحيحه على بطلان الحيل بقوله ﷺ لا يجمع بين

متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة» فان هذا النهي يعم ما قبل الحول وبعده واحتج بقوله ﷺ في الطاعون: « اذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» وهذا من دقة فقهه رحمه الله فانه إذا كان قد نهى ﷺ عن الفرار من قدر الله اذا نزل بالعبد رضا بقضاء الله وتسليما لحكمه فكيف بالفرار من أمره ودينه اذا نزل بالعبد وبانه ﷺ نهى عن بيع فضل الماء ليمنع به الكلا فدل على أن الشيء الذي هو في نفسه غير محرم اذا قصد به أمر محرم صار محرماً واحتج أحمد على بطلان الحيل وتحريمها بلعنة رسول الله ﷺ للمحلل وبقوله لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بادني الحيل واحتج على تحريم التحيل لأسقاط الشفعة بقوله فلا يحل له أن يبيع حتى يؤذن شريكه واحتج ابن عباس وبعده ايوب السختياني وغيره من السلف بان الحيل مخادعة لله وقد قال تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا انفسهم) قال ابن عباس ومن يخادع الله يخدعه ولا ريب ان من تدبر القرآن والسنة جزم بتحريم الحيل وبطلانها فإن القرآن دل على أن المقاصد والنيات معتبرة في التصرفات والعادات كما هي معتبرة في القربات والعبادات فيجعل الفعل حلالاً أو حراماً وصحيحاً أو فاسداً أو صحيحاً من وجه فاسداً من وجه كما أن القصد والنية في العبادة يجعلها كذلك وشواهد هذه القاعدة كثيرة جداً في الكتاب والسنة فمنها قوله تعالى في آية الرجعة (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) وذلك نص في أن الرجعة انما تثبت لمن قصد الصلاح دون الضرار فإذا قصد الضرار لم يملكه الله الرجعة ومنها قوله في آية الخلع (ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) وهذا دليل على الخلع المأذون فيه انما هو إذا خاف الزوجان ألا يقيما حدود الله وان النكاح الثاني انما يباح إذا ظنا ان يقيما حدود الله فانه شرط في الخلع خوف عدم اقامة حدوده وشرط في العود ظن اقامة حدوده ومنها قوله تعالى في آية الفرائض (من بعد وصية يوصى بها أو

دين غير مضار) فإنه سبحانه انما قدم على الميراث وصية من لم يضار الورثة بها فإذا كانت الوصية وصية ضرر كانت حراماً وكان للوارث ابطالها وحرم على الموصى له أخذ ذلك بدون رضا الورثة وأكد سبحانه ذلك بقوله(تلك حدود الله فلا تعتدوها) وتأمل كيف ذكر سبحانه الضرار في هذه الآية دون التي قبلها لأن الاولى تضمنت ميراث العمودين والثانية تضمنت ميراث الاطراف من الزوجين والاخوة والعادة أن الميت قد يضار زوجته واخوته ولا يكاد يضار والديه وولده والضرار نوعان جنف واثم فإنه قد يقصد الضرر وهو الاثم وقد يضار من غير قصد وهو الجنف فمتى اوصى بزيادة على الثلث فهو مضار قصداً ولم يقصد فللوارث رد هذه الوصية وان اوصى بالثلث فما دون ولم يعلم انه قصد الضرر وجب امضاؤها فإن علم الموصى له ان الموصي إنما اوصى له ضراراً لم يحل له الاخذ ولو اعترف الموصي انما اوصى ضراراً لم تجز اعانته على امضاء هذه الوصية وقد جوز سبحانه إبطال وصية الجنف والاثم وان يصلح الوصي أو غيره بين الورثة والموصي له فقال تعالى(فمن خاف من موص جنفا أو اثماً فأصلح بينهم فلا اثم عليه) وكذلك إذا ظهر للحاكم او الوصي الجنف أو الاثم في الوقف ومصرفه أو بعض شروطه فأبطل ذلك كان مصلحاً لا مفسداً وليس له أن يعين الواقف على امضاء الجنف والاثم ولا يصحح هذا الشرط ولا يحكم به فان الشارع قد رده وأبطله فليس له ان يصحح ما رده الشارع وحرمه فإن ذلك مضادة له ومناقضة ومن ذلك قوله تعالى(ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) فهذا دليل على أنه اذا عضلها لتفتدي نفسها منه وهو ظالم لها بذلك لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه بذلك .

ومن ذلك جذاذ النخل عمل مباح أي وقت شاء صاحبه لكن لما قصد اصحابه به في الليل حرمان الفقراء عاقبهم الله سبحانه باهلاكه ثم قال(ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون) ثم جاءت السنة بكراهة الجذاذ بالليل لكونه ذريعة

إلى هذه المفسدة ونص عليه غير واحد من الائمة كاحمد بن حنبل وغيره إلى ان قال: والحيل التي يتخلص بها من مكر غيره الغدر به أمثلة : مثله إلى أن قال المثال السادس عشر: لا يملك خلع ابنته بصداقها فان ظهرت المصلحة في ذلك لها فالطريق ان يتملكه عليها ثم يخلعها من زوجها به فيكون قد اختلعها بماله والصحيح انه لا يحتاج الى ذلك بل اذا ظهرت المصلحة في افتدائها من الزوج بصداقها جاز ذلك وكان بمنزلة افتدائها من الاسر بمالها وربما كان هذا خيراً لها الى ان قال المثال العشرون: اذا كان له على رجل دين مؤجل وأراد رب الدين السفر وخاف ان يتوى ماله أو احتاج اليه ولا يمكنه المطالبة به قبل الحلول فاراد ان يضع عن الغريم البعض ويعجل له باقيه فقد اختلف السلف والخلف في هذه المسألة فاجازها ابن عباس وحرمها ابن عمر وعن احمد فيها روايتان اشهرهما عنه المنع وهي اختيار جمهور اصحابه والثانية الجواز حكاها ابن ابي موسى وهي اختيار شيخنا وحكى ابن عبدالبر في الاستذكار ذلك عن الشافعي قولاً واصحابه لا يكادون يعرفون هذا القول ولا يحكونه واظن هذا ان صح عن الشافعي فإنما هو فيما اذا جرى بغير شرط بل عجل له بعض دينه وذلك جائز فابرأه من الباقي حتى لو كان قد شرط ذلك قبل الوضع والتعجيل ثم فعلاه بناء على الشرط المتقدم صح عنده لأن الشرط المؤثر في مذهبه هو الشرط المقارن لا السابق وصرح بذلك بعض اصحابه والباقون قالوا لو فعل ذلك من غير شرط جاز ومرادهم الشرط المقارن واما مالك فانه لا يجوزه مع الشرط ولا دونه سداً للذريعة . وأما احمد فيجوزه في دين الكتابة وفي غيره عنه روايتان واحتج المانعون بالآثار والمعنى اما الآثار ففي سنن البيهقي عن المقداد بن الأسود قال : اسلفت رجلاً مائة دينار ثم خرج سهمه في بعث بعثه رسول الله ﷺ فقلت له عجل تسعين ديناراً واحط عشرة دنانير فقال نعم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال أكلت ربا مقداد واطعمته وفي مسنده ضعف وصح عن ابن عمر

انه سئل عن الرجل يكون له الدين على رجل الى أجل فيضع عنه صاحبه ويعجل له الآخر فكره ذلك ابن عمر ونهى عنه، وصح عن ابي المنهال انه سأل ابن عمر فقال لرجل علي دين فقال لي عجل لي لاضع عنك فنهاني عنه وقال نهى أمير المؤمنين يعني عمر أن يبيع العين بالدين وقال أبو صالح مولى السفاح واسمه عبيد بعت برا من أهل السوق الى اجل ثم اردت الخروج الى الكوفة فعرضوا على ان اضع عنهم وينقدوني فسألت عن ذلك زيد بن ثابت فقال لا آمرك ان تأكل هذا ولا تؤكله رواه مالك في الموطأ.

وأما المعنى فانه إذا تعجل البعض واسقط الباقي فقد باع الاجل بالقدر الذي اسقطه وذلك عين الربا كما لو باع الاجل بالقدر الذي يزيده اذا حل عليه الدين فقال: زدني في الدين وأزيدك في المدة فأي فرق بين أن يقول حط من الاجل واحط من الدين أو يقول زد في الأجل وازيد في الدين قال زيد ابن أسلم كان ربا الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل الحق الى اجل فاذا حل الحق قال له غريمه اتقضى ام تربى؟ فان قضاه اخذه والا زاده في حقه وأخر عنه في الاجل رواه مالك وهذا الربا بجمع على تحريمه وبطلانه وتحريمه معلوم من دين الاسلام كما يعلم تحريم الزنا واللواط والسرقة قالوا فنقص الاجل في مقابلة نقص العوض كزيادته في مقابلة زيادته فكما ان هذا ربا فكذلك الآخر قال المبيحون صح عن ابن عباس انه كان لا يرى بأسا ان يقول اعجل لك وتضع عني وهو الذي روى ان رسول الله ﷺ لما أمر باخراج بني النضير من المدينة جاءه ناس منهم فقالوا يا رسول الله إنك أمرت باخراجهم ولهم على الناس ديون لم تحل فقال النبي ﷺ ضعوا وتعجلوا قال ابو عبدالله الحاكم هو صحيح الاسناد قلت هو على شرط السنن وقد ضعفه البيهقي واسناده ثقات وإنما ضعف مسلم بن خالد الزنجي وهو ثقة فقيه روى عنه الشافعي واحتج به وقال البيهقي باب من عجل له ادنى من حقه قبل محله فوضع عنه طيبة به انفسهما وكان مراده ان هذا إن وقع بغير شرط بل هذا عجل وهذا

وضع ولا محذور في ذلك قالوا وهـــذا ضد الربا فإن ذلك يتضمن الزيادة في الأجل والدين وذلك اضرار محض بالغريم ومسألتنا تتضمن براءة ذمة الغريم من الدين وانتفاع صاحبه بما يتعجله فكلاهما حصل له الانتفاع من غير ضرر بخلاف الربا المجمع عليه فإن ضرره لاحق بالمدين ونفعه مختص برب الدين فهو ضد الربا صورة ومعنى قالوا ولأن مقابلة الاجـــل بالزيادة في الربا ذريعة إلى اعظم الضرر وهو ان يصير الدرهم الواحد الوفاً مؤلفة فتشتغل الذمة بغير فائدة وفي الوضع والتعجل تتخلص ذمة هذا من الدين وينتفع ذلك بالتعجيل له قالوا والشارع له تطلع إلى براءة الذمم من الديون وسمى الغريم المدين اسيراً ففي براءة ذمته تخليص له من الاسر وهذا ضد شغلها بالزيادة مع الصبر وهذا لازم لمن قال يجوز ذلك في دين الكتابة وهو قول احمـــد وابي حنيفة فان المكاتب مع سيده كالاجنبي في باب المعاملات ولهذا لا يجوز ان يبيعه درهما بدرهمين ولا يبايعه بالربا فإذا جاز له ان يتعجل بعض كتابته ويضع عنه باقيها لماله في ذلك من مصلحة تعجيل العتق وبراءة ذمته من الدين لم يمتنع ذلك في غيره من الديون ولو ذهب ذاهب إلى التفصيل في المسألة وقال لا يجوز في دين القرض اذا قلنا بلزوم تأجيله ويجوز في ثمن المبيع والاجرة وعوض الخلـــع والصداق لكان له وجه فإنه في القرض يجب رد المثل فاذا عجل له واسقط باقيه خرج عن موجب العقد وكان قد اقرضه مائة فوفاه تسعين بلا منفعة حصلت للمقرض بل اختص المقترض بالمنفعة فهو كالمرابي سواء في اختصاصه بالمنفعة دون الآخر واما في البيع والاجارة فانهما يملكان فسخ العقد وجعل العوض مالا انقص مما كان وهذا هو حقيقة الوضع والتعجيل لكن تحيلا عليه والعبرة في العقود بمقاصدها لا بصورها فان كان الوضع والتعجيل مفسدة فاحتيال عليه لا يزيل مفسدته وان لم تكن مفسدة لم يحتج إلى الاحتيال عليه فتلخص في المسألة اربعة مذاهب المنع مطلقاً بشرط وبدونه في دين الكتابة وغيره كقول مالك وجوازه في دين الكتابة دون غيره كالمشهور من مذهب احمـد وابي حنيفة وجوازه في الموضعين كقول ابن عباس واحمـد في الرواية

الاخرى وجوازه بلا شرط وامتناعه مع الشرط المقارن كقول اصحاب الشافعي والله أعلم إلى ان قال المثال السادس والعشرون : يجوز تعليق الابراء بالشرط ويصح وفعله الامام احمد وقال اصحابنا لا يصح قالوا فاذا قال ان مت فانت في حل من مالي عليك فإن علق ذلك بموت نفسه صح لانه وصية وان علقه بموت من عليه الدين لم يصح لانه تعليق للبراءة بالشرط ولا يصح كما لا يصح تعليق الهبة فيقال اولا الحكم في الأصل غير ثابت بالنص ولا بالاجماع فما الدليل على بطلان تعليق الهبة بالشرط وقد صح عن النبي ﷺ انه علق الهبة بالشرط في حديث جابر لما قال « لو قد جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا ثم هكذا ثلاث حثيات وانجز ذلك له الصديق (ض) لما جاء مال البحرين بعد وفاة النبي ﷺ فان قيل : كان ذلك وعداً قلنا نعم والهبة المعلقة بالشرط وعد وكذلك فعل النبي ﷺ لما بعث إلى النجاشي بهدية من مسك وقال لأم سلمة : « إني قد أهديت إلى النجاشي حلة وأواقي من مسك ولا ارى النجاشي الا قد مات ولا ارى هديتي إلا مردودة فان رددت علي فهي لك » وذكر الحديث رواه احمد فالصحيح صحة تعليق الهبة بالشرط عملاً بهذين الحديثين وايضاً فالوصية تمليك وهي في الحقيقة تعليق للتمثيل بالموت فانه إذا قال ان مت من مرضي هذا فقد اوصيت لفلان فهذا تمليك معلق بالموت وكذلك الصحيح صحة تعليق الوقف بالشرط عليه في رواية الميموني في تعليقه بالموت وسائر التعليق في معناه ولا فرق البتة ولهذا طرده ابو الخطاب وقال لا يصح تعليقه بالموت والصواب طرد النص وانه يصح تعليقه بالموت وغيره وهو أحد الوجهين في مذهب أحمد وهو مالك ولا يعرف عن أحمد نص على عدم صحته وإنما عدم الصحة قول القاضي وأصحابه وفي المسألة وجه ثالث انه يصح تعليقه بشرط الموت دون غيره من الشروط وهذا اختيار الشيخ موفق الدين وفرق بان تعليقه بالموت وصية والوصية أوسع من التصرف في الحياة بدليل الوصية بالمجهول والمعدوم والحمل والصحيح الصحة مطلقاً ولو كان تعليقه بالموت وصية لامتنع على الوارث ولا خلاف انه يصح تعليقه بالشرط بالنسبة الى البطون بطنا بعد بطن وان كونه

وقفاً على البطن الثاني مشروط بانقضاء البطن الأول وقد قال تعالى(يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود) وقال ﷺ المسلمون على شروطهم والقيـــاس الصحيح يقتضي صحة تعليقه فانه أشبه بالعتق منه بالتمليك ولهذا لا يشترط فيه القبول إذا كان على جهة اتفاقا وكذلك اذا كان على ادمى معين في اقوى الوجهين وما ذاك الا لشبهه بالعتق والمقصود ان تعليق الابراء بالشرط أولى من ذلك كله فمنعه مخالف لموجب الدليل والمذهب ويقال ثانياً لا يلزم من بطلان تعليق الهبة بطلان تعليق الابراء بل القياس الصحيح يقتضي صحة تعليقه لأنه إسقاط محض ولهـــذا لا يفتقر الى قبول المبرىء ولا رضاه فهو بالعتق والطلاق أشبه منه بالتمليك وعلى هذا فيستغنى بالصحة في ذلك كله عن الحيلة فان احتاج الى التعليق وخاف ان ينقض عليه فالحيلة ان يقول لا شيء لي فان احتاج الى التعليق وخاف ان ينقض عليه فالحيلة ان يقول لا شيء لي عليه بعد هذا الشهر أو العام أو لا شيء لي عليه عند قدوم زيد او كل دعوى أدعيها عليه بعد شهر كذا او عند قدوم زيد بسبب كذا او من دين كذا فهي دعوى باطلة او يقول كل دعوى ادعيها في تركته بعد موته من دين كذا او عن كذا فهي دعوى باطلة وعلى ما قررناه لا يحتاج الى شيء من ذلك الى ان قال المثال الثلاثون: اذا تزوجها على الا يخرجها من دارها أو بلدها او لا يتزوج عليها ولا يتسرى عليها فالنكاح صحيح والشرط لازم هذا اجماع الصحابة فانه صح عن عمر وسعد ومعاوية ولا مخالف لهم من الصحابة واليه ذهب عامة التابعين وقال به أحمد وخالف في ذلك الثلاثة . فابطلوا الشرط ولم يوجبوا الوفاء فـــاذا احتاجت المرأة الى ذلك ولم يكن عندها حاكم يرى صحة ذلك ولزومه فالحيلة لها في حصول مقصودها ان تمتنع من الاذن الا ان تشترط بعد العقد انه ان سافر بها او نقلها من دارها أو تزوج عليها فهي طالق أو لها الخيار في المقام معه او الفسخ فان لم تثق به ان يفعل فإنها تطلب مهراً كثيراً جداً ان لم يفعل وتطلب ما دونه ان فعل فان شرط لها ذلك رضيت بالمهر الادنى وان لم يشترط

ذلك طالبته بالاعلى وجعلته حالا ولها ان تمنع نفسها حتى تقبضه او يشترط لها ما سألته فان قيل: على أي المهرين يقع العقد؟ قيل يقع على المهر الزائد لتتمكن من الزامه بالشرط فان خاف ان يشرط لها ما طلبت ويستقر عليه المهر الزائد فالحيلة ان يشهد عليها أنها لا تستحق عليه بعد الاشتراط شيئاً من المبلغ الزائد على الصداق الادنى وأنها متى ادعت به فدعواها باطلة فيستوثق منها بذلك ويكتب هو والشرط ولها ان تطالب بالصداق الزائد إذا لم يف لها بالشرط لانها لم ترض بان يكون الادنى مهرا الا في مقابلة منفعة أخرى تسلم لها وهي المقام في دارها وبلدها أو يكون الزوج لها وحدها وهذا جار مجرى بعض صداقها فاذا فاتها فلها المطالبة بالمهر الاعلى وقال : في المثال التاسع عشر إذا كان له عصير فخاف ان يتخمر فلا يجوز له بعد ذلك ان يتخذه خلا فالحيلة ان يلقى فيه اولا ما يمنع تخمره فان لم يفعل حتى تخمر وجب عليه إراقته ولم يجز له حبسه حتى يتخلل فان فعل لم يطهر ولم يبح لان حبسه معصية وعوده خلا نعمة فلا يستباح بالمعصية الى ان قال :

المثال السابع والاربعون: لو شجه رجل فعفا المشجوج عن الشجة وما يحدث منها ثم مات منها لم يلزم الشاج شيء ولو قال: عفوت عن هذه الجراحة والشجة ولم يقل وما يحدث منها فكذلك في احدى الروايتين وفي الاخرى تضمن بقسطها من الدية ولو قال عفوت عن هذه الجناية فلا شيء في السراية رواية واحدة وعند ابي حنيفة له المطالبة بالدية في ذلك كله إلا إذا قال عفوت عنها وعما يحدث منها فالحيلة في تخليص المعفو عنه أن يشهد على المجني عليه انه عفا عن هذه الجناية أو الشجة وما يحدث منها فيتخلص عند الجميع .

المثال التاسع والأربعون : إذا كان لرجل على رجل دين فقال تصدق به عني ففعل ثبت له في ذمته ذلك القدر وعليه له مثله فيتقاصان وكذلك لو قال له ضارب بالمال الذي عليك والربح بيننا لم يصح والحيلة في صحته أن يقول اذنت لك في دفعه إلى ابنك أو زوجتك وديعة ثم وكلتك في اخذه والمضاربة به

والظاهر انه لا يحتاج إلى شيء من ذلك ويكفي قبضه من نفسه لرب المـــال وإذا تصدق عنه بالذي قال كان عن الآمر هذا هو الصحيح وهو تخريج لبعض اصحابنا ولا حاجة به إلى هذه الحيلة فإذا عينه بالنية تعين وكان قابضاً من نفسه لموكله وأي محذور في ذلك ؟ .

المثال الحادي والسبعون : قال الإمام في رواية مهنا لا بأس ان يحصد الزرع ويصرم النخل بسدس ما يخرج منه وهو أحب الي من المقاطعة يعني أن يقاطعه على كيـــل معين أو دراهم أو عروض فكذلك نص في رواية الاثرم وغيره في رجل دفع دابته إلى آخر ليعمل عليها وما رزق الله بينهما نصفين ان ذلك جائز وقال احمد ايضاً لا باس بالثوب يدفع بالثلث والربع لحديث جابر أن النبي ﷺ اعطى خيبر على الشطر ونقل عنه ابو داود فيمن يعطى فرسه على النصف من الغنيمة ارجو أنلا يكون به باس وقال في رواية اسحاق بن ابراهيم إذا كان على النصف والربع فهو جائز ونقل عنه احمد بن سعيد فيمن دفع عبده إلى رجل ليكتسب عليه ويكون له ثلث الكسب أو ربعـــه انه جائز ونقل عنه حرب فيمن دفع ثوبا إلى خياط ليفصله قمصانا يبيعها ولهنصف ربحها بحق عمله فهو جائز وقال في المغنى: قياس قول احمد انه يجوز ان يعطى الطحان أقفزة معلومة يطحنها بقفيز منها وحكي عن ابن عقيل المنع منهواحتج بأنرسول الله ﷺنهى عن قفيز الطحان قال الشيخ وهذا الحديث لا نعرفه ولا تثبت عندنا صحته وقياس قول احمد جوازه لما ذكرنا عنه من المسائل وكذلك لو دفع شبكته إلى صياد ليصيد بهاوالسمكبينهما نصفين وقال في المغنى:فقياس قول احمد صحة ذلك والسمك بينهما شركة وقـــال ابن عقيل السمك للصياد ولصاحب الشبكة اجرة مثلها ولو كان له على رجل مال فقال لرجل أقبضه منه ولك ربعه أو ثلثه أو ما اقبضتنيه منه فلك منه الربع أو الثلث فهو جائز وكذلك لو غصبت منه عين فقال لرجل : خلصها لي ولك نصفها جـاز ايضاً ولو غرق متاعه في البحر فقال لرجل ما خلصته منه فلك نصفه أوربعه

جاز ولو ابق عبده فقال لرجل أو قال من رده علي فله نصفه أو ربعه أو شردت دابته فقال ذلك صح ذلك كله قلت: وكذلك يجوز أن يقول له انفض لي هذا الزيتون بالسدس أو الربع أو اعصره بالثلث أو الربع أو أكسر هذا الحطب بالربع أو اخبز هذا العجين بالربع وما اشبه ذلك فكل هذا جائز على نصوصه وأصوله وهو أحب اليه من المقاطعة في بعض الصور ولم يجز الشافعي وأبو حنيفة شيئاً من ذلك واما مالك فقال أصحابه عنه إذا قال: احصد زرعي ولك نصفه فذلك جائز وان قال احصد اليوم فما حصدت فلك نصفه لم يجز عند ابن القاسم وفي العتبية [1] انه يجوز فان قال القط زيتوني فما لقطت فلك نصفه فهو جائز عند ابن القاسم وروى سحنون انه لا يجوز ولو قال انفض زيتوني فما نفضت فلك نصفه لم يجز عند ابن القاسم واجازه عبد الملك بن حبيب فان قال: اقبض لي المائة دينار التي على فلان ولك عشرها جاز عند ابن القاسم وابن وهب وعند اشهب لا يجوز فلو قال اقبض ديني الذي على فلان ولك من كل عشرة واحد ولم يبين قدر الدين لم يجز عند ابن وهب واجازه ابن القاسم واصبغ والذين منعوا الجواز في ذلك جعلوه اجارة والاجر فيها مجهول والصحيح ان هذا ليس من باب الاجارات بل من باب المشاركات وقد نص احمد على ذلك فاحتج على دفع الثوب بالثلث والربع بحديث خيبر وقد دلت السنة على جواز ذلك كما في المسند والسنن عن رويفع بن ثابت قال: إن كان احدنا في زمن رسول الله ﷺ ليأخذ نضو اخيه على أن له النصف مما يغنم ولنا النصف وان كان احدنا ليطير له النصل والريش وللاخر القدح وأصل هذا كله ان النبي ﷺ دفع ارض خيبر إلى اليهود يعملونها بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع واجمع المسلمون على جواز المضاربة وانما دفع ماله لمن يعمل عليه بجزء من ربحه فهذا محض القياس وموجب الادلة وليس مع المانعين حجة سوى ظنهم ان هذا من باب الاجارات بعوض مجهول وبهذا ابطلوا المساقاة والمزارعة

---

(١) في المطبوعة العينية وفي حاشيتها (في نسخة الغنية) .

واستثنى قوم بعض صورها وقالوا المضاربة على خـــلاف القياس لظنهم انها اجارة بعوض لا يعلم قدره واحمد عنده هـــذا الباب كله أطيب وأحل من المؤاجرة لأنه في الاجارة يحصل المؤجر على سلامة المعوض قطعاً والمستأجر متردد بين سلامة المعوض وهلاكه فهو على خطر وقاعدة العدل في المعاوضات أن يستوي المتعاقدان في الرجاء والخوف وهذا حاصل في المزارعة والمساقاة والمضاربة وسائر هذه الصور الملحقة بذلك فإن المنفعة أن سلمت سلمت لها وان تلفت تلفت عليهما وهذا من أحسن العدل واحتج المتأخرون من المانعين بحديث ابي سعيد الذي رواه الداقطني نهى عن قفيز الطحان وهـذا الحديث لا يصح وسمعت شيخ الاسلام يقول هو موضوع وحمله بعض اصحابنا على أن المنهى عنه طحن الصبرة لا يعلم كيلها بقفيز منها لأن ماعداه مجهول فهو كبيعها إلا قفيزاً منها فاما إذا كانت معلومة القفزان فقال اطحن هذه العشرة بقفيز منها صح حباً ودقيقاً إما إذا كان حباً فقد استأجره على طحن تسعة اقفزة بقفيز حنطة وإما إذا كان دقيقاً فقد شاركه في ذلك على العشر للعامل وتسعة الاعشار للآخر فيصير شريكه بالجزء المسمى إلى أن قال : وعلى هذا لا يحتاج إلى حيلة لتصحيح ذلك إلا إذا خيف غدر احدهما وإبطاله العقد والرجوع إلى اجرة المثل فالحيلة في التخلص من ذلك أن يدفع اليه ربع الغزل والحب أو نصفه ويقول انسج لي باقيه بهذا القدر فيصيران شريكين في الغزل والحب فاذا تشاركا فيه بعد ذلك صح وكان بينهما على قدر ما شرطاه والعجب أن المانعين جوزوا ذلك على هذا الوجه وجعلوه مشاركة لا مؤاجرة فهلا أجازوه من أصله كذلك وهل الاعتبار في العقود إلا بمقاصدها وحقايقها دون صورها والفاظها وبالله التوفيق إلى أن قال :

المثال الثامن والسبعون : إذا باعه سلعة ولم يقبضه اياها أو أجره داراً ولم يسلمها أو زوجه ابنته ولم يسلمها اليه ثم ادعى عليه بالثمن أو الأجرة أو المهر فخاف أن أنكر ان يستحلفه أو يقيم عليه البينة يجريان هـــذه العقود

وإن أقر لزمه ما ادعى عليه به فالحيلة في تخلصه ان يقول في الجواب أن أدعيت هذا المبلغ من ثمن مبيع لم اقبضه أو إجارة دار لم يسلمها الي أو نكاح امرأة لم يسلمها الي فانا مقربه وان كان غير ذلك فلا أقربه وهذا جواب صحيح يتخلص به فان قيل فهذا تعليق للإقرار بالشرط ، والاقرار لا يصح تعليقه . قيل : يصح تعليق الاقرار بالشرط في الجملة كقوله إذا جاء رأس الشهر فله علي الف فهـــذا أقرار صحيح ولا يلزمه قبل مجيء الشهر وكذا لو قال إن شهد علي فلان بما ادعاه صدقته صح التعليق فإذا شهد به عليه فلان كان مقراً به ولا فرق بين تقديم الشرط وتأخيره كما في تعليق الطلاق والعتاق والخلع إلى أن قال وعلى هذا فلو قال له علي الف مؤجلة صح الاقرار ولزمه الالف مؤجلة وقيل القول قول خصمه في حلوله وشبهة هذا انه مقر بالدين مدع لتأجيله وهذا ظاهر البطلان فانه إنما أقر به على هذه الصفة فلا يجوز الزامه به مطلقاً وكذا لو قال له على الف من ثمن مبيع لم اقبضه او اجرة عن دار لم اتسلمها أو قال هلك قبل التمكن من قبضـــه على أصح الوجهين لانه انما اقر به على هذه الصفة فلا يجوز الزامه به مطلقاً وكذا لو قال كان له على الف فقضيته لم يلزمه لأنه انما أقر به في الماضي لا في الآن هذا منصوص احمد فليس الكلام بمتناقض في نفسه فيكون بمنزلة قوله له علي الف لا تلزمني والفرق بين الكلامين اظهر من ان يحتاج الى بيان وعن أحمد رواية أخرى انه مقر بالحق مدع لقضائه فلا يقبل منه الا ببينة وهذا قول الأئمة الثلاثة وعنه رواية ثالثة ان هـــذا ليس بجواب صحيح فيطالب برد الجواب وعلى هذا اذا قال له على الف قضيته إياه ففيه ثلاث روايات منصوصات احداهن أنه غير مقر كما لو قال كان له علي والثانية انه مقر مدع للقضاء فلا يقبل منه الا ببينة والثالثة لا يسمع منه دعوى القضاء ولو اقام به بينة بل يكون مكذبا لها وعلى هذا إذا قال كان له علي ولم يزد على هذا فهو مقر وخرج انه غير مقر من نصه على انه إذا قال: كان له علي وقضيته انه غير مقر وهو تخريج في غاية الصحة فان احمد لم يجعله غير مقر من قوله وقضيته فان هذا

منه دعوى للقضاء وإنما جعله كذلك من جهة انه اخبر عن الماضي لا عن الحال فلا يلزم بكونه في ذمته في الحال وهو لم يقر به والمقصود ان المدعى عليه اذا كان مظلوما فالحيلة في تخلصه ان يقول : إن ادعيت كذا من جهة كذا وكذا فأنا غير مقر به وان ادعيته من جهة كذا وكذا فأنا مقر به كان جواباً صحيحاً ولم يكن مقراً على الاطلاق .

المثال التاسع والسبعون : قال اصحابنا لا يملك البائع حبس المبيع على قبض ثمنه بل يجبر على تسليمه الى المشترى ثم ان كان الثمن معينا فتشاحنا في المبتدى بالتسليم جعل بينهما عدل يقبض منهما ويسلم اليهما وان كان دينا اجبر البائع على التسليم ثم يجبر المشتري على دفع الثمن فان كان ماله غائباً عن المجلس حجر عليه في ماله كله حتى يسلمه الثمن وان كان غائباً عن البلد فوق مسافة القصر ثبت للبائع الفسخ وان كان دونها فهل يحجر عليه او يثبت للبائع الفسخ على وجهين وان كان المشترى معسراً فللبائع الفسخ والرجوع في عين ماله هذا منصوص احمد والشافعي والصحيح ان البائع يملك حبس السلعة على الثمن حتى يقبضه هذا موجب العدل وإلا ففي تمكين المشترى من القبض قبل الاقباض اضراراً بالبائع فانه قد يتلف المبيع بان يكون طعاماً أو شراباً فيستهلكه ويتعذر عليه أو تتعسر مطالبته بالثمن فيضر به ولا يزول ضرره إلابحبس المبيع على ثمنه وعلى هذا لو دفع الثمن الا درهماً منه فله حبس المبيع كله على باقي الثمن كما نقول في الرهن الى ان قال : فالحيلة في الأمن من ذلك ان يبيعه العين بشرط ان يرتهنها على ثمنها ويجوز شرط الرهن والضمين في عقد البيع ويصح رهنه قبل قبضه على ثمنه في أصح الوجهين كما يصح رهنه قبل القبض بدين آخر غير ثمنه ومن غير البائع بل رهنه على ثمنه أولى فإنه يملك حبسه على الثمن بدون الرهن كما تقدم فلا يصح حبسه على الثمن رهناً أولى وأحرى . إلى أن قال : فإن قيل فإذا تلف هذا الرهن فمن ضمان من يكون فالبائع يقول للمشتري : تلف من ضمانك لأنه رهن ، والمشتري يقول:

يتلف من ضمانك لأنه مبيع لم يقبض . وليس أحدهما بترجيح جانبه أولى من الآخر؟ قيل بل يكون تلفه من ضمان البائع لأن ضمانه أسبق من ضمان الراهن لأنه لما باعه كان من ضمانه حتى يسلمه فحبسه على ثمنه لا يسقط عنه ضمانه فإنه إنما احتاط لنفسه بعقد الرهن والراهن لم يتعوض عن الرهن بدين يكون الرهن في مقابلته فإذا تلف كان قد انتفع بالدين الذي أخذه في مقابلة الرهن ، فإن أراد الحيلة في تصحيح الرهن والوثيقة والا يعرضه للبطلان فالحيلة له أن يقبضه من البائع ثم يرهنه إياه على ثمنه بعض قبضه فيصح الرهن ولا يتولى هناك ضمانان فإذا تلف بعد ذلك تلف من ضمـــان المشتري ولا يسقط الثمن ، فإن خاف البائع أن يغيب المشتري أو يؤخر فكاك الرهن كتب كتابا وأشهد فيه شهوداً انه ان مضى وقت كذا وكذا ولم يفتكّ الرهن فقد أذن له في بيعـه وقبض دينه من ثمنه وما بقي منه فهو أمانة في يده ، فـــإن خاف أن يبطل هذه الوكالة من يرى انه لا يصح تعليقها بالشرط كتب في الكتاب انـــه قد وكله الآن ويعلق تصرفه فيه ، فإن خاف أن يعزله الموكل فالحيلة له أن يوكله وكالة دورية عند من يرى ذلك فيقول: وكلما عزلته فقد وكلته ، وإن شاء أن يقول: وكلته وكالة لا تقبل العزل ، وإن شاء أن يقول: على اني متى عزلته فلا حق لي عنده ولا دعوى وما ادعيت عليه من جهة كذا وكذا فدعواي باطلة والله أعلم .

إلى أن قال : والمقصود بهذه الأمثلة وأضعافها مما لم نذكره ان الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الحنيفية السمحة وما يسره من الدين على لسان رسوله وسهّله للأمة عن الدخول في الآصار والأغـــلال وعن ارتكاب طرق المكر والخداع والاحتيال ، كما أغنانا عن كل باطل ومحرم وضار بمـــا هو أنفع لنا منه من الحق والمباح والنافع فأغنانا بأعياد الإسلام عن أعياد الكفار والمشركين من أهل الكتاب والمجوس والصابئين وعبدة الأصنام ، وأغنانا بوجوه التجارات والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار ، وأغنـانا بنكاح ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع عن الزنا والفواحش ، وأغنانا بأنواع الملابس الفاخرة

من الكتان والقطن والصوف عن الملابس المحرمة من الحرير والذهب ، وأغنانا عن سماع الأبيات وقرآن الشيطان بسماع الآيات وكلام الرحمن ، وأغنانا عن الاستسقام بالأزلام طلباً لما هو خير وأنفع لنا باستخارته التي هي توحيد وتفويض واستعانة وتوكل ، وأغنانا عن طلب التنافس في الدنيا وعاجلها بما أباحه لنا وندبنا اليه من التنافس في الآخرة وما أعدّ لنا وأباح الحسد في ذلك ، وأغنانا عن الحسد على الدنيا وشهواتها ، وأغنانا بالفرح بفضله ورحمته وهما القرآن والإيمان عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع والعقار والأثمان، فقال تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)، وأغنانا بالتكبر على أعداء الله واظهار الفخر والخيلاء لهم عن التكبر على أولياء الله والفخر والخيلاء عليهم فقال ﷺ لمن رآه يتبختر بين الصفين :«إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » ، وأغنانا بالفروسية الإيمانية والشجاعة الإسلامية التي يأمر بها في الغضب على أعدائه ونصرة دينه عن الفروسية الشيطانية التي يبعث عليها الهوى وحمية الجاهلية ، وأغنانا بالخلوة الشرعية حال الاعتكاف عن الخلوة البدعية التي يترك لها الحج والجهاد والجمعة والجماعة ، وكذلك أغنانا بالطرق الشرعية عن طرق أهل المكر والاحتيال فلا تشتد حاجة الأمة إلى شيء إلا وفي ما جاء به الرسول ما يقتضي إباحته وتوسعته بحيث لا يحوجهم إلى مكر واحتيال ، ولا يلزمهم الآصار والأغلال، فلا هذا من دينه ولا هذا ، كما أغنانا بالبراهين والآيات التي أرشد اليها القرآن عن الطرق المتكلفة المتعسفة المتعقدة التي باطلها أضعاف حقها من الطرق الكلامية التي الصحيح منها كلحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل . ونحن نعلم علماً لا نشك فيه ان الحيل التي تتضمن تحليل ما حرّمه الله وإسقاط ما أوجبه لو كانت جائزة لسنّها الله سبحانه وندب اليها لما فيها من التوسعة والفرج للمكروب والاغاثة للملهوف كما ندب إلى الاصلاح بين الخصمين وقد قال المبعوث بالحنيفية السمحة ﷺ : « ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به ولا تركت

من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك؟ فهلا ندب النبي ﷺ إلى الحيل وحض عليها كما حض على اصلاح ذات البين بل لم يزل يحذر من الخداع والمكر والنفاق ومشابهة أهل الكتاب باستحلال محارمه بادنى الحيل ولو كان مقصود الشارع اباحة تلك المحرمات التي رتب عليها انواع الذم والعقوبات وسد الذرائع اليها لم يحرمها ابتداء ولا رتب عليها العقوبة ولا سد الذرائع اليها ولكن ترك ابوابها مفتحة أسهل من المبالغة في غلقها وسدها ثم يفتح لها انواع الحيل حتى ينقب المحتال عليها من كل ناحية فهذا مما تصان الشرائع عنه فضلاً عن أكملها شريعة وافضلها ديناً وقد قدمنا ان الضرر والمفاسد الحاصلة من تلك المحرمات لا تزول بالاحتيال والتنقيب عليها بل تقوى وتشتد مفاسدها إلى ان قال: فإن قيل فما تقولون في مسئلة الظفر هل هي من هذا الباب أو من القصاص المباح قيل قد اختلف الفقهاء على خمسة اقوال احدها انها من هذا الباب وانه ليس له ان يخون من خانه ولا يجحد من جحده ولا يغصب من غصبه وهذا ظاهر مذهب احمد ومالك والثاني يجوز له ان يستوفي قدر حقه إذا ظفر بجنسه أو غير جنسه وفي غير الجنس يدفعه إلى الحاكم يبيعه ويستوفي قدر حقه إذا ظفر بجنس ماله وليس له أن يأخذ من غير الجنس وهذا قول اصحاب ابي حنيفة والرابع انه ان كان عليه دين لغيره لم يكن له الاخذ وان لم يكن عليه دين فله الاخذ وهذا احدى الروايتين عن مالك والخامس انه إن كان سبب الحق ظاهراً كالنكاح والقرابة وحق الضيف جاز للمستحق الاخذ بقدر حقه كما أذن فيه النبي ﷺ لهند أن تأخذ من مال ابي سفيان ما يكفيها ويكفي بنيها وكما اذن لمن نزل بقوم ولم يضيفوه أن يعقبهم في مالهم بمثل قراه كما في الصحيحين عن عقبة بن عامر قال : قلت للنبي ﷺ انك تبعثنا فننزل بقوم لا يقرؤننا فما ترى فقال لنا «إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا وأن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم وفي المسند من حديث المقداد

بن ابي كريمة انه سمع النبي ﷺ يقول من نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم على قراه وفي المسند أيضاً من حديث ابي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ أيما ضيف نزل بقوم فأصبح الضيف محروماً فله أن يأخذبقدر قراه ولا حرج عليـــه وإن كان سبب الحق خفياً يتهم بالأخذ وينسب إلى الخيانة ظاهراً لم يكن له الأخذ ويعرض نفسه للتهمة والخيانة وإن كان في الباطن أخذ حقه كما انه ليس له أن يتعرض للتهمة التي تسلط الناس على عرضه وأن ادعى انه محق غير متهم فهذا القول أصح الأقوال وأسدها واوفقها لقواعـد الشريعة وأصولها وبه تجتمع الأحاديث فإنه قد روى أبو داود في سننه من حديث يوسف ابن ماهك قال : كنت أكتب لفلان نفقة ايتـــام كان وليهم فغالطوه بالف درهم فأداها اليهم فأدرك لهم من أموالهم مثلهـا فقلت أقبض الألف الذي ذهبوا به منك قال لا حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول أدّ الامانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك وهذا وان كان في حكم المنقطع فإن له شاهداً من وجه آخر وهو حديث طلق بن غنام اخبرنا شريك وقيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال أدّ الامانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك وقيس هو ابن الربيع وشريك ثقة وقد قوى حديثه بمتابعة قيس له وإن كان فيه ضعف وله شاهد آخر من حديث ايوب ابن أبي سويد عن أبي شوذب عن أبي التياح عن أنس عن النبي ﷺ نحوه وايوب بن سويد وأن كان فيه ضعف فحديثه يصلح للاستشهاد وله شاهد آخر وإن كان فيه ضعف وهو قوي بانضمام هذه الأحاديث اليه رواه يحيى بن ايوب عن اسحاق ابن اسيد عن أبي حفص الدمشقي عن مكحول أن رجلاً قال لأبي أمـــامة الباهلي: الرجل استودعه الوديعة أو يكون لي عليه دين فيجحدني ثم يستودعني أو يكون له عندي الشيء فأجحده قـــال لا سمعت رسول الله ﷺ يقول أدّ الامانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك وله شاهد آخر وهو ما رواه الترمذي من حديث مالك بن نضلة قال قلت يا رسول الله الرجل أمر به فلا

يقريني ولا يضيفني فيمر بي أفأجزيه قال لا أقره قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وله شاهد آخر وهو ما رواه أبو داود من حديث بشر بن الخصاصية قال : قلت يا رسول الله إن أهل الصدقة يعتدون علينا أفنكتم من اموالنا بقدر ما يعتدون علينا قال لا وله شاهد آخر من حديث بشر هـذا أيضاً قال : قلت يا رسول الله:إن لنا جيرانا لا يدعون لنا شاذة ولا فاذة إلا أخذوها فإذا قدرنا لهم على شيء اناخذه؟فقال أدّ الامانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك ذكره شيخنا في كتاب ابطال الحيل فهذه الآثار مع تعـدد طرقها واختلاف مخارجها يشد بعضها بعضاً ولا يشبه الأخذ فيها الاخذ في الموضعين اللذين اباح رسول الله ﷺ الاخذ فيهما لظهور سبب الحق فلا ينسب الأخذ إلى الخيانة ولا يتطرق اليه تهمة ولتعسر الشكوى في ذلك إلى الحاكم وإثبات الحق والمطالبة به والذين جوزوه يقولون إذا أخذ قدر حقه من غير زيادة لم يكن ذلك خيانة فإن الخيانة أخذ ما لا يحل له أخذه وهذا ضعيف جداً فإنه يبطل فائدة الحديث فإنه قال : ولا تخن من خانك فجعل معاملته له خيانة ونهاه عنها فالحديث نص بعد صحته فإن قيل فهلا جعلتموه مستوفياً لحقه بنفسه إذا عجز عن استيفائه بالحاكم كالمغصوب ماله إذا رآه في يدالغاصب وقدر على اخذه منه قهراً فهل تقولون انه لا يحل له اخذ ماله وهو يشاهده في يد الظالم المعتدي ولا يحل له إخراجـه من داره وارضه وكذلك إذا غصب زوجته وحال بينه وبينها وعقد عليها ظاهراً بحيث لا يتهم فهـل يحرم على الزوج الأول انتزاع زوجته منه خشية التهمة وهذا لا تقولونه انتم ولا أحـد من اهل العلم ولهـذا قال الشافعي وقد ذكر حديث هند : وإذا دلت السنة واجماع كثير من اهل العلم على أن يأخذ الرجل حقه لنفسه سراً فقد دلّ أن ذلك ليس بخيانة، الخيانة اخذ ما لا يحل له اخذه فالجواب: انا نقول يجوز له أن يستوفي قدر حقه لكن بطريق مباح فاما خيانة وطرق محرمة فلا وقولكم ليس ذلك بخيانة قلنا بل خيانة حقيقة ولغة وشرعاً وقد سماه رسول الله ﷺ

خيانة وغايتها انها خيانة مقابلة ومقاصة لا خيانة ابتداء فيكون كل واحد منهامسيئاً إلى الآخر ظالماً له فإن تساوت الخيانات قدراً وصفة فقد يتساقط اثمها والمطالبةفي الآخرة ويكون لكلمنهما على الآخر مثل ما للآخر عليهوإن بقي لأحدهما فضل يرجع به فهذا في احكام الثواب والعقاب وأما في احكام الدنيا فليس كذلك لأن الأحكام فيها مرتبة على الظواهر وأما السرايرفإلى الله سبحانه ولهذا قال النبي ﷺ انكم تختصمون اليّ وانما انا بشر اقضي بنحو ما اسمع ولعل بعضكم أن يكون بحجته الحن من بعض فمتى قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه فأنما اقطع له قطعة من النار . فأخبر ﷺ انه يحكم بينهم بالظاهر وأعلم المبطل في نفس الأمر ان حكمه لا يحل له أخذ ما حكم به وانه مع حكمه له به فانما يقطع له قطعة من النار فإذا كان الحق مع هذا الخصم في الظاهر وجب على الحاكم أن يحكم له به ويقره بيده وإن كانت يد عادية ظالمة عند الله ، فكيف يسوغ لخصمه أن يحكم لنفسه ويستوفي لنفسه بطريق محرمة باطلة لا يحكم بمثلها الحاكم وإن كان محقاً في نفس الأمر ، وليس هذا بمنزلة من رأى عين ماله أو أمته أو زوجته بيد غاصب ظالم فخلصها منه قهراً فإنه قد تعين حقه في هذه العين بخلاف صاحب الدين فإن حقه لم يتعين في تلك العين التي يريد أن يستوفي منها ولأنه لا ينكتم بذلك ولا يستخفي به كما يفعل الخائن بل يكابر صاحب اليد العادية ويغالبه ويستعين عليه بالناس فلا ينسب الى الخيانة والأول متكتم مستخف متصور بصورة خائن وسارق ، فإلحاق أحدهما بالآخر باطل ، والله أعلم .

الى أن قال : فإنّ حقيقة الأمر عند أرباب الحيل الباطلة أن تصير العقود الشرعية عبثاً لا فائدة فيها فانها لم يقصد بها المحتال مقاصدها التي شرعت لها بل لا غرض له في مقاصدها وحقائقها البتة وإنما غرضه التوصل بها إلى ما هو ممنوع منه فجعلها سترة وجنة يتستر بها منارتكاب ما نهىعنه صرفاً فأخرجه

في قالب الشرع كما أخرجت الجهمية التعطيـــل في قالب التنزيه ، وأخرج المنافقون النفاق في قالب الإحسان والتوفيق والعقل المعيشي ، وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان في قالب السياسة وعقوبة الجناة ، وأخرج المكاسون أكل المكوس في قالب إعانة المجاهدين وسد الثغور وعمارة الحصون ،وأخرج الروافض الإلحاد والكفر والقدح في سادات الصحابة وحزب رسول الله ﷺ وأوليائه وأنصاره في قالب محبـــة أهل البيت والتعصب لهم وموالاتهم ، وأخرجت الإباحية [1] وفسقة المنتسبين إلى الفقر والتصوُّف بدعهم وشطحهم في قالب الفقر والزهد والأحوال والمعارف ومحبة الله ونحو ذلك ، وأخرجت الاتحادية أعظم الكفر والإلحاد في قالب التوحيد وان الوجود واحد لا اثنان وهو الله وحـده ، فليس هنا وجودان خالق ومخـلوق ولا رب وعبد بل الوجود كله واحد وهو حقيقة الرب ، وأخرجت القدرية إنكار عموم قدرة الله على جميع الموجودات افعالها وأعيانها في قالب العدل وقالوا : لو كان الرب قادراً على أفعال عباده لزم أن يكون ظالماً لهم ، فأخرجوا تكذيبهم بالقدر في قالب العدل ، وأخرجت الجهمية جحدهم لصفات كماله سبحانـه في قالب التوحيد وقالوا : لو كان له سبحانه سمع وبصر وقدرة وحيـاة وإرادة وكلام يقوم به لم يكن واحداً وكان آلهة متعددة . وأخرجت الفسقة والذين يتبعون الشهوات الفسوق والمعاصي في قالب الرجاء وحسن الظن بالله وعـدم إساءة الظن بعفوه ، وقالوا : تجنُّب المعاصي والشهوات إزراء بعفـــو الله وإساءة للظن به ونسبة له إلى خلاف الجـــود والكرم والعفو ، وأخرجت الخوارج قتال الأئمة والخروج عليهم بالسيف في قالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأخرجت أرباب البدع جميع بدعهم في قوالب متنوعة بحسب تلك البدع ، وأخرج المشركون شركهم في قالب التعظيم لله وانه أجلّ من أن يتقرب اليه بغير وسائط وشفعاء وآلهة تقربهم اليه ، فكل صاحب باطل لا

(١) المباحية في إغاثة اللهفان ، طبعة مصطفى الحلبي .

يتمكن من ترويج باطله إلا باخراجه في قالب ، والمقصود أن أهـــل المكر والحيل المحرمة يخرجون الباطل في القوالب الشرعية ، ويأتون بصور العقود دون حقائقها ومقاصدها .

إلى أن قال : وقد عرف بما ذكرنا الفرق بين الحيل التي تخلص من الظلم والبغي والعدوان . والحيل التي يحتال بها على إباحة الحرام وإسقاط الواجبات وان جمعها اسم الحيلة والوسيلة ، وعرف بذلك ان العينة لا تخلص من الحرام وإنما يتوسل بها اليه وهو المقصود الذي اتفقا عليه ويعلمه الله من أنفسهما وهما يعلمانه ومن شاهدهما يعلمه وكذلك تمليك ماله لولده عند قرب الحول فراراً من الزكاة لا يخلص من الإثم بل يغمسه فيه لأنـــه قصد إلى إسقاط فرض قد انعقد سببه ، ولكن عذر من جوّز ذلك انه لم يسقط الواجب بـــل أسقط الوجوب وفرّق بين الأمرين ، فإنّ له أن يمنع الوجوب وليس له أن يمنـــع الواجب. وهكذا القول في التحيل في إسقاط الشفعة قبل البيع فانه يمنع وجوب الاستحقاق لا يمنع الذي وجب بالبيع فذلك لا يجوز ، وهو نظير منع الزكاة بعد وجوبها فذلك لا يجوز بحيلة ولا غيرها ، وكذلك التحيل على منع وجوب الجمعة عليه بأن يسكن في مكان لا يبلغه النداء ولا يمكنه الذهـــاب منه إلى الجمعة والرجوع في يومه أو السفر قبل دخول وقتها ، ولا يجوز له التحيل على تركها بعد وجوبها عليه ، وكذلك التحيل على منع وجوب الإنفاق على القريب بأن لا يكتسب مالا يجب فيه الإنفـــاق ولا يجوز له التحيل على إسقاط ما وجب من ذلك ، فهذا سر الفرق الذي اعتمده أصحاب الحيل . وأما المانعون فيجيبون عن ذلك بأن هـــذا لو أجدى على المتحيلين لم يعاقب الله سبحانه أصحاب الجنة الذين عزموا على صرامها ليلاً لئلا يحضرهم المساكـين ، فهؤلاء قصدوا منع الوجوب بعد انعقاد سببه وهو نظير التحيل لإسقاط الزكاة بعد ثبوت سببها ، وبأن هذا يبطل حكمة الإيجاب فإن الله سبحانه إنما أوجبها في أموال الأغنياء طهرة لهم وزكاة ورحمـــة للمساكين وسَدّاً لفاقتهم ،

فالتحيل على منع وجوبها يعود على ذلك بالإبطال وبأن الشارع لو جوّز التحيل على منع الإيجاب بعد انعقاد سببه لم يكن في الإيجاب فائدة إذ ما من أحد إلا ويمكنه التحيل بأدنى حيلة على الدفع فيكون الإيجاب عديم الفائدة ، فإنه إذا أوجبه وجوّز إسقاطه بعد انعقاد سبب الإيجاب عاد ذلك بنقيض ما قصده ، وبأنه إذا انعقد سبب الوجوب فقد تعلق الوجوب بالمكلف فلا يمكنه الشارع من قطع هذا التعلق ولا سيما إذا شارف وقت الوجوب وحضر حتى كأنه داخل فيه كما إذا بقي من الحول يوم أو ساعة ، فالإسقاط هاهنا في حكم الإسقاط بعد الحول سواء ومفسدته كمفسدته فإن المصلحة الغائبة بالمنع بعد تلك الساعة كالمفسدة الحاصلة بالتسبب الى المنع قبلها من كل وجه وبأن الحكم بعد انعقاد سببه إنما جوّز له التأخير إلى تمام الحول توسعة عليه ولهذا يجوز له أداء الواجب قبل الحول ويكون واقعاً موقعه ، ولأن الفرار من الإيجاب إنما يقصد به الفرار من أداء الواجب وأن يسقط ما فرضه الله عليه عند مضيّ الحول ، وليس هذا كمن ترك اكتساب المال الذي تجب فيه الزكاة فراراً من وجوبها عليه أو ترك بيع الشقص فراراً من أخذ الشفيع له أو ترك التزوج فراراً من وجوب الإنفاق ونحو ذلك ، فإن هذا لم ينعقد في حقه السبب بل ترك ما يفضي إلى الإيجاب ولم يتسبب اليه وهذا تحيل بعد السبب على اسقاط ما تعلق به من اداء الواجب واحتيال على قطع سببيته بعد ثبوتها وايضاً فان قطع سببية السبب تغيير لحكم الله واسقاط للسببية بالتحيل وليس ذلك للمكلف فان الله سبحانه هو الذي جعل هذا سبباً بحكمه وحكمته فليس له أن يبطل هذا الجعل بالحيلة والمخادعة وهذا بخلاف ما إذا وهبه ظاهراً وباطناً أو انفقه فانه لم يحتل باظهار أمر وإبطان خلافه على منع الايجاب واداء الواجب ومعلوم ان منعه اداء الواجب فقط ايسر من تحيله على الأمرين جميعاً وايضاً فانه لا يصح فراره من الواجب مع اتيانه بسببه فان الفار من الشيء فار من أسبابه وهذا أحرص شيء على الملك الذي هو سبب وجوب

الحق عليه ومن حرصه عليه تحيل على ترك الاخراج حرصاً وشحاً فهو فار من اداء الواجب ظاناً انه يفر من وجوبه عليه والاول حـــاصل له دون الثاني ونكتة الفرق من جهة الوسيلة والمقصود فان المحتال على المحرمات واسقاط الواجبات مقصوده فاسد ووسيلته باطلة فانه توسل بالشيء إلى غير مقصوده وتوسل به إلى مقصود محرم إلى ان قال :

﴿ فصل ﴾

ومن مكائده ومصائده ما فتن به عشاق الصور : وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى والبلية العظمى التي استعبدت النفوس لغير خلاقها وملكت القلوب لمن يسومها الهوان من عشاقها والقت الحرب بين العشق والتوحيد ودعت إلى موالاة كل شيطان مريد فصيرت القلب للهوى أسيراً وجعلته عليـــه حاكما وأميراً فاوسعت القلوب محنة وملأتها فتنة وحالت بينهاوبين رشدها وصرفتها عن طريق قصدها إلى أن قال :

إذا عرف هذا فأصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والارادة فهامبدأ لجميع الافعال والحركات كما ان البغض والكراهية مبدأ كل ترك وكف إذا قيل أن الترك والكف أمر وجودي كما عليه أكثر الناس وان قيل انهعدمي فيكفي في عدمه عدم مقتضيه .

والتحقيق ان الترك نوعان ترك هو أمر وجودي وهو كف النفس ومنعها وحبسها عن الفعل فهذا سببه أمر وجودي وترك هو عدمحض فهذا يكفيفيه عدم المقتضى فانقسم الترك إلى قسمين قسم يكفي فيه عـــدم السبب المقتضى لوجوده وقسم يستلزم وجود السبب الموجب له من البغض والكراهية وهـــذا السبب لا يقتضي بمجرده كف النفس وحبسها والالتئام مسببعنالمحبةوالارادة يقتضي أمر هو أحب اليه من هذا الذي كف نفسه عنه فيتعارض عنـــده الأمران فيؤثر خيرهما واعلاهما وانفعهما له واحبهما اليه على ادناهما فلا يترك

وكل بالسحاب والمطر ملائكة ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه وملائكة لحفظ مـــا يعمله واحصائه وكتابته ووكل بالموت ملائكة ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ووكل بالافلاك ملائكة يحركونها ووكل بالشمس والقمر ملائكة ووكل بالنار وايقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة ووكل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل الأنهار ملائكة فالملائكة أعظم جنود الله تعالى ومنهم المرسلات عرفا والناشرات نشراً والفارقات فرقاً والملقيات ذكرا ومنهم النـــازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمراً ومنهم الصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ومنهم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وملائكة قد وكلوا بحمل العرش وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس إلى غير ذلك من اصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله ولفظ الملك يشعر بانه رسول منفذ لأمر غيره فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله لله الواحـــد القهار وهم ينفذون أمره (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ـ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ـ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مـــا يؤمرون ـ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) لا تتنزل إلا بأمره ولا تفعل شيئاً إلا من بعد أذنه فهم عباد له مكرمون منهم الصافون ومنهم المسبحون ليس فيهم إلا من له مقام معلوم لا يتخطاه وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه واعلاهم الذين عنده سبحانه (لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ورؤساؤهم الاملاك الثلاثة جبرئيل، وميكائيل، واسرافيل وكان النبي ﷺ يقول اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بأذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم فتوسل اليه سبحانه بربوبيته العامة والخاصة لهؤلاء الاملاك الثلاثة الموكلين بالحياة فجبريل موكل بالوحي الذي به حيـــاة

محبوبا إلا لمحبوب هو أحب اليه منه ولا يرتكب مبغوضاً إلا ليتخلص به من مبغوض هو أكره اليه منه إلى أن قال :

ولهذا كان أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله وكان من أحب لله وأبغض لله واعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان فإن الايمان علم وعمل والعمل ثمرة العلم وهو نوعان عمل للقلب حباً وبغضاً ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلاً وتركا وهما العطاء والمنع فإذا كانت هذه الاصول الاربعة لله كان صاحبها مستكمل الايمان وما نقص منها وكان لغير الله نقص من ايمانه بحسبه .

﴿ فصل ﴾

إذا عرف هذا فكل حركة في العالم العلوي والسفلي فسببها المحبة والارادة وغايتها المحبة والإرادة فإن الحركات ثلاث ارادية وطبيعية وقسرية فإن المتحرك أوله بها شعور ان كان له شعور بحركته وارادته لها فحركته ارادية وان لم يكن له شعور بحركته وهو غير مريد لها فحركته إما على وفق طبعه أو على خلافه فالاولى طبيعية والثانية قسرية واظهر من هذا ان يقال مبدأ الحركة إما أن يكون أمراً مباينا للمتحرك أو قوة فيه فالأول الحركة فيه قسرية والثاني إما ان يكون له به شعور او لا فالاول فالحركة فيه ارادية والثاني طبيعية فالحركة متى لازمت الشعور أو الارادة فهي ارادية ومتى انتفى عنها الامران فان كان بقوة في المتحرك فهي الطبيعية وان كانت من قوة في المتحرك فهي القسرية وكل حركة في السموات والارض من حركات الافلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسموات والارض كما قال تعالى (فالمدبرات أمراً) وقال (فالمقسمات أمراً) وهي الملائكة عند اهل الايمان واتباع الرسل عليهم السلام واما المكذبون للرسل المنكرون للصانع فيقولون هي النجوم وقد اشبعنا الرد على هؤلاء في كتابنا الكبير المسمى (بالمفتاح) وقد دلّ الكتاب والسنة على اصناف الملائكة وانها مؤكلة باصناف المخلوقات وانه سبحانه وكل بالجبال ملائكة

القلوب والارواح وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم فسأله رسوله بربوبيته لهؤلاء أن يهديه لما اختلف فيه من الحق باذنه لما في ذلك من الحياة النافعة وقد اثنى سبحانه على عبده جبريل في القرآن بأحسن الثناء ووصفه بأجل الصفات فقال (فلا اقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسس والصبح إذا تنفس انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين) فهذا جبريل فوصفه بانه رسول كريم عنده وانه ذو قوة ومكانة عند ربه سبحانه وانه مطاع في السموات وانه أمين على الوحي فمن كرمه على ربه انه أقرب الملائكة اليه قال بعض السلف منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك ومن قوته انه رفع مدائن قوم لوط على جناحه ثم قلبها عليهم فهو قوي على تنفيذ ما يؤمر به غير عاجز عنه إذ تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن الله قال ابن جرير في تفسيره عن اسماعيل بن ابي خالد عن أبي صالح: امين على ان يدخل سبعين سرادقا من نور بغير اذن ووصفه بالامانة يقتضي صدقه ونصحه والقاءه إلى الرسل ما أمر به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان والمكانة والامانة والقوة القرب من الله .

ونظير الجمع له بين المكانة والامانة قول العزيز ليوسف الصديق (انك اليوم لدينا مكين امين) والجمع بين القوة والامانة نظير قول ابنة شعيب في موسى إن خير من استأجرت القوي الامين) وقال تعالى في وصفه (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى) . قال ابن عباس ذو منظر حسن وقال قتادة ذو خلق حسن وقال ابن جرير عنى بالمرة صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات والجسم إذا كان كذلك من الانسان كان قويا والمرة واحدة المرور وانما أريد به ذو مرة سوية ومنه قول النبي ﷺ لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي» قلت: هذا حجة من قال المرة القوة في الآية وهو قول مجاهد وابن زيد وهو ضعيف لأنه قد وصفه قبل ذلك بأنه شديد القوى ، ولا ريب ان المرة

في الحديث هي القوة لا المنظر الحسن ، فإما أن يقال المرة تقال على هذاوعلى هذا وأما ان يقال وهو أظهر ان المرة هي الصحة وهي السلامة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة ، وذلك مستلزم كمال الخلقة وحسنها وجمالها ، فإن العاهة والآفة إنما تكون من ضعف الخلقة والتركيب ، وذلك قوة وصحة يتضمن جمالاً وحسناً . والله أعلم .

وقالت اليهود للنبي ﷺ : مَنْ صاحبك الذي يأتيك من الملائكة فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك بالخبر ، فقال : « هو جبريل » ، قالوا : ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال وذاك عدوّنا ، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالقطر والنبات والرحمة ؛ فأنزل الله تعالى : (من كان عدوّاً لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله) الى قوله : (من كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوّ للكافرين) .

والمقصود ان الله وَكَّلَ بالعالم العلوي والسفلي ملائكة فهي تدبّر أمر العالم بإذنه ومشيئته وأمره ، فلهذا يضيف التدبير الى الملائكة تارة لكونهم هم المباشرين للتدبير كقوله : (فالمدبّرات أمراً) . ويضيف التدبير اليه كقوله : (ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر) . وقوله : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار) الى قوله : (ومن يدبر الأمر فسيقولون الله) فهو المدبر امراً واذناً ومشيئة والملائكة المدبرات مباشرة وامتثالاً وهذا كما أضاف التوفي اليهم تارة كقوله : (توفته رسلنا) واليه تارة كقوله:(الله يتوفى الأنفس)ونظائره ، والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة الى آخر أمره لهم وله شأن آخر ، فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور الى طور وتصويره وحفظه في اطباق الظلمات الثلاث وكتابه ورزقه وعمله وأجله وشقاوته وسعادته؛ وملازمته في جميع أحواله ، وإحصاء أقواله وأفعاله ، وحفظه في حياته ، وقبض روحه عند وفاته ، وعرضها على خالقه وفاطره .

وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ وبعد البعث ، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب ، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله والمعلمون له ما ينفعه والمقاتلون الذابّون عنه وأولياؤه في الدنيا والآخرة ، وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره ، وما يحبه ليقوى قلبه ويزداد شكراً ، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه اليه ، ويلهونه عن الشر ويحذرونه منه ، فهم أولياؤه وأنصاره وحفظته ومعلموه وناصحوه والداعون له والمستغفرون له ، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه ، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير ، ويبشرونه بكرامة الله في منامه وعند موته ويوم بعثه ، وهم الذين يزهّدونه في الدنيا ويرغبونه في الآخرة ، وهم الذين يذكّرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل ويثبتونه إذا جزع ، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته ، فهم رسل الله في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده تتنزل بالأمر من عنده من أقطار العالم وتصعد اليه بالأمر ، قد أطّت بهم السموات وحقّ لها أن تئطّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد ، ويدخل البيت المعمور كل يوم منهم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه آخر ما عليهم

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم وأعمالهم ومراتبهم ، كقوله : (وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة) الى قوله : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) إلى آخر القصة .

وقوله: (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم) وما بين هاتين السورتين من سور القرآن بل لا تخلو سورة من سور القرآن عن ذكر الملائكة صريحاً أو تلويحا واشارة وإما ما ذكرهم في الاحاديث النبوية فأكثر وأشهر من أن تذكر ولهذا كان الايمان بالملائكة أحد الاصول الخمس التي هي أركان الايمان وهي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فلنرجع إلى المقصود وهو ان حركات العالم العلوي والسفلي بالملائكة فالحركات الارادية كلها باربعة

للارادة التي تحرك المريد إلى فعل ما يفعله والحركة الطبيعية سببها ما في المتحرك من الميل والطلب لكماله وانتهائه كحركة النار وحركة النبات وحركة الرياح وكذلك حركة الجسم الثقيل إلى أسفل وانه بطبعه يطلب مستقره من المركز ما لم يعقه عنه عائق واما الحركة القسرية كحركته بالقسر إلى العلو فتابعة لإرادة القاسر له فلم يبق حركة اصلية إلا عن الإرادة والمحبة .

﴿ فصل ﴾

إذا عرف هذا فالمحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له فتحرك محب الرحمن ومحب القرآن ومحب العلم والايمان ومحب المتاع والاثمان ومحب الاوثان والصلبان ومحب النسوان والمردان ومحب الاوطان ومحب الاخوان فتثير من كل قلب حركة الى محبوبه من هذه الاشياء فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره ولهذا تجد محب النسوان والمردان ومحب قرآن الشيطان بالاصوات والالحان لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الايمان ولا عند تلاوة القرآن حتى إذا ذكر له محبوبه اهتز له وربا وتحرك ظاهره وباطنه شوقاً اليه وطربا لذكره فكل هذه المحاب باطلة مضمحلة سوى محبة الله وما والاها من محبة رسوله وكتابه ودينه واوليائه فهذه المحبة تدوم وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام من تعلقت به وفضلها على سائر المحاب كفضل من تعلقت به على من سواه وإذا تقطعت علائق المحبين واسباب توادهم وتحابهم لم تنقطع أسبابها قال تعالى: (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب) . قال عطاء عن ابن عباس المودة وقال مجاهد تواصلهم في الدنيا وقال الضحاك يعني تقطعت بهم الارحام وتفرقت بهم المنازل في النار وقال ابو صالح الاعمال والكل حق فان الاسباب هي الوصل التي كانت بينهم في الدنيا تقطعت بهم احوج ما كانوا اليها وأما اسباب الموحدين المخلصين لله فاتصلت بهم ودام اتصالها بدوام معبودهم ومحبوبهم فإن السبب تبع لغايته في البقاء والانقطاع .

﴿ فصل ﴾

إذا تبين هذا فاصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي محبته وحده لا شريك له المتضمنة لعبادته دون عبادة ما سواه فان العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل ولا يصلح ذلك إلا لله وحده ولما كانت المحبة جنساً تحته انواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله سبحانه ما يختص به ويليق به كالعبادة والانابة والاخبات ولهذا لا يذكر فيها لفظ العشق والغرام والصبابة والشغف والهوى وقد يذكر لها لفظ المحبة كقوله: (يحبهم ويحبونه) وقوله: (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقوله: و(الذين آمنوا أشد حباً لله) . ومدار كتب الله المنزلة من اولها إلى آخرها على الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن محبة ما يضادها ويلازمها وضرب الامثال والمقاييس لأهل المحبتين وذكر قصصهم ومآلهم ومنازلهم وثوابهم وعقابهم ولا يجد حلاوة الإيمان بل لا يذوق طعمه إلا من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواه [1] كما في الصحيحين من حديث انس عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » ، وفي لفظ : لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار . وفي الصحيحين أيضاً عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين » ، ولهذا اتفقت دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم على عبادة الله وحده لا شريك له . وأصل العبادة وتمامها وكمالها هو المحبة وإفراد الرب سبحانه بها فلا يشرك العبد به فيها غيره ، والكلمة المتضمنة لهذين الأصلين هي الكلمة التي لا يدخل في الإسلام إلا بها ولا يعصم

---

(١) لعله مما سواهما كما في الاغاثة .

دمه وماله إلا بالإتيان بها ولا ينجو من عذاب الله إلا بتحقيقها بالقلب واللسان وذكرها أفضل الذكر ، كما في صحيح ابن حبان عنه ﷺ : « أفضل الذكر لا إله إلا الله» والآية المتضمنة لها ولتفضيلها سيدة آي القرآن والسورة المختصة بتحقيقها تعدل ثلث القرآن ، وبها أرسل الله سبحانه جميع رسله وأنزل جميع كتبه وشرع جميع شرائعه قياماً بحقها وتكميلاً لها وهي التي يدخل بها العبد على ربه ويصير في جواره ، وهي مفزع أوليائه وأعدائه ، فإن أعداءه إذا مسّهم الضرّ في البرّ والبحر فزعوا الى توحيده وتبرأوا من شركهم ودعوه مخلصين له الدين .

وأما أولياؤه فهي مفزعهم في شدائد الدنيا والآخرة، ولهذا كانت دعوات المكروب لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم. ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه: (لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين) . وقال ثوبان : كان رسول الله ﷺ إذا راعه أمر قال : « الله ربي لا أشرك به شيئاً » . وفي لفظ قال: « هو الله لا شريك له». وقالت أسماء بنت عميس: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولها عند الكرب : « الله ربي لا أشرك به شيئاً » . وفي الترمذي من حديث ابراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : « دعوة يونس إذ نادى في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين » فانه لم يدع بها مسلم في شيء إلا استجيب له . وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني الى نفسي طرفة عين ، أصلح لي شأني كله [1] ، لا إله إلا أنت . فالتوحيد ملجأ الطالبين ومفزع الهاربين ونجاة المكروبين وغياث الملهوفين ، وحقيقته إفراد الرب سبحانه بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع .

---

(١) لعله : واصلح لي شأني كله ، كما في الإغاثة .

﴿ فصل ﴾

فاذا عرف ان كل حركة فأصلها الحب والإرادة فلا بد من محبوب مراد لنفسه لا يطلب ويحب لغيره ، إذ لو كان كل محبوب يحب لغيره لزم الدور او التسلسل في العلل والغايات وهو باطل باتفاق العقلاء ، والشيء قد يحب من وجه دون وجه ، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده الذي لا تصلح الألوهية إلا له ، فلو كان في السماء والأرض آلهة إلا اللهفسدتا والإلهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها هي العبادة والتأله ومن لوازمها توحيد الربوبية الذي أقرّ به المشركون فاحتج الله عليهم به فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الألوهية .

﴿ فصل ﴾

وكل حي فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فله غاية يتحرك اليها ولا صلاح له إلا أن تكون غاية حركته ونهاية مطلبه هو الله وحده ، كما لا وجود له إلا أن يكون الله وحده هو ربه وخالقه فوجوده بالله وحده وكما له ان يكون لله وحده فما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم ولهذا قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ولم يقل لعدمتا إذ هو سبحانه قادر على ان يبقيها على وجه الفساد ولا يمكن أن تكون صالحة إلا بأن يكون فاطرهما وخالقهما هو المعبود وحده لا شريك له فان صلاح الاعمال والحركات بصلاح نياتها ومقاصدها فكل عمل فهو تابع لنية عامله وقصده وارادته .

وتنقسم الاعمال إلى صالح وفاسد هو باعتبارها في ذاتها تارة وباعتبار مقاصدها ونياتها تارة واما تقسيم المحبة والارادة إلى نافعة وضارة فهو باعتبار متعلقها ومحبوبها ومرادها فإن كان المحبوب المراد هو الذي لا ينبغي أن يحب لذاته ويراد لذاته إلا هو وهو المحبوب الأعلى الذي لا صلاح للعبد ولا فلاح

ولا نعيم ولا سرور إلا بان يكون وحده هو محبوبه ومراده وغاية مطلوبه كانت محبته نافعة له ، وان كان محبوبه ومراده ونهاية مطلبه غيره كانت محبته ضارة له وعذاباً وشقاءً .

فالمحبة النافعة هي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه من السعادة والنعيم والمحبة الضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره من الشقاء والألم والعناء .

﴿ فصل ﴾

إذا تبين هذا فالحي العالم الناصح لنفسه لا يؤثر محبة ما يضره ويشقى به ويتألم به ولا يقع في ذلك إلا من فساد تصوره ومعرفته أو من فساد قصده وإرادته فالاول جهل والثاني ظلم والانسان خلق في الاصل جهولاً ظلوماً ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه ويلهمه رشده فمتى أراد به الخير علمه ما ينفعه فخرج به من الجهل ونفعه بما علمه فخرج من الظلم ومتى لم يرد به خيراً ابقاه على أصل الخلقة كما في المسند من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال «ان الله خلق خلقه في ظلمة ثم القى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن اخطأه ضل» فالنفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها لجهلها بمضرته لها تارة ولفساد قصدها تارة ولمجموعهما تارة وقد ذم الله سبحانه في كتابه من اجاب داعي الجهل والظلم فقال (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين)وقال (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) فاصل كل خير هو العلم والعدل واصل كل شر هو الجهل والظلم وقد جعل الله سبحانه للعدل المأمور به حداً فمن تجاوزه كان ظالماً متعديا وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه الذي خرج به عن العدل ولهذا قال تعالى :(كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) وقال فيمن ابتغى سوى زوجته أو ملك يمينه (فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون) وقال (ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) .

والمقصود أن محبة الظلم والعدوان سببها فساد العلم أو فساد القصد أو

فسادهما جميعاً وقد قيل: ان فساد القصد من فساد العلم وإلا فلو علما في الضار من المضرة وازمها حقيقة العلم لما آثره وهذا كمن علم من طعام شهي انه مسموم فانه لا يقدم عليه فضعف علمه بما في الضار من وجوه المضرة وضعف عزمه على اجتنابه يوقعه في ارتكابه ولهذا كان الايمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه وترك ما يضره فاذا لم يفعل هذا ولم يترك هذا لم يكن ايمانه على الحقيقة وانما معه من الإيمان بحسب ذلك فان المؤمن بالنار وحقيقة الإيمان حتى كأنه يراها لا يسلك طريقها الموصلة اليها فضلاً عن أن يسعى فيها بجهده والمؤمن بالجنة حقيقة الايمان لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها ، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع أو التخلص من المضار .

﴿ فصل ﴾

إذا تبين هذا فالعبد أحوج شيء إلى معرفة ما يضره ليجتنبه وما ينفعه ليحرص عليه ويفعله ، فيحب النافع ويبغض الضار ، فتكون محبته وكراهته موافقتين لمحبة الله وكراهته وهذا من لوازم العبودية والمحبة ومتى خرج عن ذلك أحب ما يسخطه ربه وكره ما يحبه فنقصت عبوديته بحسب ذلك وهاهنا طريقان العقل والشرع أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل والاحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارم الاخلاق واداء الامانات وصلة الارحام ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد وحفظ الجوار ونصرة المظلوم والاعانة على نوائب الحق وقرى الضيف وحمل الكل ونحو ذلك ووضع في العقول والفطر استقباح اضداد ذلك ونسبة هذا الاستحسان والاستقباح الى العقول والفطر كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظمأ وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع ولبس ما يدفئه عند البرد فكما لا يمكنه ان يدفع عن نفسه وطبعه استحسان ذلك ونفعه فكذلك لا يدفع عن نفسه وفطرته استحسان صفات الكمال ونفعها واستقباح اضدادها

ومن قال ان ذلك لا يعلم بالعقـــل ولا بالفطرة وانما عرف بمجرد السمع فقوله باطل قد بينا بطلانه في كتاب المفتاح من ستين وجهاً وبينا هناك دلالة القرآن والسنة والعقول والفطر على فساد هذا القول والطريق الثـــاني لمعرفة الضار والنافع من الاعمال السمع وهو اوسع وأبين واصدق من الطريق الاولى لخفاء صفات الافعال وأحوالها ونتائجها وان العالم بذلك على التفصيل ليس هو إلا الرسول صلوات الله وسلامه عليه فأعلم الناس وأصحهم عقلا ورأياً واستحساناً من كان رأيه وعقله واستحسانه وقياسه موافقاً للسنة ، كما قال مجاهد : أفضل العبادة الرأي الحسن وهو إتباع السنة . قال تعالى : (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هـو الحق) . وكان السلف يسمّون أهـل الآراء المخالفة للسنة وما جاء به الرسول في مسائل العلم الخبرية ، ومسائـل الأحكام العملية يسمونهم أهل الشبهات والأهواء ، لأن الرأي المخالف للسنة جهلٌ لا علم ، وهوى لا دين ، فصاحبه ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، وغايتـه الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة ، وإنما ينتفي الضلال والشقاء عمن اتبـع هدى الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه ، كما قال تعالى : (فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فـلا يضل ولا يشقى) الى قـوله : (ونحشره يوم القيامة أعمى) .

واتباع الهوى يكون في البغض والحب ، كما قال تعـالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) إلى قـــوله : (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) . وقال : (ولا يجرمنـــكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

والهوى المنهي عن اتباعه كما يكـــون هو هوى الشخص في نفسه فقد يكون أيضاً هوى غيره فهو منهيٌ عن اتباع هذا وهذا لمضادة كل منهما لهدى الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه .

﴿ فصل ﴾

فمن المحبة النافعة محبة الزوجة وما ملكت يمين الرجل فإنها معينة على ما شرع الله سبحانه له النكاح وملك اليمين من إعفاف الرجل نفسه وأهله فلا تطمح نفسه إلى سواها من الحرام ، ويعفها فلا تطمح نفسها الى غيره ، وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتمّ وأقوى كان هـذا المقصود أتمّ وأكمل ؛ قال تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها). وقال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة) . وفي الصحيح عنه ﷺ انه سئل مَن احب الناس اليك ؟ فقال : « عائشة » ، ولهذا كان مسروق يقول : إذا حدّث عنها حدثتني الصدّيقة بنت الصدّيق حبيبة رسول الله المبرأة من فوق سبع سموات . وصح عنه ﷺ انه قال : « حُبِّبَ إليّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة » ؛ فلا عيب على الرجل في محبته لأهله وعشقه لها إلا إذا شغله عن محبة ما هو أنفع له من محبة الله ورسوله وزاحم حبه وحب رسوله ، فإن كل محبة زاحمت محبة الله ورسوله بحيث تضعفها وتنقصها فهي مذمومة وإن أعانت على محبة الله ورسوله وكانت من أسباب قوتها فهي محمودة ولذلك كان رسول الله ﷺ يحب الشراب البارد الحلو ويحب الحلواء والعسل ويحب الخيل وكان احب الثياب اليه القميص وكان يحب الدباء فهذه المحبة لا تزاحم حب الله بل قد تجمع الهم والقلب على التفريغ لمحبة الله فهذه محبة طبيعية تتبع نية صاحبها وقصده بفعل ما يحبه فان نوى به القوة على أمر الله وطاعته كانت قربة وان فعل ذلك بحكم الطبع والميل المجرد لم يثب ولم يعاقب وان فاته درجة من فعله متقربا به الى الله فالمحبة النافعة ثلاثة أنواع محبة الله ومحبة في الله ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته والمحبة الضارة ايضاً ثلاثة أنواع المحبة مع الله ومحبة ما يبغضه الله ومحبة ما يقطع عن محبة الله او ينقصها فهذه ستة أنواع عليها مدار محاب الخلق فمحبة

الله اصل المحاب المحمودة واصل الايمان والتوحيد والنوعان الآخران تبع لها والمحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة والنوعان الآخران نبسع لها ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك وكلما كان العبد أقرب الى الشرك وأبعد من الاخلاص كان محبته بعشق الصور أشد وكلما كان أكثر اخلاصاً وأشد توحيداً كان ابعد عن عشق الصور ولهذا اصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها ونجا منه يوسف الصديق عليه السلام باخلاصه قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) فالسوء العشق والفحشاء الزنا والمخلص قد خلص حبه لله فخلصه الله من فتنة عشق الصور والمشرك قلبه متعلق بغير الله لم يخلص توحيده وحبه لله — الى ان قال: وربما فضل بعضهم اتخاذ المردان واستفراشهم على النساء من وجوه وهذه مضادة ومحادة لله ودينه وكتبه ورسله وصنف بعضهم كتابا في هذا الباب وقال في اثنائه باب المذهب المالكي وذكر فيه الجماع في الدبر من الذكور والاناث وقد علم ان مالكاً رحمه الله من أشد الناس وأشدهم مذهباً في هذا الباب حتى انه يوجب قتل اللوطي حدا بكرا كان او ثيبا وقوله في ذلك أصح المذاهب كما دلت عليه النصوص ، واتفق عليه أصحاب رسول الله ﷺ وان اختلفت اقوالهم في كيفية قتله كما سنذكره ان شاء الله وسبب غلط هذا وامثاله انه قد نسب الى مالك القول بجواز وطىء الرجل امرأته في دبرها وهو كذب على مالك وعلى أصحابه فكتبهم كلها مصرحة بتحريمه ثم لما استقر عند هؤلاء ان مالكا يبيح ذلك نقلوا الاباحة من الاناث الى الذكور وجعلوا الباب باباً واحداً وهذا كفر وزندقة من قائله باجماع الأمة ونظير هذا ما يتوهمه كثير من الفسقة وجهال الترك وغيرهم ان مذهب أبي حنيفة ان هذا ليس من الكبائر وغايته ان يكون صغيرة من الصغائر وهذا من أعظم الكذب والبهتان على الأئمة فقد اعاذ الله أبا حنيفة واصحابه من ذلك وشبهة هؤلاء الفسقة الجهلة أنهم لما رأوا ابا حنيفة لم يوجب فيه الحد ركبوا على ذلك انه ليس من كبائر الذنوب بل من صغايرها وهذا ظن كاذب فان أبا حنيفة لم يسقط فيه الحد لخفة أمره فان جرمه عنده وعند جميع أهل الاسلام اعظم

من جرم الزنا ولهذا عاقب الله سبحانه أهله بما لم يعاقب به امـــة من الأمم وجمع عليهم من أنواع العذاب ما لم يجمعه على غيرهم وشبهة من اسقط فيـــه الحد أن فحش هذا مركوز في طباع الأمم فاكتفى فيه بالوازع الطبيعي كما أكتفى بذلك في أكل الرجيع وشرب البول والدم ورتب الحـــد على شرب الخمر لكونه مما تدعو اليه النفوس والجمهور يجيبون عن هـــذا بان في النفوس الخبيثة المتعدية حدود الله أقوى الداعي لذلك فالحد فيه اولى من الحد في الزنا ولذلك وجب الحد على من وطيء امه وابنته وخالته وجـدته وإن كان في النفوس وازع وزاجر طبيعي عن ذلك بل حد هذا القتل بكل حال بكراً كان أو محصناً في أصح الأقوال وهو مذهب احمد وغيره هذا ونفرة النفوس عن ذلك أعظم بكثير من نفرتها عن المردان ونظير هذا الظن الكاذب والغلط الفاحش ظن كثير من الجهال أن الفاحشة بالمملوك كالمباحة أو مباحة أو أنها أيسر من ارتكابها من المحرمات وتأولت هذه الفرقة القرآن على ذلك وادخلت المملوك في قوله(إلا على ازواجهم أو ما ملكت ايمانهم) حتى أن بعض النساء لتمكن عبدها من نفسها وتتأول القرآن على ذلك كما رفع إلى عمر بن الخطاب امرأة تزوجت عبدها وتأولت هذه الآية ففرق عمر بينهما وأدبهاوقال: ويحك انما هذا للرجال لا للنساء ومن تأول هذه على وطيء الذكر من المماليـك فهو كافر باتفاق الامة . قال شيخنا ومن هؤلاء من يتأول قوله تعالى : (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) على ذلك قـــال : وقد سألني مرة بعض الناس عن هذه الآية وكان ممن يقرأ القرآن فظن أن معناهـــا في إباحة ذكران العبيد المؤمنين قال ومنهم من يجعـــل ذلك مسألة نزاع يبيحه بعض العلماء ويحرمه بعضهم ويقول اختلافهم شبهة وهذا كذب وجهل فانه ليس في فرق الأمة من يبيح ذلك بل ولا في دين من اديان الرسل وانما يبيحه زنادقة العـــالم الذين لا يؤمنون بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر قال : ومنهم من يقول هو مباح للضرورة مثل ان يبقى الرجل اربعين يوماً لا يجامع إلى امثال هذه الأمور التي خاطبني فيها وسألني عنها طوائف

من الجند والعامة والفقراء قال ومنهم من قد بلغـــه خلاف بعض العلماء في وجوب الحد فيه فظن أن ذلك خلاف في التحريم ولم يعلم أن الشيء قد يكون من اعظم المحرمات كالميتة والدم ولحم الخنزير وليس فيه حد مقدر ثم ذلك الخلاف قد يكون قولاً ضعيفاً فيتولد من ذلك القول الضعيف الذي هو من خطأ بعض المجتهدين هذا الظن الفاسد الذي هو خطأ بعض الجاهلين وتبديل الدين وطاعة الشياطين ومعصية رب العالمين فإذا انضافت الاقوال البـــاطلة إلى الظنون الكاذبة واعانتها الاهوية الغالبة فلا تسأل عن تبديل الدين بعد ذلك والخروج عن جملة الشرائع بالكلية ولما سهل هذا الأمر في نفوس كثير من الناس صار كثير من المماليك يتمدح بانه لا يعرف غير سيده وانه لم يطأه سواه كما تتمدح المرأة والأمة بانها لا تعرف غير سيدها وزوجها ومنهم من يرى ان التحريم انما هو اكراه الصبي على فعل الفاحشة فاذا كان مختاراً راضياً لم يكن بذلك بأس وكان المحرم عنده من ذلك انما هو الظلم والعدوان باكراه المفعول به .

قال شيخنا: وحكى لي من اثق به أن بعض هؤلاء أخذ على هذه الفاحشة فحكم عليه بالحد فقال والله هو ارتضى بذلك وما اكرهته ولا غصبته فكيف اعاقب فقال نصير المشركين وكان حاضراً: هذا حكم محمد بن عبدالله. وليس لهؤلاء ذنب ولا ريب أن الكفر والفسوق والمعاصي درجات كما أن الايمان والعمل الصالح درجات كما قال تعالى (هم درجات عند الله) وقال (ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون) وقال (إنما النسيء زيادة في الكفر) وقال (فاما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) ونظائره في القرآن كثير ومن أخف هؤلاء اجراماً من يرتكب ذلك معتقداً تحريمـــه وانه إذا قضى حاجته قال استغفر الله وكأن مـــا كان لم يكن فقد تلاعب الشيطان باكثر هذا الخلق كتلاعب الصبيان بالكرة واخرج لهم انواع الكفر والفسوق والعصيان في كل قالب وبالجملة فمراتب الفـــاحشة متفاوتة بحسب مفاسدها فالمتخذ خدنا من النساء والمتخذة خدنا من الرجال أقـــل شراً من

المسافح والمسافحة مع كل واحد والمستخفى بما يرتكبه أقل اثماً من المجاهر. وكذلك الزنا بالمرأة التي لا زوج لها ايسر إثماً من الزنا بذات الزوج لما فيه من ظلم الزوج والعدوان عليه وافساد فراشه عليه وقد يكون إثم هذا أعظم من إثم مجرد الزنا أو دونه والزنا بحليلة الجار أعظم إثماً من الزنا ببعيدة الدار لما اقترن بذلك من اذى الجار وعدم حفظ وصية الله تعالى ورسوله به وكذلك الزنا بامرأة الغازي في سبيل الله أعظم إثماً عند الله من الزنا بغيرها ولهذا يقام له يوم القيامة ويقال له خذ من حسناته ما شئت وكما تختلف درجاته بحسب المزني بها فكذلك تتفاوت درجاته بحسب الزمان والمكان والاحوال وبحسب الفاعل فالزنا في رمضان ليلاً ونهاراً اعظم اثما منه في غيره وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظم إثما منه فيما سواها وأما تفاوته بحسب الفاعل فالزنا من الحر أقبح منه من العبد ولهذا كان حده على النصف من حده ومن المحصن اقبح من البكر ومن الشيخ اقبح من الشاب ولهذا كان أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم الشيخ الزاني ومن العالم أقبح منه من الجاهل لعلمه بقبحه وما يترتب عليه واقدامه على بصيرة ومن القادر على الاستغناء عنه أقبح من الفقير العاجز.

﴿ فصل ﴾

ومما يبين أن هذه الفواحش أصلها المحبة لغير الله سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو غير ذلك انها في المشركين اكثر منها في المخلصين ويوجد منهم منها ما لا يوجد مثله في المخلصين قال تعالى: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة) إلى قوله (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فأخبر سبحانه انه جعل الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون وهو قوله (افتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال تعالى في الشيطان (انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون).

وأخبر عنه انه أقسم بعزة ربه انه يغوي عباده اجمعين واستثنى أهل

الإخلاص منهم وأخبر سبحانه عن اولياء الشيطان انهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقليد اسلافهم وزعموا ان الله سبحانه أمرهم بها فاتبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل قال شيخنا: وفي هذا الوصف نصيب كبير لكثير من المنتسبين إلى القبلة من الصوفية والعباد والامراء والاجناد والمتفلسفة والمتكلمين والعامة وغيرهم فيستحلون من الفواحش ما حرمه الله ورسوله ظانين أن الله أباحه أو تقليداً لاسلافهم وأصله العشق الذي يبغضه الله فكثير منهم يجعله دينا ويرى انه يتقرب به الى الله وحده ، إما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده ويسميها مظاهر الجمال الاحدي، وإما لاعتقاد حلول الرب فيها واتحاده بها ولهذا تجد بين نساك هؤلاء فقرائهم وامرائهم واصحابهم توافقاً وتآلفاً على اتخاذ انداد من دون الله يحبهم كحب الله إما تديناً وإما شهوة وإما جمعاً بين الأمرين ولهذا يتآلفون ويجتمعون على السماع الشيطاني الذي يهيج الحب المشترك فيهيج من كل قلب ما فيه من الحب ، وسبب ذلك خلو القلب مما خلق له من عبادة الله التي تجمع محبته وتعظيمه والخضوع والذل له والوقوف مع امره ونهيه ومحابه ومساخطه فاذا كان القلب وجد حلاوة الايمان وذوق طعمه أغناه ذلك عن محبة الانداد وتألهها ، وإذا خلا القلب من ذلك احتاج ان يستبدل به ما يهواه ويتخذه إلهه وهذا من تبديل الدين وتغيير فطرة الله التي فطر عباده قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله). أي نفس خلق الله لا تبديل له فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة كما ان خلقه للاعضاء على السلامة من الشق والقطع ولا تبديل لنفس هذا الخلق ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه كما قال النبي ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جماء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها » فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتألهه فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها

إلى حالتها التي خلقت عليها فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها .

﴿ فصل ﴾

والفتنة بعشق الصور تنافى أن يكون دين العبد كله لله بل ينقص من كون دينه لله بحسب ما حصل له من فتنة العشق ، وربما أخرج صاحبه من ان يبقى معه شيء من الدين لله ، قال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فناقض بين كون الفتنة وبين كون الدين كله لله فكل منهما يناقض الآخر والفتنة قد فسرت بالشرك فما حصلت به فتنة القلوب فهو اما شرك واما من اسباب الشرك وهي جنس تحته انواع من الشبهات والشهوات وفتنة الذين اتخذوا من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله أعظم الفتن ومنه فتنة أصحاب العجل كما قال تعالى لموسى (انا قد فتنا قومك من بعدك) وكذلك فتنة العشق من أعظم الفتن قال تعالى(ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني الا في الفتنة سقطوا) انزلت في الجد بن قيس لما غزا رسول الله ﷺ تبوك قال له هل لك يا جد في جلاد بني الاصفر تتخذ منهم السراري والوصفاء فقال الجد : ائذن لي في القعود عنك فقد عرف قومي اني مغرم بالنساء واني أخشى ان رأيت بنات الاصفر أنلا أصبر عنهن فانزل الله هذه الآية قال ابن زيد تفتني بصباحة وجوههن قال أبو العالية لا تعرضني للفتنة وقوله تعالى (ألا في الفتنة سقطوا) قال قتادة :ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عنه أعظم فالفتنة التي فر منها بزعمه هي فتنة محبة النساء وعدم صبره عنهن والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا والعذاب في الآخرة ولفظ الفتنة في كتاب الله يراد بها الامتحان الذي لم يفتتن صاحبه بل خلص من الافتتان ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان فمن الاول قوله تعالى لموسى(وفتناك فتونا)ومن الثاني قوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة)وقوله (الا في الفتنة سقطوا)وتطلق على ما يتناول الامرين كقوله تعالى(الم أحسب

الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) . ومنه قول موسى : (إنْ هي إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدي من تشاء) أي امتحانك وابتلاؤك أضل بها من وقع فيها وهدي من نجا منها .

وتطلق الفتنة على أعم من ذلك كقوله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ، قال مقاتل : أي بلاء وشغل عن الآخرة ، قال ابن عباس : فلا تطيعوهم في معصية الله ، وقال الزجاج : أعلمهم الله ان الأموال والأولاد مما يفتنون به ، وهذا عام في جميع الأولاد فإن الانسان مفتون بولده لانه ربما عصى الله بسببه ، وتناول الحرام لأجله ووقع في العظائم إلا من عصمه الله ، ويشهد لهذا ما روي ان النبي ﷺ كان يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ، فنزل النبي ﷺ فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر وقال : « صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة ! رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما » . وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم اللهم اني أعوذ بك من الفتنة فانه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة لأن الله تعالى يقول (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) فأيّكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن . ومنه قوله تعالى : (بعضكم لبعض فتنة) ، وهذا عام في جميع الخلق ، امتحن بعضهم ببعض ، فامتحن الرسل بالمرسل اليهم ودعوتهم الى الحق والصبر على أذاهم وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم ، وامتحن المرسل اليهم بالرسل هل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم أم يكفرون بهم ويردون عليهم ويقاتلونهم ، وامتحن العلماء بالجهال هل يطيعونهم ويهتدون بهم ، وامتحن الملوك بالرعية والرعية بالملوك ، والسادة بالأتباع والأتباع بالسادة ، وامتحن المالك بمملوكه ومملوكه به ، وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به ، وامتحن الرجال بالنساء والنساء بالرجال والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم وامتحن المأمورين بهم وكذلك كان فقراء المؤمنين

ضعفاؤهم من اتباع الرسل فتنة لاغنيائهم ورؤسائهم امتنعوا من الايمان بعد معرفتهم بصدق الرسل وقالوا :(لو كان خيراً ما سبقونا اليه) . هؤلاء وقالوا لنوح: (انؤمن لك واتبعك الارذلون)قال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاءمن الله عليهم من بيننا)فاذا رأى الشريف الرئيس المسكين الذليل قد سبقه الى الايمان ومتابعة الرسول حمى وأنف ان يسلم فيكون مثله فيقول اسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء قال الزجاج كان الرجل الشريف ربما أراد الاسلام فيمتنع منه لئلا يقال اسلم قبله من هو دونه فيقيم على كفره لئلا يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل ومن كون بعض الناس لبعضهم فتنة ان الفقير يقول لم لم أكن مثل هذا الغني ويقول الضعيف هلا كنت مثل القوي ويقول المبتلى هلا كنت مثل المعافى وقال الكفار(لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله)قال مقاتل نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين نحو بلال وخباب وصهيب وابي ذر وابن مسعود وعمار كان كفار قريش يقولون انظروا الى هؤلاء الذين اتبعوا محمداً من موالينا ورذالنا قال تعالى(انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى انسوكم ذكري- الى قوله- الفائزون)فاخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم كما قال تعالى(وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون) . قال الزجاج اتصبرون على البلاء فقد عرفتم ما وجد الصابرون قلت قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر ها هنا وفي قوله (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا) فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر فان صبر كانت الفتنة محصة له ومخلصة من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة فالفتنة كير القلوب ومحك الايمان وبها يتبين الصادق من الكاذب قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب ومؤمن ومنافق وطيب وخبيث فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه ونجا بصبره من فتنة أعظم منها ومن لم

يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها فالفتنة لا بد منها في الدنيا والآخرة كما قال تعالى(يومهم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم).فالنار فتنة لمن لم يصبر على فتنة الدنيا قال تعالى في شجرة الزقرم(انا جعلناها فتنة للظالمين) . قال قتادة لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة فقالوا يكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر فانزل الله عز وجل (انها شجرة تخرج في أصل الجحيم) فأخبرهم أن غذاءها من النار أي غذيت بالنار . قال ابن قتيبة قد تكون شجرة الزقوم نبتا من النار ومن جوهر لا تأكله النار وكذلك سلاسل النار واغلالها وانكالها وعقاربها وحياتها ولو كانت على ما يعلم لم تبق على النار وانما دلنا الله على الغائب عنده بالحاضر عندنا فالاسماء متفقة الدلالة والمعاني مختلفة وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع الاتها على مثل ذلك والمقصود ان هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا بتكذيبهم بها وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها وكذلك إخباره سبحانه بان عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر كانت فتنة الكافرين حيث قال عدو الله ابو جهل: ايخوفكم محمد بتسعة عشر وانتم الدهم أفيعجز كل مائة منكم ان يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار . قال أبو الأسد: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين ايديكم على الصراط فاضع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الايسر في النار وامضي فندخل الجنة—فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا وفتنة لهم يوم القيامة والكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا كما ان المؤمن مفتون به ولهذا سأل المؤمنون ربهم إلا يجعلهم فتنة للذين كفروا كما قال الحنفاء (ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا). وقال اصحاب موسى (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) . قال مجاهد لا تعذبنا بايديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما اصابهم هذا وقال الزجاج معناه لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك وقال الفراء لا تظهر علينا الكفار فيروا انهم على حق وأنا على باطل وقال مقاتل لا تقتر علينا

الرزق وتبسطه عليهم فيكون ذلك فتنة لهم وقد اخبر الله سبحانه انه قد فتن كلا من الفريقين بالفريق الآخر فقال (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) فقال تعالى(اليس الله باعلم بالشاكرين) والمقصود أنه سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة وفتن اولئك بهم فكل من النوعين فتنة للآخر فمن صبر منهم على تلك الفتنة نجا مما هو اعظم منها ومن اصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شر منها فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح وإلا فبسبيل من هلك ولهذا قال النبي ﷺ ما تركت بعدي فتنة اضر على الرجال من النساء أو كما قال فالعبد في هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الأمارة بالسوء وشيطانه المغوى المزين وقرنائه ومما يراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه ويتفق مع ذلك ضعف الايمان واليقين وشغف القلب ومرارة الصبر وذوق حلاوة العاجل وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا وكون العوض مؤجلا في دار اخرى غير هذه الدار التي منها خلق وفيها مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الايمان به .

فوالله لولا الله يسعد عبده بتوفيقه والله بالعبد ارحم
لما ثبت الايمان يوماً بقلبه على هذه العلات والأمر أعظم
ولا طاوعته النفس في ترك شهوة مخافة نار جمرها يتضرم
ولا خاف يوماً من مقام إلهه عليه بحكم القسط إذ ليس يظلم

﴿ فصل ﴾

والفتنة نوعان فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين وفتنة الشهوات وقد يجمعان للعبد وقد ينفرد بأحدهما ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولاسيما اذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى فقل ما شئت في ضلال سيء القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله وهو من الذين قال الله فيهم (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس) وقد اخبر سبحانه ان اتباع

الهوى يضل عن سبيل الله فقال (يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وهـــذه الفتنة مآلها الى الكفر والنفاق وهي فتنة المنافقين وفتنة أهـل البدع على حسب مراتب بدعهم فجميعهم انما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال ولا ينجي من هذه الفتنة الا تجريد اتبـاع الرسول وتحكيمه في دق الدين وجله ظاهره وباطنه حقائقه وشرائعه فتلقى عنه حقائق الايمان وشرائع الاسلام وما يثبته الله من الصفات والافعال والاسماء وما ينفيه عنه كما يتلقى عنه وجوب الصلوات واوقاتها واعدادهـا ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة وصوم رمضان فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من امور الدين بل هو رسول في كل شيء تحتاج اليه الامة في العلم والعمل لا يتلقى الا عنه ولا يؤخذ إلا منه فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله وكلما خرج عنها فهو ضلال فاذا عقد قلبه على ذلك واعرض عما سواه ووزنه بما جاء به الرسول فان وافقه قبله لا لكون ذلك القائل قاله بل لموافقته للرسالة وان خالفه رده ولو قاله من قاله فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبات وان فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد وتارة من نقل كاذب وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به وتارة من غرض فاسد وهوى متبع فهي من عمى في البصيرة وفساد في الارادة .

﴿ فصل ﴾

وأما النوع الثاني من الفتنة فتنة الشهوات وقد جمع سبحانه بين الفتنتين في قوله تعالى (كالذين من قبلكم كانوا أشد منـكم قوة وأكثر اموالا وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقـكم) اي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها والخلاق هو النصيب المقدر ثم قال (وخضتم كالذي خاضوا) فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات فأشار سبحانه في هـــذه الآية الى ما يحصل به فساد القلوب

والاديان من الاستمتاع بالخلاف والخوض بالباطل لأن فساد الدين أما ان يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح فالأول هو البدع وما والاها والثاني فسق الأعمال والأول فساد من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون واصل كل فتنة إنما هو تقديم الرأي على الشرع والهوى على العقل فالأول اصل فتنة الشبهة والثاني اصل فتنة الشهوة ففتنة الشبهات تدفع باليقين وفتنة الشهوات تدفع بالصبر ولذلك جعل سبحانه امامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا باياتنا يوقنون) فدل على انه بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين وجمع بينهما ايضاً في قوله (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فتواصوا بالحق الذى يدفع الشبهات وبالصبر الذي يكف عن الشهوات وجمع بينهما في قوله (واذكر عبادنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) فالايدي القوى والعزائم في ذات الله والابصار البصائر في أمر الله وعبارات السلف تدور على ذلك قال ابن عباس: اولي القوة في طاعة الله والأبصار البصر في الحق وقال سعيد بن جبير : الايدي القوة في العمل والابصار بصرهم بما هم فيه من دينهم وقد جاء في حديث مرسل : ان الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة والله المستعان .

﴿ فصل ﴾

اذا سلم العبد من فتنة الشبهات والشهوات حصل له اعظم غايتين مطلوبتين بهما سعادته وفلاحه ونجاته وهما الهدى والرحمة قال تعالى عن موسى وفتاه (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) فجمع له بين الرحمة

والعلم وذلك نظير قول اصحاب الكهف: (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنامن أمرنا رشداً) فان الرشد هو العلم بما ينفع والعمل به والرشد والهدى اذا افرد كل منهما تضمن الآخر واذا قرن احدهما بالآخر فالهدى هو العلم بالحق والرشد هو العمل به وضدهما الغي واتباع الهوى وقد يقابل الرشد بالضر والشر قال تعالى (قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) وقال مؤمنوا الجن: (وانا لا ندري اشر اريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) فالرشد يقابل الغي تارة كما في قوله (وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا) ويقابل الضر والشر كما تقدم وذلك ان الغي سبب لحصول الشر والضر ووقوعهما بصاحبه فالضر والشر غاية الغي وثمرته كما ان الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته فلهذا يقابل كل منهما بنقيضه وسبب نقيضه فيقابل الهدى بالضلال كقوله (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) وقوله (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل) وهو كثير ويقابل بالغضب والعذاب كقوله (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) فقابل الهدى بالضلال والشقاء ويجمع سبحانه بين الهدى والفلاح والهدى والرحمة كما يجمع بين الضلال والشقاء والضلال والعذاب كقوله (ان المجرمين في ضلال وسعر) فالضلال ضد الهدى والسعر العذاب وهو ضد الرحمة وقال (ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى) والمقصود ان من سلم من فتنة الشبهات والشهوات جمع له بين الهدى والرحمة والهدى والفلاح قال تعالى عن أوليائه (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) وقال تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقال تعالى (هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب الى قوله وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) ونظيره في الخصوص قوله (هدى للمتقين)

وقوله (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) ونظيره ايضاً قوله (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) وقد اخبر انه هدى عام لجميع المكلفين فقال (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وقال تعالى (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) فاخبر سبحانه ان القرآن بصائر لجميع الناس والبصائر جمع بصيرة وهي فعيلة بمعنى مفعلة اي مبصرة لمن تبصر ومنه قوله تعالى : (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي مبينة موجبة للتبصر وفعل الابصار يستعمل لازماً ومتعديا، يقال: أبصرته بمعنى رأيته والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية وتحيروا في معناها ، فإنه يقال : بصر به وأبصره فيعدى بالباء تارة وبالهمزة تارة ثم يقال ابصرته كذا أي أريته اياه كما يقال: بصرته به وبصر هو به ، فهنا بصيرة وتبصرة ومبصرة ، فالبصيرة البينة التي تبصره، والتبصرة مصدر مثل التذكرة ويسمى بها ما يوجب التبصرة، فيقال :هذه الآية تبصرة، كونها آلة التبصرة وموجبة ، فالقرآن بصيرة وتبصرة وهدى وشفاء ورحمة بمعنى عام وبمعنى خاص ، ولهذا يذكر سبحانه هذا وهذا ، فهو هدى للعالمين وهدى للمتقين وشفاء للعالمين وشفاء للمؤمنين وموعظة للعالمين وموعظة للمتقين فهو في نفسه هدى ورحمة وشفاء وموعظة ، فمن اهتدى به واتعظ واشتفى كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء ، فهو دواء له بالفعل وإن لم يستعمله فهو دواء له بالقوة وكذلك الهدى ، فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به وبالقوة لمن لم يهتد به فإنما يهتدى به ويرحم ويتعظ المتقون الموقنون ، والهدى في الأصل مصدر هدى يهدى هدى ، فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا كما في الأثر : من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً . ولكن سمي هدى لأن من شأنه أن يهدي وهذا أحسن من قول من قال : انه هدى بمعنى هادٍ فهو مصدر بمعنى الفاعل كعدل بمعنى العادل وزَور بمعنى الزائر ورجل صوم بمعنى الصائم ، فإن الله سبحانه قد أخبر انه يهدي به فالله الهادي وكتابه الهدى الذي يهدي به على لسان رسوله ، فهما هنا ثلاثة

أشياء : فاعل وقابل وآلة ، فالفاعل هو الله، والقابل قلب العبد، والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل ، والله سبحانه يهدي خلقه هدى كما يقال دلهم دلالة وأرشدهم إرشادا وبين لهم بيانا . والمقصود ان المحل القابل هو قلب العبد المتقي المنيب الى ربه الخائف منه الذى يبتغي رضاه ويهرب من سخطه ، فاذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلى محل قابل فأثر فيه فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل اليه الهدى فلم يؤثر فيه شيئاً بل لا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساد ، كما قال تعالى في الآية التي ينزلها : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم) . وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) ، فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة ولعدم آلة الهدى تارة ، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي ، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة ، وقد قال سبحانه : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ، فأخبر سبحانه انه قطع عنهم مادة الاهتداء وهو سماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل فانه لا خير فيه فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي هو فيه والميل اليه والطلب له ومحبته والحرص عليه والفرح بالظفر به ، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك فوصل الهدى اليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فلا هي قابلة للماء ولا للنبات ، فالماء في نفسه رحمة وحياة ولكن ليس فيها قبول له . ثم أكد هذا المعنى في حقهم بقوله : (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ، فأخبر ان فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى وهي الكبر والإعراض وفساد القصد فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة لا هدى توفيق وإرشاد ، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة

فأما المؤمنون فصار القرآن لهم هدى ورحمة ولاولئك هدى بلا رحمة والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة فإما العاجلة فما يعطيها الله في الدنيا من محبة الخير والبر وذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته والفرح والسرور بان هداهم الله لما اضل عنه غيرهم ولما اختلف فيه من الحق باذنه فهم يتقلبون في نور هـــداه ويمشون به في الناس ويرون غيرهم محيراً في الظلمات فهم أشد الناس فرحاً بما آتاهم ربهم من الهدى . قال تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والايمان والقرآن واتباع الرسول وهذا من اعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده فإن الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع العلم والهدى إلى طريق السعادة والفلاح. والخوف والهم والغم والبلاء والألم والقلق مع الضلال والحيرة ومثل هذا بمسافرين احدهما قد اهتدى لطريق مقصده فصار آمناً مطمئناً والآخر قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجه كما قال تعالى (قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له اصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى) فالرحمة التي تحصل لمن يحصل له الهدى هي بحسب هداه فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين وهي غير الرحمة العامة بالبر والفاجر وقد جمع سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم فقال (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون). قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه نعمت العدلان ونعمت العلاوة فبالهدى خلصوا من الضلال وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة .

والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة الضلال عن طريق السعادة والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب والذم واللعن الذي هو ضد الصلاة ولما كان

تصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان اكمل المؤمنين ايماناً اعظمهم رحمة كما قال تعالى في أصحاب رسوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)وكان الصدّيق من أرحم الأمة وقد روى عن النبي ﷺ أرحم امتي بامتي أبو بكر رواه الترمذي وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة كما قال ابو سعيد الخدري: وكان أبو بكر أعلمنا به يعني النبي ﷺ فجمع له بين سعة العلم والرحمة وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلماً فوسعت رحمته كل شيء وأحاط بكل شيء علما فهو ارحم بعباده من الوالدة بولدها بل هو ارحم بالعبد من نفسه كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها وينقص حظها من كرامته وثوابه ويبعدها من قربه وهو يظن انه ينفعها ويكرمها وهذا غاية الجهل والظلم والانسان جهول ظلوم فكم من مكرم لنفسه وهو لها مهين ومرفه لها وهو لها متعب ومعطيها بعض غرضها ولذتها وقد حال بينها وبين جميع لذاتها فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها ولا رحمة عنده لها فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه قد بخسها حظها وأضاع حقها وعطل مصالحها وباع نعيمها الباقي ولذتها الدائمة الكاملة بلذة فانية مشوبة بالنغص انما هي كاضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام، وليس هذا بعجيب من شأنه وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة فلو هدى ورحم لكان شأنه غير هذا الشأن ولكن الرب تعالى أعلم بالمحل الذي يصلح للهدى والرحمة فهو الذي يؤتيها للعبد كما قال عن عبده الخضر(آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً) .

﴿ فصل ﴾

ومما ينبغي ان يعلم أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وأن كرهتها نفسه وشقت عليها فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع مضارك عنك فمن رحمة الأب بولده

ان يكرهه على التأدب بالعلم والعمل ويشق عليه في ذلك بالضرب وغـــيره ويمنعه شهواته التي تعود بضرره ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمة به وان ظن انه يرحمه ويرفهه ويريحه فهذه رحمة مقرونة بجهل كرحمـة الأم ولهذا كان من تمام رحمة ارحم الراحمين تسليط انواع البلاء على العبد فأنه أعلم بمصلحته فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه ولا يعلم احسانه اليـــه بابتلائه وامتحانه وقد جاء في اثران المبتلى إذ دعي له اللهم ارحمه يقول الله عز وجل كيف ارحمه من شيء به ارحمه وفي أثر آخر أن الله إذا أحب عبده حمـــاه الدنيا وطيباتها وشهواتها كما يحمي أحدكم مريضه فهذا من تمام رحمته به لا من بخله عليه وهو الجواد الماجد الذي له الجود كله وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها فمن رحمة سبحانه بعباده ابتلاؤهم بالاوامر والنواهي رحمة وحمية لا حاجة اليهم بما امرهم به فهو الغني الحميد ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه فهو الجواد الكريم ومن رحمته ان نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا اليها ولا يطمئنوا اليها ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان فمنعهم ليعطيهم وابتلاهم ليعافيهم واماتهم ليحييهم ومن رحمته بهم انه حذرهم نفسه لئلا يفتروا به فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به كما قال تعالى(ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد)قال غير واحد من السلف:من رأفته بالعباد حذرهم من نفسه لئلا يفتروا به .

﴿ فصل ﴾

ولما كان تمام النعمة على العبد انما هو بالهدى والرحمة كان لها ضدان الضلال والغضب فأمرنا الله كل يوم أن نسأله مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين انعم عليهم وهم أولو الهدى والرحمة ويجنبنـــا طريق المغضوب عليهم ضد

المحرومين وطريق الضالين ضد المهتدين ولهذا كان هذا الدعاء من اجمع الدعاء وافضله واوجبه وبالله التوفيق .

﴿ فصل ﴾

إذا كان كل عمل فأصله المحبة والإرادة والمقصود به التنعم بالمراد المحبوب فكل حي انما يعمل لما فيه تنعمه ولذته فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد وكل حركة كما ان العذاب والتألم هو المكروه اولاً بكل بغض وكل امتناع وكف ولكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بمعنيين بالدين الفاسد والدنيا الفاجرة طلبوا بهما التنعم وفي الحقيقة فأنما فيهما ضده ففاتهم النعيم من حيث طلبوه وآثروه ووقعوا في الالم والعذاب من حيث هربوا فيه وبيان ذلك أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذوها أو لا يتخذوها دينا والذين يتخذونها دينا أما أن يكون الدين بها دين حق وأما أن يكون ديناً باطلاً فنقول النعيم التام هو في الدين الحق علماً وعملاً وأهله هم أصحاب النعيم الكامل كما أخبر الله بذلك في كتابه في غير موضع كقوله (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب (اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون)وقوله (فاما يأتينكم من هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) وفي الآية الأخرى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقوله (ان الابرار لفي نعيم).والقرآن مملوء من هذا فوعد أهل الهدى والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعيد أهل الضلال والفجور بالشقاء في الدار الاخرة مما اتفقت عليه الرسل من أولهم الى اخرهم وتضمنته الكتب ولكن نذكرها هنا نكتة نافعة وهي ان الانسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الايمان في الدنيا من المصائب وما ينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد ان النعيم في الدنيا لا يكون الا للكفار والفجار وان المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل وكذلك

قد يعتقد ان العزة والنصرة في الدنيا قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين فاذا سمع في القرآن قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وقوله (وان جندنا لهم الغالبون) وقوله (كتب الله لاغلبن انا ورسلي) وقوله (والعاقبة للمتقين) ونحو هذه الآيات وهو ممن يصدق بالقرآن حمل ذلك على ان حصوله في الدار الآخرة فقط وقال اما الدنيا فأنا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها ويظهرون ويكون لهم النصر والظفر والقرآن لا يرد بخلاف الحس ويعتمد على هذا الظن اذا ادبل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين او الفجرة الظالمين وهو عند نفسه من أهل الايمان والتقوى فيرى ان صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق فيقول انا على الحق وأنا مغلوب فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور والدولة فيها للباطل فاذا ذكر بما وعد الله من حسن العاقبة للمتقين وللمؤمنين قال هذا في الاخرة فقط واذا قيل له: كيف يفعل الله هذا باوليائه واحبابه وأهل الحق؟ فان كان ممن لا يعلل الافعال قال فعل بهم هذا ليعوضهم بالصبر عليه لثواب الاخرة وعلو الدرجات وتوفية الاجر بغير حساب ولكل احد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وايرادات واشكالات واجوبة بحسب حاصله وبضاعته من المعرفة بالله واسمائه وصفاته وحكمته والجهل بذلك فالقلوب تغلي بما فيها كالقدور اذا استجمعت غليانا ولقد بلغنا وشاهدنا من كثير من هؤلاء من التظلم للرب تعالى واتهامه ما لا يصدر الا من عدو وكان الجهم يخرج باصحابه فيقفهم على الجذمى واهل البلاء ويقول: انظروا رحم الراحمين يفعل مثل هذا انكاراً لرحمته كما انكر حكمته فليس لله عند جهم واصحابه حكيما ولا رحيما وقال آخر من كبار القوم: ما على الخلق اضر من الخالق وكان بعضهم يتمثل

اذا كان هذا فعله في محبه فماذا تراه في اعاديه يصنع ؟

وانت تشاهد كثيراً من الناس اذا اصابه نوع من البلاء يقول ترى ما كان ذنبي حتى فعل بي هذا وقال لي غير واحد: اذا تبت اليه وانبت وعملت صالحا ضيق علي رزقي ونكد معيشتي واذا راجعت معصيته فاعطيت نفسي مرادها جاءني الرزق

والعون ونحو هذا فقلت لبعضهم: هذا امتحان منه ليرى صدقك وصبرك وهل انت صادق في مجيئك اليه واقبالك عليه فتصبر على بلائه فتكون لك العاقبة أم انت كاذب فترجع على عقبك وهذه الأقوال والظنون الكاذبة الحائدة عن الصواب مبنية على مقدمتين احداهما حسن ظن العبد بنفسه وبدينه واعتقاده انه قائم بما يجب عليه وتارك لما نهي عنه واعتقاده في خصمه وعدوه خلاف ذلك وانه تارك للمأمور مرتكب للمحظور وانه نفسه اولى بالله ورسوله ودينه منه

والمقدمة الثانية اعتقاده ان الله سبحانه قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا بوجه من الوجوه بل يعيش عمره مظلوماً مقهوراً مستضاماً مع قيامه بما أمر به ظاهراً وباطناً وانتهائه عما نهى عنه باطناً وظاهراً فهو عند نفسه قائم بشرائع الاسلام وحقائق الايمان وهو تحت قهر أهل الظلم والفجور والعدوان فلا إله إلا الله كم فسد بهذا الاغترار من عابد جاهل ومتدين لا بصيرة له ومنتسب الى العلم لا معرفة له بحقائق الدين فانه من المعلوم ان العبد وإن آمن بالآخرة فانه طالب في الدنيا لما لا بد له منه من جلب النفع ودفع الضرر يعتقد انه واجب أو مستحب أو مباح ، فاذا اعتقد ان الدين الحق واتباع الهدى والاستقامة على التوحيد ومتابعة السنة ينافي ذلك وانه يعادي جميع أهل الأرض ويتعرض لما لا يقدم عليه من البلاء وفوات حظوظه ومنافعه العاجلة لزم من ذلك إعراضه عن الرغبة في كمال دينه وتجرده لله ورسوله فيعرض قلبه عن حال السابقين المقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين وقد يدخل مع الظالمين بل مع المنافقين ، وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من فروعه وأعماله ، كما قال النبي ﷺ : «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي كافراً ويصبح مؤمناً يبيع دينه بعرض من الدنيا » ، وذلك انه إذا اعتقد ان الدين الكامل لا يحصل إلا بفساد

دنياه من حصول ضرر لا يحتمله وفوات منفعة لا بد له منها لم يقدم على احتمال هذا الضرر ولاتفويت تلك المنفعة ؛ فسبحان الله كم صدت هذه الفتنة لكثير من الخلق بل أكثرهم عن القيام بحقيقة الدين وأصلها ناشىء من جهلين : جهل بحقيقة الدين ، وجهل بحقيقة النعيم الذي هو غاية مطلوب النفوس وكمالها وبه ابتهاجها والتذاذها فيتولد من بين هذين الجهلين اعراضه عن القيام بحقيقة الدين وعن طلب حقيقة النعيم ومعلوم ان كمال العبد ان يكون عارفاً بالنعيم الذي يطلبه والعمل الذي يوصله اليه وان يكون مع ذلك فيه ارادة جازمة لذلك العمل ومحبة صادقة لذلك النعيم والا فالعلم بالمطلوب وطريقه لا يحصله ان لم يقترن بذلك العمل والارادة الجازمة لا توجب وجود المراد إلا إذا لازمها الصبر فصارت سعادة العبد وكمال لذته ونعيمه موقوفاً على هذه المقامات الخمسة علمه بالنعيم المطلوب ومحبته له وعلمه بالطريق الموصلة اليه وعمله به وصبره على ذلك قال تعالى(والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . والمقصود أن المقدمتين للذين تثبت عليهما هذه الفتنة اصلها الجهل بالله ودينه وبوعده ووعيده فان العبد اذا اعتقد انه قائم بالدين الحق فقد اعتقد انه قائم بالدين الحق فقد اعتقد انه قام بفعل المأمور ظاهراً وباطناً وترك المحظور باطناً وظاهراً وهذا من جهله بالدين الحق وما لله عليه وما هو المراد منه فهو جاهل بحق الله جاهل بما معه من الدين قدراً ونوعاً وصفة فاذا اعتقد ان صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين على المؤمنين وللفجار الظالمين على الابرار المتقين فهذا من جهله بوعد الله ووعيده فأما المقام الأول فان العبد كثيراً ما يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها فيكون مقصراً في العلم وكثيراً ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها اما كسلا وتهاونا واما لنوع تأويل باطل او تقليد او لظنه انه مشتغل بما هو اوجب منها أو لغير ذلك فواجبات القلوب اشد وجوباً من واجبات الابدان وآكد منها وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس بل هي باب

الفضائل المستحبات فتراه يتحرج من ترك فرض أو واجب من واجبات البدن وقد ترك ما هو من أهم واجبات القلوب وافرضها ويتحرج من أدنى المحرمات وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريما واعظم اثما بل ما أكثر من يتعبد الله بترك ما أوجب عليه فيتخلى وينقطع عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرته عليه ويزعم انه مقرب الى الله بذلك مجتمع على ربه تارك ما لا يعنيه فهذا من امقت الخلق الى الله وابغضهم له مع ظنه انه قائم بحق الايمان وشرائع الاسلام وانه من خواص أوليائه وحزبه بل ما أكثر من يتعبد الله بما حرمه الله عليه ويعتقد انه طاعة وقربة وحـــاله في ذلك شر من حال من يعتقد ذلك معصية وإثما كاصحاب السماع الشعري الذي يتقربوب به إلى الله ويظنون انهم من اولياء الرحمن وهم في الحقيقة من اولياء الشيطان ومـا أكثر من يعتقد انه هو المظلوم المحق من كل وجه ولا يكون كذلك بل يكون معه نوع من الحق ونوع من الباطل والظلم ومع خصمه نوع من الحق والعدالة وحبك الشيء يعمى ويصم ، والانسان مجبول على حب نفسه فهو لا يرى إلا محاسنها ومبغض لخصمه فلا يرى إلا مساوئه بل قد يشتد به حبه لنفسه حتى يرى مساويها محاسن كما قال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) ويشتد بغض خصمه حتى يرى محاسنه مساوىء كما قال :

نظروا بعين عداوة لو انها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

وهذا الجهل مقرون بالهوى والظلم غالبا فإن الانسان ظلوم جهول واكثر ديانات الخلق انما هي عادات اخذوها عن اباءهم وأسلافهم وقلدوهم فيها في الاثبات والنفى والحب والبغض والموالاة والمعاداة والله سبحانه انما ضمن نصر دينه وحزبه واوليائه القائمين بدينه علما وعملا لم يضمن نصر الباطل ولو اعتقد صاحبه انه محق وكذلك العزة والعلو انما هما لاهل الايمان الذين بعث الله به رسله وانزل به كتبه وهو علم وعمل وحال قال تعالى (وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين) فللعبد من العلو بحسب ما معه من الايمان وحقائقه فإذا فاته حظ من

العلو والعزة فهي مقابلة ما فاته من حقائق الايمان علماً وعملاً ظاهراً وباطنا وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه قال تعالى إن الله يدافع عن الذين امنوا) فإذا ضعف الدفع عنه فهو من نقص ايمانه وكذلك الكفاية والحسب هي بقدر الايمان قال (تعالى يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أي الله حسبك وحسب اتباعك أي كافيـــك وكافيهم وكفايته لهم بحسب اتباعهم لرسوله وانقيادهم له وطاعتهم له فما نقص من الايمان عاد بنقصان ذلك كله ومذهب أهل السنة والجماعة ان الايمان يزيد وينقص وكذلك ولاية الله لعبده هي كسب ايمانه قال تعالى (والله ولي المؤمنين ـ الله ولي الذين آمنوا) وكذلك معيته الخاصة هي لأهل الايمان كما قال تعالى (وان الله لمع المؤمنين) فإذا نقص الايمان وضعف كان حظ العبد من ولاية الله له ومعيته الخاصة بقدر حظه من الايمان وكذلك النصر والتأييد الكامل انما هو لاهل الايمان الكامل قال تعالى(انا لننصر رسلنا والذين امنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)وقال (فايدنا الذين امنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين) فمن نقص ايمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد ولهذا اذا اصيب العبد بمصيبة في نفسه او ماله او بإدالة عدوه عليه فانما هي بذنوبه اما بترك واجب او فعل محرم وهو من نقص ايمانه وبهذا يزول الاشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله: (ولن يجعـل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) ويجيب عنه كثير منهم بانه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الاخرة ويجيب آخرون بانه لن يجعل لهم عليهم سبيـــلا في الحجة والتحقيق انها مثل هذه الآيات وان انتفاء السبيل عن أهـل الايمان الكامل فاذا ضعف الايمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من ايمانهم فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله فالمؤمن عزيز غالب مؤيـــد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات اين كان ولو اجتمع عليه من بأقطارها اذا قام بحقيقة الايمان وواجباته ظاهراً وباطناً وقد قال تعـــالى للمؤمنين : (فلا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين): وقال (فلا تهنوا وتدعوا الى

السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم) فهذا الضمان انما هو بايمانهم وأعمالهم التي هي جند من جنود الله يحفظهم بها ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم فيبطلها عليهم كما يتر الكافرين والمنافقين اعمالهم اذا كانت لغيره ولم تكن موافقة لامره .

﴿ فصل ﴾

واما المقام الثاني الذي وقع فيه الغلط فكثير من الناس يظن ان اهل الدّين الحق يكونون في الدنيا اذلاء مقهورين مغلوبين دائما بخلاف من فارقهم الى سبل اخرى وطاعة أخرى فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده بل اما ان يجعل ذلك خاصا بطائفة دون طائفة او بزمان دون زمان او يجعله معلقا بالمشيئة وان لم يصرح بها وهذا من عدم الوثوق بوعد الله ومن سوء الفهم في كتابه والله سبحانه قد بين في كتابه انه ناصر المؤمنين في الدنيا والاخرة قال تعالى (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)وقال تعالى(ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) وقال تعالى (ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين كتب الله لأغلبن انا ورسلي) وهذا كثير في القرآن وقد بين سبحانه فيه ان ما اصاب العبد من مصيبة او ادالة عدو او كسر وغير ذلك فبذنوبه فبين سبحانه كلا المقدمتين فاذا جمعت بينهما تبين لك حقيقة الأمر وزاول الاشكال بالكلية واستغنيت عن تلك التكلفات الباردة والتأويلات البعيدة فقرر سبحانه المقام الأول بوجوه من التقرير منها ما تقدم ومنها انه ذم من يطلب النصر والعز من غير المؤمنين كقوله (يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء الى قوله نخشى ان تصيبنا دائرة)الى قوله (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) فانكر على من طلب النصر من غير حزبه واخبر ان حزبه هم الغالبون

ونظير هذا قوله (بشر المنافقين بان لهم عذاباً أليما ـ الى قوله ـ فان العزة لله جميعا) وقال تعالى (يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله والعزة ولرسوله وللمؤمنين) الاية وقال (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) اي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله من الكلم الطيب والعمل الصالح وقال تعالى (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) الاية وقال (يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ـ الى قوله ـ واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) اي ويعطيكم اخرى فوق مغفرة الذنوب ودخول الجنة وهي النصر والفتح الى قوله (فأيدنا الذين امنوا على عدوهم فاصبحو ظاهرين) وقال تعالى للمسيح (اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة) فلما كان للنصارى نصيب مامن اتباعه كانوا فوق اليهود الى يوم القيامة ولما كان المسلمون اتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى الى يوم القيامة وقال تعالى للمؤمنين (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار الى قوله ولن تجد لسنة الله تبديلا) فهذا خطاب للمؤمنين الذين قاموا بحقائق الايمان ظاهراً وباطناً وقال تعالى (والعاقبة للمتقين ـ والعاقبة للتقوى) والمراد والعاقبة في الدنيا قبل الاخرة لانه ذكر ذلك عقيب قصة نوح ونصره على قومه فقال تعالى (تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) اي عاقبة النصر لك ولمن معك كما كانت لنوح ومن آمن معه وكذلك قوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) وقال تعالى (وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وقال (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الاف من الملائكة مسومين) وقال تعالى اخباراً عن يوسف (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) وقال تعالى (يا ايها الذين امنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) والفرقان هو العز

والنصرة والنجاة والنور الذي يفرق بين الحق والباطل وقال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهوحسبه) الآية وقد روى ابن ماجه وابن ابي الدنيا عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال لو عمل الناس بهذه الآية لوسعتهم فهذا في المقام الأول واما المقام الثاني فقال تعالى في قصة أحد(اولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انّى هذا قل هو من عند انفسكم) وقال تعالى(إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) وقال(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير) وقال (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) وقال (وأنا إذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) وقال(أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير) وقال (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ولهذا أمر سبحانه رسله والمؤمنين باتباع ما انزل اليهم من ربهم وهو طاعته وهو المقدمة الأولى وأمر بانتظار وعده وهو المقدمة الثانية وأمر بالاستغفار ولا بد في انتظار الوعد من الصبر فبالاستغفار تتم الطاعة وبالصبر يتم اليقين بالوعد وقد جمع سبحانه بينهما في قوله (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشيّ والابكار)وقد ذكر الله سبحانه في كتابه قصص الانبياء واتباعهم وكيف نجاهم بالصبر والطاعة ثم قال (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الالباب) .

﴿ فصل ﴾

وتمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة الأول أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير .

الاصل الثاني أن ما يصيب المؤمنين في الله مقرون بالرضا والاحتساب فإن فاتهم الرضا فمعولهم على الصبر والاحتساب وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء

ومؤنته فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم حمل المشاق والبـــلاء والكفار لا رضى عندهم ولا احتساب وإن صبروا فكصبر البهائم وقد نبه الله على ذلك في قوله (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون فاشتركوا في الألم وامتاز المؤمنون برجاء الاجر والزلفى من الله .

الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه ووجود حقائق الايمان في قلبه حتى يحمل عنه من الأذى ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن فانه يدفع عنه كثيراً من البلاء وإذا كان لا بد له من شيء منه دفع عنه ثقـــله ومؤنته وتبعته .

الأصل الرابع: أن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه كان اذى المحب في رضا محبوبه مستحلى غير مسخوط والمحبون يفتخرون بذلك عند احبابهم حتى قال قائلهم :

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني اني خطرت ببالك

فما الظن بمحبـــة المحبوب الا على الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منـــه له واحسان اليه .

الأصل الخامس : ان ما يصيب الكافر والمنافق والفاجر من العز والنصر والجاه دون ما يحصل للمؤمنين بكثير ، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان وإن كان في الظاهر بخلافه ، كما قال الحسن : انهم وإن هملجت بهم البغـــال وطقطقت بهم النعـــال إن ذل المعصية في رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه .

الأصل السادس : أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته أو أنقصت ثوابه وأنزلت درجتـــه ، فيستخرج الابتلاء

والامتحان منه تلك الأدواء ويستعذبه لتمام الأجر وعلوّ المنزلة ، ومعلوم ان وجود هذا خير للمؤمنين من عدمه ، كما قال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له » ، فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزّه وعافيته ، ولهذا كان أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأقرب اليهم فالأقرب يبتلى المرء على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة شدّد عليه البلاء ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وما عليه خطيئة .

الأصل السابع : ان ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه وغلبته له وأذاه له في بعض الأحيان أمر لازم لا بد منه ، وهو كالحر الشديد والبرد الشديد والأمراض والهموم والغموم ، فهذا لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار ، حتى الأطفال والبهائم لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ، فلو تجرّد الخير في هذا العالم عن الشر والنفع عن الضر واللذة عن الألم لكان ذلك عالماً غير هذا ، ونشأة أخرى غير هذه النشأة ، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر واللذة والألم والنافع والضار ، وإنما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه في دار غير هذه الدار ، كما قال تعالى : (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم اولئك هم الخاسرون) .

الأصل الثامن : ان ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوّهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانا فيه حِكَمٌ عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله ، فمنها استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له وافتقارهم اليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم ، ولو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا ، ولو كانوا دائماً مقهورين مغلوبين منصوراً عليهم عدوّهم لما قامت للدين قائمة ولا كانت للحق دولة ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبتهم تارة وكونهم

مغلوبين تارة ، فـــإذا غُلِبوا تضرّعوا إلى ربهم وأنابوا اليـــه وخضعوا له وانكسروا له وتابوا اليه ،وإذا غَلَبوا أقاموا دينه وشعائره وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وجاهدوا عدوّهم ونصروا أولياءه .

ومنها انهم لو كانوا دائماً منصورين غالبين قاهرين لدخـــل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبـة والعزة ، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائماً لم يدخل معهم أحد ، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة وعليهم تارة ، فيميز بذلك بين من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه .

ومنها انه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديته على السرّاء والضراء وفي حال العافية والبلاء وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم ، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية بمقتضى تلك الحال لا تحصل إلا بهـا ولا يستقيم القلب بدونها كما لا تستقيم إلا به ،كما لا تستطيع الأبدان إلا بالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب وأضدادها ، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع .

ومنها ان امتحانهم بإدالة عدوّهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهـذبهم ، كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنـــين يوم أُحُد : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم المؤمنين) الى قوله : (وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء) إلى قوله : (أم حسبتم ان تدخلوا الجنـة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) إلى قوله : (وسنجزي الشاكرين) ، فذكر سبحانه أنواعاً من الحكم التي لأجلها أديل عليهم الكفار بعد أن ثبّتهم وقوّاهم وبشرهم انهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان ، وسلاهم بأنهم وإن مسّهم القرح في طاعته وطاعة رسوله فقد مسّ أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله ،ثم أخبرهم انه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونـــه وبعد كونه ، ولكنه أراد أن يعلمهم مشاهدين موجودين فيعلم إيمانهم واقعاً ،

ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء ، فإن الشهادة درجة عاليـــة عنده ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله ، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء اليه وأنفعها للعبد ، ثم أخـبر انه سبحانه يريد تمحيص المؤمنين أي تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع اليه واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو ، وانه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا ، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر وان حكمته تأبى ذلك فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر ، ولو كانوا دائماً منصورين لما جاهدهم أحد ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم ، فهذا بعض حكمه في نصر عدوّهم وإدالته في بعض الأحيان.

الأصل التاسع : انه سبحانه إنمـا خلق السموات والأرض وخلق المـوت والحياة وزيّن الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها . قال تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) وقال : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عمـــلاً) ، وقال : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) ، وقال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) ، وقال تعـالى : (ولنبلونـكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) وقال تعالى : (الم احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

فالناس إذا أرسل اليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم آمنت أو لا يؤمن بل يستمر على السيئات والكفر ، ولا بد من امتحان هذا وهذا ، فأما من قال : آمنت ، فلا بد أن يمتحنه الرب ويبتليه ليتبين هل هو صادق في قوله ولم يزده الامتحان والابتلاء إلا إيماناً على إيمانه ، قـال تعالى : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله

وما زادهم إلا إيماناً وتسليما) ، وأما من لم يؤمن فإنه ممتحن في الآخرة بالعذاب ويفتن به ، وهي أعظم المحنتين ، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوباتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم ، فلا بد من المحنة في هذه الدار وفي البرزخ وفي القيامة لكل أحد ، ولكن المحنة أخف محنة وأسهل بلية ، فإن الله يدفع عنه بالإيمان ويحمل عنه به ويرزقه من الصبر والثبات والرضا والتسليم ما يهون عليه به محنته ، وأما الكافر والفاجر فتشتد محنته وبليته وتدوم ، فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة ومحنة الكافر والمنافق شديدة متصلة فلا بد من حصول المحنة والألم لكل نفس آمنت أو كفرت لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة والكافر والمنافق والفاجر يحصل له اللذة والنعيم ابتداء ثم يصير إلى الألم فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم البتة يوضحه الاصل العاشر: وهو أن الانسان مدني بالطبع لا بد له أن يعيش مع الناس والناس لهم إرادات وتصورات واعتبارات فيطلبون منه أن يوافقهم عليها فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وإن وافقهم حصل له الاذى والعذاب من وجه آخر فلا بد له من الناس ومخالطتهم ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم وفي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل وفي المخالفة ألم وعذاب إذا لم يوافق اهواءهم واعتقادتهم واراداتهم ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم واعتبر هذا لمن يطالبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشة أو شهادة زور والمعاونة على محرم فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه ولكن تكون له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى وإن وافقهم فراراً من ألم المخالفة اعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه والغالب انهم يسلطون عليه فينال من الألم منهم اضعاف ما ناله من اللذة أولا بموافقتهم فمعرفة هذا ومراعاته من انفع ما للعبد فألم يسير يعقب لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة يعقبها ألم عظيم دائم والتوفيق بيد الله .

الأصل الحـادي عشر : أن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن اربعة اقسام فإنه إما أن يكون في نفسه أو في ماله أو في عرضه أو في اهله ومن يحب والذي يحب في نفسه قد يكون متلفها تارة ومؤلمها بدون التلف فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله وأشهر هذه الاقسام المصيبة في النفس ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله وتلك اشرف الموتات وأسهلها فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهـــل بل موت الشهيد من ايسر الميتات وأفضلها واعلاها ولكن الفار يظن انه بفراره يطول عمره فيتمتع بالعيش وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقول : (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً) فأخبر أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع فلا فائدة فيه ولو نفع لم ينفع إلا قليلاً اذ لا بد من الموت فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وانفع من حياة الشهيد عند ربه . ثم قال : (قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن اراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة)الآية. وأخبر أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه، فر من الموت لما كان يسوءه فاخبر سبحانه انه لو اراد به سوءاً غيره لم يعصمه أحد من الله وانه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه وإذا كان هـذا في مصيبة النفس فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن وان من بخل بماله ان ينفقه في سبيل الله واعلاء كلمته سلبه الله إياه وقيض له انفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً وان حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهناة وعلى مخلفة وزره وكذلك من رفه بدنه أو عرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله اتعبه الله اضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته وهو أمر يعرفه الناس بالتجارب قال أبو حازم لما يلقى الذي لا يتقى الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقي الذي

يتقى الله من معالجة التقوى واعتبر ذلك بحال ابليس . فانه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع ويـــذل فطلب إعزاز نفسه فصيّره الله أذلّ الأذلين وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته فـلم يرضَ بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فسّاق ذريته ، وكذلك عباد الأصنام أنفـوا أن يعبدوا إلهاً واحداً سبحانه ورضوا أن يعبدوا آلهة أخرى من الأحجار وكذلك كل من امتنع أن يذل لله أو يبذل ماله في مرضاته ويتعب نفسه وبدنه في طاعته لا بد أن يذل لمن لا يسوى ويبذل له ماله ويتعب نفسه وبدنـــه في طاعته عقوبة له كما قال بعض السلف : من امتنع أن يمشي مع أخيه خطـــوات في حاجته امشاه الله اكثر منها في غير طاعته .

فصل في خاتمة لهذا الباب

هي الغاية المطلوبة وجميع ما تقدم كالوسيلة اليها وهي أن محبة الله تعالى والانس به والشوق إلى لقائه والرضا به وعنه أصل الدين وأصل اعماله واراداته كما أن معرفته والعلم باسمائه وصفاته وأفعاله أصل الدين كله فمعرفته أجـــل المعارف وإرادة وجهه أجل المقاصد وعبادته أشرف الاعمال والثناء عليـــه باسمائه وصفاته وتمجيده ومدحه أشرف الأقوال وذلك أساس الحنيفية ملة ابراهيم وقد قال تعالى لرسوله : (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) فكان النبي ﷺ يوصي اصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا اصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد وملة ابينـــا ابراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. وليس لله دين سواه ولا يقبل من أحد ديناً غيره(ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) الآية فمحبته سبحانه بل كونه أحب إلى العبد من كل ما سواه على الاطلاق من اعظم واجبات الدين وأكبر أصوله وأجل قواعده ومن أحب معه مخلوقاً مثل ما يحبـــه فهو من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه ولا يقبل معه عمل قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله) وإذا كان العبد لا يكون من

أهل الايمان حتى يكون عبده ورسوله أحب اليه من نفسه واهله وولده ووالده والناس اجمعين ومحبته تبع لمحبة الله فما الظن بمحبته سبحانه وهو سبحانه لم يخلق الجن والانس إلا لعبادته التي تتضمن كمال محبته وكمال تعظيمه والذل له ولأجل ذلك ارسل رسله وانزل كتبه وشرع شرائعه وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب وأسست الجنة والنار وانقسم الناس إلى شقي وسعيد .

وكما انه سبحانه ليس كمثله شيء فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة واجلال ومخافة فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه وهربت منه والله سبحانه كلما خفته انست به وفررت اليه والمخلوق يخاف ظلمه وعدوانه والرب سبحانه انما يخاف عدله وقسطه كذلك المحبة فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهي عذاب للمحب ووبال عليه وما يحصل له بها من التألم أعظم مما يحصل من اللذة وكلما كانت أبعد عن الله كان ألمها وعذابها أعظم هذا إلى ما في محبته من الاعراض عنك والتجني عليك وعدم الوفاء لك اما لمزاحمة غيرك من المحبة له وإما لكراهته ومعاداته لك وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو احب اليه منك واما لغير ذلك من الآفات وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن فانه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها فهو إلهها ومعبودها ووليها ومولاها وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحييها فمحبته نعيم النفوس وحياة الارواح وسرور النفوس وقرة العيون وقوت القلوب ونور العقول وعمارة الباطن فليس عند القلوب السليمة والارواح الطيبة والعقول الزكية احلى ولا الذ ولا اطيب ولا امر ولا انعم من محبته والانس به والشوق إلى لقائه إلى ان قال :

﴿ فصل ﴾

في بيان كيد الشيطان لنفسه قبل كيده للأبوين ثم لم يقتصر على ذلك حتى كاد ذرية نفسه وذرية ادم فكان مشؤوماً على ذريته واوليائه وأهل طاعته من الجن والانس .

أما كيده لنفسه فان الله سبحانه لما امره بالسجود لآدم كان في امتثال

أمره وطاعته سعادته وفلاحه وعزه ونجاته فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة أن في سجوده لآدم غضاضة عليه وهضما لنفسه إذ يخضع ويقع ساجداً لما خلق من طين وهو مخلوق من نار والنار بزعمه اشرف من الطين فالمخلوق منها خير من المخلوق منه وخضوع الافضل لمن هو دونه غضاضة عليه وهضم لمنزلته فلما قام بقلبه هذا الهوس وقارنه الحسد لآدم لما رأي ربه سبحانه قد خصه به من انواع الكرامة فانه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته وعلمه اسماء كل شيء وميزه بذلك عن الملائكة وأسكنه جنته فبلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ وكان عدو الله يطيف به وهوصلصال كالفخار فيعجب منه ويقول: لأمر عظيم خلق هذا ولئن سلط علي لاعصينه ولئن سلطت عليه لاهلكنه فلما تم خلق آدم في أحسن صورة وأتم خلق طوله في السماء ستون ذراعاً قد البس رداء الجمال والحسن والمهابة فرأت الملائكة منظراً لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجل فوقعوا كلهم سجوداً له بأمر ربهم تبارك وتعالى فشق الحسود قميصه من دبر واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين فعارض النص بالمعقول بزعمه كفعل اوليائه من المبطلين وقال: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) فأعرض عن النص الصريح وقابله بالرأي الفاسد القبيح ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم الذي لا تجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلاً فقال (ارأيتك هذا الذي كرمت علي لئن اخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلاً) وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى آخر أي لم كرمته علي وعود هذا الاعتراض ان الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب وان الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي لأن المفضول يخضع للفاضل فلم خالفت الحكمة ثم اردف ذلك بتفضيل نفسه عليه وازرائه به فقال: (انا خير منه) ثم قرر ذلك بحجته الداحضة في تفضيل مادته واصله على مادة آدم وأصله فانتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود ومعصيته للرب المعبود فجمع بين الجهل والظلم والكبر والحسد والمعصية ومعارضة النص

بالرأي والعقل فأهان نفسه كل الاهانة من حيث اراد تعظيمها ووضعها من حيث اراد رفعها وأذلها من حيث اراد عزها وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها ففعل بنفسه ما لو اجتهد اعظم اعدائه في حضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويقبل منه ويواليه قال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن) إلى قوله (بئس للظالمين بدلاً).

﴿ فصل ﴾

وأما كيده للابوين فقد قص الله تعالى علينا قصتهما وانه لم يزل يخدعهما ويمنيهما الخلود في الجنة حتى حلف لهما بالله جهد ايمانه انه ناصح لهما حتى اطمئنا إلى قوله واجاباه إلى ما طلب منهما فجرى عليهما من المحنة والخروج من الجنة ونزع لباسهما عنهما ما جرى فكان ذلك بكيده ومكره الذي جرى به القلم وسبق به القدر وردّ الله سبحانه كيد عدو الله عليه وتدارك الابوين برحمته ومغفرته واعادهما إلى الجنة على أحسن الأحوال وأجلها وعاد عاقبة مكره عليه ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وظن عدو الله بجهله ان الظفر له في هذا الحرب ولم يعلم بكمين جيش: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ولا بإقبال دولة (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) وظن اللعين بجهله ان الله يتخلى عن صفيه وحبيبه الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء من أجل أكلة أكلها ، وما علم ان الطبيب أعدّ للمريض الدواء قبل المرض ، فلما أحسّ بالمرض بادر إلى استعمال الدواء، ولما رماه العدو بسهمه وقع في غير مقتل فبادر إلى مداواة الجرح فقام كأن لم يكن به قلبة ، بلى العدو بالذنب فأصرّ واحتج وعارض الأمر وقدح في الحكمة ولم يسأل الإقالة ولا ندم على الزلة ، وبلى الحبيب بالذنب فاعترف وندم وتاب وتضرّع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة وهو التوحيد والاستغفار فأزيل عنه التعب وغفر له الذنب وقبل منه المتاب ،

وفتح له من الرحمة والهداية كل باب ، ونحن الأبنـاء ومن أشبه أباه فما ظلم ، ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هدي لأحسن الشيم .

﴿ فصل ﴾

ثم كاد أحد ولدي آدم ولم يزل يتلاعب به حتى قتل أخاه ،وأسخط أباه ، وعصى مولاه ، فسنّ للذرية قتل النفوس . وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ انه قال : « ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل »،فكاد العدو هذا القاتل بقطيعة رحمه وعقوق والديه وإسخاط ربه وظلم نفسه وعرضه لأعظم العقاب ، وحرمه حظه من جزيل الثواب .

﴿ فصل ﴾

وجرى الأمر على السداد والاستقامة والأمة واحدة والدين واحدوالمعبود واحد؛قال تعالى.(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) — الآية . قال سعيد عن قتادة : ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإيمان وعلى شريعة من الحق ثم اختلفوا بعـــد ذلك فبعث الله نوحاً وكان أول رسول بعثه الله الى أهل الأرض وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق . وقال ابن عبـاس : كان الناس أمة واحدة كانوا كفاراً ، وهذا قول الحسن وعطاء قالا : كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمـة واحدة على ملة واحدة وهي الكفر ، كانوا كفاراً كلهم مثل البهائم فبعث الله نوحاً وإبراهيم والنبيين ، وهذا القول ضعيف جداً ومنقطع عن ابن عبـــاس والصحيح عنه خلافه . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا همام حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عبـــاس قال : كانوا على الإسلام كلهم ، وهذا هو الصواب قطعاً فان في قراءة أبي بن كعب فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس : (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) والمقصود ان العدو كادهم

وتلاعب بهم حتى انقسموا إلى قسمين : كفار ومؤمنين فكادهم بعبادة الأصنام وإنكار البعث ،فكان أول ما كاد به عباد الأصنام من جهة العكوف على الصور وتصاوير أهلها ليتذكروهم بها كما قص سبحانه عنهم فقال : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) ،وقد قال البخاري في صحيحه عن ابن عباس: هذه أسماء رجال كانوا صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال كانوا قوما صالحين من بني آدم وكان لهم اتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم لو صورناهم كان اشوق لنا الى العبادة اذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم ابليس فقال انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي اخبرني ابي قال اول ما عبدت الاصنام ان ادم لما مات جعله بنو شيث ابن ادم في مغارة في الجبل الذي اهبط عليه ادم بأرض الهند ويقال للجبل بوذ وهو اخصب جبل في الأرض قال هشام فاخبرني ابي عن ابي صالح عن ابن عباس قال : وكانوا بنو شيث يأتون جسد ادم في المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه فقال رجل من بني قابيل يا بني قابيل ان لنبي شيث دوار يدورن حوله ويعظمونه وليس لكم شيء فنحت لهم صنما فكان اول من عملها قال هشام واخبرني ابي قال كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين فماتوا في شهر فجزع عليهم ذوو اقاربهم فقال رجل من بني قابيل يا قوم هل لكم ان اعمل لكم خمسة اصنام على صورهم غير اني لا اقدر ان اجعل فيها روحاً قالوا نعم فنحت لهم خمسة اصنام على صورهم ونصبها لهم فكان الرجل يأتي اخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الاول وكانت عملت على عهد برد بن مهلائيل بن قينان بن نوش بن شيث بن آدم ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الاول ثم جاء من بعدهم القرن الثالث

فقالوا ما عظم اولونا هؤلاء الاوهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم وعظموا امرهم واشتدّ كفرهم فبعث الله اليهم إدريس فدعاهم فكذبوه فرفعه الله مكانا عليا ولم يزل امرهم يشتد فيما قـــال الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس حتى ادرك نوح فبعثه الله نبياً وهو يومئذ ابن اربعمائة وثمانون سنة فدعاهم الى الله في نبوته عشرين ومائة سنة فعصوه وكذبوه فامره الله ان يصنع الفلك ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة وغرق من غرق ومكث بعـــد ذلك ستمائة وخمسين سنة وكان بين ادم ونوح الفا سنة ومائتا سنة فاهبط الماء هذه الاصنام من ارض الى ارض حتى قذفها الى ارض جدة فلما نضب الماء بقيت على الشط فسفت الريح عليها حتى وارتها قلت ظاهر القرآن يدل على خلاف هذا وان نوحا لبث في قومه الف سنة الا خمسين عاما وان الله عز وجل اهلكهم بالغرق بعد ان لبث فيهم هذه المدة

قال الكلبي: وكان عمرو بن لحي كاهناً وكان له رئي من الجن فقال له عجل السير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة انت جدة تجد فيها اصناما معـــدة فاوردها تهامة ولا تهب ثم ادع العرب الى عبادتها تجب فأتي نهر جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب الى عبادتها قاطبة فاجابه عوف بن عذره بن زيد اللات فدفع اليه ودا فحمله فكان بوادي القرى بدومة الجندل وسمي به عبد ود فهو اول من سمي به وجعل عوف ابنه عامرا سادنا له فلم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالاسلام قال الكلبي فحدثني مالك بن حارثة انه رأى ودا قال وكان ابي يبعثني باللبن اليه فيقول اسقه الهك فاشربه قال ثم رأيت خالد بن الوليد كسره فجعله جذاذا وكان رسول ﷺ بعث خالد بن الوليد لهدمه فحالت بينه وبينه بنو عذرة وبنو عامر فقاتلهم وهدمه وكسره قال الكلبي فقلت لمالك بن حارثة صف لي ودا حتى كأني أنظر اليه قال كان تمثال رجل عظيم كاعظم ما يكون من الرجال قد زبر أي نقش عليه حلتان متزر بحلة مرتد باخرى عليه سيف قد تقلد به وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها

لواء ورفضة فيها نبل أي جعبة فيها نشاب وأجابت عمرو بن لحي مضر فدفع إلى رجل من هذيل سواعا بارض يقال لها رهاط من بطن نخلة يعبده من يليه من مضر وفي ذلك يقول رجل من العرب :

تراهم حول قبتهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سواع

واجابته مذحج فدفع إلى انعم بن عمرو المرادي يغوث وكان باكمة باليمن فعبدته مذحج ومن والاها وأجابته همدان فدفع إلى مالك بن مرب بن جشم بن حاشد ابن جشم بن خيران بن نوف بن همدان يعوق فكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان ومن والاها من اليمن واجابته خيوان فدفع إلى رجل من ذي رعين يقال له معديكرب نسرا فكان بموضع من ارض سبا يقال لها بلخع تعبده حمير ومن والاها فلم يزل يعبدونه حتى هودهم ذو نواس فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبي ﷺ فهدمها وكسرها هذا ما شرحه البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: صارت الاوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد اما ود فكان لكلب بدومة الجندل واما سواع فكانت لهذيل واما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبا واما يعوق فكانت لهمدان واما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع قال وهؤلاء اسماء رجال صالحين من قوم نوح وذكر ما تقدم وفي صحيح البخاري عن ابي هريرة قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو ابن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب» وفي لفظ وغير دين ابراهيم وقال ابن اسحاق حدثني محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي ان ابا صالح السمان حدثه انه سمع ابا هريرة سمعت النبي ﷺ يقول لاكثم بن الجون الخزاعي: «يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلاً اشبه برجل منك به ولا به منك فقال « اكثم عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله قال: « لا انك مؤمن وهو كافر انه اول من غير دين اسماعيل فنصب الاوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحام» قال ابن هشام وحدثني بعض اهل العلم ان عمرو بن لحي خرج من مكة

إلى الشام في بعض اموره فلما قدم‌أب من ارض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم من ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح وهم يعبدون الاصنام فقال لهم ما هذه الاصنام التي تعبدون فقالوا له نستمطر بها فتمطرنا ونستنصر بها فتنصرنا فقال: ألا تعطوني صنما منها فأسير به إلى ارض العرب فيعبدونه؟. فاعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه قال هشام وحدثني ابي وغيره ان اسماعيل لما سكن مكة وولد بها أولاده فكثروا حتى ملؤا مكة ونفوا من كان فيها من العماليق ضاقت عليهم مكـــة ووقعت بينهم الحروب والعداوة وأخرج بعضهم بعضاً فتفسحوا في البلاد لالتماس المعاش فكان الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجارة انه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصيانة بمكة فحيث مـــا حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالبيت حباً للبيت وصبابة به وهم على ذلك يعظمون البيت ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث ابراهيم واسماعيل ثم عبدوا ما استحسنوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم غيره فعبدوا الاوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح وفيهم على ذلك بقـــايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتمسكون بهـــا من تعظيم البيت والطواف به والحـــج والعمرة وبالوقوف بعرفة ومزدلفة واهـــداء البدن وكانت نزار تقول في اهلالها لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه ومـــا ملك وكان أول من غيّر دين إسماعيل فنصب الأوثان وسيّب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحام عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثـــة وهو أبو خزاعة ، وكانت أم عمرو فهيرة بنت عامر بن الحارث ، وكان هو الذي يـــلي أمر الكعبة ، فلما بلغ عمرو بن لحي نازعه في الولاية وقاتل جرهم ببـــني اسماعيل وظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت ، ثم انه مرض مرضاً شديداً فقيل له: ان بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت ،

فأتاهم فاستحمّ فيها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقـــال : ما هذه ؟ قالوا : نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منهـا ففعلوا ، فقدم بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة ، واتخذت العرب الأصنام وكانت أقدمها مناة وكان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديـد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعها تعظمه وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة ومن قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج . قـال هشام : وحدثنـا رجل من قريش عن أبي عبيدة عن محمد بن عمار بن ياسر قال : كانت الأوس والخزرج ومن جاورهم من عرب أهل يثرب يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فإذا نفروا أتوه فحلقوا عنده رؤوسهم وأقـــاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك . وكانت مناة لهذيل وخزاعة ، فبعث رسول الله ﷺ عليـــاً رضي الله عنه فهدمها عام الفتح ، ثم اتخذوا اللات بالطائف ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب تسمى زيد اللات وتيم اللات ، وكانت في موضع منارة مسجد الطـــائف اليسرى اليوم ، فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وأحرقها بالنار ، ثم اتخذوا العزّى وهي أحدث من الـــلات ، اتخذها ظالم بن أسعد وكانت بوادي نخلة فوق ذات عرق وبنـــوا عليها بيتـاً وكانوا يسمعون منه الصوت . قال هشام : وحدثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كانت العزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتحت مكة بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وقال له : « ائتِ بطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى » ، فأتاها فعضدها ، فلمـا جاء اليـه قال : « هل رأيت شيئاً ؟ » قال : لا ، قال : « فاعضد الثانية » ، فأتاها فعضدها فلما جاء اليه قال : « هل رأيت شيئاً ؟ » قال لا ، قـــال : « فاعضد الثالثة » ، فأتاها فإذا هو بحبشية ناشرة شعرها واضعة يديهـــا على عاتقها

تضرب بأنيابها وخلفها سادنها ، فقال : خالد كفرانك لا سبحانك ،اني رأيت الله قد أهانك ، ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حمة ثم عضد الشجرة وقتل السادن ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال : « تلك العزّى ولا عزّى للعرب بعدها » . قال هشام : وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها أعظمها عندهم هبل ، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب ، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس من مضر ، وكان في جوف الكعبة وكان قدامه قداح مكتوب في أحدها صريح وفي الآخر ملصق فاذا شكوا في مولود أهدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فإن خرج صريح ألحقوه وإن كان ملصقاً دفعوه ، وكانوا إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً اتوا فاستقسموا بالقداح عنده ،وهو الذي قال أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل ،فقال ﷺ: «قولوا له الله أعلا وأجل ». وكان لهم إساف ونائلة . قال هشام : حدث الكلبي عن صالح عن ابن عباس ان إسافاً رجل من جرهم يقال له إساف بن يعلى ، ونائلة بنت زيد بن جرهم وكان يتعشقها في أرض اليمن فأقبلوا حجاجاً فدخلا البيت فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ففجر بها في البيت فمسخا حجرين ، فأصبحوا فوجدوهما ممسوخين فأخرجوهما فوضعوهما موضعهما ، فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حَج البيت بعد من العرب . قال هشام: لما مسخا حجرين وضعا عند الكعبة يتعظ بهما الناس فلما طال مكثهما وعبدت الاصنام عبدا معها وكان احدهما ملصقا بالكعبة والآخر في موضع زمزم فتقلت قريش الذي كان ملصقا بالكعبة الى الآخر فكانوا يذبحون وينحرون عندهما وكان من تلك الاصنام ذو الخلصة وكان مروة بيضاء منقوشة كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة [1] والمدينة على مسيرة سبع ليال من مكة تعظمه وتهدى له خثعم وبجيلة فقال ﷺ لجرير: « الا تكفيني ذا الخلصة » فسار اليه بأحمس فقاتلته خثعم

---

(١) في غير هذه النسخة بين مكة واليمن تعليقا .

وباهلة فظفر بهم وهدم ذا الخلصة واضرم فيه النار وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة وكان لدوس صنم يقال له ذو الكفين فلما اسلموا بعث ﷺ الطفيل بن عمرو فحرقه وكان لبني الحارث بن يشكر صنم يقال له ذو الشرى وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان في مشارف الشام صنم يقال له الاقيصر وكان لمزينة صنم يقال له نهم وبه كانت تسمى عبدتهم وكان لعنزة صنم يقال له سعير وكان لطي صنم يقال له الفلس وكان لاهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه إذا ارادوا سفراً كانوا آخر ما يصنعون ان يتمسحوا به واذا قدم من سفره كان اول ما يصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به قال ابن اسحاق: وكان لخولان صنم يقال له عـــم انس بأرض خولان يقسمون له من انعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله بزعمهم فما دخل في حق عـــم انس لم يردوه في حق الله وما دخل في حق الله ردوه عليه وفيهم انزل الله: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) الى قوله (ساء ما يحكمون) قال ابن اسحاق وكان لبني ملكان ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة صنم يقال سعد صخرة بارض فلاة طويلة فاقبل رجل من بني ملكان بابل له ليقفها عليه ابتغاء بركته فيما يزعم فلما رأته الابل وكان يهراق عليه الدماء نفرت منه فذهبت في كل وجه فغضب ربها فاخذ حجرا فرماه به ثم قال لا بارك الله فيك نفرت علي ابلي ثم خرج في طلبها حتى جمعها فلما اجتمعت له قال:

اتينا الى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد الا صخرة بتنوفة ... من الارض لا تدعو لغي ولا رشد؟

قال ابن اسحاق: وكان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بني سلمة وشريفا من اشرافهم وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له مناة فلما اسلم فتيان بني سلمة معاذ بن جبل وابنه ومعاذ بن عمرو وغيرهم ممن اسلم وشهد العقبة كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيضعونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذرات الناس منكسا على رأسه فاذا اصبح عمر قال: ويلكم من عدا على آلهتنا

هـــذه الليلة ثم يغدو يلتمسه حتى اذا وجده غسله وطيبه ثم قال : والله لو اعلم من فعل هذا بك لاخزينه فاذا أمسى ونام عدوا وفعلوا بصنمه مثـــل ذلك فيغدو يلتمسه ثم يصيبه مثل مـــا اصاب من الاذى فيغسله ويطهره ويطيبه فيعدون عليه اذا امسى فيفعلون به ذلك فلما طال عليه استخرجه من حيث القوه فغسله وطهره وطيبه وجاء بسيفه فعلقه عليه ثم قـــال: والله اني لا اعلم من يصنع بك ما ترى فان كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك فلما أمسى ونام عدوا عليه فاخذوا السيف من عنقه ثم اخذو كلبا ميتا فقرنوه بـــه بحبل ثم القوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس وغدا عمرو فلم يجده في مكانه الذي كان به فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسا على رأسه مقرونا بكلب ميت فلما رآه وابصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه اسلم وحسن اسلامه فقال حين اسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره وشكر الله إذ انقذه مما كان فيـــه من العمى والضلالة يقول :

والله لو كنت إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر في قرن
أف لملقاك إلهاً مستدن ... الآن فتشناك عن سوء الغـــبن
الحمد لله العـــلى ذي المنن ... الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي انقذني من قبل أن ... أكون في ظلمة قبر مرتهن

قال ابن اسحاق:واتخذ كل أهل دار في دارهم صنما يعبدونه فإذا اراد رجل منهم سفراً تمسح به فيكون آخر عهده به وإذا قدم من سفر تمسح به فهوأول عهده به فلما بعث محمد ﷺ بالتوحيد قالت قريش أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب) وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كما تطوف بالكعبة وتنحر عندها كما تنحر عند الكعبة وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً فعل مثل ذلك قال حنبل: حدثناحسن بن الربيع

قال حدثنا مهدي بن ميمون قال سمعت ابا رجـــاء العطاردي يقول لما بعث النبي ﷺ فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنـار وقال وكنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقي ذاك ونأخذه فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليـــه ثم طفنا به وقال ابو رجاء ايضاً: كنا نعمد إلى الرمل فنجمعه ونحلب عليه فنعبده وكنا نعمد إلى الحجر الأسود فنعبده زماناً ثم نلقيه قال ابو بكر بن ابي شيبـــة حدثنا يزيد بن هارون اخبرنا الحجاج بن ابي زينب قال سمعت ابا عثمان النهدي يقول : كنا في الجاهلية نعبد حجراً فسمعنا مناديا ينادي يا أهل الرحال إن ربكم قد هلك فالتمسوا ربا قال فخرجنا على كل صعب وذلول فبينا نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادي: إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه فإذا حجر فنحرنا عليه الجزر وقال محمد بن سعد اخبرنا محمـــد بن عمر حدثنا الحجاج بن صفوان عن بن ابي حسين عن شهر بن حوشب عن عمرو بن عنبسة قال كنت ممن يعبد الحجارة فينزل الحي ليس معهم إله فيخرج الرجل منهم فيأتي باربعة احجار فينصب ثلاثة لقدره ويجعل احسنها إلهاً فيعبده ثم لعله يجد ما هو احسن منه قبل ان يرتحل فيتركه ويأخذ غيره ولما فتح ﷺ مكة وجد حول البيت ثلثمائة وستين صنما فجعل يطعن بقوسه في وجوهها وعيونها ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) وهي تتساقط على رؤوسها ثم أمر بها فاخرجت من المسجد واحرقت .

﴿ فصل ﴾

وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبدة الاصنام له اسباب عديدة تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهـــة تعظيم الموتى الذي صور تلك الاصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح ولهذا لعن النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ونهى عن الصلاة إلى القبور وسأل ربه سبحانه ألا يجعل قبره وثناً يعبد ونهى امته ان يتخذوا قبره عيداً وقال

اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل فأبى المشركون إلا خلافه كله إما جهلاً واما عناداً لأهل التوحيد ولم يضرهم ذلك شيئاً وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين وأما خواصهم فانهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم وجعلوا لها بيوتاً وسدنة وحجاباً وحجا وقرباناً ولم يزل هذا في الدنيا قديماً وحديثاً فمنها بيت على رأس جبل باصبهان كان به اصنام اخرجها بعض ملوك المجوس وجعلت بيت نار ومنها بيت ثان وثالث ورابع بصنعاء بناه بعض المشركين على اسم الزهرة فخر به عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومنها بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فرغانة فخرّبه المعتصم . وأشدّ الأمم في هذا النوع من الشرك الهند ، قال يحيى بن بشر : ان شريعة الهند وضعها رجل يقال له برهمن ووضع لهم أصناماً وجعل أعظم بيوتها بيتاً بمدينة من مداين السند وجعل فيه صنمهم الأعظم وزعم انه بصورة الهيولى الأكبر ، وفتحت هذه المدينة في أيام الحجاج واسمها الملتان فأراد المسلمون قلع الصنم ، فقيل لهم : إن تركتموه ولم تقلعوه جعلنا لكم ثلث ما يجتمع له من المال ، فأمر عبد الملك بن مروان بتركه ؛ فالهند تحجه من نحو ألفي فرسخ ، ولا بد لمن يحجه أن يحمل معه من النقد ما يمكنه من مائة إلى عشرة آلاف ، لا يكون أقل من هذا ولا أكثر ، فيلقيه في صندوق هناك عظيم ويطوف بالصنم ، فاذا ذهبوا ورجعوا إلى بلادهم قسم ذلك المال فثلثه للمسلمين وثلثه لعمارة المدينة وحصونها وثلثه لسدنة الصنم ومصالحه واصل هذا المذهب من مشركي الصائبة وهم قوم ابراهيم الذين ناظرهم في بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه والهتهم ببيده فطلبوا تحريقه وهو مذهب قديم في العالم وأهله طوائف شتى فمنهم عباد الشمس زعموا انها ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهي أصل نور القمر والكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها وهي عندهم ملك الفلك فتستحق التعظيم والسجود والدعاء إلى أن

قال : وطائفة اخرى اتخذت للقمر صنما وزعموا انه يستحق التعظيم والعبادة واليه تدبير هذا العالم السفلي ومن شريعة عباده انهم اتخذوا له صنما على شكل عجل ويجره اربعة وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له اياماً معلومـــة من كل شهر ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفرح والسرور فإذا فرغوا من الاكل اخذوا في الرقص والغناء واصوات المعازف بين يديه ومنهم من يعبد اصناماً اتخذوها على صورة الكواكب وروحانيتها بزعمهم وبنوا لها هياكل ومتعبدات لكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه ومتى اردت الوقوف على هذا فانظر في كتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم المنسوب إلى ابن خطيب الري تعرف سر عبادة الاصنام وكيفية تلك العبادة وشرائطها وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الاصنام فانهم لا تستمر لهم طريقة إلا بشخص خاص ينظرون إليه ويعكفون عليه ومن ها هنا اتخذ اصحاب الروحانيات والكواكب اصناماً زعموا انها على صورتها فوضع الصنم انما كان في الأصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائباً منابه وقائماً مقامه وإلا فمن المعلوم أن عاقلاً لا ينحت خشبة أو حجراً بيده ثم يعتقد انه إلهه ومعبوده ومن اسباب عبادتها ايضاً ان الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات وتدلهم على بعض مايخفى عليهم وهم لا يشاهدون الشياطين فجهلتهم وسقطهم يظنون ان الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب إلى ان قال فهو سبحانه ينفي وينهى ان يجعل غيره مثلاً له ونداً له وشبهاً له لا ان يشبه هو بغيره إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلاً لشيء من مخلوقاته فجعلت المخلوق اصلاً وشبهت به الخالق فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم وانما الاول هو المعروف في طوائف أهل الشرك غلوا فيمن يعظمونه ويحبونه حتى شبهوه بالخالق واعطوه خصائص الإلهية بل صرحوا انه اله وانكروا جعل الآلهة إلهاً واحداً وقالوا اصبروا على الهتكم وصرحوا بانه إله معبود يرجى ويخاف ويعظم ويسجد له ويحلف

باسمه وتقرب له القرابين إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ومعبوده بالله سبحانه وان لم يشبهه به من كل وجه حتى ان الذين وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب كقولهم ان الله فقير وان يده مغلولة وانه استراح لما فرغ من خلق العالم والذين جعلوا له ولداً وصاحبة تعـــالى الله عن قولهم علواً كبيراً لم يكن قصدهم ان يجعلوا المخلوق اصلاً ثم يشبهون به الخالق تعالى بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالا لا قصدا ان يكون غيره اصلا فيها وهو مشبه به ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من ابطل الباطل لكونها في نفسها نقائص وعيوبا ليس جهة البطلان في اتصافه بهـــا هو التشبيه والتمثيل وهؤلاء إذ قال لهم الواصفون له سبحانـــه بهذه الصفات نحن نثبتها له على وجه لا يماثل فيها خلقه بل نثبت له فقرا وصاحبـــة وايلادا لا يماثل فيه خلقه كما تثبتون له علما وقدرة وحياة وسمعا وبصرا لا يماثـــل فيه خلقه فقولنا في هذا كقولكم فيما اثبتموه سواء لم يتمكنوا من ابطـــال قولهم ويصيرون اكفاء لهم في المناظرة فانهم قد اعطوهم انه لا يقوم دليل عقلي على انتفاء النقائص والعيوب وإنما ننفي ما نفى عنه لاجل التشبيه والتمثيل وقد اثبتوا له صفات على وجه لا يستلزم التشبيه فقال اولئك وهكذا نقول نحن ولما اعترف بعضهم ان هذا لازم له لا محالة استروح الى دليل الاجماع وقال انما نفينا النقائص والعيوب عنه بالاجماع وعندهم ان الاجماع ادلته ظنية لا تفيد اليقين فليس عند القوم يقين وقطع بان الله سبحانه منزه عن النقائص والعيوب وأهل السنه يقولون ان تنزهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته كما ان اثبات صفات الكمال والحمد واجب له لذاتـــه وهو اظهر في الفطر والعقول وجميع الكتب الالهية واقوال الرسل من كل شيء.

ومن العجب ان هؤلاء جاؤوا الى ما علم بالاضطرار ان الرسل جاؤوا به ووصفوا الله سبحانه به ودلت عليـــه العقول والفطر والبراهين فنفوه وقالوا اثباته يستلزم التجسيم والتشبيه فلم يثبت لهم قدم البتة فيما يثبتونه له سبحانه

وينفونه عنه وجاؤوا الى مـا علم بالاضطرار والفطر والعقول وجميع الكتب الالهية من تنزيه الله سبحانه عن كل نقص وعيب فقالوا ليس في ادلة العقـل ما ينفيه وإنما ننفيه بما ينفي به التشبيه وليس في الخذلان فوق هذا بل اثبات هذه العيوب والنقائص يضاد كماله المقدس وهو سبحانه موصوف بما يضادها ويناقضها من كل وجه ونفيها اظهروا في العقول من نفي التشبيه فلا يجوز ان يثبت له على وجه لا يشابه فيه خلقه والمقصود انه لم يكن في الامم من مثله بخلقه وجعل المخلوق اصلاً ، ثم شبهه به ، وانما كان التمثيل والتشبيه في الامم، حيث شبهوا اوثانهم ومعبوديهم به في الالهية وهذا التشبيه هو اصل عبادة الاصنام فاعرض عنه وعن بطلانه اهل الكلام وصرفوا العناية الى انكار تشبيهه بالخلق الذي لم تعرف أمه من الامم عليه وبالغوا فيه حتى نفوا عنـه صفات الكمال وهذا موضع مهم نافع جداً به يعرف الفرق بين ما نزه الرب سبحانه نفسه عنه وذم به المشركين المشبهين العادلين به خلقه وبين ما تنفيه الجهمية المعطلة من صفات كماله ويزعمون ان القرآن دل عليه واريد به نفيه والقرآن مملوء من ابطال ان يكون في المخلوقات من يشبه الرب تعالى او يماثله فهذا هو الذي قصد بالقرآن ابطالا لما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله غيره قال تعالى (فلاتجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون) وقال (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله) فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلاً للخالق فالند الشبه يقال فلان ند فلان وند نده اي مثله وشبهه ومنه قول حسان:

اتهجوه ولست له بنـد فشركمـا لخيركما الفداء

ومنه قول النبي ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت . «اجعلتني لله ندا » وقال جرير :

أَتيْماً تجعلون الي نـــدا وما تيم لذي حسب نديد

قال ابن مسعود وابن عباس: لا تجعلوا لله اكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله وقال ابن زيد الانداد الآلهة التي جعلوها معه وقال الزجاج أي لا تجعلوا لله امثالاً فالذي أنكره الله سبحانه عليهم تشبيه المخلوق به حتى

جعلوها ندا لله يعبدونه كما يعبدون الله وكذلك قوله في الآية الاخرى (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداد يحبونهم كحب الله) فانكر هذا التشبيه عليهم وهو أصل عبادة الاصنام ونظير هذا قوله سبحانه (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أي يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلاً وشبيهاً قال ابن عباس يريد عدلوا بي من خلقي الحجارة والأصنام بعد أن أقروا بنعمتي وربوبيتي . قال الزجاج أعلم الله سبحانه انه خالق ما ذكر في هذه الآية وأن خالقهـــا لا شيء مثله وأعلم أن الكفار يجعلون له عديلا والعدل التسوية يقال عدل الشيء بالشيء إذا سواه به ومعنى يعدلون يشركون به غيره قاله مجاهد قال الأحمر يقال عدل الكافر بربه عدلاً وعدولا إذا سوى به غـــيره فعبده وقال الكسائي عدلت الشيء بالشيء أعدله عدولا إذا ساويته به ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبهين انهم يقولون في النار لآلهتهم (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويـــكم برب العالمين) فاعترفوا انهم كانوا في أعظم الضلال وابينه إذ جعلوا لله شبيهاً وعدلاً من خلقه سووهم به في العبادة والتعظيم وقال تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) قال ابن عباس شبيهاً ومثلاً وهو من يسامية وذلك نفى عن المخلوق أن يكون مشابهاً للخالق ومماثلاً له بحيث يستحق العبادة والتعظيم ولم يقل سبحانه هل تعلمه سميا أو مشبها لغيره فإن هذا لم يقله أحد بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابهـــا له مساميا وندا وعدلاً فانكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل وكذلك قوله (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الامثال) . فنهاهم أن يضربوا له مثلاً من خلقه ولم ينههم أن يضربوه مثلاً لخلقه فإن هذا لم يقله احد ولم يكونوا يفعلونه فإن الله سبحانه أجـــل في وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يعظمونه فيشبهونه بالخالق والله سبحانه أجل في صدور جميع

الخلق من ان يجعلوا غيره أصلاً ثم يشبهونه سبحانه بغيره فإن الذي يشبهه بغيره ان قصد تعظيمه لم يكن في هذا تعظيم لأنه مثلاً اعظم العظماء بما هو دونه بل بما ليس بينه وبينه نسبة في العظمة والجلالة وعاقل لا يفعل هذا وان قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين لا بالكاملين الممدوحين ومن هنا يعلم أن إثبات صفات الكمال له لا يتضمن التشبيه لا بالكاملين ولا بالناقصين وان نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بانقص الناقصين فانظر إلى الجهمية واتباعهم جاؤوا إلى التشبيه المذموم فاعرضوا عنه صفحاً وجاؤوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهاً وتمثيلاً عكس ما يثبته القرآن وجاء به من كل وجه ومن هذا قوله تعالى : (ولم يكن له كفواً أحد) هو سلب عن المخلوق مكافاته ومماثلته للخالق سبحانه ولم يقل ولم يكن هو كفوا لأحـــد فنفى عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافاته له إذا كان ذلك أبين واظهر من ان يحتاج إلى نفيـــه وسر ذلك أن المقصود ان المخلوق لا يماثله في شيء من صفاته وخصائصه .

وأما كونه هو سبحانه لا يماثله المخلوق ولا يشابهه ولا هو نداً له ولا كفواً فليس فيه مدح له فانه لو مدح بعض الملوك أوغيرهم بانه لا يشبه الحيوانات ولا الحجارة ولا الخشب ونحو ذلك لم يعد هذا مدحاً ولا ثناء عليـــه ولا كمالا له بخلاف ما إذا قيل لا تجعل للملك ندا ولا كفوا ولا شبها من رعيته تعظمه كتعظيمه وتطيعه كطاعته فانه ليس في رعيته من يساميه ولا يماثله ولا يكافيه كان هذا غاية المدح وكذلك قوله سبحانه : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) انما قصد به نفى ان يكون معه شريك او معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ولم يقصد نفي صفات كماله وعلوه على خلقه وتكلمه بكتبه وتكليمه لرسله ورؤية المؤمنين جهرة له بابصارهم كما ترى الشمس والقمر في الصحو فانه سبحانه انما ذكر هذا في سياق رده على المشركين الذين اتخذوا من دونه اولياء فقال تعالى والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم إلى قوله فاطر السموات والأرض جعل لكم من انفسكم ازواجاً ومن الانعام ازواجاً

يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فتأمل كيف ذكر هذا النفي تقريراً للتوحيد وابطالا لما عليه أهل الشرك من تشبيه الهتهم وأوليائهم به حتى عبدوهم معه فحرفها المحرفون وجعلوها ترساً لهم في نفي صفات كماله وحقائق اسمائه وصفاته وافعاله وهذا التشبيه الذي ابطله الله سبحانه نفياً ونهياً هو أصل شرك العالم وعبادة الاصنام ولهذا نهى النبي ﷺ ان يسجد احد لمخلوق مثله او يحلف بمخلوق او يصلي الى قبر او يتخذ عليه مسجداً او يعلق عليه قنديلا او يقول القائل ماشاء الله وشاء فلان ونحو ذلك حذرا من هذا التشبيه الذي هو اصل الشرك واما اثبات صفات الكمال فهو اصل التوحيد فتبين ان المشبه هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع له والحلف به والنذر له والسجود له والعكوف عند بيته وحلق الرأس له والاستغاثة به والتشريك بينه وبين الله في قولهم ليس لي إلا الله وانا وأنت متوكل على الله وعليك وهذا من الله ومنك وأنا في حسب الله وحسبك وما شاء الله وشئت وهذا لله ولك وامثال ذلك فهؤلاء هم المشبهة حقاً لا اهل التوحيد المثبتون لله ما اثبته لنفسه والنافون عنه ما نفاه عن نفسه الذين لا يجعلون له ندا من خلقه ولا عدلا ولا كفوا ولا سميا وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبين كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الاصنام وتبين له سر القرآن في الانكار على هؤلاء المشبهة الممثلة ولا سيما إذا جمعوا الى هذا التشبيه تعطيل الصفات والافعال كما هو الغالب عليهم فيجمعون بين تعطيل الرب عن صفات كماله وتشبيه خلقه به .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده وتلاعبه ما تلاعب بعباد النار حتى اتخذوها الهاً معبودة وقد قيل ان هذا كان من عهد قابيل كما ذكر ابو جعفر محمد بن جرير انه لما قتل قابيل هابيل وهرب من ابيه آدم أتاه إبليس فقال له ان هابيل انما قبل قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها فانصب انت ناراً تكون لك ولعقبك

فبنى بيت نار فهو اول من نصب النار وعبدها وسرى هذا المذهب في المجوس فبنوا لها بيوتاً كثيرة واتخذوا لها الوقوف والسدنة والحجاب فلا يدعونها تخمد لحظة واحدة الى ان قـــال وقد رمي بشار بن برد بهـــذا المذهب لقوله في قصيدته :

الأرض سافلة سوداء مظلمـــة والنار معبودة مذ كانت النار

ومن عبادتهم لها ان يحفروا لها اخدودا مربعا في الأرض ويطوفون به وهم اصناف مختلفة فمنهم من يحرم القاء النفوس فيهـــا واحراق الابدان بها وهم اكثر المجوس وطائفة أخرى منهم تبلغ بهم عبادتهم لها الى ان يقربوا انفسهم واولادهم لها وهؤلاء اكثر ملوك الهند واتباعهم ولهم سنة معروفة في تقريب نفوسهم والقائهم فيها فيعمد الرجل الذي يريد أن يفعل ذلك بنفسه أو بولده أو حبيبه فيجمله ويلبسه أحسن اللباس وافخر الحـــلى ويركب اغلا المراكب وحوله المعازف والطبول والبوقات فيزف إلى النـــار اعظم من زفافه ليلة عرسه حتى إذا قابلها ووقف عليها وهي تأجج طرح نفسه فيها فضج الحاضرون ضجة واحدة بالدعاء له وغبطته على ما فعل فلم يلبث إلا يسيراً حتى يأتيهم الشيطان في صورته وشكله وهيأته لا ينكرون منه شيئاً فيأمرهم بأمره ويوصيهم بما يوصيهم به ويوصيهم بالتمسك بهذا الدين ويخبرهم انه صار إلى جنة ورياض وانهار وانه لم يتألم بمس النار فلا يهولنهم ذلك ولا يمنعهم عن ان يفعلوا مثله ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النـــار صائمين عاكفين عليها ومن سنتهم الحث على الاخـــلاق الجميلة كالصدق والوفاء واداء الامانة والعفة والعدل وترك اضدادها ولهؤلاء شرائع في عبادتها ونواميس واوضاع لا يخلون بها .

﴿ فصل ﴾

ومن كيده وتلاعبه تلاعبه بطائفة اخرى تعبد الماء من دون الله وتسمى الجلبانية وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء وبه كل ولادة ونمو ونشوء وطهارة

وعبادة وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج إلى الماء كان حقه أن يعبد ومن شريعتهم في عبادته ان الرجل منهم إذا اراد عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل فيه حتى يصير إلى وسطه فيقيم هناك ساعتين او أكثر بقدر ما أمكنه ويكون معه ما يمكنه أخذه من الرياحين فيقطعها صغاراً فيلقيها فيه شيئاً فشيئاً وهو يسبحه ويمجده فإذا اراد الانصراف حرك الماء بيده ثم اخذ منه فيضعه على رأسه ووجهه وجسده ثم يسجد وينصرف .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعبه تلاعبه بعباد الحيوانات فطائفة عبدت الخيل وطائفة عبدت البقر وطائفة عبدت البشر الاحياء والاموات وطائفة تعبد الشجر وطائفة تعبد الجن كما قال سبحانه وتعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون) . وقال تعالى : (الم أعهد اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) الآية . وقال تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) . الى قوله : (ان ربك حكيم عليم) يعني قد استكثرتم من اغوائهم واضلالهم . قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أضللتم منهم كثيراً فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الانس بقولهم ربنا استمتع بعضنا ببعض يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر فاستمتاع الإنس بالجن انهم اعانوهم على معصية الله والشرك به بكل ما يقدرون عليه من التحسين والتزيين والدعاء وقضاء كثير من حوائجهم واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها فأطاعتهم الانس فيما يرضيهم من الشرك والفواحش والفجور واطاعتهم الجن فيما يرضيهم من التأثيرات والاخبار ببعض المغيبات فتمتع كل من الفريقين بالآخر وهذه الآية منطبقة على اصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشف شيطاني وتأثير شيطاني فيحسبهم الجاهل اولياء الرحمن وانما هم من اولياء الشيطان اطاعوه في الاشراك ومعصية الله والخروج عما بعث به رسله وانزل به كتبه فأطاعهم في

أن خدمهم باخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات واغتر بهم من قل حظه من العلم والايمان فوالى اعداء الله وعادى اولياءه وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته واساء الظن بمن اتبع سنة الرسول وماجاء به ولم يدعها لأقوال المختلقين وآراء المتحيرين وشطحات المارقين وترهات المتصوفين والبصير الذي نور الله بصيرته بالايمان والمعرفة إذا عرف حقيقة ما عليه اكثر هذا الخلق وكان ناقداً لا يروج عليه الزغل تبين له انهم داخلون تحت حكم هذه الآية وهي منطبقة عليهم فالفاسق يستمتع بالشيطان باعانته له على أسباب فسوقه ، والشيطان يستمتع به في قبوله منه وطاعته له ، فيسرّه ذلك ويفرح به منه ، والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به وعبادته له ، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه وإعانته له ، ومن لم يحط علماً بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك وسر امتحان الرب سبحانه كلا من الفريقين بالآخر . ثم قالوا : (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) وهو يتناول أجل الموت وأجل البعث وكلاهما أجل أجله الله لعباده ، وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما : (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) . وكأن هذا ، والله أعلم ، إشارة منهم إلى نوع استعطاف وتوبة ، فكأنهم يقولون : هذا امر قد كان إلى وقت وانقطع بانقطاع أجله فلم يستمر ولم يدم فبلغ الأمر الذي كان أجله وانتهى إلى غايته ، ولكل شيء آخر ، فقال تعالى : (النار مثواكم خالدين فيها) فإنه وإن انقطع زمن التمتع وانقضى أجله فقد بقي زمن العقوبة فلا يتوهم انه إذا انقضى زمن الكفر والشرك وتمتع بعضكم ببعض ان مفسدته زالت بزواله وانتهت بانتهائه ، والمقصود ان الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبدوه واتخذوه وذريته أولياء من دون الله .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعبه بهم انه زين لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم بزعمهم ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم ولكن كانت للشياطين ، فعبدوا أقبح خلق الله وأحقهم

باللعن والذم قال تعالى: (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالواسبحانك انك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون). وقال تعالى: (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم اضللتم عبادي هؤلاء ام هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من أولياء). الى قوله (عذاباً كبيرا) وهذه الآيات تحتاج الى تفسير وبيان فقوله سبحانه ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله عام في كل عابد ومن عبده من دون الله وأما قوله أأنتم اضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل فقال مجاهد فيما رواه ورقاء عن ابن ابي نجيح عنه قال هذا خطاب لعيسى وعزير والملائكة وروى عنه ابن جريج نحوه واما عكرمة والضحاك والكلبي فقالوا هو عام في الاوثان وعبدتها ثم يأذن سبحانه لها في الكلام فيقول أأنتم اضللتم عبادي هؤلاء قال مقاتل يقول سبحانه انتم أمرتموهم بعبادتكم أم هم ضلوا السبيل أي ام هم أخطؤوا الطريق فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء وهذا الجواب انما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير ومن عبدهم المشركون من أولياء الله ولهذا قال ابن جرير يقول تعالى قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء نواليهم بل انت ولينا من دونهم وقال ابن عباس ومقاتل نزهوا الله وعظموه ان يكون معه إله وفيها قراءتان أشهرهما نتخذ بفتح النون وكسر الخاء على البناء للفاعل وهي قراءة السبعة والثانية تتخذ بضم النون وفتح الخاء على البناء للمفعول وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع وعلى كل واحدة من القراءتين اشكال فاما قراءة الجمهور فان الله سبحانه انما سألهم هل اضلوا المشركين بامرهم اياهم بعبادتهم أم هم ضلوا باختيارهم واهوائهم وكيف يكون هذا الجواب مطابقاً للسؤال فإنه لم يسألهم هل اتخذتم من دوني اولياء وإنما سألهم هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك ام هم اشركوا من قبل انفسهم، فالجواب المطابق ان يقولوا لم نأمرهم بالشرك فإنما هم آثروه وارتضوه

ولم نأمر بعبادتنا كما قال في الآية الأخرى : (تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون) فلما رأى اصحاب القراءة الآخرى ذلك فروا إلى بنـــاء الفعل للمفعول وقالوا الجواب يصح على ذلك ويطابق إذ المعنى ليس يصلح لنـا ان نعبد ونتخذ آلهة فكيف نأمرهم بمالا يصلح لنا ولا يحسن منا ولكن لزم هؤلاء من الاشكال أمر آخر وهو قوله من اولياء فإن زيادة من لا تحسن إلا مع قصد العموم كما تقول ما قام من رجل وما ضربت من رجل فإما إذا كان النفي وارداً على مخصوص فإنه لا يحسن زيادة من فيه وهم إنما نفوا عن انفسهم مـــا نسب اليهم من دعوى المشركين انهم امروهم بالشرك فنفوا عن انفسهم ذلك بانه لا يحسن منهم ولا يليق بهم ان يعبدوا فكيف ندعو عبادك إلى ان يعبدونا فكان الجواب على هذا ان يقرأ ما كان ينبغي لنا ان نتخذ اولياء من دونك أو من دونك اولياء فاجاب اصحاب القراءة الأولى بوجوه احدها ان المعنى ما كان ينبغي لنا ان نعبد غيرك ونتخذ غيرك فكيف ندعو احداً إلى عبادتنا أي إذا كنا نحن لا نعبد غيرك فكيف ندعو احداً إلى أن يعبدنا والمعنى انهم إذا كانوا لا يرضون لانفسهم عبادة غير الله فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم وهذا جواب الفراء وقال الجرجاني: هذا بالتدريج يصير جواباً للسؤال الظاهر وهو ان من عبد شيئاً فقد تولاه وإذا تولاه العابد صار المعبود ولياً للعابد يدل على هذا قوله تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم) فدل على ان العابد يصير ولياً للمعبود ويصير المعنى كأنهم قالوا ما كان ينبغي لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا اولياء وان نتخذ من دونك وليـــاً يعبدنا وهذا بسط لقول ابن عباس في هذه الآية قال : يقولون ما توليناهم ولا احببنـــا عبادتهم قال ويحتمل ان يكون قولهم ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك اولياء ولكنهم اضافوا ذلك إلى انفسهم تواضعاً منهم كما يقول الرجل لمن اتى منكراً ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا ، أي أنت مثلي عبد محاسب فاذا لم يحسن

من مثلي أن يعمل هذا لم يحسن منك أيضاً ، قال : ولهـذا الإشكال قرأ من قرأ نتخذ بضم النون ، وهذه القراءة أقرب إلى التأويل ، لكن قال الزجاج: هذه القراءة خطأ لأنك تقول: ما اتخذت من أحد ولياً ولا يجوز ما اتخذت أحدا من ولي، لأن من انما دخلت لأنها تنفي واحداً من معنى جميع ، تقول : ما من أحد قائماً وما من رجل محباً لما يضره ، ولا يجوز ما رجل من محب لما يضره. قال: ولا وجه لهذا عندنا البتة ولو جاز هذا لجاز في (ما من أحد عنه حاجزين) ما أحد عنه من حاجزين فلو لم تدخل من لصحت هـذه القراءة قال صاحب النظم : العلة في سقوط هذه القراءة ان من لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه ، فاذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول من كقوله : (مـا كان لله أن يتخذ من ولد) فقوله : من ولد ، لا مفعول دونـه سواه ، ولو قال : ما كان لله أن يتخذ أحداً من ولد لم يحسن فيه دخول (مِنْ)لأن فعل الاتخاذ مشغول بـأحد ، وصحح آخرون هذه القراءة لفظاً ومعنى وأجروها على قواعد العربية ، قالوا : وقد قرأ بها من لا يرتاب في فصاحته فقرأ بها زيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو جعفر ومجاهـد ونصر بن علقمة ومكحول وزيد بن علي وأبو رجاء والحسن وحفص بن حميد ومحمد بن علي على خلاف هؤلاء ذكر ذلك ابو الفتح ابن جنى ثم وجهها بان يكون من اولياء في موضع الحال أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك اولياء ودخلت من زائدة لمكان النفي كقولك اتخذت زيداً وكيلاً فإذا نفيت قلت ما اتخذت زيداً من وكيل وكذلك اعطيته درهماً وما اعطيته من درهم وهذا في المفعول فيه. قلت يعني ان زيادتها مع الحال كزيادتها مع المفعول ونظير ذلك ان تقول: ما ينبغي أن اخدمك متثاقلا فإذا أكدت قلت من متثاقل فإن قيل قد صحت القراءتان لفظاً ومعنى فأيهما أحسن؟ قلت قراءة الجمهور أحسن وابلغ في المعنى المقصود والبراءة مما لا يليق بهم فانهم على قراءة الضم يكونون قد نفـوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء وعلى قراءة الجمهور يكونون قد أخبروا انه لا يليق بهم ولا

يحسن منهم أن يتخذوا أولياء من دونه بل أنت ولينا ومعبودنا فاذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئاً فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك الى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجل من الأول وأكبر فتأمله والمقصود انه على القراءتين فهذا الجواب من الملائكة ومن عبد من دون الله من اوليائه وأمـــا كونه من الأصنام فليس بظاهر وقد يقال: إن الله سبحانه انطقها بذلك تكذيباً لهم وردا عليهم وبراءة منهم لقوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا) في الآية الأخرى (تبرأنا اليك ما كانوا إيانا يعبدون) ثم ذكر المعبودون سببية ترك العابدين الايمان بالله بقولهم (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا) قال ابن عباس اطلت لهم العمر وأفضلت عليهم ووسعت لهم في الرزق وقال الفراء: ولكنك متعتهم بالاموال والاولاد حتى نسوا ذكرك وكانوا قوماً بورا أي هَلكَى فاسدين قد غلب عليهم الشقاء والخذلان والبوار الهـــلاك والفساد . يقال بارت السلعة وبارت المرأة إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها. قال قتادة : والله ما نسى قوم ذكر الله إلا باروا وفسدوا والمعنى ما اضللناهم ولكنهم ضلوا . قال الله سبحانه : (فقد كذبوكم بما تقولون) أي كذبكم المعبودون بقولكم انهم أمروكم بعبادتهم ودعوكم اليها وقيل الخطاب للمؤمنين في الدنيا أي فقد كذبكم ايها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولون مما جاء به محمد عن الله من التوحيد والايمان. والأول اظهر وعليه يدل السياق ومن قرأها بالياء اخر الحروف فالمعنى قد كذبوكم بقولهم ثم قال (فما تستطيعون صرفا ولا نصراً) إخباراً عن حالهم يؤمئذ وانهم لا يستطيعون صرف العذاب عن انفسهم ولا نصرها من الله . قال ابن زيد: ينادي مناد من الله يوم القيامة حين يجمع الخلائق ما لكم لا تناصرون ؟ قال من عبد من دون الله لا ينصر اليوم من عبده والعابد لا ينصر إلهه بل هم اليوم مستسلمون فهذه حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن فوا سوء حالهم حين امتيازهم على المؤمنين إذا سمعوا النداء: (وامتازوا اليوم ايها المجرمون ألم اعهد اليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) . الآيتين .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعبه وكيده تلاعبه بالثنوية وهم طائفة قالوا : الصانع اثنان فاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قوتين حساستين مدركتين سميعين بصيرين وهما مختلفان في النفس والصورة متضادان في الفعل والتدبير فالنور فاضل حسن نقي طيب الريح حسن النظر ونفسه خيرة كريمة نفاعة منها الخيرات والمسرات والصلاح وليس فيها شيء من الضرر ولا من الشر. والظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص ونتن الريح وقبح المنظر ونفسها نفس شريرة بخيلة سفيهة نتنة مضرة منها الشر والفساد إلى ان قال: والمقصود ان الصابئة فرق فصابئة حنفاء وصابئة مشركون وصابئة فلاسفة وصابئة يأخذون محاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقيد بملة ولا نحلة ثم قال المشركون منهم: لا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلاله إلا بالوسائط فالواجب علينا أن نتقرب اليه بتوسطات الروحانية القريبة منه وهم الروحانيون المقربون المقدسون عن المواد الجسمانية وعن القوى الجسدانية بل قد جبلوا على الطهارة فنحن نتقرب اليهم فنتقرب بهم اليه فهم اربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند رب الارباب وإله الآلهة فما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشهوات الطبيعية ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الغضبية حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات وتتصل أرواحنا بهم فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم ونصبو في أمورنا اليهم فيشفعون إلى إلهنا وإلههم ، وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا باستمداد من جهة الروحانيات ، وذلك بالتضرع والابتهال بالدعوات من الصلوات والزكوات وذبح القرابين والبخورات والعزائم ، فحينئذ يحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل بل نأخذ من المعدن الذي أخذت منه الرسل فيكون حكمنا وحكمهم واحداً ونحن وإياهم بمنزلة واحدة . قالوا : والأنبياء أمثالنا في النوع وشركاؤنا في المادة وأشكالنا في الصورة ، يأكلون مما نأكل

ويشربون مما نشرب ، وما هم إلا بشر مثلنا يريدون أن يتفضلوا علينـــا .
وزادت الاتحادية أتباع ابن عربي وابن سبعين والعفيف التلمساني وأضرابهم على هؤلاء بما قاله شيخ الطائفة محمد بن عربي ان الولي أعلا درجة من الرسول لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي إلى الرسل فهـو أعلى منه بدرجتين ، فجعل هؤلاء الملاحدة أنفسهم وشيوخهم أعلا في التلقي من الرسل بدرجتين واخوانهم من المشركين جعلوا أنفسهم في التلقي بمـنزلة الأنبياء ولم يدعوا انهم فوقهم . والمقصود ان هـــؤلاء كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، أحدهما : عبادة الله وحده لا شريك له والكفر بما يعبد من دونه من إله . والثـــاني : الإيمان برسله وما جاؤوا به من عند الله تصديقاً وإقراراً وانقياداً وامتثالاً ، وليس هذا مختصاً بمشركي الصابئة كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم ، لكن شرك الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه في بطلان آلهتهم بما حكاه الله سبحانه في سورة الأنعام أحسن مناظرة وأبينها ظهرت فيها حجته ودحضت حجتهم ، فقال بعد أن بيّن بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها وان الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل بل لا يكون إلا شاهداً غير غائب كما لا يكون إلا غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور نافعاً لعابده ، الضر والنفـع بيده ، فيسمع كلامه ويرى مكانه ويهـــديه ، ويرشده ويدفع عنه ما يضره ويؤذيه ، وذلك ليس إلا لله وحده فكل معبود سواه باطل ، فلما رأى إمام الحنفاء ان الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة صعد منها الى فاطرها وخالقها ومبدئها فقال :(اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) . وفي ذلك إشارة إلى انه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة اليها ولا قوام لها إلا بها ، فهي محتاجة إلى محل تقوم فيه وفاطر يخلقها ويدبرهـا ويربها والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلهاً ، فحاجه قومـــه في الله

ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة ، فقال ابراهيم :(أتحـــاجوني في الله وقد هدان) ؟ وهذا من أحسن الكلام ، أي : أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده وعن عبادته وحده ، وتشككوني فيه وقـــد أرشدني وبيّن لي الحق حتى استبان لي كالعيان ، وبيّن لي بطلان الشرك وسوء عاقبته ، وان آلهتكم لا تصلح للعبادة ، وان عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة ، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده الى الشرك به وقد هداني الى الحق وسبل الرشاد فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل الى الحق ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغيّ إلى الإبصار ، ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل متضمن خلاف ذلـــك ، فخوفوه بالذي لن يصيبه بسوء كما يخوف المشرك الموحد بإلهـه الذي يألهه مع الله أن يناله بسوء فقال الخليل :(ولا أخاف ما تشركون به)فان الحكم لا يخاف ولا يرجى ثم قال(إلا أن يشاء ربي شيئاً)وهذا استثناء منقطع والمعنى لا أخاف آلهتكم فانها لا مشيئة لها ولا قدرة لكن ان شاء ربي شيئاً تأتي وأصابني لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئاً وربي له المشيئة النافذة وقد وسع كل شيء علماً فمن أولى بان يخاف ويعبد هو سبحانه ام هي ثم قال:(افلا تتذكرون) فتعلمون ما انتم عليه من اشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئا ممن له المشيئة التامة والعلم التام . ثم قال:(وكيف أخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً) وهذا من احسن قلب الحجة وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله وبطلان مذهبه فانهم خوفوه بالهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطاناً بعبادتها وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى(فأي الفريقين أحق بالامن) وأولى بان يلحقه الخوف فريق الموحدين أم فريق المشركين فحكم سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذي لا حكم أصح منه فقال:(الذين امنوا

ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) أي بشرك (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة وقالوا يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه فقال «انما هو الشرك ألم تسمعوا قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم» فحكم سبحانه للموحدين بالامن والهدى وللمشركين بضد ذلك وهو الضلال والخوف ثم قال : (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم) قال ابو محمد بن حزم: وكان الذي ينتحله الصابئون أقدم الاديان على الأرض والغالب على الدنيا إلى أن احدثوا الحوادث وبدلوا شرائعه فبعث الله اليهم خليله بدين الإسلام الذي نحن عليه اليوم وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السمحة التي اتانا بها محمد رسول الله ﷺ من عند الله تعالى وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون الحنفاء . قلت : هم قسمان صابئة مشركون وصابئة حنفاء وبينهم مناظرات وقد حكي الشهرستاني بعض مناظراتهم في كتابه .

﴿ فصل ﴾

في ذكر تلاعبه بالدهرية وهؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا ما حكاه الله سبحانه عنهم فقالوا (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . وهؤلاء فرقتان فرقة قالت : إن الخالق سبحانه لما خلق الافلاك متحركة اعظم حركة دارت عليه فاحرقته ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها وفرقة قالت ان الأشياء ليس لها أول البتة وانما تخرج من القوة إلى الفعل فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل فكونت الاشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء اخر وقالوا : إن العالم لم يزل ولا يزال لا يتغير ولا يضمحل ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلا يبطل ويضمحل إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله وهذا العالم هو الممسك لهذه الاجزاء التي فيه وهؤلاء هم المعطلة حقاً وهم فحول المعطلة وقد سرى هذا التعطيل إلى ساير فرق المعطلة على اختلاف ارائهم وتباينهم في التعطيل كما سرى داء الشرك تأصيلا وتفصيلا في سائر فرق المشركين على اختلاف مذاهبهم فيه إلى ان قال :—

والفيلسوف اصله فيلا سوفاً أي محب الحـــكمة ففيلا هو المحب وسوفا هي الحكمة والحكمة نوعان قولية وفعليةفالقولية قول الحق والفعلية فعل الصواب وكل طائفة من الطوائف لهم حكمة يتقيدون بها واصح الطوائف حكمة من كانت حكمتهم اقرب إلى حكمة الرسل التي جاؤوا بها عن الله قال تعالى عن نبيه داود : (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وقال عن المسيح (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) وقال عن يحيى: (وآتيناه الحكم صبياً) والحكم هو الحكمة وقال رسوله محمد ﷺ (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) . وقال : (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) . وقال لأهـــل بيت رسوله : (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) ، فالحكمة التي جاءت بها الرسل هي الحكمة الحق المتضمنة للعلم النافع والعمل الصالح للهدى ودين الحق لإصابة الحق اعتقاداً وقولاً وعملاً ، وهذه الحكمة فرقها الله بين أنبيائه ورسله وجمعها لمحمد ﷺ كما جمع له من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله ،وجمع في كتابه من العلوم والأعمال ما فرقه في الكتب قبله ، فلو جمعت كل حكمة صحيحة في العالم من كل طائفة لكانت في الحكمة التي أوتيهـــا صلوات الله وسلامه عليه جزءاً يسيراً جداً لا يدرك البشر نسبته . والمقصود ان الفلاسفة اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها ، وقد صارت اسم الفلسفـــة في عرف المتأخرين اسماً لأتباع أرسطو وهم المشاؤون خاصة وهم الذين هذب ابن سينا طريقتهم وبسطها وقررها ، وهي التي يعرفها بل لا يعرف سواها المتأخرون من المتكلمين ، وهؤلاء فرقة شاذة من فرق الفلاسفـــة ومقالتهم واحدة من مقالات القوم حتى قيل انه ليس منهم من يقول بقدم الأفـــلاك غير ارسطو وشيعته ، فهو أول من عرف انه قال بقدم هذا العالم ، والأساطين قبله كانوا يقولون بحدوثه وإثبات الصانع ومباينته للعالم وانه فوق السموات بـذاته كما حكاه أعلم الناس في زمانه أبو الوليد ابن رشد في كتابه « مناهج الأدلة »فقال فيه القول بالجهة وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعـــة من أول الأمر

يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متـــأخرو الأشعرية كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله ، إلى أن قال : والشرائع كلها مبنية على ان الله في السماء وأن منه تتنزل الملائكة بالوحي الى النبيين وان من السماء نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدرة المنتهى .وجميع الحكماء قد اتفقوا على ان الله والملائكة في السماء كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك . ثم ذكر تقرير ذلـــك بالمعقول وبيّن بطلان الشبهة التي لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم الى أن قال : فقد ظهر لـــك من هذا ان إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل وانه الذي جاء به الشرع وأثنى عليه وان إبطال هذه القاعدة إبطال للشرائع ، فقد حكى لك هذا المطلع على مقالات القوم الذي هو أعرف بالفلسفة من ابن سيناء وأضرابه اجماع الحكماء على ان الله سبحانه في السماء فوق العالم ، والمطففون في حكايات مقالات الناس لا يحكون ذلك إما جهلاً وإما عمداً،وأكثر من رأيناه يحكي مذاهبهم ومقالات الناس يطففون (؟) وكذلك الأساطين منهم متفقون على إثبات الصفات والأفعال وحدوث العالم وقيام الأفعال الاختيارية بذاته سبحانه كما ذكره فيلسوف الإسلام في وقته أبو البركات البغدادي وقرره غاية التقرير وقال:لا يستقيم كون الرب سبحانه رب العالمين إلا بذلك وان نفي هذه المسألة ينفي ربوبيته قال : والإجلال من هذا الإجلال والتنزيه من هذا التنزيه أولى إلى أن قال وقد حكى أرباب المقالات ان أول من عرف عنه القول بقدم العالم ارسطو وكان مشركا يعبد الأصنام وله في الإلهيات كلام كله خطأ من أوله إلى آخره قد تعقبه بالرد عليه طوائف المسلمين حتى الجهمية والمعتزلة والقدرية والرافضة وفلاسفة الإسلام أنكروه عليه وجاء فيه بما يسخر منه العقلاء،أنكر أن يكون الله سبحانه يعلم شيئاً من الموجودات وقرر ذلك بأنه لو علم شيئاً لكمل بمعلوماته ولم يكن كاملاً في نفسه وبأنه كان يلحقه التعب والكلل من قصور المعلومات ، فهـــذا غاية عقل هذا المعلم والأستاذ . وقد حكى ذلك أبو البركات وبالغ في إبطال هذه الحجج وردها .

وأتباعه يعظمونه فوق ما يعظم به الأنبياء ويرون عرض مـــا جاءت به الأنبياء على كلامه فما وافقه منهـــا قبلوه وما خالفه لم يعبؤا به شيئاً ويسمونه المعـــلم الأول لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية وزعم أن المنطق ميزان المعاني كما ان العروض ميزان الشعر وقد بين نظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه وتعويجـــه للعقول وتخبيطه للاذهان وصنفوا في رده وتهـــافته كثيراً وآخر من صنف في ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية الف في رده وابطاله كتابين كبيراً وصغيراً بين فيه تناقضه وتهافته وفساد كثير من اوضاعه ورأيت فيه تصنيفاً لأبي سعيد السيرافي والمقصود ان الملاحدة درجت على أثر هذا المعلم الاول حتى انتهت نوبتهم إلى معلمهم ابي نصر الفارابي فوضع لهم التعاليم الصوتية كما أن المعلم الأول وضع لهم التعاليم الحرفية ثم وسع الفارابي الكلام في صناعة المنطق وبسطها وشرح فلسفة ارسطو وهذبها وبالغ في ذلك وكان على طريقة سلفه من الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فكل فيلسوف لا يكون عند هؤلاء كذلك فليس بفيلسوف في الحقيقة وإذا رأوه مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر متقيداً بشريعة الاسلام نسبوه إلى الجهل والغباوة فإن كان ممن لا يشكون في فضيلته ومعرفته نسبوه إلى التلبيس والتنميس بناموس الدين استمالة لقـــلوب العوام فالزندقة والالحاد عند هؤلاء جزء مسمى الفضيلة أو شرط ، ولعل الجاهل يقول: انا نحاملنا عليهم في نسبة الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله اليهم وليس هذا من جهله بمقالات القوم وجهله بحقائق الاسلام ببعيد . فاعلم ان الله سبحانه وتعالى عما يقولون عندهم كما قرره أفضل متأخريهم ولسانهم وقدوتهم الذي يقدمونه على الرسل أبو علي بن سينا هو الوجود المطلق بشرط الاطلاق وليس له عنده صفة ثبوتية تقوم به ولا يفعل شيئاً باختياره البتة ولا يعلم شيئاً من الموجودات اصلاً لا يعلم عدد الافلاك ولا شيئاً من المغيبات ولا له كلام يقوم به ولا صفة ومعلوم ان هـــذا انما هو خيال مقدر في الذهن لا حقيقة له وإنما غايته ان يفرضه الذهن ويقدره كما تفرض الاشياء المقدرة وهذا ليس هو

الرب الذي دعت اليه الرسل وعرفته الأمم بل بين هذا الرب الذي دعت اليه الملاحدة وجردته عن الماهية وعن كل صفة ثبوتية وكل فعل اختياري وانه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا مباين له ولا فوقه ولا تحته ولا امامه ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن شماله وبين رب العالمين وإله المرسلين من الفرق ما بين الوجود والعدم والنفي والاثبات فأي موجود فرض كان أكمل من هذا الإله الذي دعت اليه الملاحدة ونحتته افكارهم بل منحوت الايدي من الاصنام له وجود وهذا الرب ليس له وجود ويستحيل وجوده إلا في الذهن هذا وقول هؤلاء الملاحدة أصلح من قول معلمهم الأول ارسطو فإن هؤلاء اثبتوا وجوداً واجبا ووجوداً ممكناً هو معلول له وصادر عنه صدور المعلول عن العلة واما أرسطو فلم يثبته إلا من جهة كونه مبدأ عقلياً للكثرة وعلة غائية لحركة الفلك فقط وصرح بانه لا يعقل شيئاً ولا يفعل باختياره وأما هذا الذي يوجد في كتب المتأخرين من حكاية مذهبه فانما هو من وضع ابن سينا فإنه قرب مذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهده وغاية ما أمكنه ان قربه من أقوال الجهمية الغالين في التجهم ثم أكد تكذيبهم بحقيقة الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر إلى ان قال: والفلاسفة لا تختص بامة من الأمم بل هم موجودون في سائر الأمم وان كان المعروف عند الناس الذين اعتنوا بحكاية مقالاتهم هم فلاسفة اليونان فهو طائفة من طوائف الفلاسفة وهؤلاء امة من الأمم لهم مملكة وملوك وعلماؤهم فلاسفتهم ومن ملوكهم الاسكندر المقدوني هو ابن فيلبس وليس بالاسكندر ذي القرنين الذي قص الله نبأه في القرآن بل بينهما قرون كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين فذو القرنين كان رجلا صالحاً موحداً لله مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكان يغزو عباد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها وبنى السد بين الناس وبين يأجوج وماجوج وأما هذا المقدوني فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته وكان بينه وبين المسيح نحو الف وستمائة سنة والنصارى تؤرخ له وكان ارسطاطاليس

وزيره مشركاً يعبدالاصنام وهو الذي غزا دارا بن دارا ملك الفرس في عقر داره فثلّ عرشه ومزق ملكه وفرق جمعه ثم دخل إلى الصين والهند وبلاد الترك فقتل وسبى وكان لليونانيين في دولته عز وسطوة بسبب وزيره ارسطو فإنه كان وزيره ومشيره ومدبر مملكته وكان بعـــده لليونان عدة ملوك يعرفون بالبطالسة واحدهم بطليموس كما أن كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم فصاروا رعية لهم وانقرض ملكهم فصارت المملكة للروم وصارت المملكة واحدة وهم على شركهم من عبادة الأصنام وهو دينهم الظاهر ودين اباءهم فنشأ فيهم سقراط احد تلامذة فيثاغورس وكان من عبادهم ومتألهيهم وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها فثار عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله فاودعه السجن ليكفهم عنه ثم لم يرض المشركون إلا بقتله فسقاه السم فرقا من شرهم بعد مناظرات طويلة جرت له معهم ومذهبه في الصفات قريب من مذهب أهل الإثبات فقال انه إله كل شيء وخالقه ومقدره وهـــو عزيز أي منيع ممتنع ان يضام وحكيم أي محكم افعاله على النظام وقال: إن علمه وقـــدرته ووجوده وحكمته بلا نهاية لا تبلغ العقول ان تصفها ثم ذكر جملة من كلامه ثم قال وبالجملة فهو اقرب القوم الى تصديق الرسل ولهذا قتله قومه وكان يقول إذا أقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول وإذا ادبرت خـــدمت العقول الشهوات وقال: لا تكرهوا اولادكم على آثاركم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم وقال ينبغي ان يغتم بالحياة ويفرح بالموت لأن الانسان يحيى ليموت ثم يموت ليحيى وقال: قلوب المعرفين في المعرفة بالحقائق منابر الملائكة وقلوب الموثرين للشهوات مقاعد للشياطين وقال للحياة حدان احدهما الامل والاخر الأجل فبالأول بقاؤها وبالاخر فناؤها وكذلك افلاطون كان معروفاً بالتوحيد وانكار عبادة الاصنام واثبات حدوث العالم وكان تلميذ سقراط ولما هلك سقراط قام مقامه وجلس على كرسيه وكان يقول: ان للعالم صانعاً محدثاً مبدعاً ازليـــاً

واجباً بذاته عالما بجميع المعلومات قال وليس في الوجود رسم ولا طلل إلا ومثاله عند الباري تعالى يشير إلى وجود صور المعلومات في علمه فهو مثبت للصفات وحدوث العالم ومنكر لعبادة الاصنام ولكن لم يواجه قومه بالرد عليهم وعيب آلهتهم فسكتوا عنه وكانوا يعرفون له فضله وعلمه وصرح افلاطون بحدوث العالم كما كان عليه الاساطين حكى ذلك عنه تلميذه ارسطو فخالفه فيه فزعم انه قديم وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة من المنتسبين إلى الملل وغيرهم حتى انتهت النوبة إلى علي بن سينا فرام بجهده تقريب هذا الرأي من قول اهل الملل وهيهات اتفاق النقيضين واجتماع الضدين الى ان قال ولما انتهت النوبة الى نصير الشرك والكفر الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو شفا نفسه من اتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفا اخوانه من الملاحدة واشتفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة ونقل اوقاف المدارس والمساجد والربط اليهم وجعلهم خاصته واولياءه ونصر في كتبه قدم العالم وبطلان المعاد وانكار صفات الرب سبحانه من علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وانه لا داخل العالم ولا خارجه وليس فوق العرش إله يعبد البتة واتخذ الملاحدة مدارس ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن فلم يقدر على ذلك فقال : هي قرآن الخواص وذاك قرآن العوام ورام تغيير الصلاة وجعلها صلاتين فلم يتم له الأمر وتعلم السحر في آخر الأمر فكان ساحراً يعبد الاصنام وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه المصارعة أبطل فيه قوله بقدم العالم وانكار المعاد ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه للعالم فقام له نصير الالحاد وقعد ونقضه بكتاب سماه مصارعة التصارع ووقفنا على الكتابين نصر فيه أن الله لم يخلق السموات والأرض في ستة أيام وانه لا يعلم شيئاً وانه لا يفعل شيئاً بقدرته واختياره ولا يبعث من في القبور وبالجملة فكان هذا الملحد هو واتباعه من الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر والفلسفة التي يقرؤها اتباع هؤلاء اليوم هي مأخوذة عنه وعن امامه ابن سينا وبعضها عن أبي نصر الفارابي وشيء يسير منها من كلام ارسطو وهو مع قلته وغباوته وركاكة الفاظه كثير التطويل بلا فائدة فيه وخيار ما عند هؤلاء فالذي عند مشركي العرب من كفار قريش وغيرهم خير منه فانهم يدأبون حتى يثبتوا واجب الوجود ومع اثباتهم له فهو عندهم وجود مطلق لا صفة له ولا فعل يقوم به لم يخلق السموات والارض بعد عدمها ولا له قدرة على فعل ولا يعلم شيئاً وعباد الاصنام كانوا يثبتون رباً خالقاً مبدعاً عالما قادراً حيـــاً ويشركون به في العبادة فنهاية هؤلاء الوصول إلى شيء برز عليهم فيه عباد الاصنام وهم فرق شتى لا يحصيهم إلا الله وأحصى المعتنون بمقالات الناس منهم اثنتي عشر فرقة كل فرقة منها مختلفة اختلافـاً كثيراً فمنهم أصحاب الرواق واصحاب المظلة والمشاؤن وهم شيعة ارسطو وفلسفتهم هي الدائرة بين الناس اليوم وهي التي يحكيها ابن سينا والفارابي وابن الخطيب وغيرهم ومنهم الفيثاغورية والافلاطونية ولا تكاد تجد اثنين متفقين على رأي واحد بل قد تلاعب بهم الشيطان كتلاعب الصبيان بالكرة ومقالاتهم أكثر من ان نذكرها على التفصيل إلى أن قال : ثم استمر العهد على عهد نبوة موسى كليم الرحمن على التوحيد واثبات الصفات وتكليم الله لعبده موسى تكليما إلى أن توفي موسى ودخـــل الداخل على بني اسرائيل ورفع التعطيل رأسه بينهم وأقبلوا على علوم المعطلة اعداء موسى وقدموها على نصوص التوراة فسلط الله عليهم من أزال ملكهم وشردهم من اوطانهم وسبى ذراريهم كما هي عادته سبحانه وسنته في عباده إذا اعرضوا عن الوحي وتعوضوا عنه بكلام الملاحدة والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم كما سلط النصارى على بلاد الغرب لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق واشتغلوا بها فاستولت النصارى على أكثر بلادهم وصاروا هم رعيـــة لهم وكذلك لما ظهر ذلك ببلاد المشرق سلط عليهم عساكر التتار فأبادوا أكثر البلاد الشرقية واستولوا عليها وكذلك في أواخر المائة الثالثة واول الرابعة

لما اشتغل اهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الالحـــاد سلط عليهم القرامطة الباطنية فكسروا عسكرالخليفة عدةمرات واستولوا على الحاج واستعرضوهم قتلا واسرا واشتدت شوكتهم واتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الاعيان من الوزراء والكتاب والادباء وغيرهم واستولى اهـــل دعوتهم على بلاد العرب واستقرت دار مملكتهم بمصر وبنيت في ايامهم القاهرة واستولوا على الشام والحجاز واليمن والغرب وخطب لهم على منبر بغداد . والمقصود أن هـــذا الداء لما دخل في بني اسرائيل كان سبب دمارهم وزوال مملكتهم ثم بعث الله عبده ورسوله وكلمته المسيح بن مريم فجدد لهم الدين وبين لهم معالمه ودعاهم إلى عبادة الله وحده والتبري من تلك الاحداث والآراء البـــاطلة فعادوه وكذبوه ورموه وأمه بالعظائم ورامواقتله وطهره الله منهم ورفعه اليه فـلم يصلوا اليه بسوء وأقام الله للمسيح انصاراً دعوا إلى دينه وشريعته حتى ظهر دينه على ما خالفه ودخل فيه الملوك وانتشرت دعوته واستقام الأمر على السداد بعده نحو ثلاثمائة سنة ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحل ولم يبق بايدي النصارى منه شيء بل ركبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عبـــاد الاصنام وراموابذلك ان يتلطفوا للامم حتى يدخلوهم في النصرانية فنقلوهم من عبادة الاصنام المجسدة إلى الصور التي لاظل لها ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والإبن والروح القدس هذا ومعهم بقايا من دين المسيح كالختان والاغتسال وتعظيم البيت وتحريم الخنزير وأحلوا السبت وعوضوا منه يوم الأحد وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة وكان المسيح يصلي إلى بيت المقدس فصلوا هم إلى المشرق ولم يعظم المسيح صليباً قط فعظموا هم الصليب وعبدوه ولم يصم المسيح صومهم هذا أبداً ولا شرعه ولا أمر به البتة بل هم وضعوه على هذا العدد ونقلوه إلى زمن الربيع فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عوضاً عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور

الرومية وتعبدوا بالنجاسات وكان المسيح في غاية الطهارة والطيب والنظافة وأبعد الخلق عن النجاسة فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم ولما اخذ دين المسيح في التغيير والفساد اجتمعت النصارى عدة مجامع تزيد على ثمانين مجمعاً ثم يتفرقون على الاختلاف والتلاعن يلعن بعضهم بعضاً حتى قال فيهم بعض العقلاء: لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون في حقيقة ما هم عليه لتفرقوا على أحد عشر مذهباً حتى جمعهم قسطنطين الملك آخر ذلك من الجزائر والبلاد وسائر الاقطار فجمع كل بترك واسقف وعالم فكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر فقال: أنتم اليوم علماء النصرانية وأكابر النصارى فاتفقوا على أمر تجتمع عليه كلمة النصرانية ومن خالفه لعنتموه وحرمتموه فقاموا وقعدوا وفكروا وقدروا واتفقوا على وضع الامانة التي بايديهم اليوم وكان ذلك بمدينة نيقية سنة خمس عشرة من ملك قسطنطين إلى أن قال ودفعوا اليه الامانة التي اتفقوا على وضعها فلا يكون عندهم نصراني من لم يقربها ولا يتم له قربان إلا بها وهي هذه: نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء صانع ما يرى وما لا يرى وبالرب الواحد اليسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها الذي ولد من ابيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع إله حق من إله حق من جوهر ابيه الذي بيده اتقنت العوالم وخلق كل شيء الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار انساناً وحمل به ثم ولد من مريم البتول وألمَ وشج وقتل وصلب ودفن وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين ابيه وهو مستعد للمجيء تارة اخرى للقضاء بين الاموات والاحياء ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من ابيه روح محبته وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة واحدة قدسية جاثليقية وبقيامة ابداننا والحياة الدائمة إلى الآبدين. فهذا العقد الذي اجتمع عليه الملكية والنسطورية واليعقوبية إلى أن قال ودعى اريوس إلى مقالته: كان روح القدس مخلوق مصنوع ليس بإله فقال بترك الاسكندرية: ليس لروح

القدس عندنا معنى غير روح الله وروح الله غير مخلوقة وإذا قلنا أن روح الله مخلوقة فقد قلنا أن حياته مخلوقة فقد جعلناه غير حي ومن جعله غير حي فقد كفر ومن كفر وجب عليه اللعن فلعنوا باجمعهم اريوس واشياخه واتباعه إلى أن قال : واكثرهم يسجد للصور ويدعونها من دون الله حتى لقد كتب بطريق الاسكندرية إلى ملك الروم كتاباً يستدل به للسجود للصور وقال فيه: ان موسى أمر أن يصور في قبة الزمان صورة الساروس وبأن سليمان بن داود لما عمل الهيكل ثم قال في كتابه هذا مثال الملك يكتب إلى بعض عماله كتاباً فيأخذه العامل ويقبله ويضعه بين عينيه ويقوم له لا تعظيما للقرطاس والمداد بل تعظيما للملك كذلك السجود للصور تعظيما لاسم ذلك المصور لا للاصباغ والالوان وبهذا المثال بعينه عبدت الأصنام وما ذكره هذا المشرك عن موسى وسليمان لو صح لم يكن دليلاً على السجود للصور وغايته ان يكون بمثابة ما يذكر عن داود انه نقش خطيئته في كفه لئلا ينساها فأين هذا مما يفعله هؤلاء المشركون مثال خادم من خدام الملك دخل على رجل فوثب في مجلسه وجلس وسجد له وعبده وفعل به ما لا يصلح أن يفعل إلا مع الملك وكل عاقل يستجهله ويستسخفه في فعله إذ قد فعل مع عبد الملك ما كان ينبغي له ان يختص به الملك دون غيره من الاكرام والخضوع والتذلل ومعلوم أن هذا إلى مقت الملك وسقوطه من عينه أقرب منه إلى كرامته له ورفع منزلته كذلك حال من سجد لمخلوق أو لصورة مخلوق لأنه عمد إلى السجود الذي هو غاية ما يتوصل به العبد إلى رضى الرب ولا يصلح إلا له ففعله لصورة عبد من عبيده وسوّى بين الله وبين عبده في ذلك وليس وراء هذا في الظلم والقبح شيء ولهذا قال تعالى(ان الشرك لظلم عظيم) وقد فطر الله عباده على استقباح معاملة عبيد الملك وخدمه بالتعظيم والاجلال والخضوع والذل الذي يعامل به الملك فكيف حال من فعل ذلك مع ما عدى الملك فان الشيطان عدو الله والمشرك انما يشرك به لا بولي الله ورسوله بل رسل الله واولياؤه بريئون ممن اشرك بهم معادون لهم أشد الناس

الناس بقتالهم فهم في نفس الأمر انما اشركوا باعداء الله وسووا بينهم وبين الله في العبادة والتعظيم والسجود والذل الى ان قال: ولما علمت الرهبان والبطارقة والاساقفة ان مثل هذا الدين تنفر عنه العقول اعظم نفرة، سدوه بالحيل والصور في الحيطان بالذهب واللازورد والزنجفر وبالارغل وبالاعياد المحدثة ونحو ذلك مما يروج على السفهاء وضعفاء العقول والبصائر، وساعدهم ما عليه اليهود من القسوة والغلظة والمكر والكذب والبهت وما عليه كثير من المسلمين من الظلم والفواحش والفجور والبدعة والغلو في المخلوق حتى يتخذه إلهاً من دون الله واعتقاد كثير من الجهال ان هؤلاء من خواص المسلمين وصالحيهم فتركب من هذا وامثاله تمسك القوم بما هم فيه ورؤيتهم انه خير من كثير مما عليه المنتسبون إلى الاسلام من البدع والفجور والشرك والفواحش ولهذا لما رأى أئمة النصارى الصحابة وما هم عليه آمن اكثرهم اختياراً وطوعاً وقالوا ما الذي صحبوا المسيح بافضل من هؤلاء ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيراً من أهل الكتاب الى الاسلام فاخبروا ان المانع لهم ما يرون عليه المنتسبون إلى الاسلام ممن يعظمهم الجهال من البدع والظلم والفواحش والفجور والمكر والاحتيال ونسبة ذلك الى الشرع فساء ظنهم بالشرع وبمن جاء به فالله طليب قطاع طريق الله وحسيبهم فهذه اشارة يسيرة جداً الى تلاعب الشيطان بعباد الصليب.

﴿ فصل ﴾

في ذكر تلاعبه بالأمة الغضبية وهم اليهود قال الله تعالى في حقهم (بئس ما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) الآية. وقال تعالى (قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه) الآية وقد أمرنا الله سبحانه ان نسأله في صلاتنا ان يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وثبت عن النبي ﷺ انه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون

فأول تلاعب الشيطان لهذه الامة في حياة نبيها وقرب العهد بانجائهم من فرعون واغراقه واغراق قومه فلما جاوزوا البحر رأوا قوماً يعكفون على اصنام لهم فقالوا (يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم الهة) فقال لهم موسى (انكم تجهلون ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون)فأي جهل فوق هذا والعهد قريب واهلاك المشركين أمامهم برأي عيونهم فطلبوا من موسى ان يجعل لهم إلهاً مخلوقاً وكيف يكون الإله مجعولا فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه والمجعول مربوب مصنوع فيستحيل أن يكون إلهاً وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذهم إلهاً مجعولاً وقد ثبت عنه ﷺ انه كان في بعض غزواته فمروا بسدرة يعلق عليها المشركون اسلحتهم وثيابهم ويسمونها ذات انواط فقال بعضهم : يا رسول الله اجعل لنا ذات انواط فقال: « الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ثم قال لتركبن سنن من كان قبلكم»

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعبه بهم في عبادتهم العجل من دون الله وقد شاهدوا ما احل بالمشركين من العقوبة والاخذة الرابية ونبيهم حي لم يمت هذا وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه ويصليه النار ويدقه بالمطرقة ويسطو عليه بالمبرد ويقلبه بيده ظهراً لبطن ومن عجب امرهم انهم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوه إله موسى فنسبوا موسى إلى الشرك وعبادة غير الله بل عبادة ابلد الحيوان واقلها دفعاً عن نفسه بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل فجعلوه إلهاً ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى ضالا مخطئاً فقالوا : (فنسي) قال ابن عباس أي ضل واخطأ الطريق وفي رواية عنه أي ان موسى ذهب يطلب ربه فضل ولم يعلم مكانه وعنه ايضاً نسي أن يذكر لكم ان هذا إلهه وإلهكم وقال السدي : أي ترك موسى إلهه ها هنا وذهب يطلبه وقال قتادة : إن موسى إنما يطلب هذا ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر وعلى هذا القول المشهور أن قوله فنسي من كلام السامري وعباد العجل نفسه وعن ابن عباس رواية أخرى أن

هذا من اخبار السامري انه نسي أي ترك ما كان عليه من الإيمان والصحيح القول الأول والسياق يدل عليه ولم يذكر البخاري في التفسير غيره فقال : يقول اخطأ الرب فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالاً من بني اسرائيل يردون به عليه فيقولون له إذا كان هذا إله موسى فلأي شيء ذهب عنه لموعد إلهه فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله فنسي وهـــذا من اقبح تلاعب الشيطان بهم فانظر إلى هؤلاء كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً من جوهر ارضي إنما يكون تحت التراب محتاجاً إلى سبك بالنار وتصفيته وتخليص الخبث منه، مر قوماً بطارق الحديد مقلباً في النار مرة بعد مرة قد نحت بالمبـــارد وأحدث الصايغ صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم وجعلوه إله موسى ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلهاً غيره قال محمد ابن جرير: وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم قال حدثني ابراهيم بن بشار الرمادي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس لما هجم فرعون على البحر كان فرعون على حصان ادهم فلما هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم البحر فتمثل له جبريل على فرس انثى فلما رآها الحصان تقحم خلفها قال وعرف السامري فقبض قبضة. من أثر فرسه قال: أخذ قبضته من تحت الحافر وقال كان ابن مسعود يقرؤها فقبضت قبضته من أثر فرس الرسول قال عكرمة عن ابن عباس والقي في روع السامري انك لا تلقيها على شيء فتقول كن كذا وكذا إلا كان فلم تزل القبضة في يده حتى جاوز البحر فلما جاوز موسى وبنو اسرائيل البحر وأغرق الله فرعون قال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي واصلح ومضى موسى لموعد ربه قال وكان مع بني اسرائيل حلي من حلي آل فرعون قد استعاروه فكأنهم تأثموا منه فأخرجوه لتنزل النار فتأكله فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا فقذفها فيه وقال كن عجلاً جسدا له خوار فكان تدخل الريح من دبره وتخرج من فيه ويسمع له صوت فقال هذا إلهكم وإله موسى

فعكفوا على العجل يعبدونه فقال هرون يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى وقال السدي : لما أمر الله موسى ان يخرج بني اسرائيل من ارض مصر أمر موسى بني اسرائيل أن يخرجوا وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط فلما نجى الله موسى ومن معه من بني اسرائيل من البحر وأغرق آل فرعون اتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى ربه عز وجل فاقبل على فرس فرآه السامري فانكره ويقال انه فرس الحياة فقال حين رآه ان لهذا لشأناً فاخذ من تربة حافر الفرس فانطلق موسى واستخلف هرون على بني اسرائيل وواعدهم ثلاثين ليلة فاتمها الله بعشر فقال لهم يا بني اسرائيل ان الغنيمة لا تحل لكم وانما هي حلي القبط انما هو غنيمة فاجمعوها جمعاً واحفروا لها حفيرة فادفنوها فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها فجمعوا ذلك الحلى في تلك الحفرة وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها فأخرج الله من الحلى عجلا جسدا له خوار فلما رأوه قال لهم السامري هذا إلهكم وإله موسى فنسى يقول ترك موسى إلهه هاهنا وذهب يطلبه فعكفوا عليه يعبدونه وكان يخور ويمشي فقال لهم هرون يا بني اسرائيل انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فأقام هرون ومن معه من بني اسرائيل لا يقاتلونهم فانطلق موسى إلى الله يكلمه فلما كلمه قال له ما اعجلك عن قومك يا موسى قال هم اولاء على اثري وعجلت اليك رب لترضى قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك فأخبره خبرهم قال موسى يا رب هذا السامري أمرهم ان يتخذوا العجل فالروح من نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: انا قال يا رب انت اذا اضللتهم وقال ابن اسحق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان السامري من قوم يعبدون البقر وكان يحب عبادة البقر في نفسه وكان قد اظهر الاسلام في بني إسرائيل فلما ذهب موسى الى ربه قال لهم هرون أنتم قد حملتم اوزارا من زينة القوم الى فرعون وامتعة وحليا فتطهروا منها فانها نجسة واوقد لهم ناراً فقال اقذفوا ما كان معكم من ذلك

فيها فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الامتعة والحلي فيقذفون به فيها حتى إذا تكسر الحلي فيها ورأى السامري اثر فرس جبريل فاخذ ترابا من حافره ثم اقبل الى النار فقال لهرون يا نبي الله القِ ما في يدي ولا يظن هرون إلا انه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والامتعة فقذفه فيها فقال كن عجلا جسدا له خوار فكان البلاء والفتنة فقال هذا إلهكم وإله موسى فعكفوا عليه واحبوه حباً لم يحبوا شيئا مثله قط يقول الله عز وجل فنسي أي ترك ما كان عليه من الاسلام يعني السامري (أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) فلما رأى هرون ما وقعوا فيه (قال يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعون واطيعوا امري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) فأقام هرون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن واقام من يعبد العجل على عبادته وتخوف هرون ان سار بمن معه من المسلمين ان يقول له موسى فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي وكان له هائبا مطيعاً قال تعالى مذكراً لبني اسرائيل بهذه القصة التي جرت لاسلافهم مع نبيهم (واذ وعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده) يعني من بعد ذهابه الى ربه وليس المراد من بعد موته وانتم ظالمون أي بعبادة غير الله لان الشرك اظلم الظلم لان المشرك وضع العبادة في غير موضعها فلما قدم موسى ورأى ما اصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه والقى الالواح عن رأسه وفيها كلام الله الذي كتبه له وأخذ براس اخيه ولحيته ولم يعتب الله عليه في ذلك لأنه حمله عليه الغضب لله وكان الله قد اعلمه بفتنة قومه ولكن لما رأى الحال مشاهدة حدث له غضب اخر فانه ليس الخبر كالمعاينة .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم ايضاً ما قصه الله في كتابه حيث يقول (وإذ قلتم يا موسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة) اي عيانا قال ابن جرير ذكرهم الله بذلك اختلاف آبائهم وسوء استقامة اسلافهم

لانبيائهم مع كثرة معاينتهم من آيات الله ما تثلج بأقلهـــا الصدور وتطمئن بالتصديق معها النفوس وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم ان يجعل لهم إلهـــاً غير الله ومرة يعبدن العجل من دون الله ومرة يقولون لا نصدقـــك حتى نرى الله جهرة وأخرى يقولون له إذا دعوا الى القتال (اذهب انت وربـــك فقاتلا انا ههنا قاعدون) ومرة يقال لهم(قولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم) فيقولون حبة في شعرة، ويدخلون من قبل استاههم ومرة يعرض عليهم العمل بالتوراة فيمتنعون من ذلك حتى نتق عليهم الجبل كانه ظلة الى غير ذلك من افعالهم التي آذوا بها نبيهم التي يكثر احصاؤها فاعلم ربنا تبارك وتعالى الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيـــل الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ انهم لم يعدوا ان يكونوا في تكذيبهم محمد صلى الله عليـــه وسلم وجحودهم بنبوتـــه وتركهم الاقرار بما جاء به مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره كاسلافهم وابائهم الذين قص الله علينا قصصهم وقال محمـــد بن اسحق: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل وقال لأخيه وللسامري ما قال وحرق العجل وذره في اليم اختارموسى منهم سبعين رجلا لميقات ربه الخير فالخير فقال : انطلقوا إلى الله عز وجل فتوبوا إلى الله مما صنعتم واسألوه التوبة على ما تركتم وراءكم من قومكم فصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طورسينا لميقات ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله يا موسى اطلب لنا الى ربك ان نسمع كلام ربنا فقال افعل فلما دنا موسى إلى الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقـــال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحدمن بني آدم ان ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه تعالى وهو يكلم نبيه يأمره وينهاه: إفعل ولا تفعل فلما

فرغ الله من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعاً وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول رب لو شئت اهلكتم من قبل واياي اتهلكنا بما فعل السفهاء منا فان قيل: ما مقصود موسى بقوله لو شئت اهلكتهم من قبل؟ فقد ذكر فيه وجوه قال السدي لما ماتوا قام موسى يبكي ويقول رب ماذا أقول لبني اسرائيل إذا اتيتهم وقد اهلكت خيارهم قال ابن اسحق اخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير ارجع اليهم وليس معي منهم احد فما الذي يصدقوني به أو يأمنونني عليه بعد هذا وعلى هذا فالمعنى لو شئت اهلكتهم قبل خروجنا فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني وقال الزجاج المعنى لو شئت أمتهم من قبل ان تبتليهم بما اوجب عليهم الرجفة قلت وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود والذي يظهر والله اعلم بمراده ومراد نبيه ان هذا استعطاف من موسى لربه وتوسل اليه بعفوه عنهم من قبل حين عبد قومهم العجل ولم ينكروا عليهم يقول موسى انه قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ولم تهلكهم فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل وهذا كما يقول من واخذه سيده بجرم لو شئت واخذتني قبل هذا بما هو اعظم من هذا الجرم ولكن وسعني عفوك فليسعني اليوم ثم قال نبي الله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فقال ابن الانباري وغيره هذا استفهام على معنى الجحد أي لست تفعل ذلك والسفهاء هنا عبدت العجل قال الفراء ظن موسى انهم هلكوا باتخاذهم العجل فقال أتهلكنا بما فعل السفهاء منا وانما كان اهلاكهم بقولهم ارانا الله جهرة ثم قال ان هي إلا فتنتك وهذا من تمام الاستعطاف أي ما هي إلا ابتلاؤك واختبارك لعبادك فانت ابتليتهم وامتحنتهم فالامر كله لك وبيدك لا يكشفه إلا انت كما لم يمتحن به ويختبر إلا انت فنحن عائذون منك ولاجئون منك اليك .

﴿ فصل ﴾

من تلاعب الشيطان بهذه الامة وكيده لهم انهم قيل لهم وهم مع نبيهم

والوحي ينزل عليه من الله (ادخلوا هذه القرية) قال قتادة وابن زيد والسدي وابن جرير وغيرهم هي قرية بيت المقدس (فكلوا منها حيث شئتم رغداً) أي هنيا واسعا وادخلوا الباب سجداً قال السدي هـــو باب من ابواب بيت المقدس وكذلك قال ابن عباس قال والسجود بمعنى الركوع وأصل السجود والانحناء لمن تعظم فكل منحن لشيء تعظيما له فهو ساجد له قاله ابن جرير وغيره، قلت وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام أحدهمـــا لصاحبه من السجود المحرم وفيـــه نهي صريح عن النبي ﷺ ثم قيل لهم قولوا حطة أي حط عنا خطايانا هذا قول الحسن وعطاء وقتادة وقال عكرمة وغيره أي قولوا لا إله إلا الله وكان أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تحط بهـــا الخطايا وهي كلمة التوحيد وقال سعيد بن جبير عـــن ابن عباس امروا بالاستغفار وعلى القولين فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم فتلاعب الشيطان بهم فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وفعلوا غير الذي أمروا به فروى البخـــاري في صحيحه من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ قيل لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على استاههم وقالوا حبة في شعرة فبدلوا القول والفعل معاً فانزل الله عليهم رجزاً من السماء قال أبو العالية هو الغضب وقال ابن زيد هو الطاعون وعلى هذا فالطاعون بالرصد لمن بدل دين الله قولاً وعملاً .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعب الشيطان بهم انهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى فملوا ذلك وذكروا عيش الثوم والبصل والعدس والبقل والقثاء فسألوه موسى وهذا من سوء اختيارهم لانفسهم وقلة بصرهم بالأغـذية النافعة الملائمة واستبدال الأغذية الضارة القليلة للتغذية منها ولهـــذا قال لهم موسى (اتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما

سألتم) أي مصر من الامصار وكانوا في افسح الامكنة وأطيبها هواء وأبعدها عن الاذى ومجاورة الانتان والاقذار سقفهم الذي يظلهم من الشمس الغمام وطعامهم السلوى وترابهم المن قال ابن زيد كان طعام بني اسرائيل في التيه واحداً وشرابهم واحداً كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء يقال له المن وطعامهم طير يقال له السلوى يأكلون الطير ويشربون العسل لم يكن لهم خبز ولا غيره ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الاغذية والاشربة وكان مع ذلك ينفجر لهم من الحجر اثنا عشر عينا من الماء فسالوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير فذموا على ذلك فكيف بمن استبدل الضلالة بالهدى والغي بالرشاد والشرك بالتوحيد والبدعة بالسنة وخدمة الخالق بخدمة المخلوق والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله بحظه من العيش الفاني

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعبه بهم انهم لما عرضت عليهم التوراة لم يقبلوها وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوا حتى أمر الله جبريل فقلع جبلا من اصله على قدرهم ثم رفعه فوق رؤسهم وقيل لهم ان تقبلوها القيناه عليكم فقبلوها كرها قال تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) الى قوله (تتقون): قال عبد الله بن وهب قال ابن زيد لما رجع موسى من عند ربه بالالواح قال لبني اسرائيل ان هذه الألواح فيها كتاب الله وأمره الذي امركم به ونهيه الذي نهاكم عنه فقالوا ومن يأخذ بقولك انت لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الينا فيقول هذا كتابي فخذوه فما له لا يكلمنا كما كلمك انت يا موسى يقول هذا كتابي فخذوه فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا اجمعين قال : ثم أحياهم الله تعالى بعد موتهم فقال لهم موسى خذوا كتاب الله فقالوا لا فقال : أي شيء اصابكم؟ قالوا متنا ثم حيينا فقال خذوا كتاب الله قالوا لا فبعث الله ملائكته فنتقت الجبل فوقهم فقيل لهم اتعرفون هذا قالوا الطور قال : خذوا الكتاب وإلا طرحناه

عليكم قال فأخذوه بالميثاق وقال السدي لما قال الله لهم ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فأبوا ان يسجدوا فأمر الله الجبل ان يرفع فوق رؤوسهم فنظروا اليه وقد غشيهم فسقطوا سجدا على شق ونظروا بالشق الآخر فكشفه عنهم ثم تولوا من بعد هذه الآيات واعرضوا ولم يعملوا بما في كتاب الله ونبذوه وراء ظهورهم فقال تعالى مذكراً لهؤلاء بما جرى من اسلافهم (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما أتيناكم بقوة — الى قوله — من الخاسرين) .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعبه بهم ان الله سبحانه انجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه وفرق بهم البحر وأراهم الآيات والعجائب ونصرهم وأواهم وأعزهم وآتهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم وفي ضمن بشارتهم بأنهم منصورون ومفتوح لهم وإن تلك القرية لهم فأبوا طاعته وامتثال أمره وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون وتأمل لطف نبي الله موسى بهم وحسن خطابه لهم وتذكيرهم بآيات الله ونعمه عليهم وبشارتهم بوعد الله لهم بان القرية مكتوبة لهم ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم وانهم ان اعرضوا وعصوا أمره ولم يمتثلوه انقلبوا خاسرين فجمع لهم الأمر والنهي والبشارة والنذره والترغيب والترهيب والتذكير بالنعم السالفه فقابلوه باقبح المقابلة فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم يا موسى ان فيها قوماً جبارين فلم يوقروا رسوله وكليمه حتى نادوه باسمه ولم يقولوا يا نبي الله ونسوا قدرة جبار السماوات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل الطاعة وكان خوفهم من أولئك الجبارين الذين نواصيهم بيد الله أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه وكانوا أشد رهبه في صدورهم منه ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة فقالوا انا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد احدها تمهيد عذر العصيان بقولهم ان فيها قوماً جبارين والثاني

تصريحهم بانهم غير مطيعين وصدورا الجملة بحرف تأكيد وهو إن. ثم حققوا النفي باداة لن الدالة على نفي المستقبل أي لا ندخلها الآن ولا في المستقبل ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها فقال لهم رجلان من الذين انعم الله عليهما بطاعته والانقياد لأمره من الذين يخافون الله هذا قول الأكثرين وهو الصحيح وقيل من الذين يخافون الجبارين اسلما واتبعا موسى ادخلوا عليهم الباب أي باب القرية فاهجموا عليهم فإنهم ملئوا رعبا فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ثم ارشدهم الى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل فكان جواب القوم ان قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون فسبحان من عظم حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب وهو يحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة بل وسعهم حلمه وكرمه وكان أقصى ما عاقبهم به ان رددهم في برية التيه أربعين عاماً يظلل عليهم الغمام وينزل عليهم المن والسلوى وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب الي مما عدل به أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول لك كما قال قوم موسى أذهب أنت وربك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك فرأيت رسول الله ﷺ اشرق وجهه لذلك وسر به فلما قابلوا نبي الله بهذه المقابلة: (قال رب اني لا املك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعبه بهم في حياة نبيهم ايضاً ما قصه الله سبحانه في كتابه من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه حتى أمروا بذبح البقرة وضربه ببعضها وفي هذه القصة انواع من العبر منها ان الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ ومنها

الدلالة على نبوة موسى وانه رسول رب العالمين ومنها الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الابدان وقيام الموتى من قبورهم ومنها إثبات الفاعل المختار وانه عالم بكل شيء قادر على كل شيء عدل لا يجوز عليه الظلم والجور حكيم لا يجوز عليه العبث ومنها إقامة انواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات زيادة في هداية المهتدين واعذاراً وانذاراً للضالين ومنها انه لا ينبغي مقابلة أمر الله بالتعنت وكثرة السؤال بل يبادر إلى الامتثال فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت فإن الأمر بذلك لا اجمال فيه ولا إشكال بل هو بمنزلة قوله : اعتق رقبة واطعم مسكيناً وصم يوماً ونحو ذلك ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب فإن الآية غنية عن البيان المنفصل مبنية بنفسها ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم ، قال أبو جعفر عن الربيع عن ابي العالية لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت اياها ولكن شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم ومنها انه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالانكار وذلك من الكفر فإن القوم لما قال لهم نبيهم ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قابلوا هذا الأمر بقولهم أتتخذنا هزوا فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه قالوا أتتخذنا هزوا وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله فانه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك ولم يكن هو الأمر به ولو كان لم يجز لمن آمن بالرسول ان يقابل أمره بذلك فلما قال لهم أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين وتيقنوا أن الله سبحانه امره بذلك اخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها فلما اخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها فلما تعينت لهم ولم يبق لهم اشكال توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم الآن جئت بالحق فإن ارادوا بذلك انك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة فتلك ردة

وكفر ظاهر. وان ارادوا انك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر فإن البيان قد حصل بقوله لهم ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة لأنه لا اجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبوح فقد جاء رسول الله بالحق من أول امره. قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى الآن جئت بالحق وزعم أن ذلك نفي منهم ان يكون موسى اتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك وان ذلك كفر منهم قال وليس الأمر كما قال عندنا لأنهم قد اذعنوا بالطاعة بذبحها وان كان قولهم الذي قالوه جهلة منهم وهفوة من هفواتهم .

﴿ فصل ﴾

ومن الأخبار عن قساوة قلوبهم وغلظها وعدم تمكين الايمان فيها . قال عبد الصمد بن معقل عن وهب كان ابن عباس يقول ان القوم بعد ان احيى الله الميت فاخبرهم بقاتله انكروا قتله وقالوا والله ما قتلناه بعد ان رأوا الآيات الحق قال تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) ومنها مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدراً فإن القاتل قصد ميراث المقتول ودفع للقتل عن نفسه ففضحه الله وهتكه وحرمه ميراث المقتول ومنها ان بني اسرائيل فتنوا بالبقر مرتين من بين سائر الدواب فتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة والبقر من أبلد الحيوان حتى يضرب به المثل والظاهر ان هذه القصة كانت بعد قصة العجل ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على ان هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله وإنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعبه بهذه الامة ايضاً ما قصه الله علينا من قصة أصحاب السبت

ولكن لما استحلوا محارم الله بادنى الحيل وتلاعبوا بدينه وخادعوه كخادعة الصبيان ومسخوا دينه بالاحتيال مسخهم الله قردة وكان الله سبحانه قد أباح لهم الصيد في كل ايام الأسبوع إلا يوماً واحداً فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا الى الصيد فيه وساعد القدر بان عوقبوا بامساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت وارسالها عليهم في يوم السبت وهكذا يفعل سبحانه وتعالى بمن تعرض لمحارمه فانه يرسلها عليه بالقدر حتى تزدلف اليه بأيها يبدأ فانظر ما فعل الحرص وما أوجب من الحرمان ومن هاهنا قيل: من طلبه كله فاته كله.

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعب الشيطان بهم أيضاً أنهم لما حرمت عليهم الشحوم اذابوها ثم باعوها وأكلوا اثمانها وهذا من عدم فقههم وفهمهم عن الله دينه فإن ثمنها بدل منها فتحريمها تحريم لبدلها والمعاوضة عنها كما أن تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير يتناول تحريم أعيانها وابدالها ومن تلاعبه بهم اتخاذ قبور انبيائهم مساجد وقد لعنهم رسول الله ﷺ على ذلك ولعنته تتناول من فعل فعلهم ومن تلاعبه بهم أنهم كانوا يقتلون الأنبياء الذي لا تنال الهداية إلا على أيديهم ويتخذون احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يحرمون عليهم ويحلون لهم فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم ولا يلتفتون هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله أم لا قال عدي بن حاتم أتيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم) فقلت يا رسول الله ما عبدوهم فقال حرموا عليهم الحلال واحلوا لهم الحرام فاطاعوهم فكانت تلك عبادتهم إياهم رواه الترمذي وغيره وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالانسان ان يقتل أو يقاتل من هداه على يديه ويتخذ من لم تضمن له عصمة ندا يحرم عليه ويحلل له ومن تلاعبه بهم ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى وقتلهما لهما حتى سلط الله عليهم بخت نصر وسنحاريب وجنودهما فنالوا منهم ما نالوه ثم ما

كان منهم في شأن المسيح ورميه وامه بالعظائم وهم يعلمون انـــه رسول الله اليهم فكفروا به بغياً وعناداً وراموا قتله وصلبه فصانه الله من ذلك ورفعه اليه وطهره منهم فاوقعوا القتل والصلب على شبهه وهم يظنون انه رسول الله فانتقم الله منهم ودمر عليهم أعظم تدمير وألزمهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد ﷺ ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في دمار ونقص الى الآن قطعهم الله في الأرض أمماً ومزقهم كل ممزق وسلبهم ملكهم وعزهم فلا يقوم لهم بعد ذلك ملك فلما بعث الله محمدا ﷺ فكفروا به وكذبوه فأتم عليهم غضبه ودمرهم غاية التدمير وألزمهم ذلا وصغاراً لا يرتفع عنهم إلى أن ينزل اخوه المسيح من السماء فيستأصل شأفتهم ويطهر الأرض منهم ومن عباد الصليب . قال تعالى : (بئس ما اشتروا به انفسهم أن يكفروا بما انزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب) فالغضب الأول بسبب كفرهم بالمسيح والغضب الثاني بسبب كفرهم بمحمد ﷺ .

﴿ فصل ﴾

ومن تلاعب الشيطان بهذه الامة أن القى اليهم أن الرب تعالى محجور عليه في نسخ الشرائع فحجروا عليه ان يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية ترسا لهم في جحد نبوة رسول الله ﷺ وقرروا ذلك بان النسخ يستلزم البداء وهو على الله محال وقد اكذبهم الله في نص التوراة كما أكذبهم في القرآن . قال تعالى (كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ـ الى قوله ـ وما كان من المشركين) فتضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحاً في ابطال النسخ فإنه سبحانه اخبر ان الطعام كله كان حلا لبني اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة ومعلوم ان بني اسرائيل كانوا على دين ابيهم اسرائيل وملته فان الذي كان حلالاً انما هو باحلال الله له على لسان اسرائيل والانبياء بعده إلى حـين

نزول التوراة ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم التي كانت حلا لبني اسرائيل وهذا محض النسخ قوله تعالى (من قبل ان تنزل التوراة) ومتعلق كان حلا لبني اسرائيل أي كان حلالا لهم قبل نزول التوراة وهم يعلمون ذلك ثم قال تعالى : (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) هل تجدون فيها ان اسرائيل حرم على نفسه ما حرمته التوراة عليكم أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم وهو لحوم الإبل والبانها خاصة واذا كان انما حرم هذا وحده وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه وقد حرمت التوراة كثيراً منه ظهر كذبكم وافتراؤكم في انكار نسخ الشرائع والحجر على الله في نسخها فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله اكثر المفسرين وما وردوه وهذا اولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم بان التوراة حرمت اشياء كثيرة من المناكح والذبائح والافعال والاقوال وذلك نسخ لحكم البراءة الاصلية بالتحريم والايجاب إذ هذا شأن كل الشرائع وانما انكروا تحريم ما اباحه الله فيجعله حراماً أو تحليل ما كان حرمه الله فيجعله مباحاً واما رفع البراءة الاصلية والاستصحاب فلم ينكره احد من اهل الملل ثم يقال لهذه الامة الغضبية هل تقرون انه كان قبل التوراة شريعة أم لا وهم لا ينكرون ان يكون قبل التوراة شريعة فيقال لهم فهل رفعت التوراة شيئاً من احكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا فإن قالوا لم ترفع شيئاً من احكام تلك الشرائع فقد جاهروا بالكذب والبهت وان قالوا بلى رفعت بعض الشرائع المتقدمة فقد اقروا بالنسخ قطعا وأيضا فيقال للأمة الغضبية هل أنتم اليوم على ما كان عليه موسى؟ فإن قالوا نعم قلنا ليس في التوراة ان من مس عظم ميت أو وطىء قبرا أو حضر ميتا عند موته فإنه يصير من النجاسة بحال لا يخرج له منها الا رماد البقرة التي كان الامام الهاروني يحرقها فلا يمكنهم انكار ذلك فيقال لهم انتم اليوم على ذلك فان قالوا لا نقدر عليه فيقال لهم فلم جعلتم ان من مس العظم أو القبر او الميت طاهرا يصلح للصلاة والذي في كتابكم خلافه فإن قالوا لانا عدمنا أسباب الطهارة وهي رماد البقر وعدمنا

الإمام المطهر المستغفر فيقال لهم : فهل أغناكم عدمه عن فعله أو لم يغنكم فإن قالوا: اغنانا عدمه عن فعله قيل فقد تبدل الحكم الشرعي من الوجوب الى اسقاطه لمصلحة التعذر فيقال : وكذلك يتبدل الحكم الشرعي بنسخه لمصلحة النسخ فأنكم ان ثبتم على اعتبار المصالح والمفاسد من الأحكام فلا ريب ان الشيء يكون مصلحة في وقت دون وقت وفي شريعة دون أخرى كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في شريعة آدم ثم صار مفسدة في سائر الشرائع وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحة في شريعة ابراهيم ثم صار مفسدة في سائر الشرائع من بعده وفي شريعة موسى وامثال ذلك كثير وإن منعتم مراعاة المصالح في الأحكام ومنعتم تعليلها بها فالأمر حينئذ اظهر فانه سبحانه يحلل ما يشاء ويحرم ما يشاء والتحليل والتحريم تبع لمجرد مشيئته لا يسأل عما يفعل وإن قلتم لا يستغنى في الطهارة عن ذلك الطهور الذي كان عليه أسلافنا فقد أقررتم بانكم الانجاس ابداً ولا سبيل لكم الى حول الطهارة فان قالوا نعم الأمر كذلك قيل لهم فإذا كنتم انجاساً على مقتضى أصولكم فما بالكم تعزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام اعتزالا تخرجون فيه الى حد لو ان احدكم لمس ثوبه ثوب المرأة نجستموه مع ثوبه فإن قلتم ذلك من احكام التوراة قيل لكم اليس في التوراة ان ذلك يراد به الطهارة فإذا كانت الطهارة قد تعذرت عندكم والنجاسة التي انتم عليها لا ترتفع بالغسل فهي إذاً أشد من من نجاسة الحيض ثم انكم ترون أن الحائض طاهر إذا كانت من غير ملتكم ولا تنجسون من لمسها ولا الثوب الذي تلمسه فتخصيص هذا الأمر بطائفتكم ليس في التوراة قالت الامة الغضبية: التوراة قد حضرت أموراً كانت مباحة من قبل ولم تأت باباحة محظور والنسخ الذي ننكره ونمنع منه ما أوجب إباحة محظور لأن تحريم الشيء انما هو لأجل ما فيه من مفسدة فإذا جاءت شريعة بتحريمه كان ذلك من مؤكداتها ومقرراتها فإذا جاء من أباحة علمنا بإباحته المفسدة

انه غير نبي بخلاف تحريم ما كان مباحاً فإنا نكون متعبدين بتحريمه قالوا وشريعتكم جاءت بإباحة كثير مما حرمته التوراة مع انه حرم لما فيه من مفسدة فهذه النكتة هي التي تعتمد عليها الأمة الغضبية ويتلقاها خالف منهم عن سالف والمتكلمون لم يشفوهم في جوابها وانما أطالوا معهم الكلام في رفع البراءة الاصلية بالشرائع وفي نسخ الاباحة بالتحريم ولعمر الله انه لما يبطل شبهتهم لأن رفع البراءة الاصلية ورفع الاباحة بالتحريم هو تغيير لما كان عليه الحكم الاستصحابي أو الشرعي بحكم آخر لمصلحة اقتضت تغييره ولا فرق في اقتضاء المصلحة بين تغيير الاباحة بالتحريم والتحريم بالاباحة والشبهة التي عرضت لهم في أحد الموضعين هي بعينها في الموضع الآخر فإن إباحة الشيء في الشريعة تابع لعدم مفسدته إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته فإذا حرمته الشريعة الاخرى وجب قطعاً ان يكون تحريمه فيها هو المصلحة كما كان اباحته في الشريعة الاولى هي المصلحة فإن تضمن اباحة المحرم في الشريعة الأولى اباحة المفاسد وحاشا الله تضمن تحريم المباح في الشريعة الأولى تحريم المصالح وكلاهما باطل قطعاً فإذا جاز أن تأتي الشريعة التوراة بتحريم ما كان ابراهيم ومن تقدمه يستبيحه فجائز أن تأتي شريعة اخرى بتحليل بعض ما كان في التوراة محظوراً وهذه الشبه الباطلة الداحضة هي التي ردت بها الأمة الغضبية نبوءة محمد ﷺ هي بعينها التي رد بها اسلافهم نبوة المسيح وتوارثوها كافرا عن كافر وقالوا لمحمد كما قال اسلافهم للمسيح لا نقر بنبوة من غير شريعة التوراة فيقال لهم فكيف اقررتم لموسى بالنبوة وقد جاء بتغيير بعض شرائع من تقدمه فإن قدح ذلك في المسيح ومحمد قدح ذلك في موسى فلا تقدحون في نبوتهما بقادح إلا ومثله في نبوة موسى سواء كما انكم لا تثبتون نبوة موسى ببرهان إلا واضعافه شاهد على نبوة محمد ﷺ فمن أبين المحال ان يكون موسى رسولا صادقا ومحمد ليس برسول ويقال للامة الغضبية ايضاً لا يخلو المحرم إما ان يكون تحريمه لعينه وذاته بحيث تمتنع اباحته في زمان من الازمنة واما ان

يكون تحريمه لما تضمنه من المفسدة في زمان دون زمان ومكان دون مكان وحال دون حال فإن كان الأول لزم ان يكون ما حرمته التوراة محرماً على جميع الانبياء في كل زمان ومكان من عهد نوح إلى خاتم الانبياء وان كان الثاني لزم ان التحريم والاباحة وتابعان للمصالح وانما تختلف باختلاف الزمان والمكان والحال فيكون الشيء الواحد حراماً في ملة دون ملة وفي وقت دون وقت وفي مكان دون مكان وفي حال دون حال وهذا معلوم بالاضطرار من الشرائع ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غير ذلك، ألا ترى ان تحريم السبت لو كان لعينه لكان حراماً على ابراهيم ونوح وسائر النبيين وكذلك ما حرمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها لو كان حراماً لعينه وذاته لوجب تحريمه على كل نبي وفي كل شريعة وإذا كان الرب تعالى لا يحجر عليه بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ويبتلي عباده بما يشاء ويحكم ولا يحكم عليه فما الذي يحيل عليه ويمنعه أن يأمر امة بأمر من أوامر الشريعة ثم ينهى أمة اخرى عنه أو يحرم محرماً على أمة ويبيحه لأمة اخرى بل أي شيء يمنعه سبحانه ان يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين بحسب المصلحة وقد بين سبحانه ذلك بقوله (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم ان الله على كل قدير ألم تعلم ان الله له ملك السماوات والأرض) فأخبر سبحانه ان عموم قدرته وملكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء كما انه يمحو من احكامه القدرية الكونية ما يشاء ويثبت فهكذا احكامه الدينية الامرية ينسخ ما يشاء فمن أكفر الكفر واظلم الظلم ان يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى وتدفع نبوته وتجحد رسالته بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرماً على من كان قبله أو بتحريم بعض ما كان مباحاً لهم وبالله والتوفيق يضل من يشاء ويهدي من يشاء ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تحجر على الله أن ينسخ ما يشاء من شرائعه وقد تركوا شريعة موسى في أكثر ما هم عليه وتمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم ورهبانهم فمن ذلك انهم يقولون في صلاتهم ما ترجمته

هكذا : اللهم اضرب ببوق عظيم لفيفنا وأقبضنا من اربعة اقطار الارض إلى قدسك ، سبحانك يا جامع شتات قومه بني اسرائيل . ويقولون كل يوم مـا ترجمه هكذا : أردد حكامنا كالأولين ومسيرتنا كالابتداء وابن اورشليم قربه قدسك في ايامنا وعزنا ببنائهـــا ، سبحانك يا باني اورشليم . فهذا قولهم في صلاتهم مع علمهم بان موسى وهارون لم يقولا شيئاً من ذلك ولكنها فضول لفقوها بعد زوال دولتهم إلى أن قال: مع ان في التوراة: لا تزيدوا على الأمر الذي انا موصيكم به ولا تنقصوا منه شيئاً وقد تضمنت التوراة اوامر كثيرة جداً هم مجمعون على تعطيلها والغائها فاما أن تكون منسوخة بنصوص اخرى من التوراة أو بنقل صحيح عن موسى أو باجتهاد علمائهم واحبـــارهم وعلى التقارير الثلاث فقد بطلت شبهتهم في انكار النسخ إلى أن قال: ومن تلاعب الشيطان بهم انهم يقولون بالقدح في الانبياء واذيتهم وقد اذوا موسى في حياته ونسبوه إلى ما برأه الله منه ونهى سبحانه هذه الأمة عن الاقتداء بهم في ذلك حيث يقول: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه مما قالوا) الآية وثبت في الصحيحين من حديث ابي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالت بنو اسرائيل ما يمنع موسى ان يغتسل معنا إلا انه آدر فذهب موسى يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه ، قال فخرج موسى باثره يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى نظرت بنو اسرائيل إلى سواة موسى قالوا والله ما بموسى باس فقام الحجر ينظر اليه بنو اسرائيل وأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضرباً ، قال ابو هريرة والله إن بالحجر ندبا ستة أو سبعة يعني ضرب موسى الحجر ذلك وانزل الله هذه الآية : (يا أيهـــا الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) الآية . وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد قال: قالت بنو اسرائيل ان موسى آدار وقالت طائفة هو ابرص من شدة تستره. وقال ابن سيرين عن ابي هريرة عن النبي ﷺ كان موسى

رجلاً حيياً ستيرا لا يكاد يرى من جسده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني اسرائيل وقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده اما برص واما آدر واما آفة وان الله اراد ان يبرئه مما قالوا وذكر الحديث وقال سفيان بن حسين عن الحكم عن ابن جبير عن ابي العباس عن علي بن ابي طالب في قوله: (لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قال صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون فقالت بنو اسرائيل انت قتلته وكان أشد حباً لنا منك ولين لنا منك واذوه بذلك فأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بني اسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو اسرائيل انه مات فبرأه الله من ذلك فانطلقوا به فدفنوه فلم يطلع على قبره أحد من خلق الله إلا الرخم فجعله الله اصم ابكم وقال تعالى : (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم) وتأمل قوله : (اني رسول الله إليكم) فإنها جملة في موضع الحال أي تؤذونني وانتم تعلمون اني رسول الله اليكم وذلك ابلغ في العناد ومن قدحهم في الانبياء ما نسبوه إلى نص التوراة انه لما اهلك الله امة لوط لفسادها ونجى لوطاً بابنتيه فقط ظن ابنتاه أن الأرض قد خلت ممن يستبقين منه نسلاً فقالت الكبرى للصغرى ابونا شيخ ولم يبق في الأرض انسان يأتينا كسبيل البشر فهل نسقي ابانا خمراً ونضاجعه لنستبقي من ابينا نسلاً ففعلتا ذلك بزعمهم فنسبوا النبي إلى انه سكر حتى لم يعرف ابنتيه ثم وطئهما فاحبلهما وهو لا يعرفهما فولدت احداهن ولداً سمته موآب تعني أنه من الأب والثانية سمت ولدها ابن عمي تعني انه من قبيلتها وقد اجاب بعضهم عن هذا بانه قبل نزول التوراة لم يكن نكاح الأقارب حراماً والتوراة تكذبهم فإن فيها أن ابراهيم الخليل خاف في ذلك العصر ان يقتله المصريون حسداً له على زوجته سارة فأخفى نكاحها وقال هي اختي علماً منه بأنه إذا قال ذلك لم يبق للظنون اليها سبيل هذا أظهر دليل على أن تحريم نكاح الأخت كان ثابتاً في ذلك الزمان فما ظنك بنكاح البنت الذي لم يشرع ولا في زمن آدم وعندهم ايضاً في التوراة التي بايديهم قصة أعجب من هذه وهي أن يهوذا بن يعقوب

النبي زوج ابنه الأكبر من امرأة يقال لها تامار فكان يأتيها مستدبراً فغضب الله من فعله فأماته فزوج يهوذا ابنه الآخر بها فكان إذا دخل بها انزل على الأرض علماً منه بانه إن اولدها كان اول الاولاد مدعوا باسم اخيه ومنسوبا اليه فكره الله ذلك من فعله فاماته ايضاً فأمرها يهوذا باللحاق ببيت ابيها إلى ان يكبر شبل ولده ويتم عقله حذاراً ان يصيبه ما أصاب اخويه فاقامت في بيت ابيها ثم ماتت من بعد زوجة يهوذا وصعد إلى منزل ليحرس غنمه فلما اخبرت المرأة تامار باصعاد حموها إلى المنزل لبست زي الزواني وجلست في مستشرف على طريقه لعلها بشبقه فلما رآها خالها زانية فراودها فطالبته بالاجرة فوعدها بجدي ورهن عندها عصاه وخاتمه ودخل بها فعلقت منه فلما اخبر يهوذا أن كنته علقت من الزنا أذن باحراقها فبعثت اليه بخاتمه وعصاه فقالت : من رب هذين أنا حامل فقال صدقت ومني ذلك واعتذر بانه لم يعرفهـــا ولم يستحل معاودتها ولا تسليمها إلى ولده وعلقت من هذا الزنا بعارض قالوا ومن ولدها داود النبي ففي ذلك من نسبتهم الزنا والكفر إلى بيت النبوة ما يقارب مـــا نسبوه إلى لوط وهذا كله عندهم وفي نص كتابهم وهم يجعلون هذا نسباً لداود وسليمان ولنبيهم المنتظر ومن العجب انهم يجعلون المسلمين اولاد زنا ويسمونهم ممزيريم واحدها ممزير وهو اسم لولد الزنا لأن في شرعهم أن الزوج إذا راجع زوجته بعد ان نكحت زوجاً غيره فاولادهما اولاد زنا وزعموا أن ما جاءت به شريعة الإسلام هو من موضوعات عبد الله بن سلام قصد به ان يجعل اولاد المسلمين ممزيريم بزعمهم قالوا وكان محمد قد رأى احلاماً تدل على انه صاحب دولة فسافر إلى الشام في تجارة لخديجة واجتمع باحبار اليهود وقص عليهم احلامه فعلموا انه صاحب دولة فاصحبوه عبد الله بن سلام فقرأ عليه علوم التوراة وفقهها مدة ونسبوا الفصاحة والاعجاز في القرآن إلى عبدالله بن سلام وان من جملة ما قرره عبدالله بن سلام ان الزوجة لا تحل للمطلق ثلاثا إلا بعد ان ينكحها رجل اخر ليجعل اولاد المسلمين اولاد زنا ولا ريب أن مثل هذا

البهت يروج على كثير من حميرهم وقد خلق الله لكل باطل وبهت حملة كما خلق للحق حملة وليس وراء هذا البهت بهت وليس بمستكثر لأمة قدحت في معبودها وإلهها ونسبته إلى ما يليق بعظمته وجلاله وشبهت انبياءه بما يليق بهم ورمتهم بالعظائم ان ينسبوا محمداً ﷺ إلى ذلك وعداوته لهم وملاحمه فيهم واجلاؤه لهم عن ديارهم واموالهم وسبي ذراريهم ونسائهم معلوم غير مجهول وقد نسبت هذه الأمة الغضبية عيسى بن مريم إلى انه ساحر ولد غيّة ونسبوا أمه إلى الفجور ونسبت لوطا إلى انه وطيء ابنتيه واولدهما وهو سكران من الخمر ونسبوا سليمان إلى انه كان ملكا ساحراً وكان ابوه عندهم ملكا مسيحا ونسبوا يوسف إلى انه حل تكة سراويل سيدته وانه قعد منها مقعد الرجل من امرأته وان الحائط انشق له فرأى اباه يعقوب عاضاً على انامله فلم يقم حتى نزل عليه جبريل فقال: يا يوسف تكون من الزناة وانت معدود عند الله من الانبيـــاء فقام حينئذ ومعلوم ان ترك الفاحشة من هذا لا مدح فيه فان أفسق الناس لو رأى ذلك لولى هارباً وترك الفاحشة ومنهم من زعم ان المسيح كان من العلماء وانه كان يداوي المرضى بالادوية ويوهمهم ان الانتفاع انما حصل لهم بدعائه وانه داوى جماعة من المرضى يوم السبت فانكرت عليه اليهود ذلك فقال لهم اخبروني عن الشاة من الغنم ان وقعت في بئر أما تنزلون اليها وتحلون السبت لتخليصها قالوا بلى قال فلم احللتم السبت لتخليص الغنم ولا تحلونه لتخليص الانسان الذي هو اكبر حرمة من الغنم فأفحموا ويحكون ايضاً عنه انه كان مع قوم من تلاميذه في جبل ولم يحضرهم الطعام فأذن لهم في تناول الحشيش في يوم السبت فأنكرت عليـــه اليهود قطع الحشيش في يوم السبت فقال لهم أرأيتم لو ان احدكم كان وحيداً مع قوم غـــير ملته وأمرهم بقطع النبات والقائه لدوابهم لا يقصدون بذلك ابطال السبت أتجيزون له قطع النبات قالو بلى قال فإن هؤلاء القوم امرتهم بقطع النبات ليأكلوه وليغتذوا به لا لقطـــع السبت ومن العجب ان عندهم في التوراة التي بأيديهم لا يزول الملك من اليهود والراسم بين من ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح وهم لا يقدرون

أن يجحدوا ذلك فيقال لهم انكم كنتم أصحاب دولة حتى ظهر فيكم المسيح ثم انقضى ملككم ولم يبق لكم ملك وهذا برهان على ان المسيح قد ارسل ومن حين بعث المسيح وكفروا به وطلبوا قتله استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس وانقضت دولتهم وتفرق شملهم فيقال لهم ما تقولون في عيسى ابن مريم فيقولون ولد يوسف النجار لغية لا لرشدة وكان قد عرف اسم الله الاعظم يسخر به كثيراً من الاشياء وعند هذه الامة الغضبية أيضاً ان الله تعالى كان قد أطلع موسى على الاسم المركب من اثنين واربعين حرفاً وبه شق البحر وعمل المعجزات فيقال لهم: فاذا كان موسى قد عمل المعجزات بالاسم الاعظم فلم صدقتم نبوته وأقررتم بها وجحدتم نبوة عيسى وقد عمل المعجزات بالاسم الاعظم . فاجاب بعضهم عن هذا الالزام بان الله سبحانه هو الذي علم موسى ذلك الاسم فعلمه بالوحي وعيسى انما تعلمه من حيطان بيت المقدس وهذا هو الأليق ببهتهم وكذبهم على الله وانبيائه وهو يسد عليهم العلم لنبوة موسى لان كلا الرسولين اشتركا في المعجزات والآيات الظاهرة التي لا يقدر أحد على أن يأتي بمثلها فان كان أحدهما قد عملها بحيلة أو تعلم فالآخر يمكن ذلك في حقه وقد أخبرا جميعاً ان الله سبحانه هو أجرى ذلك على ايديهما وانه ليس من صنعهما الى ان قال: ولا يمكن البتة أن يؤمن يهودي بنبوة موسى ان لم يؤمن بنبوة محمد ولا يمكن نصرانياً أن يقر بنبوة المسيح إلا بعد إقراره بنبوة محمد وبيان ذلك أن يقال لهاتين الامتين : انتم لم تشاهدوا هذين الرسولين ولا شاهدتم آياتهما وبراهين نبوتهما فكيف يسع العاقل ان يكذب نبياً ذا دعوة سابقة وكلمة قائمة وآيات باهرة ويصدق من ليس مثله ولا قريباً منه في ذلك لانه لم ير أحد النبيين ولا شاهد معجزاته فاذا كذب بنبوة أحدهما لزمة التكذيب بنبوتهما وان صدق احدهما لزمه التصديق بنبوتهما فمن كفر بنبي واحد فقد كفر بالانبياء كلهم ولم ينفعه ايمانه به قال تعالى (ان الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله) الايتين وقال تعالى

(آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون) الآية فنقول للمغضوب عليه هل رأيت موسى وعاينت معجزاته فبالضرورة يقول لا فنقول بأي شيء عرفت نبوته وصدقه فله جوابان احدهما ان يقول ابي عرفني ذلك واخبرني به الثاني أن يقول التواتر وشهادات الامم حقق عندي ذلك كما حقق شهادتهم وجود البلاد النائية والبحار والانهار المعروفة وان لم اشاهدها فان اختار الجواب الاول قال ان شهادة أبي واخبـــاره إياي بنبوة موسى هي سبب تصديقي نبوته فيقال له ولم كان أبوك معصوماً عن الكذب صادقاً عندك في ذلك وأنت ترى الكفار يعلمهم اباؤهم ما هو كفر عندك فاذا كنت ترى الاديان الباطلة والمذاهب الفاسدة قد أخذها أربابها عن آبائهم كأخذك مذهبك عـــن أبيك وأنت تعلم ان الدين الذي هم عليه ضلال فلزمك ان تبحث عما أخذته عن أبيك خوفاً ان يكون هذه حاله فان قال الذي أخذته أصح من الذي أخذه الناس عن آبائهم كفاحاًمعارضة غيره له بمثل قوله فان قال أبي اصدق من ابائهم وأعرف وأفضل عارضه سائر الناس في ابائهم بنظير ذلك فان قال انا أعرف حال أبي ولا أعرف حال غيره قبل فما يؤمنك أن يكون غير أبيك أصدق من أبيك وأفضل وأعرف وبكل حال فان كان تقليد أبيه حجة صحيحة فان تقليد غيره لابيه كذلك وان كان ذلك باطلاً فان تقليده لابيه باطل فان رجع عن هذا الجواب واختار الجواب الثاني وقال انمـــا علمت نبوة موسى بالتواتر قرنا بعد قرن فإنهم أخبروا بظهوره ومعجزاته وآياته وبراهين نبوته التي تضطر إلى تصديقه فيقال له لا ينفعك هذا الجواب لإنك قد أبطلت مـــا شهد به التواتر من نبوة المسيح ومحمـــد ﷺ فإن قلت تواتر ظهور موسى ومعجزاته وآياته ولم يتواتر ذلك في المسيح ومحمد قيل هـــذا هو اللائق ببهت الأمة الغضبية فإن الامم جميعهم قد عرفوا انهم قوم بهت وإلا فمن المعلوم ان الناقلين لمعجزات المسيح ومحمد أضعاف اضعافكم بكثير والمعجزات التي شاهدها اوائلهم لا تنقص عن المعجزات التي اتى بها موسى وقدنقلها عنهم أهل التواتر

جيلا بعد جيل وقرنا بعـــد قرن وأنت لا تقبل خبر التواتر في ذلك وترده فيلزمك أن لا تقبله في أمر موسى ومن المعلوم بالضرورة أن من أثبت شيئاً ونفى نظيره فقد تناقض وإذا اشتهر النبي في عصره وصحت نبوته في ذلك العصر بالآيات التي ظهرت عليه لأهل عصره ووصل خبره إلى أهل عصر آخر وجب عليهم تصديقه والايمان به وموسى ومحمد والمسيح في هذا سواء ولعـل تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمـد لأن الأمة الغضبية قد مزقها الله كل مزق وقطعها في الأرض وسلبها ملكهـــا وعزها فلا عيش لها إلا تحت قهر سواها من الأمم لها بخلاف أمة عيسى فإنها قد انتشرت في الارض وفيهم الملوك ولهم الممالك واما الحنفاء فممالكهم قد قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها وملأوا الدنيا سهلا وجبلا فكيف يكون نقلهم لما نقلوه كذباً ونقل الأمة الغضبية الخاملة القليلة الذليلة صدقا فثبت انه لا يمكن يهوديا على وجه الأرض أن يصدق بنبوة موسى إلا بتصديقه وإقراره بنبوة محمد ولا يمكن نصرانياً البتة الايمان بالمسيح إلا بعد الايمـــان بمحمد ، ولا ينفع هاتين الامتين شهادة المسلمين بنبوة موسى والمسيح لأنهم انما آمنوا بهما على يد محمد وكان ايمانهم بهما من الايمان بمحمد وبما جاء به فلولاه ما عرفنا نبوتهما ولا آمنا بهما ولا سيما فإن امة الغضب والضلال ليس بأيديهم عن انبيائهم ما يوجب الايمان بهم فلولا القرآن ومحمد ما عرفنا شيئاً من آيات الانبيـــاء المتقدمين فمحمد وكتابه هو الذي قرر نبوة موسى ونبوة عيسى لا اليهود ولا النصارى بل كان نفس ظهوره ومجيئه تصديقاً لنبوتهما فانهما أخبرا به وبشرا بظهوره قبل ظهوره فلما بعث كان بعثه تصديقاً لهما وهـذا أحد المعنيين في قوله (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) أي مجيئه تصديق لهم من جهتين من جهة اخبارهم بمجيئه ومبعثه ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به ومطابقة ما جاءوا به فإن الرسول الاول إذا أتى بأمر لا يعلم إلا بالوحي ثم جـــاء نبي آخر لم يقارنه في الزمان ولا في المكان ولا تلقى عنه ما جاء به سواء دل ذلك على

صدق الرسولين الأول والآخر وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر احدهما بخبر عن اعيان ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته بحيث يعلم انه لم يجتمع به ولا تلقى عنه ولا عمن تلقى عنه فأخبر بما اخبر به الاول سواء فانه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني والمعنى الثاني انه لم يأت مكذباً لمن قبله من الانبياء مزريا عليهم كما يفعله الملوك المتغلبة على الناس بمن تقدمهم من الملوك بل جاء مصدقاً لهم شاهداً بنبوتهم ولو كان كاذباً متقولا منشئاً من عنده سياسته لم يصدق من قبله بل كان يزري بهم ويطعن عليهم كما يفعل أعداء الأنبياء.

﴿ فصل ﴾

وقد اختلفت أقوال الناس في التوراة التي بأيديهم ، هل هي مبدلة ، أم التبديل والتحريف وقع في التأويل دون التنزيل ، على ثلاثة أقوال طرفين ووسط ، فأفرطت طائفة وزعمت انها كلها او أكثرها مبدلة مغيّرة ليست التوراة التي أنزلها الله على موسى ، وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض ، وغلا بعضهم فجوّز الاستجمار بها من البول ، وقابلهم طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام فقالو : التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل وهذا مذهب البخاري ؛ قال في صحيحه : يحرفون يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب الله ولكنهم يحرفونه يتأوّلونه على غير تأويله . وهذا اختيار الرازي في تفسيره ، وسمعت شيخنا يقول : وقع النزاع في هذه المسألة بين بعض الفضلاء فاختار هذا المذهب ووهى غيره فأنكر عليه فأحضر لهم خمسة عشرة نقلا به ، ومن حجة هؤلاء ان التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها وانتشرت جنوبا وشمالاً ولا يعلم عدد نسخها إلا الله ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة مغيّرة والتغيير على منهاج واحد وهذا مما يحيله العقل ويشهد ببطلانه . قالوا : وقد قال الله لنبيه محتجاً على اليهود بها : (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) . قالوا : وقد اتفقوا على ترك فريضة

الرجم ولم يمكنهم تغييرها من التوراة ولهذا لما قرؤوها على النبي ﷺ وضع القارىء يده على آية الرجم ، فقال عبد الله بن سلام : إرفع يدك عن آية الرجم ، فرفعها فاذا هي تلوح تحتها ، فلو كانوا قد بدلوا ألفاظ التوراة لكان هذا من أهم ما يبدلونه ، قالوا : وكذلك صفات النبي ﷺ ومخرجه هو في التوراة بيّن ولم يمكنهم إزالته وتغييره وإنما ذمهم الله بكتمانه وكانوا إذا احتج عليهم بما في التوراة من نعته وصفته يقولون : ليس هو ونحن ننتظره .

قالوا : وقد روى أبو داود في سننه عن ابن عمر قال : أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف فأتاهم في بيت المدراس فقالوا : يا أبا القاسم ان رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم ، فوضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ثم قال : « ائتوني بالتوراة » فأتي بها ، فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ثم قال : « آمنتُ بكِ وبمن أنزلك » ثم قال :« أئتوني بأعلمكم» فأتي بفتى شاب ثم ذكر قصة الرجم . قالوا : فلو كانت مبدلة مغيرة لم يضعها على الوسادة ولم يقل آمنت بك . قالوا : وقد قال الله تعالى : (وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته) والتوراة من كلماته ، قالوا : والآثار التي في كتاب اليهود من صفة النبي ﷺ في التوراة ومنعهم أولادهم وعوامهم الاطلاع عليها مشهورة ، ومن اطلع عليها منهم قالوا له : ليس به ، فهذا بعض ما احتجت به هذه الفرقة . وتوسطت طائفة ثالثة وقالوا : زِيدَ وَغُيِّرَ ألفاظ يسيرة ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه والتبديل في يسير منها جداً ، وممن اختار هذا القول شيخنا في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » قال : وهذا كما في التوراة عندهم ان الله سبحانه قال لإبراهيم : إذبح ابنك بكرك ووحيدك إسحق ، فإسحق زيادة منهم في لفظ التوراة ، قلت : وهي باطلة قطعاً من عشرة وجوه ، احدها : ان بكره ووحيده هو إسماعيل باتفاق الملل الثلاث ، فالجمع بين كونه مأمور بذبح بكره وتعيينه باسحق جمع بين النقيضين الثاني :أن الله سبحانه امر ابراهيم ان ينقل

هاجر وابنها اسماعيل عن سارة ويسكنها في برية مكة لئلا تغير سارة فامره بابعاد السرية وولدها عنها حفظاً لقلبها ودفعاً لأذى الغيرة عنها فكيف يأمر سبحانه بعد هذا بذبح ابن سارة وإبقاء ابن السرية فهذا مما لا تقتضيه الحكمة الثالث ان قصة الذبح كانت بمكة قطعاً ولهذا جعل الله ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكيراً للامة بما كان من قصة أبيهم ابراهيم مع ولده الرابع ان الله سبحانه بشر سارة ام اسحق باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فبشرها بهما جميعاً فكيف يأمر بعد ذلك بذبح اسحق وقد بشر أبويه بولد ولده الخامس ان الله لما ذكر قصة الذبح وتسليمه نفسه لله واقدام ابراهيم على ذبحه وفرغ من قصته قال بعدها (وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين) فشكر الله له استسلامه لامره وبذل ولده له وجعل من اثابته على ذلك ان آتاه اسحق ونجى اسماعيل من الذبح وزاد عليه اسحق السادس ان ابراهيم سأل ربه الولد فاجاب دعاه وبشره به فلما بلغ معه السعي أمر بذبحه قال تعالى(وقال اني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم) فهذا دليل على ان هذا الولد إنما بشر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهبه ولداً وهذا المبشر به هو المأمور بذبحه قطعاً بنص القرآن وأما اسحق فإنه بشر به من غيره دعوة منه بل على كبر السن وكون مثله لا يولد له وانما كانت البشارة لامرأته سارة ولهذا تعجبت من حصول الولد منها ومنه قال تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى -إلى قوله-: يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب قالوا اتعجبين من أمر الله)فتأمل سياق هذه البشارة وتلك تجدهما بشارتين الأولى هي التي أمر بذبح من بشر به فيها دون الثانية السابع أن ابراهيم لم يقدم باسحق الى مكة البتة ولم يفرق بينه وبين أمه وكيف يأمره الله ان يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضرتها وفي بلدها ويدع ابن ضرتها الثامن ان الله لما اتخذ ابرهيم خليلا والخلة تتضمن ان يكون قلبه كله متعلقاً بربه وليس فيه سعة لغيره فلما سأله الولد وهبه اسماعيل فتعلق به شعبة من قلبه فاراد

خليله سبحانه ان تكون تلك الشعبة له ليس لغيره فامتحنه بذبح ولده فلما أقدم على الامتثال خلصت له تلك الخلة وتمحضت لله تعالى وحده فنسخ الأمر بذبحه لحصول المقصود وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال ومعلوم ان هذا انما يكون في اول الاولاد لا في اخرهم فلما حصل هـــذا المقصود من الولد الاول لم يحتج في الولد الآخر إلى مثله فانه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لأمر بذبحه كما أمر بذبح الأول فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لـكان قد أقره في الأول على مزاحمة الخلة به مدة طويلة ثم أمره بمـا يزيل المزاحم بعد ذلك وهذا خلاف مقتضى الحكمة فتأمله التاسع ان ابراهيم انمـــا زرق اسحاق على الكبر واسماعيل رزقه في عنفوانه وقوته والعـادة أن القلب أعلق بأول الاولاد وهو اليه أميل وله أحب بخلاف من يرزقه على الكبر ومحل الولد بعـد الكبر كمحل الشهوة للمرأة العاشر ان النبي ﷺ كان يفتخر بقوله : « انا ابن الذبيحين » يعني اباه عبـد الله وجده اسماعيل والمقصود أن هذا اللفظة ممـا زادوها في التوراة ونحن نذكر السبب الموجب لتغيير ما غير منها والحق أحق ما اتبع فلا نغلو غلو المستهينين بها المستجمرين بها بل معاذ الله من ذلك ولا نقول انها باقية كما انزلت من كل وجه كالقرآن فنقول وبالله التوفيق علماء اليهود وأحبارهم يعتقدون ان هذه التوراة التي بأيديهم هي التي انزلها الله على موسى بن عمران بعينها لأن موسى صان التوراة عن بني اسرائيل خوفاً من اختلافهم من بعده في تأويلها المؤدي إلى تفريقهم احزاباً وانما سلمها إلىعشيرته اولاد ليوي ودليل ذلك قوله فيالتوراة وكتب موسى هذه التوراة ودفعها إلى بني اسرائيل لائمة بني ليوي وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم لأن الامامة وخدمة القرابين وبيت المقـــدس كانت موقوفة عليهم ولم يبذل موسى التوراة لبني اسرائيل إلا نصف سورة وهيالتي قال فيها وكتب موسىهذه السورة وعلمها بنياسرائيلوفيها:لاتنسى من افواه اولادهم وهذه السورة مشتملة على ذمطبائعهم وانهم سيخالفونشرائع

التوراة وان السخط يأتيهم بعد ذلك وتخرب ديارهم ويسبون في البلاد فهذه السورة تكون متداولة في افواههم كالشاهد عليهم الموقف لهم على صحة ما قيل لهم فلما نصت التوراة ان هذه السورة لا تنسى من افواه اولادهم دل ذلك على ان غيرها من السور ليس كذلك وانه يجوز ان ينسى من افواههم وهذا يدل على ان موسى لم يعط بني اسرائيل من التوراة إلا هذه السورة فاما بقيتها فدفعها إلى اولاد هارون وجعلها فيهم وصانها عن سواهم وهؤلاء الائمة الهارونيون الذي كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها قتلهم بخت نصر على دم واحد يوم فتح بيت المقدس ولم يكن حفظ التوراة فرضاً عليهم ولا سنة بل كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلا من التوراة فلما رأى عزير أن القوم قد احرق هيكلهم وزالت دولتهم وتفرق جمعهم ورفع كتابهم جمع من محفوظاته ومن الفصول التي تحفظها الكهنة ما اجتمعت منه هذه التوراة التي بأيديهم ولذلك بالغوا في تعظيم عزير هذا غاية المبالغة وزعموا أن النور الآن يظهر على قبره وهو عند بطائح العراق لأنه جمع لهم ما يحفظ دينهم وغلا بعضهم فيه حتى قالوا هو ابن الله ولذلك نسب الله تعالى ذلك إلى اليهود إلى جنسهم لا إلى واحد منهم فهذه التوراة التي بأيديهم في الحقيقة كتاب عزير وفيها كثير من التوراة التي انزل الله على موسى ثم تداولتها أمة قد مزقها الله كل ممزق وشتت شملها فلحقها ثلاثة امور احدها بعض الزيادة والنقصان والثاني اختلاف الترجمة والثالث اختلاف التأويل والتفسير ونحن نذكر من ذلك امثلة تبين حقيقة الحال . المثال الأول ما تقدم من قوله : ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوه وللكلب القوه وتقدم بيان تحريفهم هذا النص وحمله على غير محله الثاني قوله في التوراة: نبياً اقيم لهم من وسط اخوتهم مثلك به فليؤمنوا فحرفوا تأويله إذ لم يمكنهم ان يبدلوا تنزيله وقالوا هذا بشارة نبي من بني اسرائيل وهذا باطل من وجوه احدها انه لو اراد ذلك لقال من انفسهم كما في حق محمد ﷺ قال (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم)

وقال (لقد جاءكم رسول الله من انفسكم) ولم يقل من اخوتكم . الثاني ان المعهود في التوراة ان اخوتهم غير بني اسرائيل ففي الجزء الاول من السفر الخامس قوله لهم : انتم عابرون في تخوم اخوتكم بني العيص المقدس في سيعير وإياكم أن تطمعوا في شيء من أرضهم ، فإذا كان بنو العيص إخوة لبني إسرائيل لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحق والروم هم بنو العيص واليهود هم بنو إسرائيل وهم اخوتهم ، فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم . الثالث :ان هذه البشارة لو كانت بشمويل أو غيره من بني إسرائيل لم يصح أن يقال بنو إسرائيل اخوة بني إسرائيل وإنما المفهوم من هذا ان بني إسماعيل أو بني العيص اخوة بني إسرائيل . الرابع : انه قال : أقيم لهم نبياً أقيم لهم مثلك ، وفي موضع آخر : أنزل عليهم توراة مثل توراة موسى ومعلوم ان شمويل وغيره من أنبياء بني إسرائيل لم يكن منهم مثل موسى لا سيما وفي التوراة:لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى وأيضاً فليس في بني إسرائيل من أنزل عليه توراة مثل توراة موسى إلا محمد ، والمسيح كان من نفس بني إسرائيل لا من اخوتهم بخلاف محمد ﷺ فانه من اخوتهم بني إسماعيل وأيضاً فإن في بعض ألفاظ هذا النص : كلكم له تسمعون. وشمويل لم يأت بزيادة ولا نسخ لأنه إنما أرسل ليقوي أيديهم على أهل فلسطين ويردهم إلى شرع التوراة ، فلم يأت بشريعة جديدة وإنما حكمه حكم سائر أنبياء بني إسرائيل فإنهم كانوا يسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي قام فيهم نبي ، فإن كانت هذه البشارة بشمويل فهي بشارة بسائر الذين بعثوا فيهم ويكونون كلهم مثل موسى وكلهم قد أنزل عليه كتاب مثل كتاب موسى . المثال الثالث : قوله في التوراة : جاء الله من طور سيناء وأشرق نوره من سيعير واستعلن من جبال فاران ومعه ربوات المقدسين ، وهم يعلمون ان جبل سيعير جبل السراة الذي يسكنه بنو العيص الذين آمنوا بعيسى ، ويعلمون ان في هذا كان مقام المسيح ، ويعلمون ان سينا هو جبل الطور ، وأما جبال فاران فهم

يحملونها على جبال الشام وهذا من بهتهم وتحريف التأويل ، فإن جبال فاران هي جبال مكة ، وفاران اسم من اسماء مكة ، وقـــد دل على ذلك نص التوراة ان اسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران ، ولفظ التوراة ان إسماعيل أقام في برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر فثبت بنص التوراة ان جبال فاران مسكن لولد اسماعيل ، وإذا كانت التوراةقد أشارت إلى نبوة تنزل على جبل فاران لزم انها تنزل على ولد إسماعيل لأنهم سكانها ، ومن المعلوم بالضرورة انها لم تنزل على غير محمد من ولد إسماعيـــل وهذا من أظهر الأمور بحمد الله .

﴿ فصل ﴾

ومما يدل على غلظ أفهام هذه الأمة الغضبية وقـــلة فقههم وفساد رأيهم وعقولهم كما قد جاء في التوراة انهم شعب عادمو الرأي وليس فيهم فطانـة انهم سمعوا في التوراة: بكون ثمار أرضك تحمل إلى بيت الله ربك ولا ينضج الجدي بلبن أمه . والمراد من ذلك انهم أمروا عقيب افتراض الحج إلى بيت المقدس عليهم أن يستصحبوا معهم إذا حجوا أبكار أغنامهم وأبكار مستغلات أرضهملأنه كانفرض عليهم قبل ذلك أن تبقى سخولة البقر والغنم وراء أمها سبعة أيام وفي اليوم الثامن فصاعداً يصلح أن تكون قربانا فأشار بهذا النصفي قوله: لا ينضج الجدي بلبن أمهإلى انهم لا يبالغون فيإطالةمكث باكورةأولاد البقر والغنم وراء أمهاتها بل يستصحبون أبكارهن اللاتي قد عبرت سبعة أيام منذ ميلادهن معهم إذا حجوا الى البيت المقدس ليتخذوا منها القرابين فتوهم البُلْهُ ان الشرع يريـــد بالانضاج انضاج الطبـخ في القدور، وأنهم نهوا ان يطبخوا لحم الجدي باللبن ولم يكفهم هذا الغلط حتى حرموا سائر اللحمان باللبن فالغوا لفظ الجدي والغوا لفظ حليب امه وحملوا النص على ما لا يحتمله وإذا أرادوا ان يأكلوا اللحم واللبن أكلوا كلا منهما على حدة، والامر في نحو هذا قريب .

﴿ فصل ﴾

ولا يستبعد اصطلاح كافة هذه الأمة على المحال واتفاقهم على أنواع الضلال فإن الدولة إذا انقرضت عن امة باستيلاء غيرها عليها واخذها بلادها انطمست معالم دينها واندرست آثارها فإن الدولة إنما يكون زوالها بتتابع الغارات والمصافات واخراب البلاد واحراقها ولا تزل هذه الأمور متواترة عليها الى ان يعود علمها جهلا وعزها ذلا وكثرها قلا. وكلما كانت الامة اقدم واختلفت عليها الدول المتناولة لها بالذل والصغار كان حظها من اندراس معالم دينها وآثارها اوفر، وهذه الأمة اوفر الامم حظاً من هذا الامر لانها من اقدم الامم ولكثرة الامم التي استولت عليها من الكلدانيين والبابليين والفرس واليونان والنصارى وآخر ذلك المسلمون وما من هذه الامم الا من طلب استئصالهم وبالغ في احراق بلادهم وكتبهم وقطع آثارهم الا المسلمين فانهم اعدل الأمم فيهم وفي غيرهم حفظاً لوصية الله لهم حيث يقول: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) وصادف الاسلام هذه الأمة تحت ذمة الفرس وذمة النصارى بحيث لم يبق لهم مدينة ولا جيش واعز ما صادفه الاسلام يهود خيبر والمدينة وما جاورها فانهم إنما قصدوا تلك الناحية لما كانوا وعدوا به من ظهور رسول الله ﷺ وكانوا يقاتلون المشركين من العرب فيستنصرون عليهم بالإيمان برسوله قبل ظهوره ويعدونهم بانه سيخرج نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما بعث الله نبيه سبقهم اليه من كان يحاربونه من العرب فحملهم الحسد والبغي على الكفر به وتكذيبه. واشد على هذه الأمة ما نالهم من ملوكهم العصاة وغيرهم من ملوك الاسرائيليين الذين قتلوا الأنبياء وبالغوا في تطلبهم وعبدوا الاصنام واحضروا من البلاد سدنتها ليعلموا رسومها في العبادة وبنوا لها البيع والهياكل وعكفوا على عبادتها وتركوا احكام التوراة اعصارا متصلة فإذا كان هذا تواتر الآفات على دينهم من قبل ملوكهم فما الظن بالآفات التي نالتهم من غير ملوكهم

واحراقهم كتبهم ومنعهم من القيام بدينهم ،فان الفرس كثيرا مـا منعوهم من الختان وكثيراً ما منعوهم من الصلاة لمعرفتهم بان معظم صلاة هذه الطائفة دعاء على الأمم بالبوار وعلى العالم بالخراب فلما رأت هذه الأمة الجد من الفرس في منعهم من الصلاة اخترعوا ادعية سموها الحزانة وصاغوا لها ألحانا وصاروا يجتمعون في أوقات صلواتهم على تلحينها وتلاوتها وسموا القائم بها الحزان والفرق بينها وبين الصلاة أن الصلاة بغير لحن والمصلي يتلو في الصلاة وحده ولا يجهر معه غيره والحزان يشاركه غيره في الجهر بالحزانة ويعاونونه في الالحان فكانت الفرس إذا انكرت ذلك منهم قالوا انا نغني احيانا وننوح على أنفسنا فيتركونهم فلما قام الاسلام واقرهم على صلواتهم استصحبوا تلك ولم يعطلوها .

فهذه فصول مختصرة في كيد الشيطان وتلاعبه بهذه الأمة يعرف بها المسلم الحنيفي قدر نعمة الله عليه وما من به عليـه من العلم والايمان ويهتدي بها من أراد الله هدايته من طالبي الحق من هذه الامة وبالله التوفيق .

فرغ من نسخه في شهر ربيع الثاني ١٢٣٥ هـ .
ونقل من خط المؤلف بقلم الناشر وأحد ابنائه
وفرغ منه في ١٣٩١/٩/٢٠ هـ . رحم الله الجميع .
وجرت مقابلته على الأصل المطبوع بمصر سنة ١٣٢٠ هـ
في المطبعة الميمنية ، وكملت طباعته في شهر جمادى
الآخرة سنة ١٣٩٢ هـ (يونيو سنة ١٩٧٢ م) .

جميع الحقوق لعبد المحسن بن عثمان أبا بطين

فهرس الكتاب

	صفحة
ترجمة الشيخ عبدالله أبا بطين	٥
مقدمة الكتاب	٩
الباب الأول : أقسام القلوب	١٢
القلب الحيّ	١٢
القلب الميت	١٣
قلب له حياة وبه علة	١٤
الباب الثاني : ذكر مرض القلب	١٧
مرض القلب يذهب إدراكه أو يضعفه	١٩
الباب الثالث : أدوية امراض القلب	٢١
حياة القلب سبب كل خير وموته سبب كل شر	٢٢
حياة القلب ادراكه للحق	٢٦
سعادة القلب ولذته في محبة الله وعبادته	٢٨
القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه	٤٥
زكاة القلب وصلاحه	٤٨
غض البصر	٤٩
قوة القلب وشجاعته	٥٠

طهارة القلب ٥٣
الأعمال النجسة كالشرك والزنا ٥٩
نجاسة الذنوب والمعاصي ٦٣
علاج مرض القلب وصحته ٦٧
علاج القلب من استيلاء النفس عليه ٧٣
أقسام النفوس ٧٥
النفس اللوامة ٧٦
محاسبة النفس نوعان ٨٠
في محاسبة النفس عدة مصالح ٨٣
علاج مرض القلب بالشيطان ٨٨
القرآن ارشد الى دفع اعداء القلوب ٩٥
مكايد الشيطان ٩٨
منها أنه يورده موارد العطب ثم يتخلى عنه ١٠٣
ومنها أنه يخوف المؤمنين من جنده ١٠٥
كيده للأبوين ١٠٦
مشامته للنفس ليعرف حالتها ١١٠
من مكايده الكلام الباطل والآراء الفاسدة ١١٣
ومنها القاؤه على الالسنة ١١٣
ومنها شطحات جهال الصوفية ١١٣
ومنها الدعوة إلى الآثام والفجور ١١٤
ومنها الأمر باعزاز النفس ١١٥
ومنها الامر بالانقطاع عن الناس ١١٥
ومنها الاغراء بتقبيل اليد ١١٦
ومنها تحسين العمل بالهواجس دون الشرع ١١٧
ومنها الأمر بلزوم زي واحد وهيئة معينة ١١٩

ومنها الوسواس ١٢٠
طاعة الموسوسين للشيطان ١٢٦
الوسوسة في النيّة ١٢٨
« في الأسراف في الوضوء والغسل ١٣١
« عند البول ١٣٤
« في التشدد بما سهله الدين ١٣٥
حكم الخف والحذاء إذا أصابتهما النجاسة ١٣٦
« ذيل المرأة ١٣٧
« الصلاة في النعال ١٣٧
« الصلاة في أي مكان ١٣٧
ما هو معفو عنه من النجاسات ١٣٩
الوسوسة في مخارج الحروف ١٤٦
في الجواب عما احتج به أهل الوسواس ١٤٨
من حلف بالطلاق ١٥٠
من ترك صلاة من يوم ١٥١
من مكايد الشيطان الفتنة بالقبور ١٥٣
اتخاذ القبور عيداً ١٥٩
ما في اتخاذ القبور اعياداً من المفاسد ١٦٢
من مكايده ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام ١٧٣
النهي عن اتخاذ القبور أوثانا تعبد ١٧٨
الفوق بين زيارة الموحدين وزيارة المشركين ١٨٢
من مكايده السماع المحرم ١٨٨
مذهب الامام أحمد في الغناء ١٩٣
من جعل الغناء ديناً فهو مخالف لجماعة المسلمين ١٩٣
السماع الشيطاني واسماؤه ٢٠٠

اللهو	٢٠٠
الزور واللغو	٢٠٣
الباطل	٢٠٤
المكاء والتصدية	٢٠٥
رقية الزنا	٢٠٦
منبت النّفاق	٢٠٨
قرآن الشيطان	٢١٠
الصوت الأحمق والفاجر	٢١٣
صوت الشيطان	٢١٤
مزمور الشيطان والسمود	٢١٥
حكم آلات اللهو والمعازف	٢١٦
من مكايد الشيطان التحليل	٢٢٣
الآثار الواردة في تحريم التحليل	٢٢٦
ايقاع الطلاق على غير الوجه المشروع	٢٣٢
الطلاق المشروع وحكم الثلاث	٢٣٤
الأحاديث الواردة في الثلاث	٢٥٦
من مكايد الشيطان الحيل والمكر والخداع	٢٧٤
باب الحيل المحرمة	٢٨٠
الشريعة أتت بسدّ الذرائع إلى المحرمات	٢٨٤
الأدلة على بطلان الحيل	٢٨٩
الحيل التي تخلص من الظلم والحيل لأستباحة الحرام	٣١٠
من مكايد الشيطان الفتنة بعشق الصور	٣١٢
كل حركة في العالم سببها المحبة	٣١٣
المحبة المحمودة	٣١٩
كل حيّ له ارادة وعمل بحسبه	٣٢١

الناصح لنفسه لا يؤثر محبة ما يضره	٣٢٢
العبد بحاجة إلى معرفة ما يضره ليجتنبه	٣٢٣
من انواع المحبة النافعة	٣٢٥
أصل الفواحش المحبة لغير الله	٣٢٩
الفتنة بعشق الصور تنافي الاخلاص	٣٣١
فتنة الشبهات وفتنة الشهوات	٣٣٥
حصول الهدى والرحمة باجتناب الفتنتين	٣٣٧
الضلال والغضب هما ضدّ الهدى والرحمة	٣٤٣
كل حيٍّ يعمل لما فيه تنعمه ولذته	٣٤٤
الله سبحانه قد ضمن نصر دينه وحزبه	٣٤٨
غلط كثير من الناس بعدم الثقة بالنصر	٣٥٠
ما يصيب المؤمنين من المحن والأذى	٣٥٢
محبة الله هي أصل الدين	٣٥٩
كيد الشيطان لنفسه	٣٦٠
كيده للأبوين	٣٦٢
كيده لولدي آدم	٣٦٣
كيده في تغيير الدين	٣٦٤
حدوث عبادة الأصنام وسببها	٣٦٥
أسباب تلاعب الشيطان بالمشركين	٣٧٢
من كيده اتخاذ النار آلهة معبودة	٣٧٩
من كيده اتخاذ الماء إلها معبوداً	٣٨٠
من كيده اتخاذ الحيوانات آلهة تعبد	٣٨١
من كيده اتخاذ الملائكة آلهة تعبد	٣٨٢
من كيده تلاعبه بالثنوية القائلين بالوهية النور والظلمة	٣٨٧
من كيده تلاعبه بالدهرية المنكرين للخالق	٣٩٠

تلاعب الشيطان بالأمة الغضبية (اليهود)	٤٠١
تلاعب الشيطان بها في عبادة العجل	٤٠٢
تلاعب الشيطان بها بطلبهم رؤية الله جهرة	٤٠٥
تلاعب الشيطان بها بامتناعهم عن قول (حطة)	٤٠٨
تلاعب الشيطان بها حينما طلبوا الثوم والبصل	٤٠٨
تلاعب الشيطان بها بعدم قبولهم للتوراة	٤٠٩
تلاعب الشيطان بها برفضهم دخول القرية	٤١٠
تلاعب الشيطان بها تعنتهم عند ذبح البقرة	٤١١
تلاعب الشيطان بها في قصة أصحاب السبت	٤١٣
تلاعب الشيطان بها أكل الحرام	٤١٤
انكار اليهود للنسخ	٤١٩
ايذاء اليهود وقدحهم في الانبياء	٤٢٠
القول في تحريف التوراة ، وتبديلها	٤٢٧
غلظ أفهام اليهود وفساد عقولهم	٤٣٣
اتفاق اليهود على أنواع الضلال	٤٣٤

الأخطاء المطبعية

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٧	صلح	صلحت
٩٩	٢١	باليمن	باليمين
١٧٧	١٦	حدثتي	حدثني
١٢٠	٢	وهدية	وهديه
١٢٠	٣	يعيد	بعيد
١٢١	١	حشى	حتى
١٥٧	٢	الذريعة	لذريعة
١٥٧	٧	لمن	من
٢٠٥	٤	المكا	المكاء
٢١٧	٩	حزم	جزم
٢٢١	١٨	الحدير	الحرير
٢٤٢	٢٢	وابى بكراً	وأبي بكر
٢٧٠	١٤	وعزز	وعزر
٢٨٣	١	ونظاير	ونظائر
٢٨٦	٨	الهبهة	الهبة
٢٨٦	١٢	وطؤ	وطء

٣٠٠	٨	الداقطني	الدارقطني
٣١٦	١٦	يرزكم	يرزقكم
٣١٧	٢١	وإما	وأما
٣١٨	١٣	وربا	طربا
٣٣٢	١٣	بامرانه	بامرأته
٣٣٦	١٥	الشبات	الشبهات
٣٧٨	١٩	المحلوق	المخلوق